الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي الونشريسي - تيسمسيلت -

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل. م. د)

تخصص: الأدب العربي القديم ونقده

موسومة بـ:

النقد الأدبي المغربي القديم
في القرنين الرابع والخامس الهجريين
- دراسة في رؤى النقاد المحدثين -

إعداد الطالب:
محمّد ساكو

إشراف الدكتور:
محمود رزايقية

أعضاء لجنة المناقشة

1- د. دردار بشير	المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت	رئيسا
2- د. رزايقية محمود	المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت	مشرفا ومقررا
3- ا/د. زروقي عبد القادر	جامعة ابن خلدون تيارت	مناقشا
4- ا/د داود محمّد	جامعة ابن خلدون تيارت	مناقشا
5- د. مرسي رشيد	المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت	مناقشا
6- د. قردان ميلود	المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت	مناقشا

السنة الجامعية

1440/1439هـ - 2019/2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

ـ إلـى الـرّجـــل الـــذي أديـــــنُ لـه بـالـوجُـــود، ولا يـــــزال

فضـــلُه علـيّ

ممْـــــــــدُود

بِـفـضْـــــلـه عرفتُ

معنــــى الـحَيـــــاة

وبـتـــــوجيـــهَاتـــــه قـــــدَّرت

الـعِـلــــم وقـــدَّســـــــــتُه

ولا أزال أطلبُـــــه حتَّـــى

أوسَّـــــــــد في الـتـُّـراب

دفـيـنـــــــــــــــــــــًا .

* والـــــــدي ؛ رحمـــــــه الله *

شكر و تقدير

لا يسعُني بعد الانتهاء من هذا العمل، إلاّ أن أتقدَّم بجميل الشكر وجزيل الامتنان إلى الأستاذ الفاضل **محمود رزايقية** والذي قبل مشكوراً الإشراف على هذه الأطروحة، وأسداني من دُرر أفكاره ونصائحه ما جعل هذا العمل يخرج بهذه الصُّورة المطلوبة .

كما لا يفوتني أن أشكُر مُخلصاً بقيَّةً من رجال جمعتنا بهم مائدةُ العلم، إنهم أساتذة ديدنهم العلم وسبيلهم المعرفة، وأخصُّ بالذكر: د/رشيد مرسي ، أ د/عيساني ، د/تواتي ، د/ فتح الله ، د/ فايد ، د/ دردار ، أ د/بن علي، دون أن أنسى أن أشكر زملائي في الدُّفعة وأخصُّ منهم: الأستاذ محمد بن طاطة ، والأستاذ عبد القادر كباس .

- لهؤلاء جميعا كل التحيَّة والتقدير -

مقدمة

مقدّمـــة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى وبعد:

لاشك أنَّ القارئ للمدونة النقدية العربية القديمة يقف حتماً على كثير من الآراء والأفكار التي ساهم بها النُّقاد والأدباء القدامى من أبناء المغرب العربي، وربما سيتملَّكُهُ العجبُ وهو يقرأ لعديد الأسماء التي تركت بصمتها، وشكَّلت الاستثناء خاصة في فضاءِ النقد الأدبي، ومع ذلك فإننا نلمسُ مواقف كثيرة وحالات عديدة ظُلِمَ فيها الإبداعُ والمبدعون المغَاربة، الأمر الذي جعل العلماء والأعلام المغاربة يغيظُهم هذا النكران، ويسوؤُهم ذلك التَّغاضي والتَّجاهل .

والأعجب من ذلك أنَّ إخوانهم المشارقة ما فتِئُوا يتباهَوْن بعظمة التفوُّق الذي يتظاهرون به حيال كل ما هو آت من الغرب الإسلامي منذ الزمن البعيد، أو ليس نقرأ بين دفَّات الكتب وقد ركبت أحد الأعلام المشارقة زهوته، وفي غمرة الإعجاب وهو يقرأ كتابا استهواهُ وملك عليه لبَّه، إلا أنه وبمجرَّد سماعه أن صاحبه من المغرب حتى نكص وارتّد وقال: **هذه بضاعتنا ردّت إلينا** ـ وإنّ المطّلع على مثل هذه الآراء ستثُور قَريحته وتدعوه همَّته –خاصة إن كان من أبناء هذا الإقليم– إلى البحث والتفتيش في حقيقة الإبداع المغربي؛ ماله وما عليه؟ وما هو المحلُّ الإعرابي للنقاد والمبدعين المغاربة؟ وهل هم مرفوعون بهاماتهم الإبداعية، أم أنهم مجرورون بالتّبعية المشرقية؟

أجل، لقد شكّلت لديّ هذه المقاربة الهاجس الذي شغل تفكيري كثيرا، وكانت الحافز الذي دفعني إلى الاشتغال في هذا الاتجاه، والبحث عن الإسهامات النقدية والأدبية المغربية القديمة، وما برح هذا الأمل يختمر في ذاكرتي ويقوى في ذهني إلى أن رأيت الفرصة سانحة والأسباب مُيسّرة لإخراج هذه الأفكار المحشيَّة بين دفائِن الكُتب، فتوطَّدت علاقتي بهذا العمل، وسارَعْتُ الخُطى قي سبيل تحقيق هذا الطُّموح .

لذلك رأيت من الضروري، بعد أن تفتّحت أمامي أبواب البحث، أن أشتغل في هذا الميدان، عن طريق الرصد لما حوته كتب التراث، وما توقفت عنده دراسات المعاصرين، لأجمع من ذلك الشتات ما يمكن أن يعبرّ عن نقد وإبداع مغربي أصيل ومتجذِّرٌ بمادته وأعلامه، فجاء هذا البحثُ وكانت منِّي هذه الالتفاتة، ورُمْتُ التّصدي لجمع صحائف تضم بين دفتيْها مُنتخبات أفكارهم وعُصارة جهودهم .

وينتظم ذلك كله في دراسة مُوسَّعة عن ماهية وحقيقة النقد الأدبي المغربي القديم، وأهم القضايا النقدية التي اشتغل عليها نقَّادُ هذا الإقليم من الوطن العربي الكبير، مع استعراض لأهم المقاربات والمقارنات التي ظلت تُشكّل السّجال والتفاعل الثقافي بين النقاد المشارقة ونظرائهم المغاربة .

وأعتبر عملي هذا – أو هكذا خُيّل إليّ– أنّي خرجت عن المألوف أو مارست نوعا من الانزياح وأنا أكتب في الأدب والنقد المغربي القديم، اعتبارا لما تعوّده الناس واعتاده أكثر الباحثين لـمَّا نجدهم وقد اصْطبغت في أذهانهم، واستقـر في نفوسهم النظر فقط إلى الإنتاج الأدبي الآتي من المشرق حتى استساغوا البحث في التراث النقدي المشرقي، الأمر الذي جعل الإنتـاج فيه مهُولاً والتأليف فيه كثيرٌ، فيما لم يلتفت الدارسون –حتّى من الأبناء– للتراث النقدي الأدبي ببلاد المغرب إلاَّ يسيرا، ما ولَّد شُحّا ونقصا ملحوظا في هـذا الحقل المعرفي، وذلك ما عبّر عنه غيرُ واحدٍ من الباحثين حينما نجدهم يؤكِّدون بأن البحث في النقد المغربي لا يزال في بداياته، وأنَّ المكتبة العربية تُعاني فراغا في طبيعـة وجود المصنّفات النقدية التي مارست إسقاطاتها على التراث النقدي المغربي القديم .

وظلَّ بذلك الأدبُ والنَّقدُ في البلاد المغربية أسير النسيـان لا يعتدّ به ولا يُؤبهُ له، ولولا جَسارة وحيويَّة بعض الكتاب والمؤرخين المغاربة الذين حملوا على عواتقهم عملية التجلية لهذه الجهود المغربية لظل الدارسون مجبرون على قراءة الأدب والنقد المشرقي، دونما اطِّلاع على الإضافات الجليلة التي أسهم بها المغاربة القدامى، يقول محمد مرتاض في كتابه (النقد الأدبي في المغرب العربي ـ النشأة والتطور ـ ص:28): "إنّ البحث في التراث النقدي بالمغرب العـربي ليس بالمهمـة السهلة، لأنَّ الذين سبقونا لم يَنيطوا أنفسهم بهذه الرسالـة، فلم نجد لهـذا النقـد من المشـارقة فـي دراساتهـم العديدة وعجز المغـاربـة أن يقوموا بحصر وجمع أو استنباط ما تركـه الأسلاف، فجـاء الجيـل الجـديـد لِيَلقـى فراغـا مهـولاً يُنـذر بيـأس من العثـور على مُصنَّفات أو نماذج في هذا المضْمار" .

لهـذا وذاك بـرزت هذه الفكرة بعد أن كانت مجرد خـاطرة، فلملمتُ شتـات جهدي لأقدم هذا البحث ، علّـه يكون إضافة جديدة للمنجز النقدي المغربي .

وفي هذا الإطار تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ : **النقد الأدبي المغربي القديم في القرنين الرابع والخامس الهجريين – دراسة في رؤى النقاد المحدثين–** ، ويظهـر من خلال العنوان اتجـاه البحث ومقصده، والـذي سيُلقـي بظـلالـه على القـراءة المتأنِّيـة للنقـد المغربـي القـديـم

وموقـف النقـاد مـن القـطريـن ـ المشرق والمغرب ـ حَيـــاله، مع البحث والتوسُّع أكثر في فهم موقف المشارقة، وذلك بالوقوف على مدى الإِحْجام أو الاهتمَام لديهم اتجـاه هـذا التراث النقـدي، ومُناقشة وُجهـــات النظر المختلفة، ومقارنتها انطلاقا من الدراسة التي رجَّحت هذا الرأي أو ذاك .

1 ـ دوافع اختيار البحث:

إنَّ الاشتغال على المدوّنة النقدية المغربية القديمة يشكو من قّلة الزاد، وعدَمَ توفُّر المحصول الكافي من الدراسات العلمية المحكّمة، وبذلك جاءت أهمية دراسة هذا الموضوع انطلاقا من قناعات ذاتية ورغبات نفسية، حيث الهوية المغاربيـة والجذور المكانية تُسـائلني، لماذا لم يأخذ النقد الأدبي المغربي القديم حقّه من الدراسة والبحث والتمحيص بالمقارنة مع التراث النقدي المشرقي؟

والحق ومنذ زمن بعيد وأنا أتـوق لمعرفة الخفايا العلمية والتاريخية والأدبية لإقليم المغرب العربي، وزاد من تمسّكي وإصراري على دراسة هذا الموضوع ما ألْفيْناه في الجامعة وما وجدناه بمكتباتها من تآليـف عن المشرق وأدبه، وتراثه، وأعلامه ولا شيء عن المغرب، فلمَّا أُتيحَتْ لي فُرصةُ البحث وتَفتَّحت أمامي أبوابُ الكتابة إذا بي أُجهدُ نفسي وأُعْملُ فكري وأَحمل قلمي لتلبية هذه الرغبة، فكان عملي هذا اختيـار القلب والعقل معـًا، وإنما ارتأيت البحث في هذا بغرض استجلاء ما طرأ على الأدب والنقد بالبلاد المغربية في فترة عرفت الازدهار والانتشار للنقد الأدبي في بلاد المشرق، فكان التعويل من جانبي على اكتشاف مدى قوة النقد ومتانته، واهتمام الدارسين به في شطرنا المغـربي.

ويندرج ضمن الدوافع أيضا مجالُ تخصُّصي، والذي ولَّـد لديَّ شغفاً كبيراً للإطلاع على التراث الأدبي والنقدي المغربي القديم، خاصة في ظل ما نلمسُه من نِسيان لجُهودِ المغاربة وإسهاماتهم في إنْماء التراث المعرفي للأمة العربية، مقابل التركيز والاهتمام بالجهود المشرقية فقط، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الوقوف أيضا على مدى صحة الفكرة الرائجة من أنَّ النقاد المغاربة صِلتهم بالأدب مَبتُوتةٍ وأكثر أعمالهم لا تخرج عن إطار التبعيَّة المشرقية .

2 ـ إشكالية البحث

قد ألزمني البحث في هذا الموضوع إلى طرح تساؤلات جانبية لعل من أبـرزها: هل الاشتغـال والبحث في التراث النقدي المغربي القديم هو فعلا بحثٌ في المجهـول، اعتبــارا لما يراه بعضُ الدارسين من أن المعالجة لمثل هذا الموضوع هو من قبيـل التحـدي والمغـامرة ؟ وماذا عن الجهود التي قام بها

بعض الدارسين والمهتمين بالنقد الأدبي المغربي؟ وهل فعلا أنَّ هذا الحقل المعرفي لا يزال في مراحله الأولى، وفي حاجة ماسَّة لمن يخرجه إلى النور؟ وما حقيـقة استخدام مفـاهيم من مثل المشرق العربي، والمغرب العربـي في كتابات بعض الباحثين؟ وهل هذا الاستخـدام هو مجرّد اصطلاح جغرافي أم تراه يَنـمُّ عن اختلافات فكـرية وثقـافية نـاتجة عن التبـاين والانفصال؟ وفـي أيِّ قـالبٍ يمكن صياغة ذلك السِّجال الدائر في الأوسـاط العلمية حـول ما يعتبره المغـاربة إجحـافا وظلماً مـارسه المشارقة في حقِّ الإبداع والمبدعين المغاربـة ؟

وإنَّ الوصُول إلى إجابات شافية لمجموع هذه الأسئلة لم يكن بالأمر اليسير الهينِّ، حيث اعترضتني صعوباتٌ أعاقت عملية إتمام هذا البحث كما كان منتظرا منه، ولعلَّ من أكبر الصعوبات التي واجهتني وأنا أستجْمع فُصول وحلقات هذا العمل، تلك المتمثلة في صعوبة الحصول على المراجع والمصادر المناسبة للموضوع، وافتقادها بالمكتبات الوطنية، اللهم إلا القليل من ذلك .

3 . أهمية البحث وفرضياته:

غايتي في هذا العمل البحثي تتجـلّى في الأهداف التاليـة :

ـ محاولة الكشف عن تجليات التراث النقدي الأدبي المغربي القديم بتسليط الضوء على جهود النقاد القدامى، وإظهار الطاقات الإبداعية التي قدمت إسهاماتها في هذا المجال .

ـ تسليط الضوء على الجذور الأولى للثقافة والأدب بالمغرب العربي، وكيف تسرَّبت بُـذور المعرفة إلى هذا الإقليم من خلال الحواضر العلمية الأولى التي تشكلت بمغربنا العربي .

ـ المساهمة في إثراء النقاش والسجال الدائر حول ما يسمى بالقطيعة أو التَّماهي بين التراثين المشرقي والمغربي، وإظهاره للقراء والدارسين، وبيان مدى إسْـهام المغاربة في إثراء المدونة النقدية العربيـة القديـمة .

ـ كما أنَّ من الأهـداف التي كنت أروم الوصول إليها وأنا بصـدد البحث والكتابة في هـذا المجال هو تحسّـس عوامل القـوة ومكامـن النبـوغ والتفـرد عند أدبـاء ونقـاد القطر المغربي، وما يتصـل بتجربة المثـقف المغربي في علاقته بمحيطه زمانا ومكانا، وفي علاقته بالمعرفة والأدب العربي في عمومه، وإلى أي درجة وصل حضور المثقف المغاربي في إثرائـه للإبداع الشعـري والنقـدي داخل هويتـه العربية الكبرى وبين جذوره المغـــربية ؟ .

4 : الدراسات السابقة :

استأنستُ في كتابة هذا البحث ببعض الكتابات والدّراسات التي كان لها فضلُ السَّبق في خَوض هذا الموضوع والكشف عن كثير من خفـاياه، وشكَّلت لي تلك الكتابات السَّابقة قَبسات اهتديت على إثرها وسرتُ على خطاها، ويسَّرت لي سبيل الكتابة والتتبُّع لعتبات هذا البحث، وإن من المراجع والدراسات التي أمدتـني بالمادة وعادت علي بالفائدة :

ـ كتاب (النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي) لصاحبه أحمد يزن والذي غطى تقريبا الفترة الزمنية نفسها التي شملتها دراستي، كما سهل لي الوقوف على ما اشتملت عليه المصنّفات النقدية المغربية القديمة التي ظهرت في فترة الخصب بالحاضرة القيروانية .

ـ كما لا أُخفي استفادتي من كتاب (الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري) لمؤلِّفه بشير رمضان التَّليسي، والذي أطلعنا كثيرا على تكوُّن الوعي السياسي والثقافي في بلاد المغرب، وطبيعة العلاقة التي جمعت بين مشرق الأمة ومغربها.

ـ كما رجعت أيضا إلى كتاب (الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي) للدكتور بشير خلدون والذي ركَّـز بشكل واضح على أهم القضايا النقدية التي تناولها النقاد القدامى، وكان الكتاب مُعينا لي في الوقوف على آراء النقاد المغاربة حول هذه المسائل النقدية، دون أن أغفل عن قراءة ما كتبه الدكتور محمد مرتاض في كتابه (النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوُّره)، وقد أفادني كثيرا في التأصيل لجذور الأدب والنقد بالبلاد المغربيـة .

ـ كما كانت لي وقفات مع إحسان عباس وكتابه النقدي : (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)، والذي أرَّخ فيه للنقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، وأطْلعنا في جزء منه على النقد في البيئة القيروانية المغربية .

ـ كما كانت لي وقفة مع بعض الرسائل التي تناولت الأدب والنقد ببلاد المغرب من ذلك : أطروحة الشيخ بوقربة الموسومة: بِـ (مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، من القرن الخامس إلى القرن الثامن للهجرة)، وأيضا ما كتبه الباحث عبد المالك مغشيش في أطروحته عن (النثر المغربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، دراسة تأصيلية فنيّـة)، إضافة إلى عديد المقالات والبحوث الأدبية من التي عثرنا عليها في المجلات والدوريات العلمية المختلفة، وقد أثبتنا كل ما ذكرنا ممّا رجعنا إليه في قائمة المصادر والمراجع .

5 ـ منهج الدراسة :

إنَّ المنهج الذي فرضته سيرورة هذا البحث، واقتضته طبيعة الدراسة في عرض ملامح وتمظهُرات النقد المغربي القديم هو المنهج التاريخي، والدراسة المقارنة، مع الإفادة من المنهجين الوصفي والتحليلي حينما تقتضي ضرورة البحث ذلك .

6 ـ خطة البحث:

فالتّصور العام الذي بان لي أن أضبط به هذه المذكرة، ووفقا لما اقتضاه البحث واستلزمه العمل الميداني، فقد قسمت بحثي هذا إلى **مدخل ، وأربعة فصول ، مع مقدّمة وخاتمة** .

المدخل: والذي كان بمثابة توطئة عامة للدخول في صلب الدراسة، وعنونتُه كالتالي: **الحركة الفكرية والثقافية وتجلّياتها بالحواضر المغربية القديمة**، وقد حاولت من خلاله إبراز أهم الحواضر والمدن المغربية الكبرى التي كان لها الدور الريادي في بسط المعرفة وانتشار التعليم والثقافة .

الفصل الأول: حيث كان الاهتمام في هذا الفصل **بالتأصيل لجذور الأدب والنقد بالمغرب العربي القديم** .

الفصل الثاني: والذي تتبَّعت من خلاله : **مدى تطوّر البحث النقدي وازدهاره بالمغرب العربي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين** .

الفصل الثالث: والذي قمت فيه **بالتطرُّق لأهم قضايا النقد القديم في ميزان النقد المغربي**: وقد مثَّلَ هذا الفصل عملاً مِفصليًّا في مُذكرتي هاته، حيث حاولت من خلاله التطرّق لأهم المسائل والقضايا النقدية التي تناولها النقد العربي القديم في عمومه، مع التركيز بشكل أساسي على إبراز أهم الملاحظات واللمحات النقدية لدى نقاد المغرب العربي الذين ظهروا في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

الفصل الرابع: *وكان* تحت عنوان: **المنجزُ النقدي المغربي القديم في رُؤى النقاد المحدثين :**

الخاتمة : وقد ضمّنتُها عرضاً موجزاً لمعالم البحث ونتائجه، مع تتبُّعٍ مستمرٍّ للخيط الرابط بين جَنيات وفُصول هذه المذكَّرة، بغرض الإلمام بالإشكالية المراد مناقشتها .

وبعد أن أكرمني الله عز وجل ووفَّقني لاستكمال هذه العمل على الصورة التي أحسب أنها كذلك، ليس لي إلاَّ أن أتقدم بخالص الشُّكر ووافِر الامتنان لأصحاب الفَضل الذين يُنسب إليهم

هذا الجُهد، وأخُص بالذكر **الدكتور *محمود رزايقية*** الذي شملتني رعايتـه وأسْبغَ عليَّ من فضله بالإشراف والمتابعة لهذه الرسالة، فأصلح من عثراتها، وتابع دقائقَها، وأسدى نصائحه التي لا تُنكر، وبذل من وقته وجُهده الشَّيء الكثير، فله منِّي موفور الشُّكر وخالص الامتنان، والله تعالى أسأله أن يُجازيـه عني أحسنَ الجـزاء .

كما أتقدم بالشُّكر والتقدير لصاحب المشروع، **الدكتور *رشيد مرسي***، والذي بفضله ومجهوداته كانت لنا هذه السَّانحة، وفُتحت لنا هذه النافـذة للتكوين العالي، وبحُسن تدبيره وصنيـعهِ استفـاد مركـزنا الجامعي من هذا التكوين، وتخرَّج فيه طلبتُة بشهادات عالية غالية؛ ستبقى تذكرها الأيام ويخلّدها التاريخ للأجيال اللاحقة، فللأستاذ رشيد شرفُ الرِّيـادة والقِيـَادة، والرَّائد لاَ يَكـذبُ قـَومَهُ .

كما أرجو من الله العليِّ القدير أن يُجازي ويُثيب كلَّ من أعانني ولو بالنصيحة من أجل إتمام هذا العمل، ولا يفوتني في هذا المقام أنْ أدعو الله مُخلصاً لأساتذتي الكرام، الذين شرَّفـوني بمراجعة هذا العمل وتهذِيبـه، فلهم مني كبيرَ الامتنانِ، وواسِعَ التقدير والاحترام .

وفي الأخير أقول إنْ حقَّقَ هذا الجُهدُ غايتَـه وبلغَ مَقصدَهُ، وأرضَى منْ قرأه أو اطَّلعَ عليه فتلك أسمى غايتـي، ومُنتهى مَطمَحي ومُنـايَ، وبها يكون الحمد لله الحليم المنَّـان، وإن قَصرَ الجُهدُ وتَراخى عن بلوغِ الأملِ فَحَسبي أنَّني اجْتهدتُ وسعيْتُ، وبذلتُ ما استطعتُ .

تيسمسيلت في: 2018/12/12 م

الطالب: ساكو محمد

مدخـــل تمهيدي

الحركة االفكرية والثقافية وتجلّياتها بالحواضر المغربية القديمة :

1 – المغـرب العربـي القديـم ماهيتـه وامتـداداتـه .
2 – الحواضر العلميـة والمراكز الثقافيـة بالمغرب العربـي القديـم .
3 ـ مدى إسهام الحواضر العلمية المغربية الكبرى في الازدهار العلمي والأدبي.

تـوطئـــة :

إنّ الكتابة عن الأدب والنقد المغربي القديم تُحيـلنا حتماً إلى تحري واقع هذه البلاد وسبْر أغـوارها، والوقوف على الكثير من المنعطفات التاريخية والجغرافية لها، إذ لا يمكن للقارئ أو المطّلع على الحياة الأدبية والنقدية المغربية في بداياتها الأولى؛ أن يقف على قاعدة صلبة متماسكة ما لم تتّضح أمامه الرُّؤى، ويعرف المنطلقات والبدايات، بل والخلفيات الفكرية والثقافية لبلد كان أهله يتحدثون بلغة غير اللغة التي نكتب بها ونتحدّث عن مكامن الإبداع فيـها في غير موطنِها الأصلي.

لذلك فإن البحث العلمي الرصين يُلزمني التَّدقيق في الكثير من القضايا والتنبيه عليها والإشارة إلى بعض الخفايا المعرفية، وإنْ بَدَا للعيان أنها ليست من مُشتملات ومُتعلّقـات هذا البحث، لأجل ذلك وجدتُ نفسي مُلزَماً بالوقوف على الكثير من الجوانب التاريخية والفكرية، وذلك لتوضيح المنهج وتبيان المقصد، وفضلا عن ذلك فإن سرد الوقائع التاريخية والرجـوع إليـها؛ أمرٌ لامناص منه في الكثير من الدراسات الأدبية والنقدية، وذلك حتى لا يتبدَّى العمل مُشوّها وهو يظهر مُنبتَّ الصِّلة بماضيه، مُنقطع الأواصر مع كثير من العلوم التي تخدمه وتكمِّله وتُحمّله، كيف وقد ورد على لسان الكثير من الدارسين أن الإفادة من النقد الأدبي مترتِّبة في الكثير من الأحيان على الإفادة من تاريخ الأدب .

وأنا أكتب هذا المدخل وأجعل قلمي ينسابُ بين ثناياه وتشعُّباته، أريد للقارئ أن يعرف طبيعة السّياق العام الذي نشأت فيه وانطلقت منه الثقافة ببلاد المغرب، لذلك كانت مني هذه الالتفاتة وجاء هذا المدخل بغرض الوقوف على طبيعة الحياة الثقافية والفكرية والأدبية بمغربـنا القديم، وذلك لما وجدت فيه من خدمة للموضوع الذي أنا بصدد البحث فيه .

وشهدت البلاد المغربية في قرونها الأولى عديد الحواضر العلمية، والمراكز الأدبية والثقافية التي أسهمت بقـدر كبير في تنشيط الحراك الثقافي والأدبي والعلمي، وانتشر بشكلٍ واسع العمل التعليمي، والذي تجلَّى ميدانيا من خلال الاهتمام ببنـاء المسـاجد، والمدارس، والكتاتيب، وبيوت العلماء من الذين سخّروا أنفسـهم في خدمة طلبة العلم، ونَشْر مختلف العلـوم والفنـون والآداب .

ويرجع الفضل في ذلك إلى الولاة والأمراء والخلفاء، الذين شجَّعوا على التعليم والمعرفة ونظم الشعـر، وبثِّ روح التنافس بين العلماء والأدباء في شتى المجالات العلمية، وسار أهل المغرب خُطوات حاسمة في هذا الميدان – حتى أضحت بلادهم بفضل ما ظهر فيها من حواضر ومراكز علمية – تُنافـس المشرق والأندلس في جميع المجالات الثقافيـة والفكرية والأدبيـة .

وإن من أشهر الحواضر العلمية التي استقطبت العلماء وطلبة العلم، بما تميّزت به من وسائط علمية كالجوامع، ودور العلم، ووفرة المكتبات، حتى غدت لشهرتها حديث الغادي والرائح، وموضع مُساجلات ومُفاخرات بين الشعراء والمؤرخين، الأمر الذي جعلنا نقف في هذا الخصوص على جملة من هذه الحواضر العتيقة لعل من أبـرزها[1] : حاضرة القيروان، وحاضرة المهدية، وحاضرة تونس، وحاضرة تيهرت، وحاضرة فاس، وحاضرة طرابلس، وحاضرة تلمسان، وحاضرة بجاية، هذه المدن الكبرى يذكرها عبد الله شريط ويعدّد محاسنها فيقول :" وإلى جانب حاضرتي القيروان والمهدية، كانت هنالك مراكز وحواضر أخرى بالمغرب مثل تيهرت، وبجاية، وفاس، وطرابلس، وتلمسان"[2]، وبذلك نعرف الدور الرِّيادي الذي لعبت تلك المدن في استقطاب العلماء وطلبة العلم، فنهضت الثقافة والمعرفة بوجودهم بها .

وممَّا يشهد على ذلك هو " التَّناقُص والتراجع في الرحلات العلمية إلى المشرق بشكل ملحوظ خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، بعد أن ظهرت تلك المراكز العلمية والأدبية ببلاد المغرب، وما شاع وذاع فيها من مجالس علمية تُضاهي مثيلاتها في بلاد المشـرق"[3]، حتى غدا الشعراء يفخرون بتلك المنجزات ويشيدون بحواضرهم لمّا وجدوا بُغيتهم في التماس العلم بها دونما رحلةٍ أو ارتحال،كما نلمس ذلك في شعر ابن الفكون القسنطيني[4]، وهو يصف مدينة الناصرية بحاضرة بجاية قائـلا [5]:

دَعْ العِرَاقَ وَبَغْدادَ وَشَامَهُـــمَا فَالنَّاصِـرِيَّةُ مَا إِنْ مِثْلُهَا بَلَـدُ

بَرُ وبَحْر ومَرْج لِلْعُيُـونِ بِهِ مَسَارِح بَانَ عَنْهَا الهَمُّ وَالنَّكَدُ

---

(1) ويسميها جورج مارسيه كبرى الحواضر العلمية ببلاد المغرب، للتوسع أكثر ينظر كتابه : بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق في العصور الوسطى، ترجمة ومراجعة ،محمود عبد الصمد هيكل، ومصطفى أبو الضيف أحمد، منشأة المعارف بالاسكندرية مصر، (دط، دت) ص:64، وينظر أيضا: بن قينـة عمر، أدب المغرب العربي قديما، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1994 ، ص: (22 ـ 24) .

(2) شريط عبد الله، تاريخ الثقافة والأدب بالمشرق والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، (ط3، 1983م)، ص: 11 .

(3) التليسي بشير رمضان، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري، دار المدار الإسلامي، بنغازي ليبيا، ط1، 2003 م، ص: 71 .

(4) هو أبو علي الحسن ابن الفكون القسنطيني شاعر المغرب الأوسط وأديبها في وقته، عاصر الدولتين الحمادية والمرابطية، وصفه ابن الأبار فقال: كان من كبار العلماء معدودا في الرؤساء، وافر الجاه عظيم الحرمة، تولى قضاء بجاية أواخر القرن السادس الهجري، للتوسع ينظر في ذلك: الغبريـني، أبو العباس محمد بن عبد الله، عُنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق محمد بن أبي شنب، دار البصائر للتوزيع والنشر الجزائر، (ط1 ،2007م)، ص: 160 .

(5) ينظر: المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار، صادر بيروت لبنان، (دط، 1968م)، مج/1، ص: 459 .

حَيْثُ الهَوَى وَالهَوَاءُ الطَّلْقُ مُجْتَمِعُ حَيْثُ الغِنَى وَالمُنَى وَالعِيشَةُ الرَّغَدُ
يَا طَالِبًا وَصْفَـهَا إِنْ كُنْتَ ذَا نَصَفٍ قُلْ جَنَّةُ الخُلْدِ فِيـهَا الأَهْـلُ وَالوَلَـدُ

وحتّى نَفي بالغرض، ونعطي الموضوع حقه نعـرّج على بعض هذه الحواضر التي شـاع صِيتُها ببلاد المغرب العربي، وكان لها دورها الإشعـاعي في الرقي الفكري والحضاري بمغربنا الكبير .

على أنه تجدر الإشارة إلى أن الأمر لا يقتصر على هذه الحواضر الكبرى ببلاد المغرب، بل ظهرت هنالك مُدناً وحواضر أخرى بالمغرب العربي القديم، ومن أبرز هذه المدن سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى[1]، وكذا مدينة مكناس المغربية، ومدينة المحمدية التي هي المسيلة الجزائرية اليوم، إلاّ أنّني تفاديتُ الخوض في تفاصيل هذه الحواضر لعدم التأثير العلمي والأدبي فيهما، وعدم بُروزهم بالشكل اللاّفت كالذي ظهرت به الحواضر المغربية الكبرى من التي أشرت إليها، وسأتتبّع حال الثقافة والأدب فيها .

وانطلاقا من ذلك وفي خضمِّ تناول الاتجاه التاريخي للنقد المغربي، سأبدأ الكتابة وأنا أوثّـق لهذه الحواضر وما احتوته من تراث علمي وثراء معرفي وأدبي، وفقا للمُعطى الزّمني الذي طبع ظهور هذه الحواضر، وقبل أن نتعرّف سويًّا على حواضر المغرب الكبرى، يتوجّب عليّ أن أقدِّم لمحةً تعريفية مختصرة عن الواقع الجغرافي لبلاد المغرب العربي، اعتبارا من أن عملي في هذه الأطروحة سينحَصِر مجالُه على هذا الحيّز المكاني الذي كان انتمائه وهويته ليس عربيا، إلا أنّه سُرعان ما أصبح عربيَّ الهوى والمنـزَعِ .

1- المغرب العربي القديم ماهيته وامتداداته :

المغرب لغـويا كلُّ مـا هو خلاف المشرق"[2]، وقد جاء في القرآن ما يدل على هذا المعنى لكلمتي المشرق والمغرب، فقد قال الله تعالى: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾[3]، والغربُ والمغرب والغُروبُ بمعنى واحد، والغرب خلاف الشرق، والمغرب في الأصل موضع الغروب، ثم استعمل في المصدر والزمان، ومنه قولك غرَّب القوم إذا ذهبوا في الغرب"[4]، والمغرب كما ذكر ابن منظور موضع

(1) مدينة سجلماسة هي حاضرة مغربية تقع في جنوب المغرب الأقصى، تأسست بها إمارة بني مدرار سنة 140 هـ وتسمى حاليا تافيلالت، ينظر: التليسي بشير رمضان، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي، (مر، س)، ص: 36 .

(2) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دط، دت) ، ج/2، ص: 129 .

(3) سورة الرحمان، الأية 17 .

(4) ابن منظور، لسان العرب ، (م، س)، ج/10، ص: 28 .

الغروب؛ أي غروب الشمس، وبالتالي" فكلمة المغرب تتوافق في معناها اللغوي مع دلالتها الجغرافية، وتعني البلدان التي تقع في اتجاه مغرب الشمس، مثلما هو الشأن للبلدان الواقعة اتجاه مشرق الشمس"[1]، يقول حسين مؤنس:" فأما مُصطلح المغرب فيطلق على كل البلاد الإسلامية المتدة من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي، وقد أجمع المؤرخـون والجغرافيـون العرب على أن بلاد المغرب تمتد من طرابلس شرقا ـ ليبيا اليوم ـ حتى المحيط الأطلسي غربا، وإن من طرابلس إلى الشرق لا يُعـدّ في اصطلاح المغرب"[2].

ويذهب ابن عذارى المراكشي أكثر من ذالك حين يُدخـل الأندلس ضمن بلاد المغـرب فيقول: بأن "حدّ بلاد المغرب هو من ضفة النيل بالاسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد الغرب، وحدُّه مدينة سلا –طنجة حاليا– وهي المدينة المحاذية للمحيط الأطلسي، وتلك آخر بلاد المغرب" [3].

أما صاحب كتاب تاريخ المغرب الكبير فيقول:" أما المغرب فيشمل كل ما يلي مصر غربا حتى المحيط الأطلسي،كما ذكر ذلك ابن حوقل والمقدسي" [4].

وهذا التقسيم والمفهوم الاصطلاحي كما يذهب أكثر المؤرخين "إنما كان أوَل ظهور له في الأدبيات الإسلامية في عهد الخلافة العباسية عندما كانت عاصمة الخلافة بغداد، حيث قسم هارون الرشيد دولته بين ولديه الأمـين والمأمون، فعهد للمأمون بالمشرق وللأمين بالمغـرب، وجعل العاصمة بغداد هي الأصل والفيصل" [5].

وما يهم من كل ذلك هو أن لفظ المغرب كان معروفا ومتداولا عند المسلمين منذ العهود الأولى للإسلام، وأخـذ مصطلح المغرب كمفهوم للإقليم الذي يقع بإفريقيا الشمالية يشيعُ وينتشر أكثر في عهد الدولة الأموية عندما قام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بتولية موسي بن نصير على إفريقية

---

(1) حوالـة يوسف بن أحمد، الحياة العلمية في إفريقية ، الحياة العلمية في إفريقية منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، (ط1، 2000م) ،ج/1، ص: 40 .

(2) ينظر كتـابه ، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد للطباعة والنشر، القاهرة، (ط11، 2010م)، ص:24 .

(3) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: جورج كـولان، وليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت، (دت، دط)، ص: 05.

(4) السيد سالم عبد العزيز، تاريخ المغرب الكبير، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1981م ج/2، ص: 126.

(5) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب الكبير، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، (دط، 1973م)، ص: 61 ، وعلَّق على ذلك قائلا: إن هذا التقسيم لا يعدو أن يكون مجرّد تقسيم إداري أكثر منه واقع جغرافي .

والمغرب قائلا له ما نصه:" قُم فيما وليتُك بالحق والعدل، وقد وليتك إفريقية والمغرب كلــه"[1]، وبذلك فقد اصطلح الكُتاب "على تسمية المناطق التي تلي حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي باسم المغرب، والتي تشمل على بلدان ليبيا، وتونس، والجزائر،والمغرب الأقصى، وموريتـانيا"[2].

يقول العربي دحو عن بلاد المغرب:" فأمَّا الأرض المغربية فقد أطلق هذا الاسم، أو اسم المغرب على منطقة من تُراب القارة الإفريقية ويَعنُون بذلك المملكة المغربية الحالية، والجمهورية الجزائرية، والجمهورية التونسية، والجزء الغربي من الجمهورية الليبية عند البعض، وعند البعض الآخر المناطق المذكورة يضاف إليها الجزء المتاخم لليبيا من تراب الجمهورية المصرية اليوم، وبعبارة أخرى نجد مصطلح المغرب يقصد به كل الأقاليم الواقعة غرب مصر عند الكُتَّاب العرب، في حين نظر العرب الفاتحون إلى المنطقة محددين إيّاها على أساس التقسيم السياسي والإداري الموجود في عهدهم، فقالوا: إفريقية، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، ويعنون بذلك كل إقليم بلاد المغرب العربي" [3].

وعلى العموم فإن بلاد المغرب العربي هي ذلك الإقليم الممتد على طول شمال إفريقيا، والذي سماه المؤرِّخـون عرب باسم المغرب، وكلمة الغرب أو المغرب إنما أطلقت على هذا الجزء من الدولة العربية الإسلامية في مقابل إطلاق الشرق أو المشرق على أجزائها الواقعة في قارة آسيا، حتى استقر في أذهان الناس أن الشرق أو المشرق أصل العرب، والغروب والغرب والمغرب فرعـــها .

أمَّا في المفهوم الجغرافي؛ فإننا نجد الجغرافيين والمؤرخين يعتبرون أن المغرب جغرافيا هو كل ما يلي مصر غربا حتى المحيط الأطلسي، "وقد وجدنا الجغرافيين وحتى المؤرخين يطلقون على القطر المغربي القديم الكثير من المفاهيم والمصطلحات التي تحدِّد إطاره المكاني والجغرافي، كقولهم المغرب الإسلامي أو إفريقية أو المغرب العربي الكبير، وكل ذلك إنما يُحيل إلى تلك الربوع والبلاد التي استوطنها العرب والمسلمون بعد الفتح الإسلامي، من طرابلس شرقا إلى مدينة آسَفي غربا "[4].

وبذلك فإن مدلول لفظ المغرب إنما يعني اليوم، تلك الدُّويلات التي كانت تُشكِّل المغرب العربي الكبير، والتي هي المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، أي من طرابلس شرقا إلى

---

(1) يوسف حوالة، الحياة العلمية في إفريقية، (مر، س) ،ج/1، ص: 45 .

(2) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب الكبير، (مر، س)، ص: 61 .

(3) دحو العربي، الأدب العربـي في الغرب العربي ـ (من النشـأة إلى قيام الدولة الفاطميـة)، دار الكتاب العربي للطبـاعة والنشر، الجزائر (ط1، دت) ، ص: 17 .

(4) النيفر محمد توفيق، الحياة الأدبية بإفريقية في العهد الفاطمي، سلسلة أطروحات، مركز النشر الجامعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، سنة 2004م، ص: 15.

المحيط الأطلسي غربا، كما يقول شهاب الدِّين ياقوت الحموي:" المَغْرب بالفتح ضد المشرق، وهي بلاد واسعة ووعثـاءَ شاسعة" [1].

وبذالك فإن بلاد المغرب هي تلك المناطق التي تمتد من الحدود الغربية لمصر حتى شواطئ المحيط الأطلسي، وسُكَّانها هم البربر[2]، الذين سيطر عليهم الرومان فالبزنطيون إلى أن جاء الإسلام، حيث تم فتح بلاد المغرب الشرقية في عهد عمر بن الخطاب، واستمر الفتح لبقية البلاد المغربية لمدة طويلة استغرقت تقريبا بقية القرن الهجري الأول بكامله، إذ لم يعاني المسلمون في فتح من الفتوح ما عانوه في شمال إفريقيا[3]. يقول موسى لقبال: "إنَّ إطلاق مصطلح المغرب إلى نطاق شمال إفريقيا كله أو جزء منه، فأغلب الظن أنه لم يقع قبل القرن الثالث الهجري، أي في عصر ابن عبد الحكم" [4].

والذي قادنا إلى تحري هذا المفهوم، والوقوف على كنهه ومدلوله، هو مجال الدراسة الذي وَسَـمْنا به هذه الرسالة ـ النقد الأدبي في المغرب العربي القديم، حيث أننا سنقف على حقيقة الأدب والنقد بالبلاد المغربية في إطار الحيّز الجغرافي الذي بيّناه، أما ما يثار عن مصطلح المغرب الإسلامي، والذي يشمل فضلا عن بلاد المغرب العربي بلاد الأندلس، فإنه لن يكون داخلا فيما عوّلنا الدّراسة والبحث فيه.

وعليه فإن ما عرفَتْـه الأندلس من ثراء علمي وإبداع أدبي سيكون خارج اهتمامنا ولن نعرّج على حالة النقد والأدب الذي عرفته تلك البلاد إلاَّ ما كان عَرضًا من ذكر لبعض الأعلام، أو إيراد لبعض المفاهيم، أو ما سنعرض له في حالة المقارنة بين المشرق والمغرب بعامة، حيث سنجعلُ من الأندلس في كَفَّـة المغرب لأنها منه أقرب وإليه تُنسب.

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تحقيق فريد الجندي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، (دط، 1955م) ، ج/ 5، ص: 188 .

(2) البربر أو الأمازيـغ هم سكان المغرب الأصليون، يتكلمون اللغة الأمازيغية، ويمتازون بالصبر وحب الاستقلال والحرية، سكنوا شمال إفريقيا منذ القديم، وهم قسمان: البرانس، والبتر، حيث أن البربر البدو يسمّون البتر، فيما يسمى أهل الحضر منهم بالبرانس، وهؤلاء يسكنون على الشريط الساحلي والسفوح الشمالية ، وتنتشر بينهم شقرة الشعور ، وبياض البشرة، وزرقة العيون، أما البتر فهم من سكان الجنوب وأكثرهم من جنس إفريقي أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين، ينظر، حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، (مر،س)، ص: (28 ـ29) .

(3) غلاب عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج/2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، (ط1، 2005م)، ص: 144 .

(4) لقبال موسى، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، (ط2، 1981م) ، ص: 15 .

2- حاضرة القيروان العاصمة الأولى للفتح الإسلامي ببلاد المغرب .

لا يُستغْربُ على أحد ذكر حاضرة القيروان، ولا يُجادل مرتابٌ في الإشادة والتَّنْويه بها، هذه المدينة التي اختطها عقبة بن نافع الفهري[1] منتصف القرن الأول الهجري لتكون قاعدة لتثبيت الفتح ومواصلة الفتوحات في مجاهيل إفريقيا، ومركزا لنشر الإسلام والعربية إلى أخر الدهر، كما قال الفاتح عقبة وهو يضع حجر أساسها[2]، وبذلك فإن إنْشاء مدينة القيروان يُشكِّل البداية لتاريخ الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، على اعتبار أنها أقْدم وأهم المدن الإسلامية بل هي المدينة الإسلامية الأولى في منطقة المغرب العربي، لأنها تحمل في كل شبر من أرضها مجدًا شامخًا وإرثا عريقًا يؤكّد تاريخها الزاهر ومعالمها الباقية، ولقد ظلت القيروان عاصمة الإسلام الأولى أربعة قرون لإفريقية والأندلس .

وسكن الناس القيروان مباشرة بعد بنائها وشدُّوا إليها الرِّحال والمطايا من كل مكان "وقصدها فضلاء الناس من الفقهاء والمحدثين، والمتطوّعين والعابدين، والنسَّاك والزُّهاد"[3]، وأصبحت بذلك القيروان " أمُّ أمصار وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قُطرا وأكثرها بَشراً وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً وأتقنها بناءً، والغالب على أهلها وفضلائها التمسُّك بالخير، والوفاء بالعهد، والتخلي عن الشبهات، واجتناب المحارم، والتفنُّن في محاسن العلم"[4] ،كما يقول الإدريسي، وكأنّ عقبة بن نافع أراد لها أن تكون مركزا علميا يستقطب العلماء والعُبَّاد والدارسين، حتى أصبحت جامعة لتعليم اللغة ومبادئ الدين خاصة بين أهلها البربر حديثي العهد بالإسلام، ومن القيروان انتشر سلطان العلم وعرف الناس مبادئ الإسلام .

---

(1) هو الصحابي الفاتح عقبة بن نافع الفهري بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن الحارث بن فهر، ومن فهر تفرقت سائر القبائل، ولد رضي الله عنه على ما يذكر أكثر المؤرخين بسنة واحدة قبل هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهو الذي يُنسب إليه شرف فتح بلاد افريقية وبناء مدينة القيروان التاريخية، بعد أن أشار على صحابته المرافقين له أثناء غزو إفريقية قائلا: "أرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر "، ينظر: ابن عذارى االمراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (م، س)، ص: 14 .

(2) حيث قال وهو يضع حجر أساسها " لتكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر "، ينظر: ابن عُـذاري المراكشيي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ج/1، ص:19، وينظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة مصر، دط، 2012م ج/1، ص:241 .

(3) المالكي، أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق: بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (ط2 ، 1994م)، ج/2 ، ص: 13 .

(4) أما عن الإدريسي فهو أبو عبد الله الشريف، يعتبر من أكبر الجغرافيين العرب الذين عرفتهم الحضارة الإسلامية من أبرز مؤلفاته ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عاش في الفترة مابين سنة (493 ـ 559هـ)، طاف بأكثر البلدان، حيث زار الحجاز، ومصر، وبلاد الإفرنج والقسطنطينية، واستخدمت خرائطه ومصوّراته بشكل كبير في اكتشافات عصر النهضة الأوروبية، نقلا عن: محمد حاج صادق، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، المكتبة الجامعية الجزائر ، (دط، ، 1983م)، ص: 110 .

ونظرا للاهتمام الذي عرفته حاضرة القيروان والإقبال الكبير من الناس عليها، فإنه لم يَكَد يمرُّ وقت طويل على تأسيسها حتى غدت كما يقول الشريف الإدريسي:" أمُّ القرى المغربية، تنبعثُ منها أشعة الإيمان والعرفان، وصارت العاصمة الإفريقية الأولى التي تنتهي إليها المسالك وتتفرق منها الطرقات" [1].

ومـمَّا زاد في عُلوّ صِيتها وارتفاع مقامها العدد الوافر من الصحابة والتابعين والعلماء الذين نزلوا بها واستوطنوها، وكذا رعاية حكامها لأهل العلم والأدب فيها، "وبذلك استحقت القيروان أن تكون أعرق حاضرة علمية، يشدُّ إليها طُلَّاب العلم رِحالهم، خاصة وأن الدروس كانت تُقدَّم في مساجدها الكثيرة، وكان القيروانيون أنفسهم يُكرمون نزلائهم من القراء وطلبة العلم "[2]، هكذا كان تأسيسُ مدينة القيروان، وبتلك النظرة التَّقديسية نظر الناس إليها وتسابقوا في سُكناها وتعميرها .

وانطلاقا من ذلك أضحت القيروان، ومنذ اللحظة التي تم فيها إنشاؤها، أول منارة للإسلام في إفريقيا العاصمة الثقافية الأولى في المغرب العربي، كيف وقد أُحيطت هذه الحاضرة بهالةٍ من التَّبجيل والإجلال منذ ابتـنائِها الأوَّل، بسبب مشاركة أعداد من الصحابة في تشييدها كما يصف ذلك الدَّباغ في كتابه (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان):" أمَّا القيروان فهي البلد الأعظم، والمِصرُ المخصوص بالشرف الأقدَم، قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب، وقبلتُها أول قبلةٍ رسمت في البلاد المغربية...إلى أن يقول: ما زلت أبحث في الآثار والأخبار إلى أن وجدت أن القيروان رابعة الثلاثة، المدينة، ومكة، وبيت المقدس والقيروان، وقد دعا لها كبار الصحابة ممن شهد بدراً وبايع بيعة الرّضـوان" [3].

وحُقّ للقيروان أن تصحَب هذه العواصم الإسلامية الكبرى لما كانت تؤديه من دور سياسي وعسكري وديني، بل وأكثر من ذلك فإن للقيروان دورا أشمل وأعمق لتفرّدها بالجانب العلمي والثقافي

---

(1) ينظر كتابه: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص: 110، وينظر: حسن حسني عبد الوهاب، بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة تونس، (دط، 2009م)، ص: 64 .

(2) الشاذلي بُويحي، الحياة الأدبية في إفريقية في عهد بني زيـري، تعريب: محمد العربي عبد الرزاق، المجمع التونسي للآداب والعلوم والفنون تونس ، (ط2، دت) ، ص: 453 .

(3) الدباغ، عبد الرحمان بن محمد بن علي بن عبد الله ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبُّوح، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (دط، دت)، ج/1، ص: (6 ، 7)، وينظر: حوالة يوسف بن أحمد، الحياة العلمية في إفريقية منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، (مر، س)،ج/1 ، ص: 146 .

في بلاد المغرب، على مدار الفترة الزمنية التي نكتب عنها، ونتيجة لهذا الدور العلمي الكبير أنشأ بها الأغالبة بيت للحكمة يُضاهي مثله ببغداد في أُخريات القرن الثالث الهجري .

وظلَّت القيروان لسنين عديدةٍ وقرون مديدةٍ حاضرةً للعلم والعلماء بالمغرب الإسلامي على حد وصف المستشرق جورج مارسيه،" وبذالك تُصبحُ القيروان مدينةً مشجرةً في العلم"[1]، وقال عنها صاحب المعجب:" وكانت القيروان هذه من قديم الزمان ومنذ الفتح الإسلامي إلى أن خرَّبـها الأعرابُ، دار العلم بالمغرب إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلةُ أهله في طلب العلم، وقد ألّف الناس في أخبار القيروان ومناقبه، وذكر علمائه ومن كان به من الزُّهاد والصالحين والفضلاء والمتبتلين كتبا مشهورة" [2]، هذه الشهادة من عالم كبيرٍ كالمراكشي؛ تُعطينا فكرة واضحة عمَّا كانت عليه من الحضارة والرّفاه الاقتصادي والازدهار العلمي والفني والأدبي، بدليل ارتحال العلماء وطلبة العلم إليها وسعيهم في الانتساب إليها.

ومـمَّا يزيدُ هذه الشهادة قُـوَّةً ومتانةً، ما نلمسُه من تآليف علمية تُعلي من مكانة القيروان وتُجلِّي نهضتها العلمية ومكانتها الحضارية، عندما نجد ابن رشيق الأديب الأريب يُؤلِّف كتاباً كاملاً يخصّصه فقط في الحديث عن شعراء القيروان وأدبائها دون غيرهم من رجالات العلم في الفقه والتفسير، والقراءات، والحديث، وعلوم الطبيعة أسماه أنموذج الزمان في شعراء القيروان[3].

وكذلك الحال مع عُمـر فرُّوخ وهو يكتبُ عنها أيضا قائلا: " وسُرعان ما أصبحت القيروان مدينةً عظيمةً مشهورة، ومركزاً من مراكز العلم والحضارة في العالم الإسلامي" [4] .

1-2- الحيـاة العلميـة والأدبيـة بالقيروان:

لقد كانت الحياة الأدبية بالقيروان مزدهرةً ازدهارا كبيرا حتى وفد عليها الشعراء من شتى البقاع، ورحل إليها طُلاب العلم من كلِّ مكان كما يذكر صاحب كتاب (عصر القيروان) "ما كاد ينتهي القرن الرابع حتى كانت قرطبة في الأندلس والقيروان في إفريقية مركزين عظيمين للثقافة العربية، يقومان بنفس الدور الذي قامت به بغداد من قبل" [5].

---

(1) مارسيـه جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق، (م، س) ، ص: 106 .

(2) المراكشي، عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح وتعليق: صلاح الدين الهـواري، المكتبة العصرية بيروت،ط1، 2006م، ص: 441.

(3) سيأتي التعريف بالكتاب وبصاحبه في الفصل الثـاني من هذه الأطروحـة .

(4) فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي ـ الأدب القديم ـ دار العلم للملايين، بيروت لبنان، (ط5 ،1982م)، ص: 37 .

(5) أبو القاسـم محمـد كـرو، عصر القيروان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق، (ط2، 1989م)، ص: 56

هذه المكانة التي بلغتها القيروان جعلت الشاعر أبا القاسم الفزاري يفخر ببلدته القيروان بل ويفضّلها على العاصمة الإسلامية الكبرى بغداد في قوله [1] :

فهل للقيروان وساكنيها عديل حين يفتخر الفخور
عراقُ الشرق بغداد وهذي عراق الغرب بينهما كثير
ولست أقيس بغداد إليها وكيف تقاس بالسّنة الشهور
بلاد خطها أصحاب بدر وتلك اختطّ ساحتها أمير

وما يؤكّد القيمة العلمية التي بلغتها القيروان في الفترة الزمنية التي نشتغل عليها، ما نجده من كُتب ومصنّفات تشيد بتلك المكانة السَّامقة التي وصلتها، فمن ذلك ما كتبه ابن رشيق بعنوان: (أنموذج الزمان في شعراء القيروان)، وما ألّفه أبو بكر عبد الله المالكي بعنوان: (رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية)، فضلا عمّا صنّفه عبد الرحمان بن محمد الدّباغ وهو يكتب (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان)، وأيضا ما نجده من تآليف عند حسن حسني عبد الوهاب وهو يخصّص الحَضرة القيروانية بالإشادة والتنويه، حيث نجد له كتابه المسمّى: (بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق) وكتابه الآخر: (ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية)، هذا غيضٌ من فيض ممَّا عرفناه واطّلعنا عليه، وإلاّ فإن ما كُتب عن القيروان كثير وكثير جدا .

وهكذا كانت القيروان قبل النَّكبة التي تعرَّضت لها منتصف القرن الخامس الهجري في أوجّ عظمتها وقمة حضارتها، بعد أن ملأ ساحتها نُخبة من العلماء والأدباء الكبار، فكان منهم ابن هانئ الأندلسي (ت362هـ)، وما خلفه من شعر ناضج حتى سميّ بمتنبي المغرب، وكان منهم محمد بن جعفر القزاز (ت412هـ)، ومنهم أيضا أبو إسحاق إبراهيم الحُصري (ت413هـ) وغيرهم كثير،"وما فتِئ أهل المغرب يجنحون إلى الآداب الرفيعة والعلوم الجليلة يأخذون منها ويتصرفون فيها القول، حتى زهى الأدب وراج سوق الفكر عندهم، وبلغت حضارة القيروان ذروتها في العصر الصّنهاجي"[2]، فعظم الأدب من نظم ونثر وظهر فيه الاختراع وبرز استقلال المغرب عن المشرق في إبداعاته، ومصادر إيحائه وبيانه، فظهرت بإثْـر ذلك حركة نقدية نشطةٍ، كان من آثارها ظهور كوكبة من الأدباء والنقاد

(1) نقلا عن: مغشيش عبد المالك، النثر المغربي في القرن الرابع الهجري، (دراسة تأصيلية فنية)، مخطوط دكتوراه، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، (2015/2014م)، ص: 45 .

(2) بن قينة عمر، أدب المغرب العربي قديما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دط، 1994م)، ص: 58 .

خلَّفوا لنا جُملة من المؤلفات، من أظهرهم؛ كتاب (اختيار الممتع) لعبد الكريم لنّهشلي[1]، (والعمدة) لابن رشيق[2]، حتى أنَّ ابن خلدون قال عن هذا الأخير –أي كتاب العمدة– " وهو الكتاب الذي انفرد في صناعة الشعر وأعطاها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله"[3]، وتميّز من شعراء البلاد المغربية رجال كُثر منهم أبو علي الحُصري القيرواني الضرير (ت488هـ)، وابن شرف (ت460هـ)، واللذان يُعتبران بحقٍّ من أحسن من مثّل الأدب والشعر في تلك المرحلة .

ولا نعجب بعد ذلك أن يبكي عليها الشعراء ويتفنَّنون في رثائها بعد النكبة التي أصابتها والخراب الذي حل بها على أيدي الأعراب الهلاليين كما نقرأ نماذج من هذه البكائيات في شعر ابن شرف[4] :

ترى سيئات القيروان تعاظمت فجلّت عن الغفران والله غافـر

تراها أصيبت بالكبائر وحدها ألم تكُ قدما في البلاد الكبائر؟

كما نجد ابن رشيق يُعظِمُ أمر ذلك الخراب الذي أصاب القيروان ويتحسر باكيا عليها قائلا[5]:

كم كان فيـــها من كرام سادة بيـض الوجوه شوامخ الإيمـان

علماء إن ساءلتهم كشفوا العمى بفقـــــاهة وفصـــاحة وبيـــان

---

(1) أبو محمد عبدا الكريم بن إبراهيم النهشلي الكاتب والناقد، عاش في العصرين العبيدي والصنهاجي (ت405هـ)، كانت له شخصيته العلمية، وبرع بشكل خاص في اللغة والأدب والشعر، امتاز شعره بالجزالة والغرابة في تصويره البدوي، شهد له النقاد بالأسبقية والتبريز، ترك لنا كتابه النقدي المسمَّى: الممتع في علم الشعر وعمله، والذي تناول فيه الكثير من القضايا النقدية من التي طرحها النقاد العرب القدامى، ونجده يقدم رأيه بكل وضوح واستقلالية خاصة في أثناء حديثه عن حد الشعر وبنيته وإبرازه لمكانة الشعر والشاعر في القديم، ترجم لحياته العديد من الأدباء والكتاب والمؤرخين، ينظر في ذلك: ابن رشيق، أبو الحسن علي الأزدي القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر والتوزيع، والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986م، ص: 170 وما بعدها .

(2) هو أبو علي الحسن ابن رشيق ، ولد بمدينة المحمدية ـ المسيلة الجزائرية ـ (سنة390هـ)، وبها أخذ مبادئ العربية والأدب، ثم تاقت نفسه إلى المزيد، فارتحل إلى القيروان فارتوى من صافي الأدب حتى نبغ فيه نبوغا باهرا، تتلمذ على أيدي نخبة من الشيوخ منهم القزاز القيرواني، وعبد الكريم النهشلي، وإبراهيم الحصري، وابن أبي الرجال وغيرهم، التحق ابن رشيق ببلاط المعز بن باديس الصنهاجي فألحقه ابن أبي الرجال بخدمة ديوان الانشاء ، ليرتحل أثناء نكبة القيروان إلى المهدية ثم إلى صقلية والتي وافته المنية بها (سنة 456هـ)، ترك لنا ابن رشيق العديد من المؤلفات الأدبية والنقدية، نتعرّف عليها في الفصل الثالث من هذه الأطروحة، للمزيد عن حياة هذا الناقد المغربي ينظر: أنموذج الزمان، لابن رشيق ، ص: (18 ـ 25) ، وينظر: بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف القاهرة، (ط5، 1961م) ، ج/5 ص: (343 ـ 345)

(3) ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، المقدمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م ، ج/2، ص: (744 ـ 745) .

(4) ابن شرف، أبو عبد الله محمد القيرواني، الديـوان، تحقيق حسن ذكرى حسن، دار مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، دط، ص: 89 .

(5) الحسن ابن رشيق، الديـوان ،شرح وتعليق صلاح الدين الهواري، وهدى عوده، دار الجيل بيروت، (ط1، 1996م)، ص: 156 .

كـانت تعدّ القيــروان بهم إذا عدّت المنابر زهرة البلـــــدان
وتجمعت فيها الفضائل كلها وغدت محل الأمـــن والإيمان

2- مدينة تونس بلاد المرابطة والجهاد وجامع الزيتونة:

تأسست مدينة تونس عقب سقوط قرطاجنّة الرومانية[1]، وقد أسّسها أوّل الأمر الأمير حسان بن النعمان الغساني[2] في حدود (سنة 82هـ)، وهو نفسه الذي بنى وأقام القواعد الأولى لمسجد الزيتونة، وإنما أسَّس حسّان بن النعمان مدينة تونس ليجعل منها قاعدة عسكرية بحرية، ومكانا لحراسة البلاد وتأمين السواحل وصدّ ما قد يهدد البلاد من غارات الروم عليها، وعزم على أن يجعل منها مدينة بحرية تؤدي ما تؤديه في العادة المدن البحرية، "وزاد في توسيع مدينة تونس بعده عبد الله بن الحبحاب عندما عُيّن أميرا على إفريقية (سنة 116هـ)، واهتم بتخطيطها وعمارتها أكثر، وتوفير أسباب الحياة النشيطة فيها، وأعاد بناء مسجدها الجامع الزيتونة[3]، والذي سبق وأن أسّسه حسان بن النّعمان قبـله"[4] .

---

(1) وإنما سُميت تونس بهذا الاسم في أوائل الفتح الإسلامي لها، حيث كان هناك راهب يتخذ من صومعته ملجأ له ومكانا للرهبنة والتعبُّد، وكانت سرايا المسلمين وجنودهم ينزلون بالقرب من تلك الصَّومعة فيأنسون بصوت الراهب فيقولون هذه الصومعة تُونس، فلزمها هذا الاسم فسميت باسم تونس، أما تسمية تونس في القديم وقبل الفتح العربي لها فقد كانوا يطلقون عليها ترشيش، ينظر: محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق : محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس فاس، 1968م ص: 67 ، وينظر: المالكي، رياض النفوس، (م، س)، ج/1، ص: 48 .

(2) هو حسان بن النعمان الغساني من ملوك بني غسّان، أحد رجالات الحرب والسياسة(ت 86 هـ) ، ولاّه معاوية على إفريقية، وبعد مقتل زهير بن قيس البلوي(سنة 76هـ)، كلَّفه الخليفة عبد الملك بن مروان بالزحف على بلاد المغرب، فتوجّه في نحو أربعين ألف مقاتل خاض معهم وقائع كثيرة، وقاتل بضراوة ولم يتراجع إلى أن تمكن من قتل زعيمة البربر الكاهنة دهيـا، يقول أبو بكر المالكي عن ولاية حسان بن النعمان:(وفي ولايـتـه استقامت إفريقيا كلها، وأمن أهلها وقطع الله مادة أهل الكفر منها، وصارت دار إسلام إلى وقتنا هذا وإلى آخر الدهر)، ينظر كتابه: رياض النفوس،(م، س)، ج1، ص: 38 ، وينظر أيضا : لقبال موسى، المؤنس في تاريخ المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (ط2، 1981م)، ص: 69 .

(3) تأسَّس جامع الزيتونة بأمر من حسان بن النعمان وأتمّـه عبد الله بن الحبحاب، وهو ثاني أقدم مسجد ببلاد المغرب بعد مسجد عقبة، ويطلق عليه الجامع الأعظم أو المسجد الجامع، وإنما سُمي بجامع الزيتونة لأنه بني على أرض تتوسطها شجرة زيتون، ومنه سمي جامع الزيتونة، وقد لعب هذا الجامع دوره الحضاري والعلمي باعتباره اتخذ مفهوم الجامعة الإسلامية منذ تأسيسه وتثبيت مكانته كمركز للتدريس، وإن من أبرز رموزه وعلمائه ، أسد بن الفرات، الإمام سحنون صاحب المدونة، والفقيه المالكي ابن عرفة، ومن المحدثين الطاهر بن عاشور، وعبد الحميد بن باديس الجزائري ، ينظر: حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ، (مر، س)، ج/1، ص: 89 .

(4) الحاجري محمد طه، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، (ط1، 1983م)، ص: 63 .

وكانت تونس من أوائل العواصم الثقافية والعلمية التي ظهرت بإفريقية، وازداد لمعانها وبريقها العلمي والحضاري خاصة في ظل الدولة الحفصية "[1]، حيث شُيّدت بها الجوامع ودور العلم، وكثُرت حلقات التدريس، واعتنى الأمراء بالعلماء حتى أنهم أقاموا بُيـوتات ومنازل للعلماء، وذاع ذكر تونس واشتهرت بجامعها الضارب في التاريخ والمسمى جامع الزيتونة، والذي كتب عنه العبدري في الرِّحلة المغربية قائلا:" إنه من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثـرها إشراقا "[2]، ويكفي تونس الحاضرة المغربية الجديدة أنها أخرجت لنا ابن زيتـون[3] وأبا الفضل التيجاني وغيرهم كثير، ولا ننسى الازدهار العلمي والمعرفي والثقافي الذي عرفته تونس الإفريقية، حيث أنه "ما من فنّ من فنون العلم إلا ووجدت بتونس به قائما، ولا موردا من موارد المعارف، إلا رأيت بها حوله وارداً وحائـمًا، وبـها من أهل الروايـة والدِّرايــة عددٌ وافـرٌ يحلـوا الفَخار بهم" [4].

وبفضل بناء هذه القاعدة البحرية ـ تونس ـ أصبح المسلمون قوةً بحريةً مهمة، يمارسون الغزو البحري ويحمون سواحلهم وثغورهم من أي عدوان خارجي، ومن تونس انطلق المسلمون نحو صقلية وجنوب إيطاليا مع بداية القرن الثاني للهجرة،كما تفتخر تونس بكونها من منشآت المسلمين في شمال إفريقيا[5]، وتهيأ لها أن تكون ذات شرف عظيم في تاريخ المغرب الكبير خاصة زمن الدولة الحفصيّة منذ القرن السابع الهجري[6]، وتعهّدها إذ ذاك القادة والولاة بالرعاية والاهتمام، وأخذت تتّسع وتكبُر حتى أصبحت خلال تلك الفتـرة ثاني مدينة بعد القيروان، وظلت تونس مدينة رئيسية ومركزا للعلم والثقافة بعد أن استوطنها عدد غير قليل من العلماء والأدباء من الذين لم يبهرهم بريق العاصمة الثقافية الكبرى القيروان .

---

(3) تأسست الدولة الحفصية عن طريق أبي زكريا بن عبد الواحد بن يحي بن أبي حفص، ولذلك تنسب إليه، وقد أعلن استقلاله عن الموحدين سنة627هـ، واتخذت هذه الدولة من مدينة تونس قاعدة لها، واستمر كيان هذه الدولة إلى أواسط القرن العاشر الهجري (943هـ)، ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات(الجزائر، المغرب الأقصى موريطانيا، السودان) ـ دار المعارف القاهرة. (دط، دت،)، ص: 49.

(2) العبدري محمد، الرحلة المغربية، (م، س)، ص:63 .

(3) هو أبو القاسم بن أبي بكر اليمني المالكي الشهير بابن زيتون، اشتغل بالقضاء بتونس، وكان من الراحلين إلى المشرق للاستزادة من العلم وأداء المناسك، عاش في القرن السابع الهجري، كان إماما فاضلا ذا علم ودين ممن أعزّ العلم وصانه عن الابتذال، وكان المفزع إليه في الفتوى بتونس، ينظر: أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية ،(م، س)، ص: 47 .

(4) العبدري محمد ، الرحلة المغربية، (م ، س)، ص: 60 .

(5) ينظر: لقبال موسى، المغرب الاسلامي، (مر، س)، ص: 73.

(6) ينظر: حوالة يوسف ، الحياة العلمية في إفريقية ، (مر، س)، ج/1، ص: (166ـ167) .

والحق أن مدينة تونس، وإن عُرفت كمدينة علميةً ثقافيةً إذ ذاك، إلا أنها لم تكن المركز الرئيسي للثقـافة والأدب، وهي لم تتسلّم مركزها الريادي العلمي والسياسي والاقتصادي إلا بعد سقوط القيروان على يد الأعراب الهلاليين ثم سقوط المهدية أيضا، ومن ذلك الوقت أضحت تونس هي وارثة القيروان وأصبح فيها عدد لا بأس به من العلمـاء والأدبـاء كعلـي بن زياد التونسي الفقيه المالكي، وعلي الإيـادي الشاعر المتميِّز .

3- حاضرة تيـهرت عاصمة الرستميين مسيرة وتاريخ:

ومن بين الحواضر العلمية البارزة التي عرفها المغرب العربي، مدينة تيهرت الرستمية [1]، كانت قديما موطنا ومستقرا للإباضيين، وبذلك فهي مدينة قديمة مشهورة لها مكانتها في المغرب العربي الكبير، ساهمت في تفعيل الحركة العلمية والتجارية على امتداد فترة من الزمن بالمغرب الإسلامي حتى أنها كانت تسمى قديماً ـ عراق المغـرب ـ كما وصفها اليعقوبي بقوله: "والمدينة العظمى تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب، وقد اتفق مع ياقــوت الحمـوي على هذا الوصف"[2]، ووصفها محمد علي دبـوز بقوله:" كانت مدينة تيهرت القديمة هي قاعدة المغرب الأوسط وقُطب رحـاه"[3] .

وورد اسمها في القواميس بألفاظ متعددة : تيهرت، وتاهرت على اختلاف بينهما، ذلك لأن هناك من المؤلفين المشارقة من يسمي تيهرت، تاهرت بالألف، والمشهور والصّحيح والجاري على ألسنة المؤلفين المغاربة هو تيـهرت، وهو أخف وأرشق وأشبه بلغة البربر التي نعرفها كما يقول محمد علي دبوز، وإنَّ الذي أطلق عليها اسم تاهرت أول الأمر هو المقدسي، وكلا اللفظتان بربريتان ويراد بهما اللّبــؤة[4].

---

(1) نجح الرستميون في بناء دولة قوية وغنية تسوس مجتمعا سعيدا، حتى دوّت سمعتها بالمشرق والمغرب والأندلس، فقصدها العلماء والشعراء والأدباء والتجار والحرفيون، وقد عرف المغرب العربي وقتها عشرات السنين من الاستقرار والازدهار، حتى بلغت الدولة الرستمية أوجّ قوتها وعنفوانها في خلافة الإمام افلح بن عبد الوهاب، في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، ينظر في ذلك: عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر، (ط1 ، 2013م)، ص: 233 .

(2) ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، تحقيــق فريد الجندي، دار صادر للطباعة والنشر،بيروت، (دط 1955م)، ج/1، ص: 08، وينظر :جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي، (م، س)، ص: 104.

(3) دبّــوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، عالم المعرفة للنشر والتوزيع الجزائر، (ط1، 2013م)، ج/1، ص: 248 .

(4) المرجع نفسه، ص: 249 .

وجاء في معجم البلدان:" تاهرت بفتح الهاء وسكون الراء اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى بلاد المغرب، يقال لأحدهما تاهرت القديمة والأخرى تاهرت المحدثة، بينها وبين المحمدية ـ المسيلة اليوم ـ ستُّ مراحل، وهيَّ كثيرة الأنـداء والضباب والأمطار، حتى أن الشمس قلّ أن ترى بها" [1].

وكان لموقع تاهرت وسيطرتها على الطريق التجاري الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالجنوب، وللاعتبار الديني والمذهبي الذي قامت عليه واصطبغت به "ما أتاح لها نموًا سريعاً وازدهارا مُطرداً، ولم تلبث أن أصبحت مركزا مذكورا من مراكز الحياة الأدبية والعقلية في هذا الإقليم من أقاليم المغرب تتجه إليه أنظار الخوارج من هنا وهناك، يعقدون بها كثيرا من الآمال وكانوا يرون فيها رمزا لمطامحهم وتطلُّعاتهم وبذلك أضحت تزخر بألوان النَّشاط وخاصة النشاط العقلي والأدبي حتى أنها سرعان ما خرّجت عددا غير يسير من العلماء والأدباء "[2] .

3-2- الإسهامات العلمية والأدبية للحاضرة الرستمية:

حَظيت تيهرت بنصيبٍ وافرٍ من الاهتمام بالحياة الفكرية والأدبية من طرف أئمتها الذين تتـابعوا على حكمها، من خلال مشاركتهم في رقيّ وازدهار الحياة العلمية بها، ويكفيهم فخرا أنهم كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها في كل طبقات المجتمع، وشاركوا بأنفسهم في تنشيط الساحة الثقافية والعلمية من خلال إلقاء الدروس وتأليف الكتب،كما عملوا على تشجيع العلماء والوقوف بجانبهم بما أغدقوا عليهم من أموال، فضلا عما أقاموه من مجالس تعليمية وحلقات للتدريس، فأنشئوا المساجد، والجوامع، والكتاتيب، علاوة على ما وفـّروه من مكتبات علمية زاخرة بمختلف التصانيف والعلوم والفنون لعل من أشهرها مكتبة المعصومة[3]؛ والتي أحصى الباحثون والدارسون بها أكثر من ثلاثـمائة ألف مجلد .

وعُرفت الحاضرة الرستمية بالكثير من رجالها وعلمائِها الكبار، كالإمام عبد الرحمان بن رستم، والإمام عبد الوهاب، والإمام أفلح بن عبد الوهاب، والإمام أبو اليقظان، وهؤلاء كلهم كانوا علماء نوابغ، حتى أنهم وضعوا للإمامة شروطا، من أهمها وأجلها ـ العلم والنبـــوغ المعرفي، ـ "وبذلك اتَّصف

---

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، (م، س)،ج/2 ، ص: 07 .

(2) الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية بالمغرب العربي، (مر، س) ، ص: 95 .

(3) ضمّت حاضرة تيهرت بين جنباتها مكتبة هي أعظم ماعرفته بلدان المغرب العربي، حيث حوتْ ثلاثمائة ألف مجلد من مختلف أنواع الآداب والعلوم والفنون، أحرقها العبيديّون بعد استلائهم على تيهرت نهاية القرن الثالث الهجري، ينظر :مخلوف عامر، مراجعات في الأدب الجزائـري، دار الأديب للنشر والتوزيـع ـ منشورات مديرية الثقافة لولاية معسكر الجزائر، دت، ص49 .

إمامهم المؤسّس لدولتهم ابن رستم؛ حيث كان من كبار العلماء في عصره، حتى أنه كان يقضي أوقات فراغه وهو رئيس الدولة في التدريس والتأليف" [1].

وكذلك عُرف ابنه عبد الوهاب (ت208هـ) من بعده، "حيث كان من العلماء الراسخين، يُذكر عنه بأنه كان يتقن العربية والفارسية وحتى البربرية، اهتم بنشر العلم في الأقاليم والمراكز التابعة لتيهرت خاصة بجبل نفوسة، وبلاد الزّاب، ليتولّى من بعده ابنه أفلح (ت258هـ) والذي عرف عنه التّبريز والحجة في العلم وتعدّد معارفه، وكان يجد مُتعةً في إدارة النشاطات العلمية بنفسه كما يذكر الدارسون" [2] .

يقول المؤرخ الكبير محمد علي دبوز:"كان الإمام أفلح من الأدباء الفصحاء، ترك لنا شعرا ونثرا، ممّا يدل على علو كعبه وارتفاع مقامه ودرجته العلمية، ولعل رائيته في الحث على طلب العلم من أشهر ما وصل إلينا "[3]، وهي تتكون من أربعة وأربعين بيتًا ـ يقول في مطلعها [4]:

العلم أبقى لأهل العلم أثاراً يريك أشخاصهم روحا وأبكاراً

حتى وإن مات ذو علم وذو ورع مامات عبد قضى من ذاك أطوارا

لله عصبة من أهل العلم إن لهم فضلا على الناس غيابا وحضارا

للعلم فضل على الأعمال قاطبة عن النبيِّ روينا فيه أخبارا

تجدر الإشارة إلى أن أمراء بني رستم كانوا كلّهم مثقفين ثقافة أدبية ودينية على ما يذكر كثير من الأدباء، كما ينقل ذلك عبد العزيز قليقلة[5] ، وظهر أيضا من علماء حاضرة تيهرت الشاعر والأديب الكبير ـ عبد الرحمان بكر بن حماد الزناتي ـ، والذي يذكر النقاد مدى تأثيره في الحياة الأدبية وقتها، لذلك أتتنا الأخبار على سعة علمه وتعدُّد مواهبه[6]، ووصفه عبد الملك مرتاض بقوله:

---

(1) دبـــوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، (مر، س)، ج/1، ص: 306، وينظر: سعدي عثمان، الجزائر في التاريخ، ص: 236 .

(2) المـرجع نفسه، ص: 330 .

(3) المرجع نفسه، ص: 333 .

(4) ينظر، الطّمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، كلية الآداب الجزائرية، (دط، 1981م)،ص: 30 .

(5) ينظر: قليقلة عبده عبد العزيز، البلاط الأدبي للمعز بن باديس ـ (دراسة تاريخية أدبية ونقدية)، دار الفكر العربي القاهرة،(ط2 1992م)، ص:49 .

(6) هو أبو عبد الرحمان بكر بن حماد بن سهل بن إسماعيل الزناتي أصلا التيهرتي نشأة ودارا، ولد بعاصمة الرستميين (سنة 200هـ) تلقى تعليمه الأولي بها ولما بلغ سن السابعة عشرة، غادر تيهرت مرتحلا إلى القيروان فالمشرق العربي طلبا للعلم، حيث زار البصرة والكوفة وتوقف بعاصمة الخلافة الإسلامية بغداد، ومدح الخليفة المعتصم بأشعار رائقة فأكرمه وأناله الجوائز كما لقي في رحلته تلك بعض شعراء المشرق كأبي تمام، ودعبل الخزاعي، وعند عودته توقف بالقيروان حيث تصدّر مجالس التدريس بمساجدها، ويعدّ بكر بن حماد من أوائل

"عُرف عن بكر بن حماد بأنه شاعر الزُّهد، حتى أننا لا نُغـالي إذا أطلقنا عليه أبا عتاهية الجزائر، وإن كنا لنحسب أنه يعدُّ أيضا من كبار شعراء القرن الثالث الهجري في أقطار المغرب كله إن لم يكن أكبرهم إطلاقا " [1]، وقد وصف بكر بن حماد مدينة تيهرت قائلا [2]:

سَقَى الله تِيهَرتَ المُنى وَسُويقَة بسَاحَتِها غَيثاً يَطِيبُ بِه المَحَلّ

حيث يفتخر الشاعر ببلدته تيهرت، فهي بالنسبة له المكان الخصيب، وساحاتها مرتع للذكريات الجميلة، والأيام الغالية الثمينة .

وظلت الدولة الرستمية شامـخةً في المغرب الكبير إلى أن هجم عليها ـ أبو عبد الله الشيعي ـ داعية الفاطميين (سنة **296**هـ) فدمّرها وعاث فيها فسادا، وأحرق مكتبتها المعصُومة وكان ذلك مع نهاية القرن الثالث الهجري[3] .

4– حاضرة فاس مدينة العلم والتراث:

استطاعت مدينة فاس أن تسجِّل اسمها بأحرف من ذهب، وتكون واحدة من أهم الحواضر الإسلامية المؤثرة في تاريخ البلاد المغاربية على امتداد العصور الماضية، وزاد من أهميتها الدينية والتاريخية والعلمية كونها عرفت حضارات مختلفة، ساهمت كلها في ترسيخ الدور الثقافي والريادي لهذه المدينة المغربية العتيقة "حيث اشتهرت مدينة فاس حتى صارت كعبـةً يقصدها النـاس من كل الأمصار، واجتمع فيها علم القيروان وقرطبة، وصارت تدعى بغداد المغرب خاصة في القرن السادس الهجري زمن الدولة الموحِّـدية" [4] .

شعراء المغرب العربي، ترك لنا ديوان شعر جمعه الأستاذ محمد بن رمضان شاوش تحت عنوان ـ الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد ـ (توفي سنة 296هـ)، في ذلك ينظر: نبوي عبد العزيز، محاضرات في الشعر المغربي القديم ، ديوان المطبوعات الجامعيـة الجزائر، دط، 1983م ص(128ـ131).

(1) عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم ـ دراسة في الجذور،(مر، س)، ص: 65 .

(2) ينظر: الدّر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، تقديم وجمع : محمد بن رمضان شاوش،طبع المؤسسة العلوية مستغانم الجزائر 1966م، وينظر:ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، (م، س)، ج1، ص: 168 .

(3) ينظر: ريدان سليم، المغرب في ضمير أدبائه، دار سهر للنشر والتوزيع،كلية الآداب والفنون منوبة ، تونس، دط، 2005م، ص: 133 .

(4) يـــزن أحمد ، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرباط ، دط، 1986م، ص: 55 .

وأسّس مدينة فاس وأنشأها الأدارسة سنة **172**هـ[1]، وهي تقع أسفل جبال الأطلس الأوسط بالمغرب الأقصى على امتداد سهل فسيح، وقد اشتهرت هذه الحاضرة بجامعها الكبير القرويين[2]، والذي يعتبر من أهم معالم هذه المدينة إلى يوم الناس هذا [3].

قال عنها عبد الواحد المراكشي: "كانت فاس على غاية الحضارة وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف، ولُغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم ـ المغرب الأقصى ـ، وما زِلت أسمعُ المشايخ يدعُونها بغداد المغرب، وحقيق ما قالوا ذلك، لأنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلاَّ وهو منسوب إليها... ونظرا لولعه الشديد وحبِّه الكبير لمدينة فاس نراه يزيد في وصفها إلى أن يقول: ... وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مَرافق وأوسع معايش وأخصب جهات، وذلك لأنَّها مدينة يحفُّها الماء والشَّجر من جميع أرجائها"[4].

ونجد طه الحاجري من المعاصرين يقول عن حاضرة فاس: "ولم تلبث هذه المدينة بعد مدة ليست بالكثيرة أن أصبحت مركزا له خطره من المراكز المذكورة في المغرب العربي، خاصة بعد أن أنشأ بها مسجد القرويين منتصف القرن الثالث الهجري "[5]

ومع انحسار الدّور السّياسي لمدينة فاس في العصور المتأخرة، إلا أنها ظلت محُافظة على دورها الديني والثقافي حتى جعل منها أهل المغرب اليوم عاصمتهم العلمية، لما تشهده من حراك علمي وثقافي .

وتبقى مدينة فاس[1] من أهم الحواضر ببلاد المغرب العربي بعد القيروان ولذلك تصنّفها منظمة منظمة اليونسكو في عصرنا هذا كمدينة ذات تراث عالمي، اعترافا بمكانة هذه الحاضرة والتي تضم

---

(1) يذكر المؤرخون أن إدريس الأول الذي فر متخفيا من المشرق هو الذي أسس دولة الأدارسة في منطقة واليلي بإقليم فاس، وبعدما توفي في حدود (سنة175هـ)، قام ابنه ادريس الثاني ببناء مدينة فاس واتخذ منها عاصمة لدولته، ويشير معظم الكتاب والمؤرخين القدامى إلى أن إدريس الثاني هو المؤسس الفعلي لمدينة فاس، للتوسع ينظر: جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي، (م، س)،ص: 140.

(2) هو أحد أهم المعالم الدينية بمدينة فاس، تم بناؤه وتأسيسه (سنة 245هـ) في عهد الدولة الإدريسية ، حيث قامت السيدة الفاضلة الجليلة فاطمة الفهرية ببنائه على نفقتها الخاصة، وإنما سمي بجامع القرويين نسبة إلى الحاضرة القيروانية التي تنحدر منها فاطمة الفهرية ، ينظر: السيد سالم عبد العزيز ، تاريخ المغرب الكبير، ـ العصر الاسلامي ـ (دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية)، ص: 488 ، وينظر أيضا : ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، (مر، س) ، ص:331 .

(3) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب عن أخبار الأندلس والمغرب ، (م ،س)، ص: (131.130) .

(4) المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (م ،س)، ص: 444 وما بعدها .

(5) الحاجـري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، (مر،س)، ص96 .

أكبر مآثر الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب عموما، ولعل جامع القرويين الذي تم تأسيسه منتصف القرن الثالث الهجري، – وبالضَّبط سنة (245هـ) –، يمثل أكبر معلم ديني وأول جامعة إسلامية وأقدم مؤسسة تعليمية انتظمت بها حلقات الدروس، حيث توافد عليها كوكبة من العلماء مما جعل منها نقطة إشعاع ثقافي وفكري بلغ مداه إلى أوروبا والمشرق العربي[2].

5- حاضرة طرابلس ومساهمتها العلمية والأدبية بالإقليم المغربي:

تعدّ هـذه المدينة الليبية باتفاق كثير من المؤرخين والجغرافيين من كبرى حواضر المغرب العربي الكبير، وتتصل جغرافيا بجبل نفوسة الذي ظل ولفترة طويلة مركزا ثقافيا وعاصمة علمية للإباضيين[3]، حيث ظل جبل نفوسة ممثلا للمذهب والفكر الإباضي لفترة طويلة، خاصة بعد سقوط دولتهم الأولى التي أسَّسوها في مدينة تيهرت الرستمية .

وظلت مدينة طرابلس من أهم المراكز العلمية الرئيسية بالمغرب العربي في الفترة الزمنية التي نكتب عنها ـ أي القرنين الرابع والخامس الهجريين[4].

وما يمكن أن يقال عن هذه الحاضرة أنها تقع في الموقع الوسط بين المشرق والمغرب العربيين وأتاح لها هذا الموقع دورا ثقافيا رياديا، فعبر أراضيها ارتحل المئات من الطلبة والعلماء والأدباء من المغرب والأندلس نحو المشرق الإسلامي، وبها أيضا حطَّ رحالهم كثير من علماء المشرق وأدبائه في وجهتهم نحو المغرب الإسلامي، كما كان لموقع طرابلس الوسط جاذبيته بوقوعه على طريق الحج للأندلسيين والمغاربة، "وكان لجبل نفوسة نهضة علمية وثقافية إباضية توازي مثيلتها في الدولة الرستمية، وقد اضطلع هذا الجبل بإثراء الحياة العلمية الإباضية، وظهرت أهمية هذا المكان بأن تأسست فيه أول إماميّة إباضيّـة "[5].

---

(1) يرجع تأسيس حاضرة فاس إلى الأدارسة العلويين في الفترة مابين (172/363هـ)، حيث أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد أتم بنائها من بعده ابنه إدريس الثاني، ينظر: الحاجري ، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية بالمغرب العربي، (مر، س)، ص: (95 ـ 96) .

(2) ينظر: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، (مر، س)، ص(488 ـ 490) .

(3) يرتبط جبل نفوسة الذي يمتد على مسافة مأتيْ كيلو متر تقريبا بالمذهب الإباضي، وإنما سمي بذلك نسبة إلى قبيـلة نفوسة البربرية، التي كانت وما زالت تقطنه إلى اليوم كما يقول الكثير من المؤرخين ، ينظر: حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية، ص:191 .

(4) ينظر: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج/1 ، ص: 66 .

(5) يوسف حوالة، الحياة العلمية في إفريقية، (مر، س)، ص: 195 .

ولعبت طرابلس بحكم تواجدها ببلاد المغرب وتبعيتها للقيروان الإفريقية دورا بارزا في نشر الثقافة وإرساء قواعد المعرفة بين أوساط البربر، وساعدها على ذلك موقعها الجغرافي حيث أن جميع الرحلات البرية مشرقا ومغربا كان لابد لها من المرور على طرابلس الليبية، "وكان الرَّحالة وطلبة العلم يتوقَّفون أثناء ذهابهم إلى المشرق للحج أو طلبا للعلم بها لفترة قد تطول أو تقصر، حيث يستمع أولئك الطلبة إلى أهل العلم بطرابلس أو بمدينة برقة الليبيتين" [1].

6- مدينة المهدية عاصمة الدّولة العُبيـدية :

مدينة المهدية تعتبر أيضا من كبرى الحواضر العلمية العتيقة التي عرفها المغرب العربي الكبير[2]، وقد بناها العبيديون مع بداية القرن الرابع الهجري عندما قام عبيد الله المهدي باختطاطها سنة **303**هـ، وباسمه سميت؛ أي المهدية[3]، ولم تلبث أن أصبحت قاعدة من قواعد النشاط الأدبي والعقلي، ومركزا من مراكز العلم والثقافة بالمغرب العربي، حتى أنها أخرجت لنا طائفة من الشعراء الأدباء كما ذكر ذلك ابن رشيق في أنموذجه، خاصة في القرن الرابع الهجري[4]، بل إنها أضحت مركز جذب وإغراء للعلماء والأطباء ممن ساروا في فلك المذهب الفاطمي، كيف وقد ظلت العواصم السياسية للدول مقصد العلماء والأدباء على مرِّ التاريخ .

وقد كان أبو عبيد الله المهدي حريصا على بناء مدينته التي اختطها بنفسه لتكون أمانا له ولأسرته وما يقال في هذا الصدد عن المهدي بعد انتهائه من بناء مدينته الجديدة ومقولته الشهيرة لهي الحقيقة بعينها إذ يقول:" لقد بنيتها للفواطم ليعتصِمْن بها ولو ساعة من نهار، اليوم آمنت على الفاطميات"[5].

وبمجرد أن أتمَّ بنائها وتحصينها حتى أسماها بالمهدية على نفسه ونقل إليها ديوانه وحكومتـه، واتخذها عاصمة لدولته وذلك سنة**308**هـ، وعن النشاط العلمي والأدبي، والمناظرات التي أقامها

---

(1) التليسي ، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي، (مر،س)، ص: (85 ـ 86) .

(2) ينظر: محمد طه الحاجري، مرحلة التشيّع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1983م ، ص: 10، وينظر أيضا : السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، (مر،س)، ص: (599 ـ 604) .

(3) كان أول ما قام به الأمير العبيدي، عبيـد الله المهدي أن أنشأ مدينة المهدية، وذلك مطلع القرن الرابع الهجري، حيث شرع في بنائها (سنة 300هـ) على ما ذكره جمهور المؤرخين من أمثال البكري وابن عذارا المراكشي، واستغرق بناء المهدية ثماني سنوات، حيث أنه ما إن أتمّ بنائها حتى أسماها المهدية ونقل إليها حكومته (سنة 308هـ)، وجعل منها عاصمة لدولته، ينظر: مغشيش عبد المالك، النثر المغربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين،(مر، س)، ص: 37 .

(4) ينظر: الحاجـري، مرحلة التشيّع في المغرب العربي ، ص: 12.

(5)القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، تحقيق محمد اليعلاوي، والحبيب الفقي، المطبعة الرسمية تونس، (دط، 1978م) ، ص: 328

العبيديون في بلاطاتهم يقول عبد الرءوف مخلوف: "فكان بها بلاط فاخر التف حوله ثلة صالحة من رجال العلم وأعلام الأدب وكبار الفلاسفة والشعراء، وكانت أيام المهدية على صغر المملكة أيام صنهاجة أيامًا مشهودة في تاريخ العلم والفن والأدب.."[1].

7- حاضرة بجاية الحمادية والتأسيس لتفرُّد البربر بحكم بلاد المغرب:

ومن الحواضر العلمية التي شاع ذكرها وارتفع مقامها، وعلا شأنها في تلك الحقبة الزمنية الأولى للمغرب العربي الكبير حاضرة بجاية عاصمة الدولة الحمادية [2]، والتي وصفت إذ ذاك بأنها دار هجرة للعلماء من رجال الفكر والأدب، خاصة أولئك القادمين من الأندلس، واستطاعت بجاية أن تظل لأربعة قرون من الزمن قبلة للعلماء ومَحجًّا لطالبي العلم، وساحة لتبادل الأفكار والآراء، وميدانا للإبداع العلمـي.

ونظرا للشهرة العلمية الكبيرة التي اكتسبتها بجاية، "ظل طلبة العلم يتزاحمون عليها حتى أن الكثير من الأوروبيين والإيطاليين خصوصا تلقوا تعليمهم واكتسبوا مؤهلاتهم العلمية ببجاية "[3].

وقد أسّس هذه الحاضرة ـ الناصر بن علناس[4] سنة **460**هـ، وعن ذلك يقول ابن خلدون: "لقد هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة ـ قلعة بني حماد ـ واختط بالساحل مدينة بجاية ونقل إليها ذخيرته وأعدّها نزلا له، وكان الناصر هذا من أشهر ملوك الدولة الحمادية وأعظمهم شأنا واتخذ من بجاية عاصمة لملكه وسماها الناصرية باسمه، وأقام بها من أسباب الحضارة ما لم يُر مثله مشرقا ومغربا،

---

(1) مخلوف عبد الرؤوف، من نوابغ الفكر العربي، ابن رشيق القيرواني، دار المعارف مصر العربية، 1964م ، ص: 16 .

(2) تعتبر الدولة الحمادية من أبرز الدويلات التي ظهرت بالمغرب العربي، وكان ظهورها بداية الانفصال عن الدولة الأم ـ الدولة الزيرية الصنهاجية ويرجع الفضل في تأسيس الحاضرة الحمادية إلى الأمير الصنهاجي ـ حماد بن بلكين بن زيـــري بن مناد ـ وذلك سنة 398هـ، وتعتبر هذه الدّولة أسرة بربرية عريقة كما يقول شوقي ضيف، ينظر كتابه : تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص: 37 .

(3) محمد الطمار، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (ط1، 2010م)، ص: 10، وينظر: عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة بيروت، (دط، 1978م)، ج/1 ، ص: 204 .

(4) قام الناصر بن علناس بتأسيس حاضرة بجاية (سنة 460هـ) وسماها الناصرية، وقد كان هذا الرجل شغوفا بالفنون والعمران، فأنشأ القصور وشيّد المباني واستدعى العلماء والشعراء، ويعتبر من أشهر حكام وأمراء هذه الدولة توفي سنة 481هـ، أما عن مدينة القلعة هذه فإنها لا تبعد كثيرا عن مدينة الحُضنة ـ المسيلة اليوم . إذ تنام في هدوء على حدودها الشمالية، ينظر: عويس عبد الحليم، دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، (ط1، 1980م) ، ص:47 .

وأنشأ بها المعاهد والمدارس العلمية"[1]، فتقاطر عليها العلماء وطلبة العلم من كل الأصقاع والجنسيات والأديان .

وبلغت بجاية في عهد الحماديين درجة كبيرة من التقدم والعمران، واحتلت مكانة مرموقة بين حواضر العلم في المغرب والمشرق، فأمّها الكثير من العلماء من مصر والشام والأندلس، "فانتعشت الثقافة العربية وازدهرت الحركة العلمية حتى قيل إن عدد المفتين فيها بلغ التّسعين مفتيا في زمن واحد وبذلك أصبحت بجاية معقلا للحركة اللعلمية التي عرفها الشمال الإفريقي، ينتقل إليها عشاق الأدب وطلاب العلم والمعرفة من مختلف المدن والقرى .

والجدير بالذكر أن بجاية أصبحت عاصمة بني حماد بدءاً من سنة (460هـ) ،وظلت كذلك في عهد الموحدين[2]، ثم من بعدهم لمن حكمها من الحفصيين، واستمرت كعاصمة علمية وسياسية بالمغرب الكبير إلى أن سقطت في يد الإسبان سنة (910هـ)، وقد وصفها الكثير من المؤرخين والجغرافيين كالإدريسي، والبكري، وهما من أعلام القرن الخامس الهجري، ووصفها العبدري في الرحلة المغربية بقوله: " ثم وصلنا إلى بجاية مبدأُ الإتفاق والنهاية، وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة برية بحرية، وثيقة البنيان عجيبة الإتقان، رفيعة المباني غريبة المعاني موضوعه في أسفل سفح جبلٍ وعرٍ، إلى أن يقول: وهذه البلدة بقيَّةُ قواعد الإسلام، ومحلَّ جلّة من العلماء والأعلام، ولأهلها من حسن الخلق والأخلاق ما أنبأ عن طيب الهـواء والمـاء والتربة والأعراق"[3] .

ومن عجائب الصُّدف أن الفترة التي أتناولها بالدراسة والبحث في مذكرتي هاته إنما ظهر فيها البربر، وتولوا فيها شؤون الحكم على كامل البلاد المغربية آنذاك[4]، ذلك لأن أهم ما عرفته تلك

---

(1) ابن خلدون ، عبد الرحمان بن محمد ، تاريخ ابن خلدون، والمسمى: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط ومراجعة : خليل شحادة، وسهيل زكار، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (دط، 2001م) ،ج/6 ص: 43 .

(2) قامت هذه الدولة أول أمرها في المغرب بعد أن أطاحت بدولة المرابطين سنة555هـ، وإنما عرفوا بالموحدين لقولهم بالتوحيد على طريقة الأشاعرة، وكان زعيمهم ومؤسس دولتهم محمد بن تومرت الملقب بالمهدي، الذي كان قد رحل إلى المشرق طالبا للعلم، وجلس إلى الإمام الغزالي وأخذ عنه العلم، وهو الذي بشره بأنه سيكون له شأن ببلاد المغرب، وقد شهدت بلاد المغرب والأندلس نهضة علمية وأدبية في عهد الموحدين، خاصة في زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن المتوفى (سنة 580هـ)، وكان هذا الأمير محبا لأهل العلم والأدب، حيث استقدم إلى بلاطه كبار العلماء والفلاسفة على وقته كابن رشد ، وابن طفيل ، ينظر: أبو زيد سامي يوسف الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان الأردن، (ط1، 2013م)، ص:30 .

(3) العبـدري، الرحلة المغربية ، (م، س)، ص: (23 ـ 24) .

(4) حيث حكمت هذه الأسرة وتولّت شؤون المغرب الكبير بعد رحيل الفاطميين إلى مصر سنة 362هـ، فكان أن أتيح لأبناء البربر إقامة دولتهم التي حكمها أبناء المغرب الأصليون من البربر، ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، (م ،س)، ص:34 .

المرحلة بعد رحيل الفاطميين عن المغرب العربي هو نهاية الحكم العربي تقريبا في بلاد المغرب ليؤول الحكم والخلافة إلى السكان الأصليين من زناته الصنهاجيين، وآلت رئاسة حاضرة بجايـة للأسرة الحمـادية عن طريق مؤسسها الأول حماد بن بلكين، وقد وجهت هذه الأسرة عناية شديدة بالعلماء، " ممَّا أتاح لحاضرة بجاية أن تُصبح أهمّ مركز ثقافي في المغرب العربي ابتداء من النصف الثاني للقرن الخامس الهجري وظلت بجاية عامرة زاهية بالعلم والعلماء إلى غاية سقوطها على يد المرابطين منتصف القرن السادس الهجري **547**هـ" [1].

لذلك فإن بجاية الحمادية اتَّسمت في تلك الفترة المزدهرة بالتطور الحضاري والثقافي "حتى قصدها العلماء وطلبة العلم وأرباب الصنائع من كلِّ صوبٍ وحدبٍ "[2].

وظهر اهتمام الأمراء الحماديين بالعلم والعلماء خاصة في زمن المعز بن باديس[3]، هذا الأخير كان لا يدّخر وُسعاً في تجميل بلاطه بمن قدر على جَذبهم إليه من العلماء والأدباء كتابا وشعراء "حيث أنه ما إن يسمَع بعالم أو أديب إلا استدعاه إلى قصره، وأغدق عليه من ألوان الحُظوة والتشجيع ما حبّبهُ في البقاء عنده، والدُّخول في البلاط الأدبي له"[4].

وكان ممن قصد بجاية واستوطن القلعة من العلماء أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري المعروف بابن النحوي (ت**513**هـ)،" فقيه وأصولي مجتهد، لغوي وناظم للشعر،جاب الكثير من مدن وحواضر بلاد المغرب كتلمسان، وسجلماسة، وفاس، واستقر به المقام أخيرا بعاصمة الحماديين بجاية وظل هذا اللغوي الكبير يُساكن حـاضرة القلعة ببجاية، ويمارس عمله المحبّب إليه وهو التدريس، وعاش محبوبا محترما بين الناس، إلى أن توفاه الأجل مع بداية القرن السادس الهجري"[5]، وعرف عن ابن النحوي أنه كان مُتضلِّعا في العلم، مشهودا له بالفتوى، رقيق المشاعر أديبا أريبا، حتى أنه عدّ من أعلام القرن الخامس الهجري بالأفق المغربي.

---

(1) سعدي عثمان، الجزائر في التاريخ، (مر، س)، ص: 280 .

(2) عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، (مر، س)، ص:254 .

(3) كانت حياة المعز بن باديس في القرن الخامس الهجري ، بحيث ولد (سنة 398 وتوفي سنة 454هـ)، ظهرت لديه عناية خاصة بأهل العلم، وبفضل هذا الرجل تطّهرت بلاد المغرب العربي من مذهب الشيعة، وحمل الناس على مذهب الإمام مالك، كما نقل ذلك عبد العزيز قليقلة في كتابه البلاط الأدبي للمعز بن باديس، ص: (43 ـ 44) ، وينظر: بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي، (م، س)، ج/5، ص:107

(4) قليـقلة ،المرجع نفسه ، ص: 53 .

(5) الكلام لعبد الجليل مرتاض في تقديمه لكتاب ـ المغرب الأوسط في ظل صنهاجة لصاحبه محمد الطمار، ص: (10ـ11)، وينظر: بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1977م ، ص: (170ـ171) .

وممّن دخل بجاية إذ ذاك وراق له الاستئناس بطبيعتها، واستقبله أهلها بكل حفاوة وكرامة، وأقام بها يقدِّم دروسه وعلومه التي حازها، وانبرى يصف مآثر بني حماد في بجاية في شعر جميل خلاب، الشاعر الكبير ابن حمديس الصقلي[1].

وبذلك فقد عرفت بجاية في عهد الحماديين عهدا جديدا لم يسبق أن عرفته من قبل من الأمن والرَّخاء وازدهار العمران وكثرة من نبغ فيها من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين، فكانت بذلك مرحلة الحماديين النّموذج في النمو والإشعاع الفكري والثقافي بأتـمِّ معنى الكلمة، يقول محمد الطمار: "شهدت الدولة الحمادية نهضة متميزة في جميع الميادين لم تشهد لها المنطقة مثيلا في العصور السابقة ولا القرون التالية لذلك، وقام على إثرها الأمراء ببناء المدارس والمعاهد العلمية والمساجد الجامعة وزوايا العلم والتصوف، ونبغ علماء كثرٌ، وشعراء فُحول، ولغويّون مبرِّزون" [2].

8- حاضرة تلمسـان وإسهـاماتـها العلميـة والأدبيـة:

هي حاضرة إسلامية شهيرة بالمغرب الأوسط، تقع في الجهة الغربية لبلاد المغرب العربي، "اسمها يتألف من كلمتين هما: تلم، وسان، ومعناهما تجمع اثنان، والمراد بذلك الصحراء والتَّل، أي أنَّ تلمسان تجمع بين طبيعة التل والطبيعة الصحراوية لوقوعها في مكان ملائم لذلك" [3] .

وتعتبر تلمسان من الحواضر المغربية الأكثر عراقة وقِدَمًا، حيث كانت على مرّ الزمان محطّ أنظار الطامعين من الغزاة والمغامرين، وقد سطع نجمها أكثر بعد أن اتّخذها الزيانيون عاصمة لدولتهم لعدة قرون، فبرزت كعاصمة للفن والثقافة والعمران، كما نالت وبجدارة شهرة واسعة من وراء الاحتفالات الأسطورية التي كانت تقام بها تخليدا لميلاد سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام، "وبذلك فإن تلمسان هي مدينةٌ عريقةٌ مُوغلة في القدم، لكنها لم تصبح ذات شأن في التاريخ والحضارة حتى افتتحها العرب وتربّع فيها الإسلام "[4].

---

(1) هو أبو عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الصقلي، ينتمي إلى قبيلة الأزد العربية ، وهذا يعني أنه من العرب الذين نزلوا بتونس في عهد الدولة الأغلبية، ولد سنة 447هـ وتنقل كثيرا بين المدن والحواضر المغربية كبجاية، والمهدية، وسفاقص وغيرها، إلى أن توفاه الأجل سنة527هـ، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/3، ص: (212 ـ 213) .

(2) الطمار محمد، تارخ الأدب الجزائري، (مر، س)، ص: 71 .

(3) يحي بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر ملوك بني عبد الواد، تحقيق: محمد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع الجزائر، ج/1، ص:85 .

(4) عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ، (مر، س)، ج/2 ، ص: 236 ،

وافتتحها بعد دخول الإسلام إلى بلاد المغرب الصحابي أبو المهاجر دينار سنة 55هـ، كما دخلها وعرَّج عليها عقبة بن نافع في ولايته الثانية على بلاد المغرب [1].

وهكذا بدأت هذه المدينة تنمو وتتوسع في ظل الحكم الإسلامي، وتجلّى دورها أكثر وظهرت على مسرح الأحداث كعاصمة إسلامية مشهودة بعد سقوط دولة الموحدين، حيث حل بها قصدها بنو عبد الواد [2] ـ وهم الزيانيون ـ وأقاموا بها دولة لهم، وجعلوا من تلمسان عاصمة لملكهم[3].

واهتم الخلفاء والأمراء والملوك الذين حكموا بلاد المغرب العربي بتقريب العلماء ومنحهم العطايا وتشجيعهم على نشر العلم والأدب، فعلى ما يذكر كثير من الأدباء والمؤرخين فقد "تنافس ملوك تلمسان، وتونس، وبجاية، وفاس على الترحيب برجال العلم والأدب والفن في عواصمهم وظلوا يُنزلونهم المنزل اللائق بهم، ويبذلون لهم الهبات والعطايا ويرفعون من شأنهم" [4].

وهذا أحد علماء الإسلام في القرون الوسطى وهو المسمى أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي[5]، يذكر لنا وهو مار بتلمسان في رحلته من الأندلس نحو المشرق مرورا ببلاد المغرب يقول:" وأدركت فيها ـ أي تلمسان ـ كثيرا من العلماء والصُّلحاء والعُباد والزُّهاد وسوق العلم حينئذٍ نافقة، وتجارة المعلمين والمتعلمين رابحة والهمم في تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتفعة، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان"[6].

---

(1) إن أول من وطئت قدماه أرض تلمسان من العرب الفاتحين كما يذكر المؤرخون هو أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري، حيث زحف عليها أبو المهاجر مع جنوده سنة 55هـ،، ينظر: الشاوش محمد بن رمضان ، باقة السّوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر ، 1995م، ص: 53 .

(2) بنو عبد الواد، وهم الزيانيون أو بنو زيان، وتنسب هذه الدولة إلى قبيلة بني عبد الواد أحد بطون قبيلة زناته، ويسميهم ابن خلدون زناته الطبقة الثانية، أما زناته الأولى فهم مغراوة وهم أبناء عمومة أقاموا دولتهم بالمغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان والمراد بزناته الثانية عند ابن خلدون هم البربر المتأثرين بالعرب الهلاليين ، ويعتبر يغمراسن بن زيان هو المؤسس الاول للدولة الزيانية مطلع القرن السابع الهجري، بعد سقوط الدولة الموحـدية، واستمر حكم الزيانيين لمدة ثلاثة قرون، ينظر: ابن الأحمر الغرناطي، إسماعيل بن يوسف الخزرجي الغرناطي ،، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، بورسعيد، مص، (ط1،2001م)، ص: (5 ـ 6) .

(3) ينظر: فيلالي عبد العزيز ، تلمسان في العهد الزياني، (دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية) ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2002م .ج/ 1 ، ص: 87 وما بعدها .

(4) شاوش محمد بن رمضان ، باقة السّوسان في التعريف بحضارة تلمسان ، (م، س)، ص: 396 .

(5) أبو الحسن علي بن محمد القلصادي من مواليد مدينة سبطة الأندلسية عام835هـ، انتقل إلى غرناطة وطلب العلم بها حتى صار من علماء وفقهاء المالكية ، مر على تلمسان أثناء رحلته إلى الحجاز ، توفي بتونس سنة 891هـ ، ينظر: المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (م، س)، ص: 692 .

(6)ينظر: مجلّة، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، منشورات وزارة الشؤون الدينيـة والأوقـاف، ج/2، ص: 90 .

أما عن مظاهر الثقافة وتجلّياتها بالحاضرة التلمسانية فقد أمكن لنا تسجيل معطيات مهمة ظلت تلمسان تَحفلُ بها خُصوصا في الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجريين، حيث كانت تلمسان ترفُل بالعديد من المساجد والمراكز العلمية التي مثّلت منارات علمية ودينية طوال تلك الفترة المذكورة، حيث تذكر لنا المصادر التاريخية أن عدد مساجد حاضرة تلمسان بلغ في تلك الفترة ستّين مسجدا [1].

ويذكر الأستاذ عبد العزيز فيلالي "بأن مدينة تلمسان عرفت ازدهارا ثقافيا ملحوظا ونهضة أدبية كبيرة حتى وصفت بأوصاف شتى: الازدهار الثقافي، النشاط العلمي، الحركة الفكرية، النّبوغ الأدبي وساعد على هذه النهضة وعمل على إنجاحها الملوك والحكام الزيانيون، الذين أَوْلوا عناية خاصة بالعلم والمعرفة، فبنو المدارس، وشيّدوا المساجد، وجلبوا إليها أكابر العلماء للتدريس بها، وقاموا بالإنفاق على طلبتها"[2]، وفضلا عن ذلك فقد عمل الحكام بحاضرة تلمسان على استقدام العلماء وكبار اللغويين إلى بلاطهم لإلقاء الدروس، وبذلك استطاعت هذه الحاضرة أن تنافس المدن والعواصم الإسلامية الكبرى في المشرق والمغرب، ولعل شاعرهَا ابن خميس أكبر من عبّر عنها مكسوفا عليها متشوّقا إليها حين قال[3] :

تلمسان لو أن الزَّمان بها يسخو من النفس لا دار السلام ولا الكرخ
معـــاهد أنس عُطّلت فكأنــها ظـواهر ألفـاظ تعمّـدها النّســـخ

هذه هي أهم الحواضر العلمية التي عرفها المغرب العربي في قرونه الأولى الزاهية، وقد مرّت دويلات عدّة على هذه الحواضر وشكّلت منها عواصم سياسية وثقافية لها، وقد رأينا كيف انتقل الاهتمام بالفكر والأدب من حال إلى حال، وعلى الرغم من حالة عدم الاستقرار التي طبعت الإقليم المغربي في تلك الفترة إلاَّ أنَّ اهتمام الأمراء والقادة بالعلم وتشجيعهم لأهله خرّج لنا طائفة من الأدباء والعلمـاء الأفـذاذ الذين خدموا التراث الأدبي والعلمي بالبلاد المغربيـة، وأضحت بلاد المغرب تفخـر بذكرهم وتزدهي بإنتاجهم .

---

(1) ابن الأحمر الغرناطي، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، (م، س)، ص: (45 ـ 48) .
(2) فيـلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، (مر، س)، ص: 39 .
(3) ينظر: الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري ، (مر، س) ، ص: 184 .

وليس لي أخيرا إلا أن أنقل ما ذكره بشير خلدون وهو يلخّص الوضع العام لبلاد المغرب العربي في الفترة التي نكتب عنها، حيث نجده يقول: "إنَّه إذا كانت فترة هذه حقيقتـها، رجالها علماء وأدباء وشعراء، وأولي الأمر فيهم لا يقلون نباهة وفهما عن أولئك ، فلا غرابة أن تظفر بعد ذلك بهذه الحركية الثقافية المزدهرة، وبالتالي بهذه الحركة النقدية التي تميزت بشخصياتها وتصانيفها في مختلف الآداب والعلوم والفنون "[1] .

9- إسهامات الحواضر العلمية المغربية الكبرى في الازدهار العلمي والأدبي:

يمكن القول بأن المراكز والحواضر العلمية المنتشرة عبر إقليم المغرب العربي، قد أسهمت بشكل كبير في الارتقاء بالفكر والتراث العربي الإسلامي، من خلال الاهتمام ببناء المساجد والمدارس وكذا بيوتات العلماء، مما جعل هذه البلاد قبلة لأصحاب العلم المتبحّرين في سائر شؤون المعرفة، والذين بفضلهم ارتقت الثقافة وانتشرت العلوم والفنون والآداب، وإنَّ تنقّل هؤلاء الكبراء من الأعلام إلى العواصم المغربية في تلك الفترة خاصة القيروان، وبجاية، وفاس، ومراكش، وتلمسان كان له أثره الإيجابي على ساكنة هذه البلدان، فانتشر العلم وكثرت التآليف وازداد النّسخ لكتب العلم، الأمر الذي ساهم بشكل جليّ في انتعاش الحركة الفكرية والثقافية، وانتشار العلوم والآداب، واستفاد الناس من ذالك وانتفعوا به غاية الانتفاع، وللتدليل على قوة الازدهار الذي وصلت إليه بعض الحواضر المغربية .

تجدرُ الإشارة في هذا المجال إلى ما بلغته حاضرة المغرب الأولى في الفترة التي نكتب عنها ـ أي القرنين الرابع والخامس الهجريين ـ حيث بلغت القيروان لذالك العهد من التمدّن والحضارة ما لم تبلغه مدينة أخرى من مدن المغرب وحواضره، فقصدها أكابر العلماء وأفواج المتعلمين للاستفادة من فيض مجالسها العلمية وجميل محاسنها، حتى وُصفت بأنها رابعة الأمصار العربية ارتيادا وطلبا للعلوم وسائر الفنون إلى جانب الكوفة ودمشق وبغداد .

وبذلك فقد نهض الفكر وتشعّبت مناحي الثقافة والأدب ببلاد المغرب بشكل واسع، وظهرت للآفاق بوادر ثقافة محلية مغربية تحدُو وتناظر أختها المشرقية، خاصة إبَّان حكم الزّيريين في

(1) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، المطبعة الوطنية للجيش الجزائر، (دط، 2007م)، ص:34 .

القرن الخامس الهجري،"حيث جنح الناس إلى الآداب الرفيعة يطلبونها، وإلى معالي المعارف يلتمسون طُرقها، فزها الأدب وسار الشعر في مدارج الارتقاء، وراجت سوقُ الأفكار أيَّما رواجٍ "[1].

9-1- العوامل التي رفدت العلم وساهمت في الازدهار الأدبي والرقي الفكري:

تهيّأ لذلك الرّقي الفكري بالعواصم المغربية عوامل كثيرة أهمـــهـــا، انتشار المكتبات، وكثرة دور العلم، الأمر الذي جعل الناس يقبلون على التماس العلم وحضور المجالس التعليمية، وفضلا عن ذلك فقد كان لاهتمامات الأمراء الزيريين، وتشجيعهم للعلماء والأدباء عن طريق إجزال العطايا لهم الدور الكبير في تحبيب الناس في العلم واهتمامهم بروافد المعرفة والثقافة، وتنقُل لنا كتب الأدب والتاريخ أن المعز بن باديس" كان محبًا لأهل العلم كثير العطاء لهم، حتى مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء وكانت حضرته محطّ بنـي الأمال"[2].

وتتجلى لنا صوره هذا الأمير في محبّته للعلم واحتفائه بالعلماء أكثر مع ابن عذارى المراكشي حيتما يقول: "ولم يكن أحدٌ في زمانه أشدّ بأسا في الملاحم، ولا أطول يدا بالمكارم، ولا أعنى بلسان العرب ولا أحنى على أهل الأدب منه "[3].

وعلى ذلك يمكن القول بأن الحضارة والثقافة قد بلغت مبلغا عظيما على عهد الدولة الصنهاجية، ونبغ عدد كبير من العلماء والأدباء وظل البلاط الصنهاجي عامرا زاخرا بكثير من نُبغائهم[4]، واستمر ازدهارا الحضارة وتقدّم العلوم والآداب ببلاد المغرب إلى غاية منتصف القرن الخامس الهجري، حيث توقّفت المسيرة الحضارية إثر زحف القبائل الهلالية وتدميرهم لحضارة القيروان، يقول أحمد أمين:" لقد تطور الأدب والثقافة ببلاد المغرب غاية التطور على أيام الدولة الصنهاجية الزيــرية، وتطور معها الاهتمام بالعربية حتى غدت هي اللغة الرسمية للدولة وقتها، وقد اعتبر كثير من

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب ،المنتخب المدرسي في الأدب التونسي، المطبعة الأميرية القاهرة، ط2، 1944م، ص: 50 .

(2) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت لبنان، دط، 1970م ، ج/5 ، ص 233 .

(3) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، (م، س) ،ج/1، ص:297 .

(4) يعتبر العصر الصَّنهاجي بلا خلاف العصر الذهبي للحياة الثقافية بالمغرب العربي الكبير، والذي امتد لمائتي سنة تقريبا، من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن السادس الهجري .

المؤرخين أن فترة حكم الصّنهاجيين تعدّ بمثابة العصر الذهبي لبلاد المغرب في ميادين المعرفة بشتى أنواعها وفروعها"[1].

وما يقال عن القيروان يقال أيضا عن بجاية الحمادية، فقد كانت بجاية أيام عظمتها عاصمة علمية تدرّس بها العلوم العقلية والفقهية على اختلاف فنونها، وقد جمع الغبريـني في تراجم عُلماء المائة السابعة كتابه ـ عُنوان الدراية ـ وذكر فيه ما ذكر من العلماء والأعلام .

وإنَّ مـمَّا زاد في توهُّج الحواضر المغربية في الفترة التي نكتب عنها ذلك الاهتمام الذي أولاه الأمراء والقادة للعلم والأدب، من خلال تقريب حامليه وتوقيرهم، وإحاطتهم بالرعاية الكاملة والاهتمام اللازم، خاصة في القرن الخامس الهجري، والذي يعدُّه الكثير من الدارسين العصر الذَّهبي للثقافة والفكر والأدب المغربي .

* * *

(1) أمين أحمد، ظهر الإسلام ، (مر، س)، ج/1، ص: 304 .

الفصل الأول

التأصيل لجذور الأدب والنقد بالمغرب العربي القديم

1- النقد الأدبي، المفهوم والمصطلح .
2- عوامل انتشار الثقافة العربية، وتعرّب أهل المغرب .
3- منطلقات الأدب وبدايات تشكُّل المعرفة بالمغرب العربي.
4 ـ الحركة العلمية والأدبية وتمظهراتها بالمغرب العربي حتى القرن الخامس الهجري.
5- عوامل وأسباب تأخّر الحركة الأدبية والنقديّة بالمغرب العربي.
6- دور الأمراء والقادة في تشجيع الحركة الأدبية والشعرية ببلاد المغرب العربي.
7- النقد المغربي القديم اتجاهاته وروافده .

ماذا عن الجذور الأولى للأدب والنقد بالبلاد المغربية؟ وكيف تسرّبت الثقافة العربية إلى هذا الإقليم النَّائي عن بلاد المشرق؟ وماذا عن حركة العلم والأدب بهذا الإقليم الذي وجَدَ نفسه في غفلة من الزمن يتكلّم اللغة العربية بل ويمارس هِواية الكتابة بها؟ وما هي العَوامل التي ساعدت على انتشار العربية ومن ثمّة تعرُّب أهل هذا الإقليم؟ وما أبرزُ عوامل وأسباب تأخُّر الحركة الأدبية والنقدية بالمغرب العربي؟ وكيف تجلَّى وتَمظهَر هذا الحراك العلمي، وما هي روافده واتجاهاته؟

هذه الأسئلة وأخرى ستكون محل مُدارسة وبحث في هذا الفصل، في محاولة منِّي لتقديم إجابات شافية، تجعلنا على اطِّلاع واسع بواقع هذه البلاد التي نحن بصدد الكتابة عنها، والتعرف على حال الأدب والنقد، ومُنطلقات العلم والفكر في بلاد لم تكن شيئا مذكورا، لكنَّها أصبحت جُزءًا من الثقافة العربية بعد أن دخلها الفاتحون وأقاموا بها حضارة زاهيـة هي التي نَغْرف من مَعينها اليوم، ويفخر بها كل من تغذّت جُذوره بتربتها، واستنشق عَبير المعرفة تحت سَمائِها .

1ـ1 ـ النقـد الأدبــي المفهوم والمصلح: أما عن مادة ـ النّقد ـ ومدلُولها اللغـوي فإنها تأتي بمعان كثيـرة أهمُّـهـا [1]:

ـ تمييز الدّراهم ومعرفة جيّدها من رديئـها كما في قول سيبويـه [2] :

تَنفِي يَداهَا الحصَى فِي كُلّ هَاجِرة نَفْيُ الدّنانِيـر تَنقَـادُ الصّيَارِيفُ

ـ وتأتي هذه الكلمة أيضا بمعنى الإعطاء، فتقول نقده الدنانير، ونقده الدراهم إذا أعطاها إيّاه فانتقدها منه، أي أخذها وقبضها منه .

ـ كما تأتي كلمة نقد بمعنى اختلاس النَّظر نحو الشيء، فتقول نقدَ الرجل الشيء بنظره ينقده نقدا، ونقد إليه بمعنى اختلس النظرة إليه، وما زال ينقُد بصره إلى الشيء إذا لم يزل ينظر إليه، والإنسان ينقد الشيء بعينه، وهو مخالسة النظر لئلا يفطن إليه[3] .

---

(1) ينظر:الفيروز أبادي ـ مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط، دت)، ج/1، ص: 341 وينظر: الجداونه حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، اربـد الأردن، (ط1، 2012م)، ص: 13 .

(2) ينظر: ابن رشيق، أبو علي الحسن الأزدي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق وتعليق: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع سوريا، (ط5، 1981م)، ج/2، ص: 276 .

(3) ينظر: حسين الجداونة ، في النقد الأدبي القديم عند العرب ، ص: 14 .

ـ وتأتي الكلمة أيضا بمعنى العَيْب، كما يُفهم من الحديث الشريف الذي رواه أبو الدرداء رضي الله عنه، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال ﴿ **إنْ نَقَدْتَ النَّاس نَقَدُوكَ، وَإذَا تركْتهـمْ تركُـوكَ** ﴾[1]، والمراد إذا أنت عبتهم وعيّرتهم عيّروك وعابُوك [2].

ومنه فإن المضمون العام لكلمة ـ نقد ـ في أكثر المعاجم اللغوية تأتي بمعنى نَقْرُ الشَّيئ واختباره وفحصه، لتمييز جيّده من رديئه، فتقول مثلا: نقد الصَّيرفيُّ الدراهم إذا ميّزها وخلَّصها من الزِّيف[3]، ومن هذا المعنى يأتي المراد بنقد الشعر ونقد النثر، وذلك إذا أظهر ما فيهما من عيب أو حسن، مما يُعطي الانطباع بأن هذه المعـاني اللغوية ذات صلة وثيقة بالمعنى الاصطلاحي للنقد الأدبي[4].

أما عن النقد الأدبي بمعناه الاصطلاحي فيعني: "النظر في الأعمال الأدبية ودراستها بُغية تمييز رديئها من جيّدها، والوقوف على أسرار جودتها وجمالها ، اعتمادا على قواعد متعارف عليها "[5].

وقيل في تعريف النقد الأدبي" بأنه فن تحليل الآثار الأدبية، والتعرّف إلى العناصر المكوّنة لها للانتهاء إلى إصدار حكم يتعلّق بمبلغها من الإجادة، وهو يصفها أيضاً وصفا كاملا معنى ومبنى ويتوقف عند المنابع البعيدة والمباشرة والفكرة الرئيسية، وميزات الأسلوب، وكلُّ مركَّبات الآثار الأدبية"[6]، وعرّفه بعضهم بقوله" هو تقدير النص الأدبي تقديرا صحيحا، وبيان قيمته ودرجته الأدبية"[7]، وبذلك فإن النقد يخضع لمجموعة من الإجراءات التي تتمثّل في: قراءة النص، وملاحظة عناصره وتحليل مضمونه وشكله، وأخيرا تقويمه، وعليه فإن النقد في مفهومه الاصطلاحي يعني قراءة النّصوص ووصفها وتفسيرها، وتحليلها واستظهار نتائجها، ثم تقويمها بالحكم عليها بالجودة أو الرداءة استناد إلى مجموعة من الأسُس والمعايير النقدية [8] .

---

(1) الحديث رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، كما رواه الطبراني في المعجم الكبير، وقيل إنه من كلام أبي الدّرداء ، وليس من كلام النبي (صلى الله عليه وسلّم)، وهذا ما يعرف في مصطلح الحديث، بالحديث الموقوف .

(2) ينظر: سامي يوسف أبو زيد، النقد العربي القديم، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان الأردن، ط1، 2013م ، ص: 19 .

(3) عتيق عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان ، ط4، 1986م، ص: 08

(4) ينظر: الكـواز محمد كريم، البلاغة والنـقد ـ المصطلح والنشأة والتجديد ـ مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، (ط1 ، 2006م)، ص: 46.

(5) الجداونة حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب ،(مر، س) ص: 14 .

(6) أبو زيد سامي يوسف، النقد الأدبي القديم، ص: 19 .

(7) الشايب أحمد، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10، 1994م، ص: 116 .

(8) ينظر: الجداونة حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص: 16 .

وما تجدر الإشارة إليه هو أن كلمة ـ نقد ـ وما يشتقُّ منها لم تستخدم في تراثنا النقدي العربي القديم بهذا المفهوم إلا مع نهاية القرن الثالث الهجري، وهي تدلّ على تمييز جيّد الشعر من رديئه كما في قول بعضهم:" رآني البُحتري ـ الشاعر العباسي ـ ومعي دفتر شعر فقال: ما هذا؟ فقلت شعر الشنفرى ـ الشاعر الجاهلي ـ فقال وإلى أين تمضي؟ فقلت إلى أبي العباس المبرّد[1] أقرأ عليه، فقال: قد رأيت أبا عبّاسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة، فما رأيته ناقداً للشعر، ولا مميِّزا للألفاظ، ورأيته يستجيدُ شيئا وينشده، وما هو بأفضل الشعر، فقلت له ، أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى "[2].

وعلى ذلك فإنه وعلى الرغم من أن الجاهليين والإسلاميين مارسوا الفعل النقدي عمليا، إلا أننا لا نكاد نعثر على كلمة ـ نقد ـ إلا في الفترة التاريخية التي سبقت الإشارة إليها،كما يذهب إلى ذلك عديد النقاد والدارسين [3]، وإن أكثر ما نجده عند النقاد الأوائل في تعبيراتهم عن هذه الممارسة هو عبارة: " العلم بالشعر"[4] .

انطلاقا مما سبق يتبيّن لنا أن استخدام مفهوم النقد إنما كان مع ظهور قدامة بن جعفر (ت337هـ) وكتابه (نقد الشعر)، حيث أصبح هذا المصطلح علما قائما بذاته، وقد وجدنا طائفة من الأدباء والنقاد بعد هذا التاريخ يستخدمون في كتاباتهم مصطلح النقد، كما هو الحال مع ابن رشيق القيرواني وكتابه (العمدة في محاسن الشعر ، وآدابه ونقده)، على أننا نجزم القول أنَّ العرب إنما عرفوا ـ النقد الأدبي ـ معنى لا اسما، أو عرفُوه كُنهًا لا حقيقة، وإن لم يعْرفوه عُنوانا لطائفة من المسائل، كما يقول طه أحمد إبراهيم[5]، ومثال ذلك الكتب النقدية الكثيرة التي ظهرت تدرس النقد واقعا وتطبيقاً، وإن لم تتفق عليه باصطلاحه الذي عُرف به فيما بعد مع قدامة ابن جعفر، ومن هذه الدّواوين

---

(1) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير الأزدي المعروف بالمبرّد، عاش في الفترة من (210 ـ 286هـ)، عالم لغوي ونحوي كبير ، يعّد من العلماء القلائل الذين تشعّبت معارفهم وتنوّعت ثقافتهم لتشمل العديد من العلوم والفنون ، إلاّ أنه اشتهر بالتبحّر أكثر في العلوم البلاغية والنحوية ، ترك لنا مصنفات كثيرة في مجال تخصصه من ذلك: كتابه الكامل في اللغة والأدب، وكتابه الآخر، الفاضل ، وكذا كتاب المقتضب، وشرح لامية العرب، ينظر:الزبيـدي، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، مصر، (ط2، دت)، ص: (101 ـ 105) .

(2) الكواز محمد كريم، البلاغة والنقد ـ المصطلح والنشأة والتجديد، (مر ، س)، ص: 47 .

(3) وجدنا هذا التحديد الزّمني عند كثير من الباحثين الذين يجعلون من قدامة بن جعفر، الرجل الأول الذي ذكر في كتابه ـ نقد الشعر ـ هذه هذه المادة عندما راح يعرّف النقد بأنه :(فن تمييز جيّد الشعر من رديئه) ، ينظر في ذلك كتابه: نقد الشعر ، ص: 02 ، وللتوسع أكثر يرجى الاطلاع على كتاب: البلاغة والنقد، لمحمد الكـواز، ص: (47 ـ 48) .

(4) ينظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، (ط2 ،1974م).ص:07 .

(5) ينظر كتابه، النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، مكتبة الفيصلية، مكـة، 2004، ص: 18 .

النقدية التي خاض أصحابها في ميدان النقد نذكر: ابن سلام الجُمحي(ت 232هـ) في كتابه الذي عَنونَهُ تحت مسمَّى (طبقات فحول الشعراء)، ومنها أيضا ابن قتيبة (ت276هـ) مع مؤلّفه النقدي(الشعر والشعراء)، ومن ذلك أيضا ابن طباطبا(ت322هـ) في (عيار الشعر)، وكل هؤلاء النقاد الأعلام ظهروا قبل قدامة بن جعفر[1].

أما عن مفهوم النقد ودلالاته اللغوية والاصطلاحية في التراث النقدي المغربي فإننا لا نجد أثرا لذلك لديهم، وإنما اهتم أكثريتهم بالتطبيق النقدي والتتبّع الفعلي للعملية النقدية، باستثناء ما أشار إليه ابن شرف القيرواني في معرض حديثه عن شروط الناقد وما يجب أن يتوافر فيه لممارسة العمل النقدي حيث نلفاهُ يسأل أبا الرّيان ـ تلك الشخصية المحورية التي أقام عليها مقامته ـ قائلا، يا أبا الرَّيان:" لقد رأيت لك نقدا مُصيبا ومرمى عجيبا، ولقد أرغب في أن أنال منه نصيبا، ـ فيبادر أبو الرّيان إلى إجابة ابن شرف إلى ما يريد قائلاً: إنَّ النقد هبةٌ في الموالِدِ ، وفيه زيادة طارفٍ إلى تالدٍ، ثم يقدم توجيهات عامة لمن يريد أن يخوض في هذه الصنعة قائلا: أول ما عليه تعتمد وإياه تعتقد، ألاّ تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستراد ولا باستملاح، حتى تُنعم النظر، وتستخدم الفكر، واعلم أن العجلة في كل شيء مَوطئ زُلُـوق ومركَب زهوقٍ، فإن من الشعر ما يملأ بلفظه المسامع ويرد على السامع منه قعاقع، فلا ترُعكَ شماخَـة مبناه، وانظر إلى ما في سكناه من معناه، فإن كان في البيت ساكن فتلك المحاسن، وإن كان خاليا فاعدده جسما باليا، وكذلك إذا سمعت ألفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما في أضعافها، فكم من معنى عجيب في لفظ غير غريب " [2].

وهكذا نلاحظ أن ابن شرف وإن لم يقدّم مفهومه الخاص للنَّقد، إلاَّ أنَّه طرح فكرته ورؤيته للعملية النقدية، وما يجب أن يكون عليه الناقد الجهْبذُ العارف بخبايا صنعته .

وأمّا عن مادة النقد والجسم الذي يتحرّك فيه، فهي بلا شكّ الأدب، وكل الميراث الفكري الذي يبدعه ويخلّفه الإنسان بشكل عام، يقول عبد العزيز عتيق: " فالأدب هو موضوع النقد وميدانه الذي يتحرّك فيه، فهو يبحث في الأدب وصناعته وأنواعه، وفي الأدباء ونتاجهم، وفي مميّزات الشعراء والكتاب وفي السّمات المميّزة للعصور الأدبية، كما يتصدى النقد لرصد الظواهر الأدبية وتحليلها

(1) ينظر: محمد الكـواز، البلاغة والنقد،(مر، س)، ص: 48 .

(2) ابن شرف القيرواني، أبي عبد الله محمد ، أعلام الكلام، تصحيح وضبط: عبد العزيز أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1344هـ، 1926م ، ص: (27 ـ 28) .

وتفسيرها "[1]، وبذلك فإن النَّقد يكون دائما متصلا بالأدب، يستمدّ منه وُجوده، ويسير في ظلّه يرصدُ خُطاه واتجاهاته.

وإن النقد العربي القديم تناول الشعر أكثر من تناوله للنثر، اعتبارا من أن العرب عرف عنهم أنهم أمة الشعر، وهم وإن أنتجوا نثرا في شكل خطب وحكم وأمثال ورسائل، إلّا أنه لم يؤثر عنهم كبير اهتمام به، بل كان جُلّ اهتمامهم بالشعر، ذلك أنَّ النقد إنما هو صناعة كسائر الصناعات، وهذه الصناعة إنما هي متّصلة بالأدب ومرتبطة به ، وهو صناعة تذوّق لا صناعة خلق وإنشاءٍ .

لهذا كان النقد متوقّف على وجود الأدب والبيان، وليس فنّا قائما بذاته كما يقول ابن سلاّم الجمّحي:" وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم بها كسائر أصناف العلم والصناعات ،منها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان، ومن ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يُعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة بالبصر، ومن ذلك الجهْبذة بالدينار والدرهم لا تُعرف جودتهما بلون ولا مسّ ولا طراز ولا وسم ولا صفة، إنما يعرفه الناقد بعد المعاينة، فيعرف بهرجها من زائفها، ومنه البصر بغريب النَّخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده، من تشابه لونه وزرعه ومسّه، حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون، جيدة الشطب، معتدلة القوام، نقية الثغر، حسنة العين والأنف، جيّدة النهود، ظريفة اللسان، واردة الشعر ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار وبمأتي دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر، لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة " [2] .

1 ـ 2 ـ **النقـد العربـي بين الموهبـة والاكتساب** : كانت ملكة النقد عند العرب في القديم تعدّ موهبـةً مثلها مثل القدرة على ارتجال الكلام، والمقدرة على الإبداع،" وإنما كان النقد لديهم يعدُّ موهبة، لأن الناقد فيهم لم يكن هو نفسه يستشعر أو يعي بها، وبذلك فإن الدُّربة أو الممارسة كانت

---

(1) عتيق عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص: 05، وعن ذلك يقول الأدباء والدارسون أيضا : (إن النقد لا ينفصل عن الأدب، فالأدب هو موضوع النقد وميدانه الذي يعمل فيه، وأدب أيّـة أمة هو الموروث من بليغ شعرها ونثرها ، والأدب عملية خلق وإبداع، والنقد هو الذي يستكشف مدى إبداع الأدب أو إتباعه ، وعلى ذلك فإن الأدب سابق عن النقد، والنقد لا يكون إلا بعد أن يكون الأدب)، ينظر: الكـواز محمد كريم، النقد والبلاغة، ص:45 .

(2) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، (م، س)، ص: (8 ـ9).

تُعزى إليها هذه الموهبة أحيانا، لم تكن سوى مقوّمات وقدرات انصهرت في ذهن صاحبها، جعلته يُصبح ذا ملكة نقدية يتميّز بها عن غيره "[1] .

هذه المرحلة الأولى للممارسة النقدية اعتبرها الدارسون مرحلة النقد الحسيّ، أي التي قوامها الذّوق الشخصي، ويأتي الذّوق بمعناه امتلاك القدرة على تقدير وتقويم الأثر الفني، أي تقدير مكامن الجمال والإبداع فيه [2]، والمتتبّع للُغة النقد العربي في مسيرتها الطويلة، يجد أنها ابتدأت بسيطة مجرّد جُمل نقدية تعكس طبيعة الملاحظات التي لا تتعدى الانطباع والتعبير عن الانفعال الذاتي بعبارات مقتضبة "وهذا يعني أن الغالب على المواقف النقدية هو التذوّق والتأثر والانطباع العاجل، أما الفكر المنظّم وما ينبعث عنه من التحليل والتعليل والاستنباط فغير موجود "[3]

وقد كان الناقد العربي في القديم، وانطلاقا من ذوقه الخاص" يُصدر أحكاما فردية مباشرة في تقويم بعض الأعمال الأدبية أو أجزاء منها، كأن يقوم بتقويم مقتضب لشاعرية شاعر أو خطابة خطيب دون تقديم تعليلات أو تبريرات لذلك، وهذه الملكة عندهم إنما تتكوّن لدى الناقد من كثرة ممارسته لكلام العرب، وكثرة تكرُّره على اللسان، وطول سماعه، وكان الأوائل في ممارستهم للعملية النقدية عندما يسألون عن مصدر خِبرته النقدية ، أو الأسس التي يعتمد عليها في استصدار أحكامه النقدية، نجده في أحسن الأحوال يقوم بتقديم نصيحة لغيره يدعوه إلى الإكثار من سماع الأشعار والخطب وكلام العرب، حتى تتكوّن لديه القدرة على التمييز بين جيّد الكلام ورديئــه " [4].

وشيئا فشيئا تغيّرت النظرة إلى الناقد، وأصبحت الموهبة وحدها لا تكفي بل لابدّ من الدربة والمران والممارسة، " فهذا ابن سلام يرى أن الناقد لا يستطيع حذق صناعة العلم بالشعر إلا إذا تمرَّن على النصوص وفقَ طريقَة تَشكُّلِها عند العرب، وهي مهمّة لا يضطلع بها القارئ إلاّ بكثرة المدارسة، ومن هنا كان لكل صناعة قوم يدركون أبعادها وأسسها، ولا يستطيع الإنسان أن يَسْبِر أغوار أي علم

---

(1) ينظر: إبراهيم عبد النور، اتجاهات النقد في المغرب العربي بين القرن الرابع والثامن الهجري، مخطوط دكتوراه، جامعة وهران، 2009م ص: 43 .

(2) ظهر النقد الأدبي عند العرب منذ العصر الجاهلي في شكل أحكام اعتباطيــة ذوقيـة، وموازنات ذات أحكام فردية تأثّرية مبنية على الاستنتاجات الذاتية، كما نلمس ذلك مع النابغة الذبياني في تقويمه لشعر الخنساء مع حسان بن ثابت، كما قامت الأسواق العربية الأدبية وقتها ـ، خاصة سوق عكاظ ثم سوق المربد بالبصرة ـ ، بدور هام في تنشيط الحركة النقدية .

(3) رشدي محمد عبد السلام، لغة النقد العربي القديم بين المعيارية والوصفية حتى نهاية القرن السابع الهجري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، (ط1، 2008م)، ص: (25 ــ 26) .

(4) إبراهيم عبد النور، اتجاهات النقد في المغرب العربي، (مر، س)، ص: 44 .

إلاَّ إذا تخصَّص فيه، والناقد هو قارئ متخصِّص في صناعة الشعر، والمتخصص يرى في النص الأدبي مالا يراه غير المتخصص، وأن الخبرة هي التي تجعل صاحبها قادرا على اكتشاف ما لم يكتشفه غير الخبير بالنص"[1]، وقد أكّد ابن سلام على هذا المبدأ عندما نقل لنا ذلك الحوار الذي دار بين خلف الأحمر (ت**180**هـ) وأحد محاوريه قائلا :" وقال قائل لخلف، إذا سمعتُ أنا بالشعر أستحسنُه، فما أبالي ما قلت أنت فيه وأصحابك، قال: إذا أخذت درهما فاستحسنته فقال لك الصّراف إنه رديء؛ فهل ينفعك استحْسانُك إيّاه "[2] .

هذه هي الصورة الحقيقية التي أراد ابن سلام أن يلحقها بالناقد،" وهي صورة الخبير عند المعاينة لأنها هي التي تجعل الناقد يضطلع بوظيفة معاينة النصوص والتمييز بين غثّها وسمينها "[3]، وقد فَطن ابن سلام لأهمية هذا الأمر في حياة الناقد، ودعاه إلى ضرورة التعلُّم والقراءة ومخالطة الأدب وكثرة مُدارسته فقال:" إنَّ كثرة المدارسة للشيء تُعين على العلم به، وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به"[4].

إنَّ ابن سلام كما يذكر سامي يوسف أبو زيد في كتابه (النقد العربي القديم)،" يعتبر من أوائل النقاد الذين تنبَّهوا إلى أهمية المران والدُّربة للناقد، ولذلك نجده يضع مجموعة من الشروط التي يجب توافرها في الناقد البصير والتي هي:[5]

- الذوق والفطرة، والتي تتجلى في الموهبة والطبع السّليم
- التحقُّق من صحة النصوص وصحة نسبتها لقائليها .
- الدربة والممارسة وذلك بالتعاطي والتعامل مع النّصوص .
- المعرفة بخصائص الشعر، إذ أن لكل فنٍّ أسراره التي لا يدركها سوى الخبير البصير بذلك الفــن .

---

(1) صدقــة إبراهيم، النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي، دار عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، (ط1 ،2011م)، ص: (12 ـ13) .

(2) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، (مر، س) ص: 07، وينظر: ابن رشيق: العمدة، ج/1، ص:117 .

(3) صدقة إبراهيم، النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي ، (مر،س)، ص: 14 .

(4) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص: 08 .

(5) ينظر كتابه، النقد العربي القديم، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان الأردن، ط1، 2013م ص: (92 ـ 93) .

كما نجد القاضي الجرجاني (ت395هـ) يتحدَّث عن أهمية الثقافة بالنسبة للمبدع حتى يلمَّ بمهنته فيقول:" إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدُّربة مادة له، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان"[1].

وهو في نفس الوقت يُشيد بالناقد، ويُعلي من شأنه، ويجعل له مراتب ودرجات، حيث أنه أوجب للناقد البصير أن تتوافر فيه " صحَّةُ الطبع وإدمان النظر والرياضة "[2]، ومُراده من وراء ذلك هو أن يكون كثير الرواية والمحفوظ، حسنُ الدِّراية والفهم، وكما يقال في لغتنا اليوم، أن تتوفّر لديه حصيلة معرفية وثقافية عالية، مسنُودة بشيء من الدُّربة والمران والممارسة الكافية .

ويأتي ابن خلدون ليؤكّد على أهمية توفُّر جانب الثقافة في الناقد، وهي التي يسميها بالملكة فيقول:" وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب، وتكرّره على السمع، والتفطّن لخواص تركيبه، وليست تحصُل بمعرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل صناعة اللسان "[3]، وبذلك فإن الناقد الحقَّ هو الذي وقف على قدر مُوسّعٍ من المعرفة، تكون له عونا في رصد الأعمال الأدبية وتحليلها، لأنه بالحصيلة الثقافية فقط يضمن سلامة أحكامه وصوابها .

على أن النقد الأدبي الحديث، فإنه وإن كان يهتم بأمر الثقافة والتوسع المعرفي بالنسبة للناقد، إلا أننا نلحظ عليه أنه قد تجاوز هذه المرحلة واصطنع مناهج علمية صارمة لذلك، يلجأ إليها الناقد في ممارسة إسقاطاته وسلطته النقدية .

2-1- عوامل انتشار الثقـافة العربيـة، وتعـرُّب أهـل المغرب:

تشكَّلت الثقافة العربية بالبلاد المغربية إثر الفتوحات الإسلامية التي جعلت من أهل البربر في حالة إقبال وانفتاح على الثقافة العربية المشرقية، والاغتراف منها على اختلاف مصادرها ومنابعها وتنوعها[4]، ويأتي في مقدمة ذلك كله " الثقافة الدينية والأدبية واللغوية، والتي تشكَّلت لدى ساكنة

---

(1) القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ومحمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية مصر، (ط2، 1951م)، ص:15 .

(2) المصدر نفسه، ص : 413 .

(3) ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، المقدمة، تاريخ العلامة ابن خلدون ، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دط، 1984م)، ج/2، ص: (730 ـ 731) .

(4) غرضنا من إيراد هذا العنصر هو بيان الروافد والدعائم الأولى لتشكل الثقافة العربية بين أهل المغرب الذين هم في الأصل أمازيغ لا يتكلمون العربية ولا يعرفونها، لكن اندماجهم مع العرب الفاتحين سرعان ما أذهب عنهم العُجمة ، فصاروا يتكلمون العربية بل ويبدعون بها .

إقليم المغرب منذ القرون الهجرية الأولى"[1]، ولقد كان الفتح الإسلامي لبلاد الأمازيغ في شمال إفريقيا فاتحة خير على أهل هذه البلاد، حيث انتشر الدين وفشا العلم واللغة العربية، فتعرّبت قبائل بأكملها في فترة وجيزة عن طريق انتشار الإسلام، الأمر الذي مكّن للغة العربية من الانتشار والسيادة، "ولم تبق بذلك العربية لغة للعرب وحدهم، كما لم تبق العلوم العربية حكرا على أهل المشرق دون غيرهم، وإنما أصبحت العربية وعلومها منتشرة في مختلف الأقطار المفتوحة" [2].

ولم يتخلّف المغاربة عن الارتواء والتشرّب من اللغة العربية، إنما اهتموا بها وتنافسوا على تعلّمها والتمكن فيها منذ أن استقرت أقدام الفاتحين ببلادهم، إذ عملوا بكل جد وإخلاص على تعلُّم هذه اللغة وكل ما يتعلق بها من أجل فهمها وفهم الكتاب الذي نزل بها.

وقد زاد من انتشار العربية في بلاد المغرب الهجرات المتتالية للقبائل العربية، خاصة هجرات الهلاليين منتصف القرن الخامس الهجري ويرجع الفضل في الانتشار السريع للعربية كونها لغة القرآن ولغة الدين الإسلامي، الأمر الذي جعل من تعلّمها واستعمالها ضروريا كونها الوسيلة إلى إقامة شعائر الإسلام وتطبيق مبادئ الدين، وشيئا فشيئا درج اللّسان البربري على اللغة العربية، وربما ساهمت عمليات تعريب الدواوين في انتشار الغربية وتوسّع استعمالها، ولم يجد الموظفّون من البربر بدّا من تعلّمها، خاصة بعد أن أصبحت لغة التّدوين والسياسة فضلا عن كونها لغة الدين والأدب والثقافة، وبذلك حصل التطوّر في استعمال العربية، وأصبح الناس يهتمون بشأنها، فانكبوا على تعلمها باعتبارها الأداة الأولى في نقل العلوم والمعارف الجديدة .

وعن ذلك يقول عبد الله كنون[3]:" نتيجة طبيعية أن يتعرّب أهل المغرب بعد إسلامهم، ويتعلموا لغة التنزيل الذي هو دستور الإسلام والمصدر الأول لجميع أحكامه وتعاليمه، فإنما بالعربية تفهم أصوله وفروعه، وتقرّر شرائعه وأحكامه على أنه إذا كان الإسلام دين الفطرة والخلق القويم مستعدا بذاته للانتشار، فكذلك هذه الفصحى لغة البيان والشعر، تمتلك برقّتها القلوب وتستلب

---

(1) التليسي بشير رمضان، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي (مر، س)، ص: (90 ـ 91) .

(2) فلكاوي رشيد، مساهمة علماء دولة بني حماد في نشر اللغة العربية، مقال علمي، مجلة اللغة والاتصال، مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، العدد: (9 ـ 10)، نوفمبر 2011م ، ص:291 .

(3) عبد الله كنون أديب وشاعر ومؤرخ مغربي، أحد رواد الثقافة والأدب بالمغرب الأقصى، عاش في الفترة من: (1989/1908م) كان من ألمع جيل الرواد الذين بنو النهضة وناضلوا من أجل الاستقلال، هو مؤسس النهضة التعليمية بطنجة ومربي الأجيال، خلف لنا أثرا قيما في الدراسات الأدبية، هو كتابه المسمى: النبوغ المغربي في الأدب العربي ، في التعريف به ينظر ،الصفحات الأخيرة من كتابه (النبوغ المغربي) .

العقول، وأحرّ بالشعب الذي دخلاه معا فرحَّب بهما وأحسن استقبالهما، أن يشهد التطور العتيد والفتح الجديد في مزاجه وعقليته وحياته العامة، ولقد سارت العربية في المغرب أول الأمر بسير الإسلام مترسّمة خطاهُ متّبعة آثاره" [1].

هكذا بدأ سريان مفعول العربية بين سكان البربر، وساعد على ذلك وبدرجة أكبر دخول أهل المغرب الدّين الجديد الذي جاء به الفاتحون، لأنَّ مقتضيات الدخول في الإسلام تُلزم على صاحبه الإلمام والمعرفة بالعربية باعتبارها لغة العبادة ولسان الحكام الجدد للإقليم المغربي، تبعا للقاعدة المعروفة "بأن المغلوب مُولع بتقليد الغالب"[2] كما يقول ابن خلدون، والقوي هو الذي يفرض سلطانه في الدين واللسان والعادة والعبادة .

وحقيقٌ بنا أن ننقل هاهنا كلاما للمستشرق المجري جورج مارسيه، وهو يعبّر عن هذه الحالة فيقول:" وربما ساعد أكثر دخول أهل البربر في الإسلام وامتزاجهم مع العرب الفاتحين على تعلُّم العربية وانتشار وتوسّع نشاطها، لأن اللغة العربية كانت مرتبطة بمصير الإسلام باعتبارها لغة الكتاب المنزّل، وكان اكتساب وتعلّم البربر للغة المسلمين أكثر من ضرورة، من أجل القيام بشعائر العبادات كالصلاة، ومعرفة مضمون العقيدة الجديدة، كما أن التبادل والاختلاط بين الفاتحين وأهل البلاد، وضرورات المعاملات التجارية اليومية، أجبر السكان الأصليين على تعلُّم اللغة العربية محتفظين في الوقت نفسه بلغتهم البربرية لمعاملاتهم الخاصة "[3].

وزاد في انتشار العربية بين البربر من سكان المغرب العربي عمليات الزحف والهجرات المتتالية التي قام بها الهلاليون وبني سليم، حيث أن هذا الزحف الهلالي بقدر ما أحدث آثارا سلبية على مستوى المدن والحواضر التي استولوا عليها بالتخريب والتدمير لكل المعالم الحضارية والعمرانية التي مستها أيديهم، إلا أنه في المقابل ساهمت الهجرة الهلالية باتجاه المغرب الأدنى والمغرب الأوسط في تعريب الساكنة، ونشر اللسان العربي كما يقول رابح بونار وهو يكتب عن هذه الظاهرة:"ومن الأشياء الإيجابية التي تحسب للهلاليين في زحفهم على بلاد المغرب أنهم ساهموا في تعريب المنطقة، وإدخال اللسان العربي بقوة إلى الأرياف والبوادي المغربية التي كان غالبية سكانها من البربر الأمازيغ،

---

(1) كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، الرباط المغرب، ط2، 1960م ، ص: 41 .

(2) ابن خلدون، المقدمة، (م، س)، ج/1، ص: 195 .

(3) مارسيـــه جورج ، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي، (م، س)ص:47 .

حيث أثَرت لغة تخاطب قبائل بني هلال في اللسان البربري، وسارت عملية الاستعراب بسير عملية المزج، والمصاهرة، والاحتكاك" [1].

ولعل أبلغ تصوير يمكن لنا أن نسوقه في هذا المقام، في بيان مدى إسهام الهجرات العربية المتتالية من المشرق إلى بلاد المغرب، ودور ذلك في تعريب البربر وانتشار العلم بهذا الإقليم، ما ذكره صاحب الذخيرة بقوله:" إنه بفضل العرب تدفَّقت على القيروان التي لم يكن لأهلها قبل الإسلام نبع ولا غرب، ولا من لسان العرب ورد ولا قرب، فتدفقت عليها علوم العرب وآدابهم، وصارت بها بحور الأدب، وطلعت منها نجوم الكتب، ورمت أقاصي البلاد بمثل ذُرى الأطواد، وسمعنا بزهر الآداب، وأنموذج الشعر اللباب، وبفلان وفلان من كل فارس ميدان، وبحر بلاغة وبيـــان "[2].

2-2- دور الخلفاء والقادة في خدمة العربية بالبلاد المغاربيـة:

يذكر المؤرخون وكتاب السّير أن الاهتمام بالعربية وتعليمها لأهل المغرب بدأ منذ الفتح الأول لهذه البلاد،" عندما قام الوالي حسان بن النّعمان المعيّن من قبل الخلفاء الأمويين والذي عمل على تيسير السُّبل وتمهيد الطُّرق لتقدم وتمكّن وترسُّب الثقافة العربية، وذلك من خلال ما قام به من تدوين الدواوين باللغة العربية، والعمل على جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، بل وفرضه تعليم العربية على المسلمين وغير المسلمين "[3]، ومن دون شك فإنه كان لجهود حسان بن النعمان الأثر الطيب في دعم اللغة العربية، وانتشارها في إفريقية وبلاد المغرب .

ولا ننسى أن نُنـوِّه بالجهود الجليلة التي قام بها الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز المتوفى (سنة **101**هـ)، عندما قام بابتعاث بعثة علمية مكونة من عشرة من الفقهاء وخيرة القراء والمعلمين، من أجل تعليم السكان الأصليين ـ من أهل البربر ـ القرآن وتفقيههم في الدين، وتعليمهم قبل كل ذلك لغة القرآن والتي هي اللغة العربية [4]، وهي كلُّها مجهودات جبارة وأعمال تُحسَب لأصحابها وهم يعملون على نشر الإسلام بكل مقوماته الدينية واللغوية.

---

(1) بونار رابح، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986م، 283 .

(2) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقق: إحسان عباس، الناشر: الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس،ط1 ،1981م المجلد2، القسم 4، ص: (597 ـ 598) .

(3) التليسي بشير، الاتجاهات لثقافية في بلاد الغرب الإسلامي، (مر ـ س)، ص: 72. وينظر عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص:43.

(4) ينظر: جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي، ص: (45 ـ 44)، وشوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، (مر ـ س)، ص: 26 .

ومثلُ ذلك أيضا صنع موسى بن نصير[1]، بتحويله الكنائس إلى مساجد، وبناء مساجد جديدة، وتشجيعه للعملية التعليمية ببلاد المغرب، "عندما رتَّب عددا من القراء والفقهاء ـ سبعة عشر عربيا مثقفا بتعبير جورج مارسيه ـ للغرض نفسه، في محاولات جادة منه، كانت لها نتيجتها الطيبة وأثرها المحمود في سرعة استعراب المغاربة، وتطبعهم بالطابع العربي الصّميم" [2].

وبذلك فإن دخول المسلمين إلى بلاد المغرب العربي كان فتحا دينيا وعلميا بالدرجة الأولى ذلك لأن المسلمين كانوا أصحاب رسالة، ففتحوا بذلك عيون أهل البلاد الأصليين —البربر– وما كان لأهل المغرب أن يرتقوا ويتطوروا ويبدعوا لولا تعرّفهم على لغة العرب وفهمها وفهم الدِّين الجديد، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: "يمكننا أن نقول في اطمئنان أن القرن الثاني للهجرة أظل بلاد المغرب، وأصبحت بذلك قطرا إسلاميا ينفعل مع التفكير الإسلامي الذي شاع في العصر الأموي، وبدأ اللسان العربي يأخذ مكانته ويرسخ قدمه، خاصة بعد مرحلة التلقي والدّربة على اللغة العربية وأساليبها البلاغية والبيانية، وأخذ اللسان البربري في الصّقل ليكون عربيا خالصا، فكراً ولغةً وحضارة، ثم جاءت المرحلة الثانية ليظهر العلماء والأدباء والشعراء منهم بلسان عربي مبين"[3].

ونتيجة لذلك فقد خضع المغرب للمشرق علميا خاصة في القرون الهجرية الأربعة الأولى، كما خضع له سياسيا ودينيا، وبدأت في إثر ذلك" تنتقل تقاليد الأدب المشرقي والإبداع الشعري خصوصا، فظهر بالبلاد المغربية قصائد عربية مشبعة بمظاهر القصيدة المشرقية، شكلاً وأسلوباً ولغـة"[4] .

2-3- جهود الدويلات الإقليمية المنتشرة في بلاد المغرب في بعث العربية وانتشارها:

لقد ساهمت الجهات الرسمية بدورها في نشر العربية وتعميم استعمالها، ففي الدولة الرستميّة كانت العربية هي لغة النسخ والتأليف، وكما ينقل لنا محمد علي دبُّوز" فإن جلّ ما كان بمكتبة

---

(1) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمان بن زيد بن بكر من قبيلة بكر بن وائل العربية المشهورة، كانت ولايته لإفريقية بعد حسان بن النعمان وذلك سنة 88هـ ، حيث كان له أثر طيّب في نشر العربية ببلاد المغرب، ويتجلى ذلك من خلال الأوامر التي أصدرها للقراء العرب بضرورة تعليم البربر القرآن، وتفقيههم في الدين، كما يشهد له التاريخ بدوره البطولي في فتح بلاد الأندلس مع مولاه طارق بن زياد البربري النفــزي . ينظر: ابن الأبار، الحلّة السّيراء، (م، س) ، ج/2 ،، ص:(232 ـ 233)، وابن عذارى المراكشي، البيان المغرب ، ص: (21 ـ 22) .

(2) كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، (مر، س)، ص: 42 .

(3) ينظر: حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية (م، س)، ج/1، ص: 90.

(4) ترشاق سعاد، النقد المغربي القديم بين التنظير والتطبيق، دراسة في تطور النقد المغربي القديم من القرن الحامس حتى السابع الهجري)، مخطوط دكتوراه، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة ، 2015/2014م، ص: 11، وينظر أيضا: نبوي عبد العزيز، محاضرات في الشعر المغربي القديم، (مر، س)، ص: 33 .

المعصومة من كتب إنما كان باللغة العربية، وإنّ ما وصلنا من كتب عن تلك العهود ككتاب نوازل نفوسة للإمام عبد الوهاب، إنما كان باللغة العربية المتينة الفصيحة، وبالتالي فقد كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في تحصيل العلم والأدب في هذه الدولة " [1].

وهكذا لم يترك الأمراء الرّستميون أية وسيلة ممكنة لتسهيل وتيسير طرق التماس العلم، حيث فتحوا كل الأبواب أمام المعرفة، وشجعوا حركة العلم بما وفّروه واقتنوه من كتب جلبوها من المشرق كالعراق والبصرة، واليمن ما أدى إلى ظهور طبقة من الفقهاء والمجادلين بالعاصمة تيهرت [2].

كما تمكّنت اللغة العربية من استحقاق مكانتها في الدولة الحمادية خاصة بعد أن أولى لها أمراؤُها الاهتمام اللازم، أكثر من اللغة الأمازيغية، وهذا ما جعل اللغة العربية لا مثيل لها عند البربر المؤسّسين للدولة الحمادية، حيث أصبحت ربَّـة المنزل وصاحبةُ الأمر والنهي"[3]، ولذلك يجب التأكيد بأن اللغة العربية التي حملت الإسلام من جهة قد حملت لغة الشعر والنثر من جهة واللغة الشفهية من جهة أخرى، لهذا فهي لم تأت بين دفتي القرآن الكريم أو كتب الفقه ودواوين الشعر والكتب النثرية، بل جاءت لغة الاستعمال اليومي، وبالتالي فرضت نفسها لأنها تملك كل مقومات الاستمرارية [4].

هذا على المستوى الرسمي أما على المستوى الشعبي" فقد حظيت العربية باحترام البربر، واعتبروها لسان الأدب والعلم وعنوان الثقافة، فانبلج في العصر الحمادي عهد جديد، وأصبحت اللغة العربية هي اللسان الرسمي، وصاحبة الأمر والنهي على القرائح والعقول" [5].

ونجد عبد الحليم عويس يُصوّر لنا أيضا دور الحماديين في الارتقاء بالعربية ونشرها بين الناس حينما يقول:" وكان للحماديين من جانبهم الدور الأكبر في نشر العربية وتعليم القبائل البربرية، والذيـن بذلوا جهودا ضخمة في سبيل تعريب البلاد، والسير في ذلك خطوات واسعة حثيثة ومشهـودة"[6].

---

(1) فلكاوي رشيد، مساهمة علماء دولة بني حماد في نشر اللغة العربية، مقال علمي، مجلة اللغة والاتصال، (مر .، س)، ص: 37 .

(2) ينظر: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، (مر،س)، ص : (574 ـ 575) .

(3) فلكاوي رشيد، مساهمة علماء دولة بني حماد في نشر اللغة العربية، مقال علمي، (مر .، س)، ص: 32 .

(4) رشيد فلكاوي، المرجع نفسه، ص: 25 .

(5) الكعَّاك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تحقيق ومراجعة: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت، (ط1، 2003م)، ص: 29 .

(6) عويس عبد الحليم ، دولة بني حماد، (مر، س) ص: 248 .

ولم تلبث أن أصبحت العربية هي اللّسان الرسمي للدولة الحمادية، خاصة بعد أن جاء الهلاليون بلغتهم العربية ونشروها بين سائر الطبقات، وسهّلوا على الخاصة والعامة تعلم العربية وتعلم دينها، ولم يبق إلى ذلك الوقت ـ القرن الخامس الهجري ـ كبير حاجة إلى التدريس والتأليف باللسان البربري بالمغرب الأوسط كما كان الأمر ربما أيّام الرّستميين ـ مطلع القرن الثالث الهجري ـ وكما يقول مبارك الميـلي:" فإن الذي دعا البربر إلى الاستعراب والدولة دولتهم والحكومة حكومتهم ما كانوا يعتقدونه من شرف العربيـة وغنـاها وكونها لغة الدين، فصاروا يتشرّفـون بإجادة النطق بها، والانتساب إليـها[1].

وإن اهتمام أهل البربر أنفسهم بالعربية جعل الحياة العامة تحفل بالتطور والازدهار، وقد صاحب كل ذلك تطوُّرًا ونماء في الفكر والعلم، وإنما حصلت تلك الطفرة العلمية ببجاية الحمادية باللغة العربية التي كانت الأداة الأولى لنقل العلوم والمعارف، بل وأضحى الأمازيغ أنفسهم من الدعاة للإسلام، والحاملون له إلى أوروبا عبر ما يسمى اليوم بمضيق جبل طارق،" وهكذا باتت بجاية تمدُّ أوروبا بشتى المعارف والعلوم عن طريق الأندلس، وأخذت المؤلفات العلمية تأخذ طريقها إلى أوروبا في شتى المجالات العلمية، والفنية والأدبية" [2].

بذلك أصبحت العربية هي اللغة الرسمية في عهد الحماديين والزّيريين، بالرغم من كون حكام الدولة وشعبها من الأمازيغ، وذلك لكونها لغة القرآن والدين، وهو ما شفع للعربية أن تبلغ هذه المكانة وتتبوّأ ذلك المكان الرفيع .

وقد اجتهد الحكام والأمراء في نشرها بين أوساط الشعب، وازدادت العربية انتشارا، وانحصرت الأمازيغية في الجبال والأرياف والمناطق المعزولة، وإنما اهتم أهل المغرب بتعلم العربية وزاد إقبالهم عليها أنها لغة القرآن، بل إن القرآن الكريم شكل القوة الأولى والدافع الأساس للثقافة والأدب في بلاد المغرب والأندلس، والإقبال على التزوّد من علوم الدين، واللغة، والأدب الجاهلي، ولذلك كُلِّه فقد كان تعلم العربية هاجسا ملحًا للبربر، والداخلين الجدد في الإسلام من أهل المغرب.

وقد عمل الولاة والأمراء على تذليل كل الصعوبات وتوفير كل ما يسهل العملية التعليمية، فابتنوا المساجد ودور العلم لاستقطاب الدارسين، وانتشرت بذلك العلوم المختلفة من لغوية، وأدبية،

---

(1) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في العالم القديم والحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (دط، 2010م)، ج/3 ص: 787 .

(2) فلكاوي رشيد، مساهمة علماء دولة بني حماد في نشر اللغة العربية، (مر ،س)، ص: 34 وما بعدها .

ودينية ونحوية، وكان الفقه أوّل هذه العلوم الذي تصدّى له العلماء بالإلقاء والدرس، وإضافة إلى العلوم الدينية فإنه كان للعلوم الأدبية النصيب الأوفر من العناية والاهتمام، حيث أقبل الناس على حفظ المنظومات والأشعار، ومستطرف الحكايات، خاصة وأن الإجادة في هذه الميادين كان طريقا إلى التقرب من الوجهاء والأمراء، وبالتالي نيل الحُظوة والحصُول على المراتب العليّة، والانخراط في سلك الوظائف [1].

وبعد الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي عرفته بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري، لم تتوقف حركة أهل المغرب على مجرد تعلم العربية والاستفادة منها، بل نجدهم يعملون على تأكيد تفوُّقهم فيها، " فانكبوا على العلوم العربية يدرسونها ويُحكِمون الإجادة فيها، حتى نبغ فيهم طبقة من العلماء المتميزين الذين أثروا الساحة المغربية بكتاباتهم الفكرية، والأدبية، واللغوية العربية المختلفة، حتى بزَّ المغاربة إخوانهم المشارقة في العلوم العربية وبخاصة علم النحو وتفوَّقوا عليهم فيه، كما برزوا في مجالات الطب والصيدلة، فتعدّدت بذلك علومهم ومعارفهم، واختلفت اهتماماتهم من قارئ، إلى راوية ،إلى مجوّد، إلى طبيب، إلى شاعر، إلى أديب إلى غير ذلك من الميادين التي أبدعوا فيها، فكانت لهم إسهامات كبيرة أذهلوا بها علماء المشرق الذين ظلوا يعتقدون أن علوم العربية حكرا عليهم ولا يمكن لغيرهم الإبـداع فيـها"[2].

ومن المناسب التَّنبيه في هذا المقام إلى أهمية المساجد والكتاتيب في تلك الفترة، ودورُها العظيم في بسط ونشر العربية وعلومها على أرض المغرب العربي، حيث ظلت هذه الوسائط التعليمية هي الحيّز المكاني الأرحب والأهم الذي انطلق منه شعاع الحضارة العربية، " ذلك لأن المساجد وبقدر ما كانت أماكن لمزاولة شعائر الدين، فإنها قامت بمهمة تعليم مبادئ اللغة العربية والعلوم الشرعية اعتبارا من الإقبال الكبير الذي كانت تشهده المدارس والجوامع من طرف طلبة العلم وجمهور الدارسين [3].

---

(1) ينظر: يحياوي حفيظة ، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي، مخطوط دكتوراه ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، 2011م ص: 24 .

(2) كسّاس صفية، نظام التدريس والمراكز العلمية بالمغرب العربي، مقال علمي، مجلة اللغة والاتصال، مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، العدد: (9 ـ 10)، نوفمبر 2011م ، ص: 244 .

(3) ينظر: ترشاق سعاد، االنقد المغربي القديم بين التنظير والتطبيق، (مر، س)، ص: 12 .

كيف لا والمساجد ظلت ولزمن غير يسير هي الحضن الدافئ والمرفأُ الأمين للمشتغلين بالتعلّم والتعليم على امتداد البلاد الإسلامية كلها، فمن المسجد تخرَّج جهابذة العلماء، وأكابر الأدباء والمفكرين الذين تشنّفت بذكرهم الأسماع، ودوّت بأسمائهم الأقاليم والآفاق.

2-4- شخصيات ثقافيـة وأدبيـة مغربية أبدعت باللغة العربيـة:

بفضل الجهود المتواصلة للأمراء وأهل العلم، ازدهرت ببلاد المغرب العربي حركة العلم والثقافة بعد أن ولج أهلها مرحلة الفكر والإبداع بما وجدوه من ظروف مواتية، وما لمسوه من تشجيع على المضيّ في طريق العلم والمعرفة، وهكذا فإن المغاربة القدامى، وبعد أن تفتّحت أمامهم مغاليق اللغة لم يكتفوا بمجرَّد التأثر والتشبّع بالعربية كلغة فاعلة ورسمية فقط، إنما انتقلوا إلى المشاركة والإسهام في إثراء العلوم العربية من لغة، ونحو، وعروض، والإبداع بهم في المجالين الشعري والنثـري [1] .

ويكفي للتَّدليل على هذا الاشتهار والذُّيوع تسليط الضوء على بعض الشخصيات العلمية والأدبية التي سطع نجمها وعلا شأنها، بما خلفته وتركته من ذكر حسن في سماء العلم وميدان الأدب، ومن أشهر هذه الشخصيات اللغوية والنحوية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري العالم اللغوي الكبير أبو القاسم إبراهيم بن عثمان المعروف بابن الوزان النحوي المتوفى (سنة **346** هـ)، وهو رجل لا يعدُّ إماما في اللغة والنحو في عصره فحسب، إنما على امتداد الفترة التي نكتب عنها – أي القرنين الرابع والخامس الهجريين – قال عنه الزّبيدي الأندلسي:" هو إمام الناس في النحو، وكبيرهم في اللغة وعظيمهم في العربية والعروض، وقد اشتهر ابن الوزان هذا بحافظته الكبيرة حتى قيل عنه إنه كان يحفظ أُمَّهات كتب اللغة التي ألفها الأئمة الكبار: كالخليل، والفراء، وسيبويه وغيرهم، بل قيل إنَّه ضاهى بعلمه الواسع العالمين اللغويين الكبيرين: المبرد، وثعلب [2].

كما ظهر في تلك الفترة من علماء الفقه والدين عبد الله بن أبي زيد القيرواني الملقَّب بمالك الصغير (ت**386**هـ)، ولا ننسى الطبيب الحاذق الذي لم يستطع أحد مجاراته في مجال تخصصه ونقصد به أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار (ت**369**هـ)،كما عُدّ كثير من اللّغويين ومؤرخي الأدب عالم القراءات القيراواني الأصل مكّي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة (**437** هـ) من العلماء الأجلاء في

---

(1) ينظر: حوالة يوسف ، الحياة العلمية قي إفريقية، 304/2، وينظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام ، ج/1، ص: (249 ـ 250) .

(2) ينظر: الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، مصر، (ط2، دت) ص: (247 ـ 248) .

اللغة والنحو بالبلاد المغربية في عصر الزيريين الذين حكموا بلاد المغرب العربي في القرن الخامس الهجري[1].

أيضا يمكن التنويه بالجهود النحوية واللغوية التي قدمها عالم القراءات المشهور علي بن أبي الفضل المجاشعي القيراواني المتوفى سنة (**479** هـ)، والذي كان نزيلا ببلاد القيروان قبل أن يلتحق ببلاد المشرق وقد ذكر الباحثون أنَّ له مجموعة من المصنفات منها كتاب (إكسير الذهب في صناعة الأدب)، وكتاب (الفصول في معرفة الأصول)[2].

وإذا ما حاولنا التأسيس للوجود الأدبي والشعري المغربي القديم، فإن الدليل لا يعزونا في الوقوف على ملامح القوة ومكامن النبوغ في الإبداع الشعري المغربي والجزائري تحديدا، ونلمس ذلك في قريحة الشاعر الإباضي مذهبا، والرُّستمي منشئاً ودارا *، إنه بكر بن حماد، هذا الشاعر المفلِّق وفقا لتعبير عبد الملك مرتاض، والذي سنحت له الفرصة في رحلته المشرقية للالتقاء بعمالقة الأدب والشعر بالمشرق العربي كأبي تمام وأبي نواس، وأبي العتاهية، ولم يقتصر أمر الحضور المغربي على شخصية بكر بن حماد الأدبية إنما جاوزه إلى العديد من الكفاءات الفكرية والدينية من الذين استغلوا فرصة تواجدهم ببلاد المشرق، كالشام ،ومصر، والحجاز للتواصل مع العلماء هنالك أثناء رحلاتهم الدينية للبقاع المقدسة [3] .

وإنَّ من أشهر الكتّاب والمؤلفين والشعراء الذين يمكن الإشارة إليهم والإشادة بأعمالهم وإنتاجهم في القرن الخامس الهجري، الأديب والشاعر عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي التميمي(ت **405**هـ)، ويعدُّ هذا الرجل من رموز الأدب والشعر في المغرب العربي، وقد كان من أكبر الكتاب للدولة الزيرية[4]، وهو أديب وناقد عربي الأصل يرجع نسبه إلى قبيلة تميم المشهورة، ولد بالمحمدية بمدينة المسيلة الجزائرية، ثم التحق بحاضرة القيروان ليتولى منصب الكتابة في بلاط الدولة الزيرية، وعُرف

---

(1) ينظر: حوالة حوالة، الحياة العلمية قي إفريقية، (مر، س)، ج/ 2، ص: 333 .

(2) المرجع نفسه، ج / 2، ص: 334 .

*** وهناك من يقول بأنه كان على مذهب أهل السنة والجماعة بدليل قصيدته النُّونية التي ردَّ فيها على الشاعر عمران بن حطَّان الذي مدح ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) .**

(3) ينظر مع بعض التصرُّف: ترشاق سعاد، النقد المغربي بين التنظير والتطبيق، (م، س)، ص: 324، وبن قينة عمر، أدب المغرب العربي قديما، (مر، س)، ص: (26 ـ 28)

(4) ينظر: حوالة يوسف، الحياة العلمية قي إفريقية، ص: 191 .

بأنه كان كاتبا، وشاعرا، وناقدا متمرّسا، ترك لنا كتابه النقدي الموسوم بالممتع في علم الشعر وعمله، وهو من كتب الأدب التي احتذى فيها حذو من سبقوه من أهل المشرق والمغرب.

ومن الأدباء الذين لمعوا في أرض المغرب، وغمرت مؤلفاتهم الأدبية الآفاق، وجاوزت بصداها الحدود، الأديب والشاعر والناقد الذائع الصيت أبو علي الحسن بن رشيق المسيلي القيرواني (ت456هـ) وهو في الحقيقة أديب لا يحتاج إلى كبير إشهار وتعريف، فهو أشهر من أن يعرّف باعتباره واحدا من أعظم من أنبتتهم التربة المغربية وأنجبتهم الساحة الأدبية، "ويعد الأنموذج المتكامل للأديب الشامل، فهو شاعر بارع وناثر متمكن، بليغ وناقد ذو ثقافة واسعة، وعالم لغوي لا يشق له غبار، لذلك حَظيت حياته بكثير من الاهتمام من طرف الدارسين ومؤرخي الأدب"[(1)]، ترك لنا جملة من التآليف الأدبية القيمة من أهمها وأجلها كتاب (العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه)، وهو الكتاب الذي يعدّ من أجلّ التّصانيف الأساسية في الأدب والنقد، أثنى عليه كثيرا عبد الرحمان بن خلدون، هذا فضلا عن كتبه الأخرى من التي عـرَّفنا بها في الفصل الثالث من هذه المذكرة .

ومن أدباء وعلماء المغرب المتميّزين أبو الحسن علي بن أبي الرجال التاهرتي الشيباني، من مواليد حاضرة تيهرت، قدم إلى القيروان في مطلع شبابه ومكث بها إلى أن صنع لنفسه إسما وشهرة، ونظرا لنبوغه وموهبته العلمية ألحقه بني زيري بخدمة دولتهم، فاجتهد في عمله إلى أن أوصله نبوغه إلى المحل الرفيع في البلاط الزيري، وكان له إسهام فاعل في تربية وتعليم الأمير المعز بن باديس الصنهاجي، اعترف كثير من الأدباء والمؤرخين بـمكانة ابن أبي الرجال العلمية والأدبية، عرف عنه اهتمامه بعلمي الفلك والرياضيات، فضلا عن كونه شاعرا متمكنا، ونظرا لمكانته العلمية فقد أهدى إليه كثير من الأدباء والنقاد مؤلفاتهم، كما حصل مع الشاعر والأديب ابن رشيق عندما قدم له مؤلفه النقدي العُمدة، ونفس الأمر حصل مع ابن شرف الذي أهداه كتابه (مسائل الانتقاد) توفي في حدود (سنة 426هـ)[(2)].

ومن الأدباء الذين أثْرو الحركة الأدبية بمؤلَّفاتهم القيّمة الأديب والشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن تميم الحصري (المتوفى سنة413هـ)، وقيل غير ذلك على اختلاف في تاريخ وفاته، إنه الأديب والشاعر والناقد، وأحد صفوة شعراء المغرب اشتهر بكتابه:(زهر الآداب وثمر الألباب)،

---

(1) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية،ج/2 ، ص: (208 ـ 210).

(2) ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ـ عصر الدول والإمارات.، (مر، س) ، ص: 25 .

وهو من التآليف التي ترتقي إلى مصاف المجامع الأدبية الكبيرة كالأمالي، والبيان والتبيين، والعقد الفريد وغيرهم كثير[1]، وإنما سُمّيّ بالحصري نسبة إلى صناعة الحصير أو بيعها.

ومن أدباء المغرب وشعرائه الشاعر أبو الحسن علي عبد الغني المشهور بالحصري الضرير، وهو ابن أخت إبراهيم الحصري ولد في حدود سنة (420هـ وتوفي بطنجة سنة 488 هـ)، وكان أعمى كالمعري لذلك عرف بالشاعر الضرير، كان من فحول الشعراء بالمغرب في القرن الخامس الهجري، وهو صاحب القصيدة التي طبقت شهرتها الآفاق والتي هي قصيدة (ياليل الصّب) وهي القصيدة التي أنشأها في مدح الأمير محمد بن طاهر أمير مرسية إحدى إمارات ملوك الطوائف بالأندلس في القرن الخامس الهجري، وتقع القصيدة في تسع وتسعين بيتا شغلت الناس وملأت عليهم حياتهم منذ أن قالها الحصري، وربما دفعت روعتها الأدبية وعذوبتها الغناء الكثير من الشعراء في المشرق والمغرب إلى الإعجاب بها ومعارضتها، حتى قيلت في ذلك عشرات القصائد، أثنى عليه كثير من العلماء منهم ابن بسام في الذخيرة، والحُميدي في جذوة المقتبس"[2].

وممن ساهم في إرواء الحركة الأدبية واللغوية بالمغرب العربي الأديب واللغوي والعالم النحوي المشهور أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز القيرواني، والذي كان يومها شُعلةً تتوهّج أدبا ولغة، ونحوا وشعرا [3]، مارس التدريس والتعليم في المسجد الجامع بالقيروان، وتتلمذ على يديه عدد هائل من طلبة العلم، ألف العديد من المصنفات في اللغة والنحو والأدب منها كتابه ما يجوز للشاعر في الضرورة.

ومنهم الشاعر الأديب الأريب أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد أحمد بن شرف القيرواني (ت460هـ)،" والذي يعدُّ أشهر شعراء بلاد المغرب وفحولها الكبار، قادته موهبته الشعرية إلى بلاط المعز بن باديس حتى غدا يشار إليه بالبنان كما يقول ياقوت الحموي"[4]، عرف عنه منافسته الشديدة لابن رشيق مما أدى إلى تلاحيهما وتخاصمهما، وقد أفادت تلك الخصومة كثيرا الحياة الأدبية والشعرية في عصرهما "[5]، ترك لنا ابن شرف مجموعةً قيّمة من المصنّفات الأدبية من أشهرها (أبكار

---

(1) ينظر: أبو القاسم كرو، عصر القيروان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق،(ط2، 1989م)، ص:67ـ68

(2) حوالة يوسف ، الحياة العلمية في إفريقية ،ج/2 ص: 293 ،ويقول الحصري في مطلع هذه القصيدة :

يَاليـلُ الصَّب متى غدُه أَقيَـــام السّـا عة مؤعِـــدُه ؟

(3) المرجع نفسه ، جُ/2 ، ص: 200 .

(4) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (م، س) ،ج/5 ، ص: 19 .

(5) حوالة يوسف ، الحياة العلمية في إفريقية ، ج/2، ص: 214 .

الأفكار)، وهو كتاب ضمَّنه العديد من الحكم والأمثال في النظم والنثر، "على أن أشهر كتبه في المجالين الأدبي والنقدي كتاب (مسائل الانتقاد)، ويطلق عليه أيضا (أعلام الكلام)، وقد ضمّن كتابه هذا الكثير من الاجتهادات والآراء حول بعض المسائل والقضايا النقدية من التي كانت مطروحة في عصره "(1).

ومن الأعلام الأجلاء الذين ذاع صيتهم بالمغرب العربي إبان حكم الدولة الحمادية العالم الجليل أبو الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي وهو من مواليد قلعة بني حماد كان عارفاً بأصول الدين، مُتبحِّرا في علوم الفقه حتى قيل عنه بأنه بلغ درجة النظر والاجتهاد وهو صاحب القصيدة المشهورة بالمنفرجة والتي مطلعها كما سبقت الإشارة إلى ذلك :

اشْتَـدِّي أَزْمَةً تَنْفَرِجِـي قَدْ آذَنَ لَيْـلُكِ بِالفَرَجِ

وكان مما عُرف به أنه كان محبّاً للشعر الديني مولعا به ناظما له(2)، "حظيت المنفرجة بعناية الشُّيوخ والعلماء بالمغرب والمشرق اعترافا بقيمتها ومكانة مُنشئِها، وبما احتوت عليه من قيمٍ خالدةٍ وحكمٍ ذات فائدة، وتوجيهات جليلة "(3).

كما يعتبر أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجيلاني المولود بمدينة ورقلة الجزائرية اليوم عام (500هـ)، من أبرز أدباء وشعراء المغرب والدّولة الحمادية،" كانت له رحلات علمية إلى الأندلس والمشرق لأخذ العلم عن أعلامها، ثم عاد إلى بلاده بالمغرب واعتكف على الكتابة والتأليف نحوا من سبع سنين حتى لقب بالجاحظ لكثرة إنتاجه ووفرة باعه توفي(سنة**570**هـ) " (4).

وظهر من أدباء المغرب وعلمائه الكاتب أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد التميمي التيهرتي المعروف بابن الربيب، والذي كان أديباً متقدّما خبيرا باللغة ناثرا شاعرا عارفا بأنساب الناس حتى لقِّب بالنسابة الإفريقي، رحل إلى القيروان ومات بها (سنة**430**هـ) ، وكان يُلقّب بالقاضي التيهرتي

---

(1) المرجع نفسه، ج/2، ص: **215** .

(2) ينظر: بوقربة الشيخ ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي ـ من القرن الخامس إلى القرن الثامن للهجرة، مخطوط دكتوراه، جامعة وهران، **2000/1999**م . ص: **266**

(3) البسام لطيفة، الحياة العلمية في إفريقية في عهد بني زيري،(مر، س)، ص: **21** .

(4) بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، ص: **266** .

القيرواني لغلبة القيروان على تسمياتهم بعد أن عاشوا بها وأبدعوا إلى أن توفاهم الأجل، ذكره ابن رشيق في الأنموذج وأورد له شعرا كثيـرًا[1].

وبرز من رجالات العلم بالمغرب العربي العالم اللساني أبو القاسم يوسف بن علي جبارة بن عقيل البسكري المتوفى (سنة **465**هـ)، والذي تخصّص في علوم اللغة والقراءات القرآنية، مما جعل خبره يصل إلى الوزير نِظامُ الملك[2] فيستدعيه وينصّبه أستاذا في مدرسة نيسابور المشرقية.

وكذلك ننوّه بجهود وقدرات العالم اللغوي أبي الحسن بن علي بن طريف التيهرتي المتوفى (سنة **501**هـ)،" والذي كان عالما في النحو حتى أصبح من أئمة عصره في هذا الفن "[3]، وكان أيضا شاعرا أَدِيبا، رحل إلى الأندلس يأخذ من علمائها ثم عاد إلى المغرب ودرس النحو العربي.

كما اشتهر من علماء المغرب في تلك الفترة أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المشهور بابن قاضي ميلة، وصفه ابن رشيق بأنه " شاعرٌ لسن مقتدرٌ، يؤثر الاستعارة ويكثر من الرجز، سلك طرق ابن أبي ربيعة في نظم الأقوال، وله في الشعر قدم راسخة، ومجال متسع، أكثر من شعر الغزل"[4]، وقد ذكره ابن بسام في الذخيرة، وابن رشيق في العمدة وابن خلكان، في وفيات الأعيان .

ولا نكون مُبالغين إذا قلنا بأن العلماء والأدباء المغاربة استطاعوا التفوق أحيانا على أساتذتهم المشارقة، ويظهر ذلك من خلال تفرّدهم وعملهم المسبوق في التأسيس لمدارس نحوية ولغوية كما يقول عبد المالك مرتاض، كيف وقد برز من بين ظهرانيهم في عقود لاحقة ابن مُعطي الزواوي، الذي ألف منظومته النحوية هي الأولى في باب النحو العربي، نسج على منوالها فيما بعد ابن مالك

---

(1) بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، (مر، س)، ص: 265 .

(2) هو قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي الفارسي الملقب بنظام الملك، أحد أشهر الوزراء السلاجقة زمن في القرن الخامس الهجري، (ولد سنة 408هـ)، كان وزيرا لامعا وسياسيا ماهرا، داعيا للعلم محبا له ، عمل على نشره، فبنى المدارس لذلك واهتم بها غاية الاهتمام، حتى عرفت باسمه (المدارس النظامية)، جذب إليها كبار العلماء والفقهاء والأدباء، اهتم نظام الملك خاصة بنشر المذهب المالكي ومحاربة انتشار المذهب الشيعي، ولذلك قرر إنشاء سلسلة من المدارس التي تنشر تعاليم المذهب السني، فأسّس أول مدرسة لذلك ببغداد سنة 465هـ، كانت حياته حافلة بنشر العلم حتى قتل من طرف أحد المتطرفين الشيعة الإسماعيليين(سنة 485هـ) . *ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت لبنان، دط، 1970م ، ج/2، ص: (128 ـ 130) .*

(3) الطمار محمد، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة ، (مر، س) ص: 10 .

(4) ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، (م، س) ص: (209، 210) .

منظومته المسماة (ألفية ابن مالك)، وقد فعل مثل ذلك أيضا ابن أجرّوم صاحب متن الأجرومية الشهير[1] .

وكلُّ ذلك إن دلَّ على شيء إنما يدل على أن الثقافة في المغرب العربي بدأت تلميذة لثقافة المشرق ثم بلغت مرحلة الاستيعاب والتفهُّم، لتنطلق نحو إبداع حقيقي أضاف إلى الثقافة العربية في مجالاتها المختلفة الفلسفية، والطبية، والفقهية، والأدبية، والنحوية، الكثير والكثير.

4- منطلقات الأدب وبدايات تشكُّل المعرفة بالمغرب العربي :

إذا ما حاولنا استقصـــاء الواقع المعرفي والثقافي بالمغرب العربي في القرون الأولى للفتح الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري فإننا نسجل اتفاق كلمة المؤرخين ونقلة الأخبار والسّير، في أن بلاد البربر بالمغرب العربي لم تخضع للنفوذ الإسلامي ولم تستوثق منه إلى مع نهاية القرن الأول الهجري[2]، حيث تم إسلام البربر، والقضاء بصفة مُبرمَةٍ على النفوذ البيزنطي في المغرب العربي.

وهذا يجرّنا حتما إلى القول أنه وخلال القرن الأول الهجري ليس بوسعنا أن نتكلم عن حركة علمية أو أدبية ببلاد المغرب نظرا لظروف الفتوحات وانشغال الفاتحين بالجهاد ونشر الإسلام وإخضاع البربر لسلطانهم [3]، وعن ذلك يقول محمد الطمار:" كانت البلاد ـ أي المغرب العربي ـ حديثة الاستعراب، والعصر يسودُه الاضطراب وعدم الاستقرار، فمن البديهي ألاَّ نرى أدباً ولا أدباء إلاَّ ما كان من رجال الدين والفقه والدعاة الذين يفدون لتثقيف أهل البلاد"[4].

وخلال القرن الثاني للهجرة، وبعد إتمام عملية الفتح الإسلامي للمغرب وشمال إفريقيا بأكملها وإلى غاية قيام بعض الدويلات الإسلامية، كالدولة الأغلبية، والدولة الرستمية، والدولة المدرارية

---

(1) متن الأجرومية، هو كتاب في علم النَّحو لصاحبه ابن آجروم، أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصّنهاجي، يعتبر نظمه من أهم متون النحو العربي، وتسمى أيضا المقدمة الأجرومية، ولأهميتها تصدى لها الكثير من علماء اللغة والنحو بالشرح والتعليق، توفي ابن آجروم سنة 723هـ، ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة دار الهلال، القاهرة مصر، (دط، دت)، ج/3 ص: 156 .

(2) يذكر المؤرخون أن فتح بلاد المغرب العربي استغرق مدة طويلة من سنة (27 إلى 86 هـ)، وقد شهدت كل هذه الفترة حملات كثيرة قبل أن يتم إخضاع بلاد المغرب للنفوذ العربي الإسلامي، ويمكن القول بأن حملة حسان بن النّعمان كانت بمثابة التّمكين النهائي للعرب الفاتحين ببلاد المغرب العربي، ينظر: كـرو أبو القاسم ، وشريط عبد الله ، عصر القيروان ، (مر،س) ، ص: (13 ـ 14) .

(3) حوالة يوسف ، الحياة العلمية في إفريقية ،(مر، س)، ج/1 ، ص: 55 .

(4) الطمار محمد ، تاريخ الأدب الجزائري ، (مر، س)، ص: 24 .

الصفرية[1]، وقد أطلق المؤرخون على تلك الفترة ـ عصر الولاة ـ حيث غرق المغرب في حالة من الفوضى والاضطراب والفتن المتلاحقة نتيجة المعاملة السيئة وغير اللائقة التي كان يتلقاها البربر[2]، ونجم عن هذا التعامل السلبي من الفاتحين مع البربر أن ظهرت وتقوّت بعض الآراء الخارجية والتي تمظهرت في المذهبين الصُّفري والإباضي[3]، بعد أن استحسن أكثر البربر الآراء والأفكار التي تحملها تلك المذاهب الخارجية.

والذي يَهُمّنَا من كل ذلك هو مدى تأثير وانعكاس ذلك الوضع السياسي والاجتماعي على الحالة الفكرية والعلمية للبلاد المغربية إبان تلك الفترة، حيث لم نسجل في الغالب أي أثر أو نشاط علمي يذكـــر، وكما يقول العربي دحو:" فإن الحياة الأدبية والعلمية يلفّها الكثير من الغموض في السنوات التاليـة للفتح الإسلام، وقد تصل إلى قـرن أو يزيد، وهي تشمل أيضا حركة التأليـف والنظم"[4].

ولم يشأ للحياة العلمية والفكرية أن تقوى وتشتّد ببلاد المغرب العربي إلى مع القرن الثالث الهجري،وظهور عصر الدول المستقلة كما يسميها المؤرخون خاصة الدولتين الأغلبية بالمغـــرب الأدنى والرستمية بالمغرب الأوسط، "حيث بدأ الاهتمام بالمجالات العلمية والمعرفية في جوانبـــها المختلفة خاصـة في ظل المجهـــودات التي بذلها الأغالبـة والرستميون في سبيل الارتقـــاء بالحيـــاة العلمية"[5].

وإن أكثر ما اصطبغت به الحياة العلمية في تلك المرحلة من القرن الثالث للهجري هو غلبةُ الدراسات الشرعية المتمثلة في النشاط المذهبي، وما يكتنف ذلك من انتصار لهذا المذهب أو ذاك عن طريق الاختيارات الشعرية من مفاخرات وامتداح واقتداح، وهذا الناقد عبد العزيز قليقلة يقدّم رؤيته

---

(1) ظهرت هذه الدولة في الفترة مابين (140هـ ـ 349هـ) ، وأطلق عليها أيضا دولة بني واسـول نسبة إلى مؤسسها ، وهي دولة خارجية صُفرية **اتخذت من مدينة سجلماسة عاصمة لها ـ في جنوب المغرب الأقصى، وتسمى تافيلالت اليوم ـ، واستمرت هذه الدولة قائمة إلى أن قضى عليها قائد جيش العبيـديين جوهر الصقلي، في ذلك ينظر: لقبال موسى، المغرب الإسلامي، ص: 158 .**

(2) بدأ المغاربة يحسُّون بالظلم والإجحاف من جراء تلك الممارسات غير العادلة التي قام بها بعض الأمراء في حقهم، كما هو الحال مع عبد الله بن الحبحاب، والذي تذكر المصادر أنه تجاوز في فرض الفيئ ، والخراج، والحرص على أخذ الجزية من البربر مع إسلامهم، وهو ما يتنافى مع المبادئ العامة للإسلام ، وقدكانت لتلك المعاملة آثارها السلبية في استقرار الأوضاع بعد ذلك ، ينظر: بشير التليسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي، (مر،. س)، ص: 71 .

(3) ما المراد بالصّفرية وأين تمركز نشاطها ؟ الصّفرية فرقـة من فرق الخوارج ظهرت في المغرب الأقصى وسيطرت عليه، وأقاموا دولة لهم بمدينة سجلماسة جنوب البلاد، وسُمِّيت دولتهم بالدولة المدرارية، وعقائدهم مثل عقائد االإباضية .

(4) دحو العربي ، الأدب العربي في المغرب العربي ـ من النشأة إلى قيام الدولة الفاطمية ـ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر سنة 2007م ، ص: 60 .

(5) مؤنس حسين ، معالم تاريخ المغرب والأندلس، (مر، س)، ص: 98 .

الخاصة بعد دراسة وتمحيص للأوضاع العامة التي عرفتها تلك الفترة فيقول:" نتفق جميعا بأن الشعر إنما وصل إلى البلاد المغاربية مع العرب الفاتحين، إلا أنه كان بينه وبين المغاربة مشوارٌ طويلٌ عليهم أن يقطعوه قبل أن يقولوه، والذي هو تعلّمهم اللغة العربية إلى حد الإجادة والإتقان، وذلك ما كان في عهد الدولتين الأغلبية والفاطمية "[1].

ويمكن اعتبار أن" الدراسات الشَّرعية والشِّعرية هي المظهر الرئيسي للحياة العلمية في المغرب العربي في قرونه الثلاثة الأولى"[2]، وما يمكن ملاحظته إبان تلك الفترة أيضا هو إتمام تعريب بلاد المغرب وتأكيد إسلام أهلها خاصة في ظل الدولة الأغلبية التي نجحت في تكريس الوحدة والتجانس بين العرب والبربر، بعد أن عانى البربر في السابق من القهر والشدّة، "كما يُسجّل للأمراء الأغالبة جهودهم المعتبرة في تشجيع العلم والمعرفة عن طريق اهتمامهم ببناء الوسائط الثقافية من مساجد وجوامع وكتاتيب وهي الجهود نفسها التي قدمها الأئمة الرستميون في البلاد التي أخضعوها لنفوذهم"[3] .

وعموما فإنه وإلى غاية نهاية القرن الثالث الهجري، لم تظهر الشخصية العلمية المستقلة بالمغرب العربي الكبير، إلا أن هذه الدويلات سرعان ما سقطت جميعها على يد الفاطميين وقائد دعوتهم أبو عبد الله الشيعي، حيث تهيأ للعبيديين حكم بلاد المغرب في القــرن الرابع الهجري العاشر الميلادي[4].

وقد شهدت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والعلمية والأدبية تطورا ورقيّا ملحوظا، ويرجع أمر ذلك إلى كون الخلفاء الفاطميين بالمغرب العربي كانوا كلهم علماء وأدباء، مما أعطى للحياة العلمية والأدبية الدَّفعة اللازمة، "ومع كلّ هذا النشاط العلمي الذي شهده المغرب العربي في القرن الرابع

---

(1) قليقلة عبد العزيز ، البلاط الأدبي للمعز بن باديس، (مر، س) ، ص: 168 .

(2) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ، ج/1، ص: 320 .

(3) ينظر: مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، (مر، س) ، ص: (109ـ 114) مع بعض التصرف .

(4) قامت الدولة العبيدية بالمغرب العربي على أنقاض ثلاث دويلات ـ الأغلبية، والرستمية، والمدرارية ـ بعد محاربتهم والقضاء عليهم،حيث استطاع الداعي أبو عبد الله الشيعي التغلغل بين أوسط البربر والتمهيد لقيام دولة إسماعيلية شيعية، وكان عبيد الله المهدي الذي ادّعى أنه صاحب الحق في الخلافة، وأنه حفيد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، إلا أن أكثر المؤرخين يشكّكون في صحة نسب عبيد الله هذا، ينظر: حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية، ج/1، ص: 222

الهجري، إلى أن الفاطميين لقوا معارضة من طرف السكان لاختلاف المذهبين حيث كان أهل المغرب مالكيين، فيما كان الفاطميون يَدينُون ويدُعون إلى المذهب الشيعي"[1].

على أن أزهى عُصور البلاد المغربية إنما كانت في ظل الدولة الزيرية الصنهاجية البربرية على امتداد قرنين من الزمان، ومن عجائب الصدف التي صاحبت قيام الدولة الزيرية هو انتهاء حكم العرب الفعلي في بلاد المغرب كلها، واستلام البربر لزمام السلطة والحكم بشكل كلي، ومع ذلك ظلت هذه الدولة عربية اللسان والمنـزع والهوى، حتى مع انقسامها مع بدايات القرن الخامس الهجري إلى دولتين[2]، زيرية بالقيروان فالمهدية، وحمادية بالحاضرة البجاوية.

وإن أهم ما يسجله التاريخ للدولة الصنهاجية الزيرية هو اهتمامها الشديد بالعلم والعلماء واستطاعت أن تتقدم خطوات كبيرة إلى الأمام نحو التقدم والازدهار العلمي بل إن التطور العلمي للبلاد المغاربية في عمومه كان أعظم قدرا وأجل شأنا خلال الفترة الزيرية التي تمتد على طول الفترة التي نكتب عنها ونبحث فيها، أي القرنين الرابع والخامس الهجريين[3]، حيث أن العاصمة القيروان صارت هي العاصمة الثقافية الثالثة لدى المسلمين بعد بغداد بالمشرق وقرطبة بالأندلس، "وأتاح الاستقرار السياسي والانفتاح العلمي للدولة الزيرية أن تُولي اهتمامها بالعلم والأدب بشكل يفوق الوصف، بدليل ما ظهر وقتها من أدباء وعلماء شكلوا الاستثناء وطارت أسماؤهم ليس في بلاد المغرب فحسب، إنما على امتداد الأفق الإسلامي، ولنا أن نذكر بعض الأعلام الذين تجاوز صيتهم الزمان والمكان:كابن رشيق، وابن شرف، والحصري، وعبد الكريم النهشلي، وابن أبي زيد القيرواني وغيرهم كثير" [4] .

ويعتبر عصر الدولة الصنهاجية العصر الذهبي للقيروان وإفريقية، فقد بلغت فيه البلاد قمّة رقيها ومجدها وذروة حضارتها ونظارتها،" فتمتّع الناس بالثروة والعلم والفنون الجميلة، ومالوا إلى اقتناء

---

(1) التليسي بشير، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي، (مر ، س) ، ص: 324 .

(2) ابتداء من سنة 408هـ انقسمت صنهاجة إلى دولتين: الدولة الزيرية الصنهاجية بالقيروان ، والدولة الحمادية ببجاية ،ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد ، تاريخ ابن خلدون، والمسمَّى: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبـط ومراجعة : خليل شحادة، وسهيل زكار، الناشـر: دار الفكر للطبـاعة والنشر والتوزيـع، بيروت، (دط، 2001م)،ج/6 ، ص: 210 .

(3) ينتمي بنـو زيري إلى قبيلة صنهاجة البربرية، وصنهاجة هذه قبيلة كثيرة العدد تضم أكثر من سبعين بطنا، وكان المؤسّس لهذه الدولة هو الأمير يوسف بن زيري بن مناد، ويسمى بلكين بن زيـري، وخلفه ابنه المنصور، ثم باديس، ثم المعز، ثم تميم بن المعز، ثم يحي بن تميم، هذا وامتد عصر الدولة الزيـرية من سنة (362هـ إلى555هـ) ، لمدة قاربت القرنين من الزمان ، ينظر: محمد الطمار، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ص: (30 ـ 82) .

(4) يوسف حوالة، الحياة العلمية في إفريقية ، ج/2 ، ص: 198 وما بعـدها.

الكماليات المادية والمعنوية فزها الأدب وازدهر، وسار الشعر في مدارج الرّقي وراج سوق الأفكار رواجاً عظيماً "[1].

ولا شك بأن الفضل في ذلك إنما يرجع إلى الأمراء الزيريين الذين عرفوا بحبّ العلم وتشجيع العلماء وإكرامهم، وإغداق العطايا عليهم وقد انعكس كل ذلك إيجابا على الازدهار الحضاري والتطور الفكري والعمراني والاجتماعي، "والحق فإن الحياة العلمية والأدبية تدين في الكثير من تقدمها وتطورها للعامل السياسي الذي يتعهدها ويرعاها ويحُوطها بكل أسباب الدَّعم والنمو غالبا "[2].

5- الحركة الأدبيــة وتمظهُراتها بالمغرب العربي حتى القرن الخامس الهجري:

إن الحديث عن الحياة الأدبية والنقدية ببلاد المغرب والكتابة عنها، يشكل بؤرة العمل في رسالتي هاته، وإن كنت وجدت سيلا من المعلومات في هذا الجانب وأفادتنا المؤلفات الكثيرة التي عثرنا عليها في هذا الباب، وأنارت لنا طريق البحث والعمل، فإن الوقوف على الجهود النقدية للنقاد المغاربيين أتعبني كثيرا، حيث أن هذا الجانب لم ينل حقه من الدراسة والتبيين والإيضاح خاصة في شقّه المغربي، حتى أن هذا الأمر أضحى يشكّل ظاهرة ملموسة تجلّت في تغاضي النقاد القدامى عموما عن دراسة الأدب المغربي، والاتجاه رأسا لممارسة التطبيق النقدي على الأدب المشرقي .

والأدهى والأمرّ أن هذا التغافل ظهر حتى من طرف النقاد المغاربة أنفسهم، في التوجه إلى دراسة وانتقاد الإبداع المشرقي بشكل خـاص، وقد كانت هذه المقاربة موضع تساؤل من طرف الكثير من المشتغلين بالحقل الأدبي والنقدي منذ القديم، ولعلها هي الإشكالية الكبرى التي جعلت الصاحب بن عباد يصرخ يومها في وجه ابن عبد ربه لمّا ناوله كتابه العقد الفريد ولم يعثر بداخله على إبداع المغاربة وكان يؤمّل منه ذلك، إلاّ أنه وجده مملوءا بأخبار وآراء المشارقة على عادة الكتاب والنقاد وقتـها، فصاح حينها:" هذه بضاعتنا ردت إلينا "[3].

ونحن إذ نتصدى بالبحث في النقد المغربي القديم خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين فإننا نحسب "أن النشاط العلمي والأدبي يومها برز أكثر، وظهرت عطاءاتُه حتى بلغت ذروة تقدّمها مع

---

(1) قليقلة عبد العزيز ، النقد الأدبي في المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، دط، 1973م.ص: (35 ـ 36) .

(2) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ، ج/1 ، (مر،س)، ص: 53 .

(3) الشيء الملفت في هذه العبارة التي قالها الصاحب بن عباد، وبعد أن قرأ كتاب العقد الفريد، أن الرجل كان يريد أن يقرأ أدبا يمثل المغرب العربي والأندلس، بدلا مما جمعه صاحبه من نصوص مشرقية مدونة في كتب أخرى مشرقية كالحيوان للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وهو الأمر هو الذي جعل ابن عباد يقول مقولتـــه تلك، ينظر: ساعي إدريس، علم البلاغة في الموروث النقـدي المغربـي (العمدة أنموذجا)، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، الجزائر، العدد: 09، ديسمبر 2015م .

نهاية القرن الخامس الهجري في كثير من جوانبها المتعددة "[1]، ويذكر الكثير من النقاد أن النشاط العلمي والأدبي توقف مؤقتا بعد هذه الفترة –القرن الخامس الهجري– خصوصا بعد غزوات وهجرات الأعراب الهلاليين إلى شمال إفريقيا، حيث دبَّ الضعف والتفتّت في أوساط الدويلات التي كانت قائمة بالمغرب العربي وقتها إثر الضربات الموجعة من الأعراب الذين عاثوا فسادا ولم تكن لهم اهتمامات بالمجالات العلمية والفكرية والأدبية، ولم تتمكن البلاد المغاربية من استرجاع توهُّجها ومجدها العلمي إلا مع قيام الدولة الحفصية منتصف القرن السابع الهجري" [2].

ومع ذلك فإن الكتابة عن الحياة الأدبية ببلاد المغرب العربي تستدعي ضرورة الإقرار بضعف التأثير الأدبي في القرون الهجرية الأولى، ومردُّ ذلك إلى حداثة اللغة العربية في تلك البلاد، اعتبارا من أن أهل المغرب هم من البربر، واللغة التي كانت منتشرة بينهم هي لغتهم الأم –اللغة الأمازيغية– وهذا الأمر يقتضي مرحلة زمنية لابد منها، وذلك حتى يتعلم الناس اللغة الجديدة والتي هي العربية، وقد فطن الخلفاء والأمراء لهذا فأرسلوا البعثات العلمية من المعلمين والفقهاء لتعليم العربية وقضايا الدّين والقرآن للبربر"[3].

وقد بذل هؤلاء الخلفاء جُهوداً مضنيةً في سبيل جعل بلاد المغرب قطعة رئيسية من البلاد الإسلامية،"كما فعل الخليفة الأموي عبد المالك بن مروان عندما أمر بإحلال اللغة العربية محل جميع اللغات الأخرى في أقاليم الدّولة بشكل عام "[4].

ولاشك أن هذا الصّنيع كان له أثره الفعال في انتشار العربية بين السكان الأصليين، ومن ثم اهتمامهم بالأدب والثقافة العربية، وزاد الأمر مع توالي السنين وتعاقب الأزمان، فاهتم الناس بدراسة اللغة والأدب العربيين، وظهرت أجيال نشأت نشأة عربية خالصة، بعد أن تلقت تعليما عربيا كاملا فتفتّحت القرائح والأذهان، وبدأ الشعراء، والخطباء، والأدباء في الظهور والبروز ويسجل المؤرخون أنه لم يدخل القرن الثالث الهجري حتى ازدهر الأدب العربي في المغرب وبدأ الأدباء على قلتهم في

(1) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ، (مر، س) ، ج/2، ص:17 .

(2) ينظر مع بعض التصرف: لطيفة البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عهد بني زيري،(مر،س)، ص: 01 .

(3) تجدر الإشارة هنا إلى تلك البعثة العلمية التي أرسلها على رأس المائة الهجرية الأولى الخليفة العادل ـ عمر بن عبد العزيز ـ إلى القيروان، والمكونة من عشرة فقهاء، لتعليم الناس أمور دينهم ونشر العربية بينهم .

(4) التليسي بشير، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي، (مر، س) ، ص: 72.

التمايُز ولعل الشاعر الزناتي الأصل المغربي النشأة بكر بن حماد أكثر من يمثل النهضة الأدبية والشعرية بالمغرب العربي على امتداد القرن الثالث الهجري.

وازدادت النهضة الأدبية في القرن الرابع الهجري، وتوسّعت أكثر، وتجلّى ذلك من خــلال ما توصّل إليه الأدباء من تفوّق وبراعة في القول الشعري، ولعل أكبر من يمكن المباهاة بهم وقتذاك الشاعر المشهور ابن هانئ الأندلسي، والذي كانت مكانته في المغرب العربي تضاهي مكانة أبي الطيب المتنبي في المشرق، يقول عنه محمد توفيق النيفر: "لقد شهد العصر الفاطمي بالمغرب ولادة أوّل شاعر فحل في تاريخ المغرب الإسلامي، والذي هو ابن هانئ، حيث استطاع أن يضع سنّة شعرية كــاملة، لها خصائصها الفنية المكتملة"[1]، بل إن الشعراء والأدباء في العصر الفاطمي نقلــوا الأدب من مجرّد خُطب في العصر الأغلبي، إلى أدب تظهرُ فيه السّمات الإبداعية في النحو، واللغة، والأدب، مع مجموعة من كبار الأدباء: كالمكفوف[2]، والقــزاز القيرواني الذين استطاعوا أن يحوّلوا الأدب من طفولتـه وبدائيته التي كان عليها منذ الأغالبة ومن كان قبلهم، إلى أدبٍ تامٍ مزدهر مع الفاطميين، في مضامينه وأشكاله الأدبية نثرًا، وشعرًا [3].

فإذا وصلنا إلى الدّولة الصنهاجية التي تربّعت على عرش بلاد المغرب تقريبا مع نهاية القرن الرابع الهجري[4]، فقد وصلنا إلى مرحلة الازدهار الحضاري والثقافي في هذه البلاد، فهذا ابن خلــدون يكتب عن تلك المرحلة قائلا:" واستبحر عمران القيروان وقرطبة، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة"[5].

وظلت الحياة العلمية والأدبية بالمغرب العربي تنتقل من طور إلى طور، وتشهد حالة من الازدهار بفضل رعاية الأمراء وعنايتهم بأهل العلم وأصحاب المواهب، من ذلك المعز ابن باديس (ت454هـ) ومواقفه الجليلة مع العلماء وأصحاب المعالي والفضل، حيث نجده يجزل العطايا لهم ويقوم

---

(1) الحاجـري، مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، (مر، س)، ص: (89 ـ 91) .

(2) هو أبو محمد عبد الله بن محمد القيرواني المعروف بالمكفوف ،كانت لديه ثقافة لغوية وأدبية هائلة، حتى وصف أنه من أعلم خلق الله باللغة، والنحو، والشعر، توفي(سنة 308هـ)، ينظر: أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص: 236 .

(3) ينظر: حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ،ج/2 ص: 282 .

(4) ظهر الصنهاجيون بدولتهم في المغرب الأوسط منذ أواسط القرن الرابع 362هـ، ودام حكمهم زهاء القرنين من الزمان، إلى أن ذهبت ريحهم أواسط القرن السادس الهجري سنة 547هـ، وقيل سنة555هـ ،وفي عهد هذه الدولة انتهى حكم العرب بالمغرب العربي، وحكم البربر بلادهم بأنفسهم منذ أن جلس على عرش إفريقية بلكين بن زيري بن مناد مباشرة بعد خروج الفاطميين، ينظر: محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، (مر، س) ، ص: 69 .

(5) ابن خلدون، المقدمة ، (م، س)، ج/2 ، ص:771 .

بإكبارهم "حتى أنه كان لا يسمع بعالم جليل أو شاعر عظيم إلا استدعاه وأحضره كما يقول عبد العزيز قليقلة" [1] وكذلك كان يفعل ابنه تميم فيما يحكي المراكشي عنه فيقول:" كان محبّا للعلمـاء مُعظِّما لأرباب الصنـائع والفضائل، حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بُعد الدار"[2].

وكان من جميل صنيع المعز واهتمامه بالأدب والشعر، أنه كان يجري المساجلات والمطارحات النقدية بين الشعراء والنقاد المغاربة على شرف بلاطه، وهذا ما يشير إليه الشيخ بوقربة ويوضحه حينما يقول:" كان المعز بن باديس يثير المنافسات بين شعراء بلاطه ويظهر الميل إلى شاعر دون آخر وقد حصل بسبب هذه المنافسات نهوض سوق الأدب، وظهرت حركة علمية، اجتنت إفريقية وبلاد المغرب من ثمراتها اليانعة ما يحق لها الافتخار به، وعلى ما يذكر ياقوت الحموي من أن المعزُّ كان كثيرا ما يُـذكي الخلاف بين الشاعرين ابن رشيق وابن شرف اللذين كانت بينهما مجادلة ومعاداة، وكان المعز على معرفة بذلك، فكان يثير بينهما المنافسة "[3].

وإن من أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى توهّج الحركة العلمية وتطورها وازدهارها ببلاد المغرب خصوصا في القرن الخامس الهجري، ذلك التنافس الذي كان قائما بين الكبراء والأمراء وأهل البر والفضل، على تحبِيس الكُتب وتوفيرها لطلبة العلم كما هي الرواية التي يسوقها الدباغ في معالم الإيمان عندما يذكر "بأن الحافظ الفقيه أبي بكر عتيق السُّوسي صاحب المكانة العالية والوجاهة عند المعز، فقام المعز وبعث إليه بنفائس من الكنب الجليلة فلما وصل إليه الرسول أغلق الباب في وجهه، فلم يزل يُلاطفـه ويقول له، يقول لك المعزّ هذه الكتب في خزائننا ضـائعة وأنت أولى بها، فقال له أبو بكر العـالم التقي الورع: اكتب على كل جزء منها؛ حُبس على طلبـة العلم" [4].

وبذلك أمكننا القول بأن المغرب العربي قد شهد إبّان حكم الزيريين نهضة فكـرية واسعة في شتى المجالات، "بحيث انتعشت الحياة الأدبية والعلمية أكثر من أي وقت مضى، وازدهرت معالم العمارة بعد أن استحكم العمران، وتمكَّنت الصلة بين بلاد المغرب من جهة وبين بلدان المشرق من جهة أخرى، فازدهرت الآداب والعلوم والفنون، ونشطت الحياة الثقافية، وبرز للوجود كثير من العلماء

---

(1) ينظر كتـابه: النقد الأدبي بالمغرب العربي، (مر، س) ، ص: 40 .

(2) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (م، س)، ص: 297 .

(3) بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، ص: 30 .

(4) الدَّباغ، عبد الرحمان بن محمد، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ج/3 ، ص: 184.

في مختلف المعارف، ونبغ عدد لا بأس به من الأدباء، والشعراء، والكتاب والنقاد، كان لكل منهم حظ وافر في مجاله، وبلغت البلاد المغاربية في ذلك العهد ذروة حضارتها "[1].

وكان من بين الأسباب التي ساعدت على هذه الحركيـة الثقافية انتشار المكتبات العامة والخاصة وتفشي التعليم، وإقبال أمراء بني زيري على العلم والأدب، وأخذهم بأيدي أهله وتشجيعهم على النزوح إليـهم"[2].

وهكذا إذا يجمع أكثر الدارسين لتاريخ المغرب العربي من أن مرحلة الحكم الصّنهاجي إنما تشكّل الفترة الذهبية في العلم والأدب، بلغت الحركة العلمية والأدبية خلالها شأوا عظيما، ونبغ في ذلك العهد أعلام أفذاذ في كل علم وفن على ما يقول حسن حسني عبد الوهاب: "وفي هذا العصر سما الأدب وعلى شأنه، وظهر فيه الاختراع الجيد، وتوليد المعاني الرقيقة، وتولّد الإبداع العجيب لتأثير المدنيّة على الخيال الشعـري" [3].

وعلى العموم فإن العلم ازدهر بإفريقية وبلاد المغرب في القرنين الرابع والخـامس ازدهارا لم يسبق مثله، بسبب انتشار التعليم، ومساعدة ولاة الأمر والوجهاء الذين كانوا يفرضُونه على أولادهم ونسائهم، وجواريهم، وخدمهم عملا بأوامر الشريعة الغراء" [4].

5- عوامل وأسباب تأخّـر الحركة الأدبيــة والنقـديّـة بالمغرب العـربي:

تأخر الاهتمام بالدراسات الأدبية والنقدية واللغوية في البلاد المغاربيــة بعض الشيء، ولم تظهر بوادر الاهتمام بهذا الجــانب إلا مع قيام الدولة الأغلبيـــة في نهـــاية القرن الثاني الهجري (184هـ)، إلا أنه وبمجرد أن ظهر الاهتمام بالدراسات الأدبية حتى ظهرت حركية أدبية مميّـزة ازدادت مع الزمن تطورا وازدهارا، إلا أن ما يمكن تسجيله في هذا الصّدد وعلى امتداد القرنين الأول والثاني الهجريين، لم تكن لتظهر حركة أدبية، نتيجة لاشتغال الفاتحين الأوائل بنشر الإسلام ومجابهة حركة العداء التي أظهرها البربر اتجاه العرب، في ظل السياسة التي انتهجها الأمراء العرب مع البربر واعتبار بلادهم بلاد فَـيْء وحَـرب" [5].

(1) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، (مر، س) ، ص:21 .
(2) بوقربة بوقربة ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، ص: 01 .
(3) حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، المطبعة الأميرية القاهرة، (ط2 ، 1944م)، ص: 105 .
(4) حسن حسني عبد الوهاب، بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، (مر ، س)، ص: 61 .
(5) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية، (مر، س) ، ج/1، ص: 137.

ويُرجـع كثير من الدارسين أسباب تأخر الاهتمام بالدراسات الأدبية إلى ضعف الحصيلة المعرفية والخلفية الثقافية لدى السكان المحليين ـ البربر ـ، لأن الأدب بوصفه نتاجا إبداعيا وجدانيا يعتمد على الموهبة والاستعداد قبل كل شيء، لذلك تطلّب وقتا أطول حتى تتفتّح القرائح وتظهر الملكات وينشأ إثر ذلك أدب محلي، لأنه لا يمكن أن يظهر أدب وإبداع لدى قوم لم يتشبّعوا بعد باللغة العربية، ولم يصلوا إلى درجة الانفعال بها والتفاعل معها .

ومن العوامل التي يمكن إدراجها في سياق عرض أسباب تأخر النقد بالمغرب العربي فتح الأندلس، حيث أنه وبقدر ما كان دخول الفاتحين إلى أرض القُوط والإسبان فتحاً مبيناً، إلا أن ذلك العامل ساهم في تأخر الازدهار العلمي ببلاد المغرب، وتجلى ذلك في هجرة الأدمغة العربية والمواهب الكبيرة باتجاه الأندلس، هذه الأخيرة التي استهوت كثيرا أهل المغرب، وبذلك فإن فتح الأندلس قد ساهم بشكل مباشر في تأخر الخط البياني للأدب والنقد وتمدُّده وامتداده، وسيره نحو التطور والازدهار.

وربما زاد من حدة هذا التأخر في الاهتمام بالجوانب الأدبية، تلك الأحداث المؤسفة التي شهدتها البلاد المغربية في القرون الهجرية الأولى بسبب الحرب المستمرة بين العرب والبربر على ما سمي وقتها بالفتوحات الإسلامية، وحتى بين أبناء العرب والفاتحين أنفسهم في صراعهم على السلطة والحكم بتلك البلاد الجديدة" [1].

كل هذا ساهم بلا شك في تأخُّر انبعاث نهضةٍ أدبيةٍ محلية في تلك البلاد –المغرب العربي– وحتى مع تمام الفتح الإسلامي للمغرب العربي وانتشار العربية بين أهلها، لم تكن الطريق معبّدة بعد للدراسات الأدبية، إذ ظهر قبل ذلك الاهتمام بالدراسات الشرعية والدينية تمهيدا لتغلغل الإسلام إلى نفوس الناس، وتعريف العامة بمبادئ الإسلام، وتعليمهم أحكام الشريعة الغراء التي بدأ هذا المجتمع الجديد يدين بها لله، ومن ثمّـة فليس هناك غرابة في تأخر الاهتمـام بالأدب والدراسات الأدبية بشكل عـام.

يقول الدكتور محمد مرتاض:" إنَّ النقد بالمغرب العربي قد عرف تأخّرا زمنيا عن نظيره بالمشرق العربي، وهو أمر تقتضيه وتسوّغه الضرورة التي عرفها هذا الإقليم، حيث كان يتلزَّم الانتظار ردحا من الزمن حتى تتمكن العربية من ملامسة دواخل النفوس، اعتبارا من أن العربية لغة ثانية دخيلة على

(1) المرجع نفسه، ج/1، ص: 138 .

ساكنة هذا الإقليم، وهو الأمر الذي تفرضه ضرورة الصراعات الداخلية التي شهدتها المدن والحواضر المكونة لمجموع البلاد المغاربية إلى غاية استتباب الأمن واستقرار الوضع مع ظهور الدويلات المستقلة التي شهدها القرن الثالث الهجري، فضلا عن جانب آخر كان مدعاة إلى تأخر الدراسات الأدبية والنقدية بالمغرب، وهو ذاك المتمثل في التوجه العام الذي انتحَاهُ علماء المنطقة بتوجّههم إلى الدراسات الدينية والفقهية خصوصا" [1].

على أن الاهتمام بالجوانب الأدبية إنما بدأ يتطور وينهض مع قيام الدّويلات المستقلة والتي بدأت تفرض وجودها ببلاد المغرب العربي[2]، لأن قيام تلك الدول المستقلة واستقرارها كان داعما بشكل أساسي لتطور الأدب والدراسات النقدية، بل و تطور الدراسات العلمية بشكل عام.

وزاد في نشاط وحركية الحياة الأدبية في عهد الدولة الأغلبية خلال القرن الثالث الهجري أن الأمراء الأغالبة أنفسهم بحكم كونهم عرباً خُلَّصاً،كان يهزهم البيان الجيد، وتدفعهم أريحيتهم إلى تشجيع الأدباء، واللغويين، والنقاد وتقويمهم، هذا إلى جانب كون معظم أولئك الأمراء كانوا يجيدون قرض الشعر ونظمــه وتذوقه"[3]، وبتوافر تلك الظروف انطلق أبناء المغرب من البربر والعرب إلى الاهتمام بالأدب شعره ونثره خاصة بعد أن أحسّ البربر بمكانتهم مع تلمّسهم لانعدام الروح العنصرية التي زرعها الأمـــراء السابقون بين العرب الفاتحين وأهل البلاد من البربر[4].

ومما زاد في توقُّــد الحركة الأدبية وتطورها وازدهارها خلال تلك الفترة ـ القرن الثالث الهجري ـ توافد الأدباء والنقاد على بلاد إفريقيا واستيطانهم بها، وتشجيع أمراء الدويلات لمثل هذه الهجرات العلمية، وتوطّدت العملية أكثر بالبعثات العلمية التي كان يقوم بها المغاربة إلى المشرق، وما أضافته تلك الرحلات من حسٍّ أدبي في نفوس الطلبة المغاربيّــين" [5].

---

(1) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطــوره، (دراسة وتطبيق)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دط، 2000 م) ص: 30 .

(2) نريد بذلك أهم الدويلات التي استقر بها المطاف وأقامت عواصم لها ببلاد المغرب، كالأدارسة، والرستميون، والأغالبة حيث راحت هذه الدول تعمل على استقطاب الأدباء والشعراء وتجمّل بلاطاتها بخيرتهم، في ذلك ينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، (مر، س) ، ص: (18 ـ 20) .

(3) ينظر: حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ،ج/2، ص: 141 .

(4) حيث ظهر بعض الأمراء من الذين تولوا إمرة بلاد المغرب، خاصة في القرن الهجري الثاني ممن كانت لديهم توجّهات عنصرية وقصر في النظر، ففرضوا على السكان المحليين من البربر ضرائب، وإتاوات رآها الناس غير عادلة، الأمر الذي جعلهم يثورون على أولئك الأمراء ، بل ووصل الحد إلى منازعة وقتال بعضهم، ورفض سياساتهم غير المبرّرة .

(5) يطالع: حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية، (مر، س)، ج/2، ص: 141.

7- دور الأمراء والقادة في تشجيع الحركة الأدبية والشعرية ببلاد المغرب العربي:

إنّ الإبحار والقراءة والبحث في الموروث الثقافي والأدبي والفكري المغربي القديم، يجعلنا نقف على تراث أدبي مغربي حافل تلوّن بروح وخصوصية الإنسان الذي عاش على ربـــوع هذه البلاد، وأنتج أدبا عبر عن أحواله وخصوصياته بكل عفوية وأمانة وصدق، وإن الإيمان بوجود هذا التراث الأدبي يقتضي وجوبا وجود فعل نقدي تتبّع وناقش ودرس وساير هذا الأدب على غرار الدّرس والتفتيش عن مكامن الإبداع في الإنتاج الشعري والأدبي المشرقي.

وانطلاقا من ذلك فإن ما يمكن تسجيله عن حركة الشعر والأدب خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، واللذين برزت فيهما دولتان كان لهما الأثر الواضح في تطوّر الفعل الأدبي والذي تجلى بصورتيه الشعرية والنثرية [1]، خاصة مع التشجيع والدّعم الذي كان يقدمه حكام وأمراء هذه الدول في سبيل ترسيخ أفكارهما وتدعيم توجّـــههما المذهبي.

7-1- الأمراء العبيديون وتشجيعهم لحركة الشعر والأدب:

إذا ما أردنا الوقوف على الإنتاج الشعري زمـن الفاطميين" فإننا نلمس بجلاء غزارة في المادة الشعرية، وإنما حصل كل ذلك نتيجة التحول السياسي والمذهبي الذي رافق قيام الدولة العبيدية، اعتبارا من أن الشعر كما الخطابة عادة ما يكونا المرآة الصادقة لمجمل نواحي الحياة السياسية والدينية والثقافية التي تعرفها الدول وهي تعمل على تثبيت وترسيـخ دعائمها وتقويَّة بنيـانها"[2] .

وبذلك فقد سخَّر الفاطميون الكثير من الطاقات الشعرية والإبداعية لخدمة معتقدهم الديني والمذهبي، ورغبة منهم في جعل بلاطاتهم لا تقلّ أهمية ومكانة عن بلاطات منافسيهم العباسيين في بغداد، والأمويـــن في قرطبـة، هذا الاهتمام اللافت منهم بالأدب جعل أبوابهم تزدحم بالكثير من الشعراء الذين أثروا الحركة الشعرية بإنتاجهم الغزير، "ولعل من أبرز أولئك الشعراء الذين حمَـوْ حِياض الدولة الفاطمية، ودافعوا عنها ورفعوا من شأن خلفائها، الشاعر المحدّث والمؤرخ المعروف أبو العرب التميمي (ت333هـ)، والذي كان جيِّدَ الشعر غزيرُه " [3].

كما يعدُّ الفقيه الشيعي الإسماعيلي النعمان بن حيُّون (ت363هـ)، أحد الفقهاء الذين نظموا الشعر، ومن الشعراء المبدعين الذين عاشوا خلال الفترة العبيدية –القرن الرابع الهجري– الشاعر أبو

---

(1) نقصد بذلك الدولة العبيدية ، والدولة الصنهاجية الزيـريـة .

(2) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ، ج/2 ، ص:243 .

(3) المرجع نفسه،ج/2 ، ص: 250 .

القاسم محمد بن عامر الفــزاري القيرواني (ت345هـ)، ويعد هذا الرجل في جملة أعلام النهضة الأدبية في العصر الفاطمي، ومن الذين أثروا الحركة الشعرية بزخم كبير كما ونوعا، ترك لنا إنتاجا شعريا غزيرا يدل بما لا يدع مجالا للشك على قوته وأصالته الشعرية، امتدح في أخريات أيامه الخليفة الفاطمي المنصور بقصيدة اشتهرت بين الناس بالفـزارية، والتي تعتبر من عيون وغرر قصائد المدح في العصر الفاطمي، يقول في مطلعها[1].

لَعَمْرُكَ مَا أَوْسُ بن سَعْدٍ بِقَوْمِه وَلاَ سَيِّدُ الأَوْبَار قَيسُ بْنُ عَاصِم

وقد نالت هذه القصيدة شهرة عريضة في المغرب والمشرق، وأفردت كثيرا بالشرح والتهذيب، وهذا يدل بلا شك على متانتها وقوتها الفنية والإبداعية.

كما عرفت تلك الفترة من العصر الفاطمي ظهور شاعر مبرّز من إقليم تونس إنه الشاعر محمد بن علي الإيادي التونسي المتوفى سنة (365هـ)، "حيث يعتبر الإيادي من الشعراء المرموقين نظم أكثر شعره في الفاطميين، ولم تظهر شهرته إلا بما صنعه فيهم من شعر، لذلك رفع مقامه الخلفاء الفاطميون وأكرموه وقدروا شاعريتــه"[2]، وصفه الأديب ابن شرف القيــرواني بقوله:" وأما محمد بن علي الإيادي التونسي فشعره المورِدُ العذب ولفظة اللؤلؤ الصَّــب، وهو بحتــري الغرب"[3]، كما حصل الإيادي على شهرة طافحة تعدّت حدود وطنه المغرب إلى المشرق، وهذا يعطينا فكرة واضحة عن مدى التميّز الذي ظهر به شعراء المغرب العربي في القرن الرابع الهجري.

مما سبق تظهر لنا بجلاء ملامح الحركة الشعرية والأدبية بالمغرب العربي الكبير في عصر الفاطميين وازدادت هذه الحركة توهّجا وثراء بشاعر الفاطميين فكرا ودعوة، أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي مولدا، المغربي فكرًا وحياةً وإنتاجًا وإبداعاً [4]، عاش أكثر حياته الشعرية وهو يمتدح الخليفة الفاطمي، وينشئ القصائد الطوال في التّغني بالأسرة الفاطمية، والإشادة بأمجادها، وتحقير خصومها السياسيين، ترك لنا ابن هانئ عطاء شعريا غزيرا تمثّل في ديوانه الكبير، والذي اشتمل

---

(1) فـروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، (مر، س) ،ج/ 4 ، ص: 373 .

(2) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ،ج/2 ، ص: 264 .

(3) ابن شرف القيرواني، أعلام الكـلام، ص: 36 .

(4) هو الشاعر الكبير محمد ابن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي المغربي، شاعر الفاطميين الرسمي، مدح بني عُبيد بشيء من الإفراط والغلو، كان شاعرا فذا وأديبا مقتدرا،، عاش في صحبة المعز الفاطمي يمدحه ويتغنى ببطولاته وأعماله، امتاز شعره بقوة الطبع والبعد عن التكلف، وجزالة اللفظ وفصاحته، حتي شبهوه بالمتنبي في إحكام صنعة الشعر، هيمن على الحياة الأدبية في عصره، خلف لنا ثروة شعرية غزيرة في مختلف الأغراض، توفي في ريعان شبابه الأدبي سنة 362هـ، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيــان، ج/4، ص: (421 ـ 424) .

نصفه أو يزيد على مدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، والإشادة بمنجزات دولتهم الشيعية الفاطمية، وقد عدّه ابن خلكان من شعراء الطبقة الأولى في جملة شعراء المغرب والأندلسي، حتى أنه قال: " إن المغاربة يعدّون ابن هانئ عندهم كالمتنبي عند المشارقة "[1].

وبذلك فقد كان للعبيدين الأثر الطيب في التطور الفكري والثقافي والأدبي بالمغرب العربي، كيف لا وقد كان أمراء بن عبيد أنفسهم من أرباب العلم والثقافة، ولذلك كانت عنايتــهم شديدة بأهل الفكر والأدب والشعر، حتى أنهم كانوا يَستدعون الشعراء والأدباء إلى بلاطهم في المناسبات المختلفة، ويذكر كُتّاب السِّير والتاريخ " أن الأمير الفاطمي القائم بأمر الله كان ذا سطوة علمية بما حَباهُ الله من تأثير في نفوس الناس، وزادته فصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب مهابة وجلالا وقدراً،كما كان الخليفة المنصور أيضا فصيحا بليغا حاد الذِّهن سريع الجواب جيد الحدس، أما المعز لدين الله فتذكر المصادر على أنه أعظم أمراء العبيديين قدرا، وأجلهم خطرا،كان مُولعا بالعلوم ذا دراية بالأدب، يناظر العلماء ويكرمهم[2].

كما يُسجّل لأمراء بني عبيد عنايتهم بالكتب وجمعها وإيثارها على كل شيء، ولعل القصة المروية عن المهدي في جمعه للكتب وولعه بها وعدم تخليها عنها حتى في أحلك الظروف عندما كان متوجها إلى المغرب لإقامة دولته ومُلكِه ببلاد البربر، "واعترضت طريقه عصابة لصوص فاستولت على ما معه من الأشياء والمتاع ومن بينها كتبه، فكان أسفه عليها -أي الكتب- كما يقول هو، أشدّ من أسفه على غيرها مما ضاع منه"[3] ،كما يذكر ذلك القاضي النعمان بن حيُّون كاتب سرّهم ومُسجِّل آثارهم .

وقد عمل هذا الفقيه الشيعي وكبير دعاتهم على تسجيل تاريخ العبيديين وترسّم أخبارهم في كتاب سماه المجالس والمسايرات، وهو من الكتب ذات الصلة الظاهرة بالمذهب الشيعي الإسماعيلي، فضلا عما حواه من قيمة أدبية لا تقدّر كما يقول يوسف حوالة: " إنَّه كتاب أدبي مُمتعٌ طريف في موضعه، فهو يعدّ من كتب أدب السيرة، ألفه صاحبه القاضي النعمان من خلال ملازمته شبه الدائمة للخليفة المعز لدين الله الفاطمي، ضمّنه آراؤه المتعددة في شتى جوانب الحياة السياسية

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، وفيات الأعيان، ج/4 ص: 424 .

(2) ينظر: حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ،ج/2، ص: 271 .

(3) القاضي النعمان ابن حيُّون ، المجالس والمسايرات ، (م، س)، ص: 526.

والاجتماعية والمذهبية التي كانت تعيشها الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجري، وبذلك فإن هذا الكتـاب الضخم يعد انعكاسا صادقا للأدب الشيـعي الاسماعيلي في ذلك العصر"[1].

7-2- تطور الأدب وازدهاره في العصر الزيري الصنهاجي:

ما كاد ينتهي القرن الرابع الهجري حتى توالى على حكم المغرب ثلةٌ من الأمراء الصنهاجيين، من الذين اعتنوا بالعلم، وأكرموا رجاله ونهضوا بالثقافة والأدب، ولم يشهد المغرب العربي النهضة والازدهار مثل تلك التي شهدها في العصر الصنهاجي،" حيث أحرز أهل المغرب على تمدّن باذخ وحضارة فائقة، ونبغ في ذلك العهد عدد كبير من العلماء الأفذاذ المقتدرين في كل علم وفنٍّ، فـزها الأدب في عهدهم وسار الشعر في مدارج الارتقاء، وراجت سوق الأفكار، وأصبح المغرب قبلة للعلماء ومهوى أفئدة الطلاب"[2].

وكان مما عُرف عن المعز بن باديس أنه كان لا يدّخر جُهدًا في تجميل بلاطه بأوفر عدد من العلماء والشعراء، ذلك أنه كان من طبعه كُلَّما سمع بعالم أو أديب طار صيته، إلا واستدعاه لقصره وجمَّـل به مجلسه، وأغدق عليه من صُنوف الأموال ومن ألوان الحُظوة والتشجيع مالا يتصور، حتى قيل أن بلاط المعز جمع مائة شاعرٍ، وكذلك كان ابنه تميم والذي تقلّد ولاية المغرب في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (**453هـ -501هـ**)، حيث كان هذا الأمير كوالده محبا للعلماء، معظما لأرباب الفضائل حتى قصده الشعراء من الآفاق على بعد الدّار، وكان يجيز الجوائز ويعطي العطاء الكبير، وكان يضرب به المثل في الجود والكرم، قال عنه ابن كثير كان من خيار الملوك حلما وكرما وإحسانا[3].

وعرفت القيروان نهضةً فكريةً واسعة إبّـان حكم الصنهاجيين في القرن الخامس الهجري بحيث ازدهرت الحضارة بالثروة والعلوم المختلفة، وجنح الأدباء إلى الآداب الرفيعة، فزها الأدب والنقد، وسار الشعر في مدارج الارتقاء وراجت سوق الأفكار أيّما رواج، وكان من ثمار ذلك أن بلغت القيروان منتهى عُمرانها، لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي ملتقى عاما بين المشرق والمغرب، "كما

---

(1) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ،ج/1 ، ص: 186 .

(2) حسن حسني عبد الوهاب، المنتخب المدرسي من الأدب التونسي، (مر، س) ، ص: 50، .

(3) ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي ، (مر، س) ، ص: 103 .

شجَّع المعز بن باديس الصنهاجي الأدباء على النزوح إليه، حتى اجتمع ببلاطه من أفاضل الشعراء وخيار الأدباء أكثر من مائة شاعر وأديب" [1].

ونظرا للدور الكبير والتعهّد التام الذي أسبغه المعز بن باديس على الأدباء والشعراء فقد مدحه ابن خلكان بقوله: "كان المعزّ بن باديس الصنهاجي محبّا لأهل العلم كثيرا العطاء لهم، مدحه الشعراء وانتجعهُ الأدباء، وكانت حضرته محطّ بني الآمال"[2]، كما نجد مؤرِّخا آخر يثني على المعز ويرفعُ من مقامه فيقول: " كان المعزُّ متوقِّد الذِّهن حاضر الخاطر، حاذقا بطرائق الألحان عالما بالمنثور والمنظوم من الكلام، مدحه الكثير من الشعراء فأجزل لهم العطاء، وليس ذلك بقليل في حق أمير تربَّى في كنفِ عالم جليلٍ وأمير مقتدر؛ كابن أبي الرجال الشيباني"[3].

وانطلاقا من التشجيع الذي كان يوليه الأمراء والقادة لأهل العلم، والإكرام الذي كان يمنحه هؤلاء للفضلاء والمتميّزين من ذوي النباهة في الفكر والأدب، كل ذلك جعل الشعراء والكتاب من بلاد المشرق والأندلس لا يتردّدون في القدوم والوفادة على أمراء المغرب، فكان يطيب لهم المقام ويحلوا لهم البقاء بين جنبات هؤلاء الأمراء، وذالك بسبب ما يجيدونه من التّكريم والتّبجيل وحفاوة الاستقبال، "من ذالك أن أبا الفضل عبد الواحد الدّرامي البغدادي[4] والذي قَـدِم رسولا من قبل القائم بأمر الله العباسي إلى المعز بن باديس أمير المغرب وحاكمه، في مهمة تتعلق بشؤون الحكم والسياسة ، فتحلو له القيروان ويقيم بها وينتظم في سلك رجال المعز الأدباء ثم لا يعود إلى بغداد، وكان أيضا من شعراء الأندلس من ينزحون من أندلسهم ليستقروا في رحاب ذالك الأمير الذي يبذل في تكريم الشعراء ما لا يكاد العقل يصدّقه، فيكون وراء ذالك كله أدب جمّ وعلم غزيـــر " [5].

يقول ابن عذارى المراكشي:" وكان للأمراء والقادة الصنهاجيين دورٌ كبير في بعث الثقافة وازدهارها، من خلال التشجيع المتواصل منهم للشعراء والأدباء بغرض النزوح والاستقرار ببلاد

---

(1) ينظر: حرشاوي جمال، تأثر النقد اللغوي بالثقافة المشرقية ، مقال علمي، مجلة اللغة والاتصال، مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، العدد: (9 ـ 10)، نوفمبر 2011م ص: (408 ـ409).

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان، (م، س) ، ج/5 ، ص:233 .

(3) الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، (مر، س) ، ص: 78 .

(4) أبو الفضل محمد بن عبد الواحد الدرامي البغدادي رجل من أهل العلم والأدب من أصل مشرقي، ولد في حدود (سنة388هـ) ،وفد على القيروان سنة439هـ وطاب له المقام بها لما وجده من عناية واهتمام بأهل العلم والأدب، انتظم في سلك رجال المعز بن باديس ولم يرجع إلى بغداد بعد خراب القيروان، ساهم في إدخال كتب مشرقية كثيرة إلى بلاد المغرب كما يقول بن رشيق، انتقل إلى الأندلس بعد خراب القيروان، (توفي سنة 454هـ) ، ينظر: أحمد يزن، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 48 .

(5) مخلوف عبد الرؤوف، من نوابغ الفكر العربي، ابن رشيق القيرواني، (مر، س) ، ص: 06 .

المغرب، ويأتي على رأس هؤلاء المعز بن باديس الصنهاجي، والذي أُثر عنه حبه لأهل العلم وتقريبهم منه، حتى ذكر أنه اجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء وكرمائهم أكثر من مائة شاعرٍ وأديب، ولم يكن أحد في زمانه أشد بأسا في الملاحم، ولا أطول يداً بالمكارم، ولا أعنى بلسان العرب من المعز بن باديس "[1] .

أما عن الثراء الشعري والأدبي في القرن الخامس الهجري خصوصا في العصر الزيري، فإن الدارسين مُجمعون على أن الثراء الشعري في ذلك العصر يفوق كل الإنتاج الشعري الذي خلفته العصور السابقة عليه، ولعلَّ ما أحدثه سقوط حاضرة القيروان على يد الهلاليين[2] منتصف القرن الخامس الهجري ظهر صداه في تلك الانعكاسات التي أذكتها قرائح الشعراء وهم يرثون حاضرتهم ويبكون مدينتهم التي آوتهم وأرضعتهم، وقد تجسّد كل ذلك في العطاء الشعري على أيدي فطاحل الشعراء المغاربيين في ذلك العصر من أمثال ابن رشيق، وابن شرف، وعلي الحصري الضرير[3]، وغيرهم من الأعلام .

وليس غريباً أن نرى العصر الزيري يعجُّ بالشعراء وغزارة الإنتاج الشعري، ويكفي للدلالة على ذلك، وعلى ازدحام البلاد المغربية في تلك الفترة بالعشرات من الشعراء والأدباء أن نرى الناقد الكبير ابن رشيق القيرواني وهو يتأهب لتأليف كتابه (أنموذج الزمان في شعراء القيروان)، "فما كان منه إلاَّ أن يُترجِم لأكثر من مائة شاعر، ومع ذلك فهو لم يستوعب في مصنفه كل الشعراء الذين عرفهم المغرب العربي في القرن الخامس الهجري، خاصة أولئك الذين تباعدت ديارهم عن عاصمة العلم والنور وقتها حاضرة القيروان، كما أنه لم يُلق بالا لأولئك الأعلام الذين جمعوا بين الشعر وفنون المعرفة الأخرى، من الفقهاء والقضاة والكتاب، إنما اقتصر في مؤلفه على ذكر الشعراء الأدباء فقط " [4].

---

(1) ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (م، س)، ص: 297، وينظر: خلدون بشير، الحركة الأدبية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص: 22 .

(2) الهلاليون قبائل عربية خالصة ينحدرون من بني عامر بن صعصعة، كانوا يسكنون في وسط الحجاز وأطراف الشام والعراق، يقول بن خلدون عنهم ، وبعد قيام الدولة الفاطمية بمصر نقلهم العزيز الله الفاطمي إلى صعيد مصر، ونظرا لفساد طبعهم وتوحّشهم وشغبهم واعتدائهم على من جاورهم، وجد الفاطميون الفرصة مناسبة لنقلهم إلى بلاد المغرب بعد إعلان المعز بن باديس الصنهاجي استقلاله عنهم ، ودعوته للمذهب السني، وبذلك انتقل بنو هلال بجموعهم إلى المغرب حيث وصلوا إلى القيروان قي حدود سنة 444هـ ، مما نتج عنه خراب القيروان بعد أن عاثوا فيها فسادا وتخريبا ، ينظر: مؤنس حسين،معالم تاريخ المغرب والأندلس، (مر، س)، ص: (166 ـ 168).

(3) هو أبو الحسن علي الحصري الفهري القيرواني الضرير، الشاعر المقتدر، توفى بطنجة سنة 488هـ ، وقد سبق التعريف به .

(4) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ،ج/2، ص: 276 .

وعلى ذكر هؤلاء الشعراء الذين غذوا الساحة الشعرية المغربية في العصر الزيـري، يجدر بنا الإحاطة ببعضهم من الذين ارتفعت أسماؤهم في سماء العلم، وحملت المصنفات التاريخية والأدبية الكثير من إنتاجاتهم وإبداعاتهم الشعرية، ومن هؤلاء على الخصوص نذكر: عبد الكريم النهشلي (ت405هـ)، القزاز القيرواني (ت412هـ)، إبراهيم الحصري (ت413هـ)، هذا وإن من أقطاب الحركة الشعرية بالمغرب العربي في العصر الزيري الأديب واللغوي الكبير حسن بن محمد التميمي القاضي التيهـرتي المعروف بابن الرييب (ت420هـ)، والذي وصفه ابن رشيق" بأنه بلغ نهاية الأدب وعلم الخبر والنسب" [1].

ومن شعراء المغرب العربي الذين عاشوا في القرن الخامس الهجري وطفح ذكرهم وعلا شأنهم، وظهرت شاعريتهم الشاعر، إبراهيم الرقيق القيراواني (ت435هـ)، والشاعر الأديب علي ابن أبي الرجال الشيباني المتوفى سنة (425هـ)، وإن أنسَ فلا أنسى شعراء العربية المبرَّزين في كل العصور بلا مراء، ونعني بهم الحسن ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة (456هـ)، والحُصري القيرواني الضرير المتوفى (سنة488هـ).

انطلاقا مما سبق، يمكن القول بأن المغرب العربي إنما وصل إلى درجة النضج والاكتمال في مجال الإبداع الشعري والأدبي في العصر الزيري، والذي يبتدئ مع نهاية القرن الرابع وينتهي مع نهاية القرن الخامس الهجري، حيث ازدحم هذا العصر بعديد الأسماء التي لمعت في دنيا الأدب، وكان لها الأثر البالغ في إثراء الدراسات الأدبية والشعرية والنقدية في بلاد المغرب العربي، ليس على مستوى العصر الذي نكتب عنه فحسب، وإنما على امتداد كل العصور بل وإلى يوم الناس هذا ، والدليل على ذلك أن معظم رموز الأدب والشعر من التي يشار إليهم بالبنان ويذكرها كل لسان على اختلاف الأعصُر والأزمان، إنما ظهروا في تلك الفترة؛ أي القرنين الرابع والخامس الهجريين.

وإذا فإن تطوّر الدراسات الأدبية واللُّغوية في عصر بني زيري بات أمرا مَلحُوظا وحقيـقة مشاهدة بالبلاد المغربية، وهو الأمر الذي جعل بعض الدارسين يطلق على عصر الزيريين، العصر الذهبي للحياة الأدبية على وجه الخصوص، "ويرجع السبب في ذلك إلى تشبّع الزيريـين بالثقافة العربية، وحرصهم الدَّؤوب على تشجيع العلم والعلماء والأدباء"[2]، وكان للأمير المعز ابن باديس دور

(1) ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، (م، س)، ص: (111، 112) .

(2) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ،ج/2 ، ص: 143 .

عظيم فيما بلغته دولتهم من تقدم وتطور في جميع المجالات العلمية والسياسية والإقتصادية والثقافية، بل إن هذا الرجل –المعز بن باديس– يُعدُّ في نظر الكثير من الدارسين الباعث الحقيقي للنهضة الأدبية الشاملة التي شهدها المغرب العربي إذ ذاك، وربما ساعد في ذلك امتداد فترة حكمة والتي وصلت إلى حدود النِّصف قرن من الزمان تقريبا، أي من: (**406** إلى **454** هـ) .

وقد حرص المعزّ بن باديس على أن يجعل بلاطه لا يقل روعة وبهاء عن البلاطات الزاهية وقتها في كل من الأندلس، والقاهرة، وبغداد، وساعدت أكثر فأكثر نفسية هذا الأمير، لكونه كانت له هو ذاته نفسٌ توّاقة للمعرفة محبة للعلم والأدب، ولذلك لا نرى عجبا إذ رأيناه مال إلى كفة أهل العلم، بما أغدقه عليهم من مكافآت، وطيّب به نفوسهم وخَواطِرهم من حظوة ورعاية واهتمام، حتى أنَّ عصر المعز بن باديس وسمَه بعض الدارسين بالعصر الذهبي للأدب، وقد ذهب إلى هذا الرأي أبو القاسم كرو في كتابه –عصر القيروان– كما يذكر ذلك عبد العزيز قليقلة [1].

كما ارتقت لذلك العصر منزلة الكتابة والنثر، حيث اعتنى الكتاب بالكتابة النثرية عناية فائقة، جعلت ميدان الكتابة بمنزلة ليس وراءها إلا منزلة الجيش، إذ كانوا هم العمدة كما يقول عبد الله شريط[2]، هذا الاهتمام بالكتابة وشأنها جعل طبقات الكتاب تتعدّد كما تعددت طبقات الشعراء، وظهر من أولئك الكتاب أصناف طبقة كتاب الإنشاء، وطبقة كتاب الديوان، وكان ممن برز بين أظهرهم أكثر فأكثر ابن رشيق، وابن شرف، وأبو إسحاق الحصري، وعبد الكريم النهشلي، وكانت الكتابة الإنشائية أكثر رواجا من الكتابة الديوانية، اعتبارا من أن أصحابها كانوا يريدون بها الأنموذج الوافي في البلاغة، لذالك نجدهم يكثرون من الألقاب والمصطلحات والمسمّيات، والأسجاع وأنواع المجازات .

كل ذلك كان موجودا، وعايشه أهل المغرب وصبغوا حياتهم العلمية بتلوناته وتنوعاته، ومع الأسف وجد هنالك الكثير ممن يتصوّرون خلوَّ هذا الأفق المغربي وهذه البقعة من أي فكر أو إبداع أو وعي بقضايا العلم والفكر والأدب، بل وأكثر من ذلك ظُنّ بأهلها أنهم تبع لأهل المشرق في إنتاجهم الفكري والفني بعامة، وهي ملحوظة أشار إليها كثيرون من الدارسين والباحثين من الذين شغلهم الهمّ المغاربي وراحوا يفتّشون ويبحثون في كنوزنا المعرفية والعلمية والأدبية المغربية الغابرة وصدق

---

(1) ينظر كتابه: البلاط الأدبي للمعز بن باديس، (مر، س)، ص: **36** .

(2) شريط عبد الله، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، (مر، س)، ص: **122** .

طه الحاجري في ظنه وهو يكتب قائلا: "وأنا أحسب أنّ إقليما من أقاليم العروبة لم يظلم تاريخه الأدبي ولم تجتمع الأسباب لاهتضامه،كما ظلم هذا التاريخ في الشمال الإفريقي"[1].

7-3- رعاية الحماديين لحركة الأدب والشعر:

أما عن رعاية الحماديين لحركة الشعر والأدب فإن دورهم في ذلك لم يكن بأقلَّ مما اصطبغ به عهدُ الفاطميين والزيريين قبلهم، بحيث لم يتـراخ الحماديون في إكرام العلماء وتوقيرهم وإضفاء المكانة اللائقة بهم، وذلك ما جعل دولة بني حماد التي تأسست بالمغرب الأوسط، حاضرة للعلم والعلماء، نتيجة تشجيع الأمراء للعلوم، خاصة ما تعلق بالدين والفقه، "فقد كانت دولة بني حماد حريصة على الدين الإسلامي من الضياع والتشتت، وكان علماؤها من أكبر المدافعين عنه، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل حَظي اللغويون والمفكرون باهتمام بالغٍ من طرف الحكام الحماديين، بما يمدّونهم من الهدايا والأموال، وكان أميرهم الناصر بن علناس أطول الملوك الحماديين باعا في هذا المضمار، لذلك كان يؤمُّـه الأدباء ويقصده الشعراء فيغدق صلاته عليهم، كما كان المعز ابن باديس مكرما لأهل العلم كثير العطاء لهم كريماً معهم" [2].

وبهذا الاهتمام والعناية بالعلم والعلماء عرفت بلاد المغرب نهضتها الكبرى تحت حكم الحماديين الذين دام حكمهم قرنا ونصف قرن من الزمان، مخلّدين آثارا حضارية جعلت الحضارة الحمادية من أرقى الحضارات المغربية في القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الهجري ما جعلها تترك أثرها الواضح على الحضارات المتعاقبة على حكم المغرب الأوسط" [3].

وهذا مبارك الميلي يكتب عن دور الأمراء الحماديين في ترقية الحياة الأدبية والاهتمام بالعلماء وتقريبهم وإكرامهم فيقول:" وكان عصرُ الحماديين عَصرَ إنشاء وترقيةٍ في جميع مناحي الحياة المدنية، فضربوا في العلم والأدب بسهمٍ، ونشطوا بالجوائز والصلات، فارتحل إليها أمثال ابن حمديس الصقلي من الأدباء ، وأبي الفضل بن علي النحوي التوزري من العلماء والذي كان يشبّه بأبي حامد الغزالي، وبذلك غَصَّت عواصمهم بطلاب المعارف وناشريها، وكان العلماء يتناظرون في مجالس بني حماد ويؤلّفون لهم الكتب"[4].

---

(1) الحاجري ، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، (مر، س) ، ص: 16 .

(2) رشيد فلكاوي ، مساهمة علماء دولة بني حماد في نشر اللغة العربية ، (مر، س) ، ص:33 .

(3) المرجـع نفسه، ص:34 .

(4) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في العالم القديم والحديث، (مر، س) ، ج/3، ص: 786 .

8 ـ النقــد المغربــي القــديم اتجـاهاتـه وروافـــده: اتفقت كلمة الدارسين للأدب والنقد المغربي القديم على أن اتجاهات النقد لدى النقاد المغاربة القدامى يمكن حصرها في ثلاث توجّهات هي[1]:

1ـ اتجاه أدبي فني **2** ـ اتجاه ديني صرف **3** ـ اتجاه تأسيسي تقعيدي

1 ـ **الاتجـاه الأدبي:** وهو ذاك المتمثل في الاهتمام بالشروح الأدبية، وتنمية الذوق الفني، وعُدَّته في ذلك الثقافة العربية الأصيلة، والتعامل مع النص وما يحمله من جمالية وأدبية وفنية، ومعنى ذلك أن هذا الاتجاه يتناول العمل الأدبي باعتباره عملا فنيّاً خالصًا، وذلك بالاعتماد على نقد النّصوص الشّعرية من منطلق فهم النّص وتحليله وتفسيره وبيان أسراره البلاغية والجمالية، ومواضع الحسن والقبح فيه، يقول عبد العزيز عتيق:" وهذا المنهج هو أخصّ مناهج النقد الأدبي وأولاها لمن يريد فهم طبيعة الأدب وبيان عناصره وأسباب جودته ـ قوته ـ، وهو أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب وطبيعة الفنون على وجه العموم"[2].

وكان من جُملة ما عوّل عليه أصحاب هذا الاتجاه هو النقد التطبيقي، عن طريق إثارة النصوص الشعرية وشرحها واكتشاف محمولاتها، وقد جسّد هذا التوجّه عمليا بعض النقاد ممن امتلكوا ناصية البيان العربي، كابن رشيق وأستاذه عبد الكريم النّهشلي، وكذا ابن شرف القيرواني .

ومن الأدوات التي ينبغي توافرها في النّاقد الذي يَروم تطبيق هذا المنهج الاعتبارات التالية [3]:

ـ الذوق والفطرة، أي ضرورة توفّر الموهبة لدى الناقد، والتي بدونها لا يستطيع أن يخوض في ميدان الشعر .

ـ التجربة والدّربة والممارسة الفعليـة للعمل النقدي .

ـ المعرفة بخصائص الشعر، إذ أن لكل فنٍّ أسراره التي لا يطّلع عليها سوى الخبير بذلك الفن .

2 ـ **أما الاتجـاه الدِّيني،** فهو الاتجاه الذي اهتم بقضايا الإعجاز القرآني والبلاغة النبوية، وكان من أكثر النقاد المغاربة اهتماما بهذه المسائل القاضي عياض (ت**544**هـ)، في كتابه (بُلغة الرائد فيما تضمّنه حديث أم زرع من الفوائد)، والذي حاول من خلاله دراسة النص النبوي دراسة نقدية

---

(1) ذهب إلى هذا الرأي كلا من محمد مرتاض في كتابه النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث، وذكر أن عبد السلام شقُّو ر أيضا تبنى هذا الطرح، وكفانا مئونة الاجتهاد والبحث في ذلك ، ينظر: محمد مرتاض وكتابه المذكور آنفا، ص: (98 ـ99) .

(2) عتيق عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (مر،س) ص: 277 .

(3) إبراهيم عبد النور، اتجاهات النقد في المغرب العربي بين القرن الرابع والثامن الهجريين، (مر، س)، ص: 110 .

بلاغية، ومما تجدُر الإشارة إليه في هذا الصدد، هو أن الكثير من الأدباء والنقاد المغاربة سواء بالمغرب العربي أو الأندلس، قد تلوّنت أحكامهم النقدية بالطابع الدّيني الأخلاقي، وذلك تأثُّرا منهم بالمنهج القيْمي الأخلاقي الذي طغى على الرؤية النقدية للكثيرين منهم،" حيثُ نلمس لدى البعض منهم عُزوفا تاما عن التمثّل بالنصوص الشعرية التي تجسّد الهجاء والغزل الإباحي، وكان من أكثر النقاد المغاربة إيغالا في سلوك هذا النّـهج كلا من النهشلي، وابن شرف القيرواني، واللذين نلمس لديهما التزاما كبيـراً بما يشترطه الإسلام في الفنّ " [1] .

وربما ترجع أسباب ذلك إلى أن النقاد المغاربة إنما برزوا في عصر كانت الإرهاصات النقدية في مُعظمها قائمة على أساس ديني، ذلك لأن فترة – القرنين الرابع والخامس الهجريين –كان النقاد والأدباء في أكثريتهم متشبِّعين بالثقافة الدينية، وبالتالي نظروا إلى الأدب على أنَّه خادمٌ للدين بالدرجة الأولى، لذلك راعوْا في مقاييسهم النقدية هذا الجانب بشكل كبير، غير أنَّ ذلك لا يمنع من القول كما يكتب محمد مرتاض، بأنَّ من هؤلاء النقاد من أَبان عن نُضجٍ وتفتُّح كبيرٍ حيال بعض النصوص الشعرية، وغضِّ الطرف عمَّا استنكف تلك الخطابات من تجاوزاتٍ خُلقية ودينيةٍ أحيانا[2].

ويظهر ذلك الاستثناء خاصة في الأحكام النقدية التي يقدِّمها ابن رشيق، حيث أنه لم يحفل كثيرا بالمفاهيم الأخلاقية بصورة مكشوفةٍ، ماعدا عند حديثه وشرحه لأبيات أبي نواس التي يمتدح فيها الخَمرة ويطربُ لها بقوله [3] :

اسقنِي خمرًا وقُل لِي هيَّ الخَمْر وَلاَ تسْقِني سِرًّا إذَا أمْكَن الجَهرُ

هذه الأبيات التي سنأتي على شرحها وبيان رأي ابن رشيق فيما ذهب إليه الشاعر المذكور، وذلك عند حديثـي عن المنجَز النقدي التطبيقي لدى النقاد المغاربة في الفصل الرابع من هذه المذكرة وما عدا هذا، فإن ابن رشيق نجد له اهتماماً أكثر بالقضايا الفنية الخالصة [4] .

---

(1) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، (مر ،س) ، ص32 ، والذي يقول في موضع آخر بصياغة مختلفة عمّا طرحه في الموضع الأول : ومن الروافد الثقافية للنقد المغربي ، الرافد المحلي، والذي تمثّله خاصة الحركات الفكرة التي شهدتها المراكز الثقافيــة في بلاد المغرب ، وكذلك الرافد المشرقي عن طريق القراءة للمشارقة ، والاطلاع على جهودهم في النقد والبلاغة ، إذ أن أكثر النقاد المغاربة متشبّعون بخلفيات وأرصدة هائلة من التراث المشرقي ، ينظر كتابه النقد الأدبي في المغرب العربي، ص: (30، 31) .

(2) المرجع نفسه ، ص: 79 .

(3) ابن رشيق، العمــدة، ج/2، ص: 94 .

(4) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي ، ص:80 .

وفي ذلك يقول الناقد المغربي أحمد يزن: "على أن النّهشلي نظر للشعر من زاوية أخلاقية تربوية، مبيّنا كيف أن الإسلام اهتمَّ بالقيم الاجتماعية، والمثل الأخلاقية، كما نلحظ لديه كراهيته للهجاء، وذلك لما كان يراه في الهجـاء كما ينقل عنه تلميذه ابن رشيق، من سُـوء الأثر وقُبح السُّمعة"(1)، وقد انتحل هو نفسه هذا المذهب فلم يهج أحدا قط كما ذكر ذلك ابن رشيق عنه، وهو يردّد أبياتا قـالها ـ منظور بن سحيم الفقعسي ـ في إعلان صريح منه على رفضه للهجاء (2) :

**وَلسْتُ بِهاَجٍ فِي القِرَى أهْلَ مَنْزلٍ		عَلَى زَادِهِمْ أَبْكِي وَأبْكِي البواكِيا**

**فَإمـَّـا كِـرَامُ مُـوسِرُونَ أتيَتُــــهُمْ		فحَسْبي مِنْ ذو عِنْدَهُم مَا كفانيا**

**وَإمَّا كِــرَامُ مُعسِـرُونَ عَذَرْتُهُـم		وَإمَّــا لِئَــامُ فَادَّخَـرْتُ حَيـَائِيـَا**

وبذلك فإن النهشلي كثيرا ما كان يعرضُ صفحاً عن الشعر الذي يزرع الأحقاد ويؤجّج الضغائن، ولا يتلاءم مع العقيدة الإسلامية، حتى أننا نراه يُصرِّح بمذهبه هذا حين يقول:" الشِّعرُ أربعةُ أصنافٍ: فشعر هو خيرٌ كُله، وذلك ما كان في الزُّهد والمواقف الحسنة، والمثل العائد على من تمثَّل به بالخير، وما أشبه ذلك، وشعرٌ هو ظرفٌ كلُّه، وذلك هو القول في الأوصاف والنُّعوت والتشبيه، وما يُفتن به من المعاني والآداب، وشعر هو شرٌّ كلُّه، وذلك هو الهجاء وما تسرَّع به الشاعر إلى أعراض الناس، وشعرٌ يتكسَّب به، وذلك أن يُحمـل إلى كل سوق ما ينفقُ فيه، ويخاطب كلُّ إنسان من حيث هـو"(3)، وبذلك فهو يمقت الشعر الذي لا يأمر بمعروف ولا يدْع إلى مَكرمَـةٍ .

كما نجد ابن شرف كثيرا ما يتهجَّمُ على كبار الشعراء في صورة امرئ القيس والمتنبي، بعد أن أخضعهُما كما يقول محمد مرتاض لمنهجه الذي أقـرَّه ، وهو المنهج الأخلاقي بكل إجراءاته وقواعده، ولم يحفل بجمال التركيب الشعري لديهما ولا العُمق الفنِّي لما كانا ينشدانه، فنجده يصف امرؤ القيس بأنه من السّفهاء والنُّذال والخسَّاس، وما عطف عليها من الصفات، كما نجده يعتبُ كثيرا على المتنبي متّهما إياه بضعف الدّين وكثرة السقطات عند تعرّضه لتحليل بعض من أبياته ونُصُوصه الشعرية، وما ذاك منه إلا لمبالغته في تطبيق منهجه الأخلاقـي الذي عوّل عليه كثيرا في قراءته للنّصوص الشعرية، كما نجده يؤاخذ على زهير ابن أبي سلمى قوله (4):

---

(1) ابن رشيق، العمدة، (مر ، س)، ص: (111 ـ 112) .

(2) ينظر: ابن رشيق، العمدةن ج/1 ، ص: 112 ، وينظر: يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: (83 ـ 84) .

(3) المرجع نفسه،ج/1، ص: 118 .

(4) ينظر مع بعض التصرّف: محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث، ص: 143 .

وَمَنْ لَم يذُد عَن حَوضِه بسِلاحِه يُهدَّم ومَن لاَ يَظلِم النَّاس يُظلم

حيث يتهمه بالخلط، ويرى أن ما ذكره في شعره ليس مُطردًا، ليقول أن الظُّلم مُحرَّم في إسلامنا كان الأولى له والأفضل أن يقول: **ومن لا يدفع الظُّلم يُظلم** [1].

3 ـ أما **الاتجاه الثالث فهو الاتجاه التقعيدي التنظيري**، وقد ركّز أصحاب هذا الاتجاه أكثر على ضبط المصطلحات والمفاهيم النقدية في شكل عمل نقدي تأسيسي، كما عملوا على التعمّق في بحث ودراسة القضايا النقدية التي طرحها النقد القديم، وتحديد مواقفهم منها، ونلمس هذه الاهتمام عند ابن رشيق، والقزاز القيرواني، وأبو إسحاق الحصري .

أما عن الروافد والمقوّمات التي استقى منها النقد المغربي كينونته، وأقام عليها جُذوره، فهي بلا شك تلك القاعدة الثقافية العربية التي تسرّبت إلى البلاد المغربية، وظلت تنمو وتنصَهر وتتمدَّد إلى أن وصلت إلى مرحة الإبداع والعطاء، فكان منها ذلك الكم الهائل من الإنتاج الأدبي والنقدي، والذي سأشير إلى بعضه، وأجلي الكثير منه في ثنايا الفصُول اللاحقة .

تأسيساً على ما سبق؛ لابد من الإشارة إلى أنَّ أي عمل أدبي أو نقدي كما يقول الباحث محمد مرتاض" لا ينطلق من الصَّفر، بل لابد أن يكون قد امتاح في نُموِّه وتطوّره من مُصنّفات وأقوال من سبقه، وفي هذا الإطار يأتي النقد الأدبي بالمغرب العربي الذي لاشكّ أنه غَرف من ينابيع العلم والمعرفة محليّا وعربيّا "[2]

وليس هناك شكٌّ في أنَّ من أعمق وأكثر المصادر التي تشرّب منها النقاد المغاربة واستقوا منها ثقافتهم الشخصية، هي العلوم الدينية من حفظ للقرآن والحديث الشريف، واطلاع واسع على العلوم اللغوية والأدبية والنحوية وبقية علوم الشريعة الأخرى، ـ حيث كان أساس التعليم يقُوم على اكتساب المهارة في هذه العلوم، قبل التوجه إلى اختيار التخصص المناسب ـ، كما استفاد النقاد المغاربة كثيرا من نظريات الشعر وتطبيقات النقاد العرب قبلهم، والباحث في جُملة الرَّوافد التي استقى منها الأدباء المغاربة القدامى نظرياتهم، سيلمح بجلاء كيف أنهم استفادوا من تجارب من سبقهم وعكفوا على قراءة كتبهم، ورجعوا إليهم في بلورة تصوُّر نقدي يتماشى وتكوينهم العلمي، ونلمس ذلك جلياً من خلال الإحالات والاستدلالات التي كانوا يُضمِّنونها مؤلفاتهم .

---

(1) ابن شرف، أعلام الكلام ، (م، س)، ص: 34 .

(2) محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي ، نشأته وتطوّره، (مر، س)، ص: 99 .

وإذا تحدثنا عن ابن رشيق كأحد أبرز النقاد المغربة كتابةً في النقد وحديثا عنه، فإن الجذور التي استمد منها هذا الرجل قوَّته واتّكأ عليها في تكوين ثقافته الأدبية والنقدية، تظهر لنا من خلال كتبه وتصانيفه، حيث نجده يذكر طرفاً من هذه الأخبار عن شُيوخه ومصادر معرفته وتكوينه العلمي.

وإنَّ من الشيوخ المغاربة الذين درس عليهم ابن رشيق واستفاد من علمهم نذكر منهم، مُعلِّمه ومُلهِمهُ الأول عبد الكريم النهشلي، هذا الرجل الذي استفاد منه كثيرا في صَقلِ موهبته الشعرية والنقدية، حتى أننا نجده يذكره في غير ما موضع من كُتبه، ويثني عليه الثناء الجميل، حتى أنه ذكره في كتابه العُمدة وصرّح عديد المرات أنه أخذ من كتاب (اختيار الممتع للنهشلي)، كما نجده يذكر شيخه الثاني، محمد بن جعفر القزاز والذي أخذ عنه مباشرة وسماعا ومجُالسة، كما يقول هو في كتابه (الأنموذج)، والذي أرّخ فيه لشعراء بلده القيروان، كما نجده يعرّج على أستاذه الآخر والذي هو أبو إسحاق الحصري، وقد وصفه هو نفسه بأنه" كان شاعرا نقادًا، عالما بترتيب الكلام وتفصيل النظام"[1]، ومن دون شك فإن ابن رشيق قد استفاد من أستاذه الحُصري كثيرا،كما يقول عبد الرؤوف مخلوف [2].

أما عن مصادر ثقافته من المشرق فإن ابن رشيق يُخبرنا بأنَّه اطلع على الكثير من آثار ومؤلفات السابقين خاصة من المشارقة، ولعل من أبرز هؤلاء نذكر: الأصمعي، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو عبيدة، والمبرَّد، وابن سلام، والجاحظ، وابن قتيبة، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، والقاضي الجرجاني، والحاتمي، وابن وكيع التَّنسي، والآمدي وغيرهم كثير[3] .

وإنَّ من العوامل التي رفدت شخصية ابن رشيق، وساهمت في تكوين ثقافته العلمية، اهتمامه الكبير بأشعار المتقدّمين حيث استظهر وحفظ الكثير من الدواوين الشعرية لفطاحل الشعراء، فضلا عمَا يتصل بالمرويات من الأقوال والأخبار والحكايات والنوادر، وبذلك فإن المصادر التي استقى منها

(1) ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ،(م، س)، ص: 46 .
(2) ينظر: عبد الرؤوف مخلوف، سلسلة نوابغ الفكر العربي، (ابن رشيق القيرواني)، ص: 111.
(3) ينظر: قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي،(مر، س)، ص: 102.

ابن رشيق واستفاد منها، وأثْرت شخصيته ومركزه العلمي كثيرةٌ ومتعدّدة تنبِؤُ عن مدى اهتمامه بمصادر المعرفة والتحصيل[1].

ولاشك فإن استفادة الرجل من عُلوم غيره من أهل الاختصاص أمر يسوّغه ويقتضيه التحصيل العلمي، والشيء الملفت للنظر في هذا الإطار ما نجده لدى ابن رشيق من أمانة علمية، وإصرار كبير منه على نسبة الأقوال إلى أصحابها من أهل الدراية، وهي ميزة قد لا نجدها عند كثير من أهل زمـانه .

وإذا نظرنا إلى الحصري القيرواني والذي اعترف له الكثير من الدارسين بقوة حافظته، وإلمامه الكبير بثقافة عصره، وأضفنا إلى ذلك اعتراف الكثيرين له بدوره البارز في نقل الثقافة المشرقية لأهل المغرب، والتي تتجسّد فيما احتواه كتابه زهر الآداب ، هذا المصنَّف الذي عرض فيه بطريقة شيّقة ما كان متداولاً بالمشرق من معارفَ وعلوم خاصة في المجال الأدبي، وإذا كنا لا نجد الحصري يُشير إلى شيوخه ولا الكتب التي أخذ منها مادته العلمية، إلا أننا نستشفُّ لدية نقولاتٍ كثيرة عن الجاحظ، وابن قتيبة ، وابن سلام ، والمبرّد، وقدامة بن جعفر، وأبي منصور الثعالبي، وابن المعتز، وابن دريد، وأبي بكر الصّولي ومع كون الحصري عصاميَّ الثقافة، فإن ذلك لم يمنعه من الرجوع إلى قراءة كتب من سبقه، وهضَمها ثم بعد ذلك تقريبها من الدارسين المغاربة، لأنه كان يرى بأن أهل المغرب في حاجة إلى التزوُّد بأدب المشارقة، فكان أن جعل نفسه واسطة بين المشـارقة وتلامِذته بالقيروان المغربيـة[2] .

وإن الموضوعية والحيادية العلمية كما يرى أحمد يـزن، تُحتِّـم علينا التأكيد على أن الحصري كان كثير ما يَنسبُ الأقوال إلى أصحابها، أو يشير إلى الكتب التي نقل منها، وهذا يدل على مدى صِدقِه وأمانته العلميـة [3] .

---

(1) ينظر: يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، (مر،س)، ص: (237 ـ 238) .

(2) سهالي عامر: قضايا النقد الأدبي في كتاب زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري، مخطوط ماجستير جامعة وهران، 2009م ص: 68 .

(3) ينظر: يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 366 ..

أما عبد الكريم النهشلي فقد تنوَّعت مصادر ثقافته، حيث نجده يعتمد ويرجع إلى مؤلفات كِبار الأعلام المشارقة في الأدب والنقد، لعلَّ من أبرزهم: ابن قتيبة، والجاحظ، وابن سلام، وابن المعتز والآمدي، والمبرد، والناظر فيما كتبه الرجل في(اختيار الممتع) سيجد الكثير من العبارات التي اقتبسها النهشلي عن غيره ممَّن سبقه من أعلام المشرق خاصة [1].

أما عن القزاز القيرواني وإن لم نعثر له على نقولات بعينها للمصادر التي أخذ منها مادته العلمية، إلاَّ أنَّ الأدباء والدّارسين يشيرون إلى تأثُّر الرجل بسيبويه وأخذه عنه، خاصة وأنه درس بالمشرق واستفاد من علوم بعضهم كما هو الحال مع الآمدي، والفـراء، والمبرد، ويرجع أمر ذلك إلى كون القزاز متأثرا وميَّالاً للجانب اللغوي والنحوي، ولا شك أنه كان يقرأ لأمثال هؤلاء الأعلام الذين كانت لهم قدمٌ راسخة في التأصيل والإفادة النَّحوية .

* * *

(1) المرجع نفسه، ص: 109 .

الفصل الثاني

تطور البحث النقدي وازدهاره بالمغرب العربي

خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين :

1 ـ جذور الأصالة وباكورة الكتابة في النقد المغربي القديم.
2 ـ التيارات الأدبية المشرقية وتأثيراتها في الأدب والنقد المغربي .
3 ـ الكتابات الأدبية والنقدية بالمغرب العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين.
4 ـ قراءة في الموروث النقدي والإنتاج الأدبي لنقاد المغرب العربي.
5 – المنهج النقدي لدى النقاد المغاربة القدامى.

شهدت الحياة الأدبية والنقدية بالمغرب العربي مع نهاية القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجري، تطورا ونماء وازدهارا كبيرا، بعد أن ظلّت خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى تراوح مكانها راسيةً على ما يأتيها من بلاد المشرق، وفي أكثر أحوالها مشتغلة بالعلوم الدينية والفقهية بخاصة، وتجلّت هذه الحياة وظهرت صورتها أكثر مع الحركية التأليفية الواسعة التي مهّد لها وأرسى دعائمها عدد من الأُدباء الأفذاذ يتقدَّمهم أستاذهم عبد الكريم النهشلي، هذا الرجل الذي ظهر صِيته في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وقد كان أديبا فاضلاً وعالما متشبّعاً بثقافة عصره، تتلمذَ على يديه جُلّ من ظهر بعده من الأدباء والنقاد واللغويين، اشتهر أكثر بكتابه المميّز الذي أخذ منه تلميذه ابن رشيق أكثر مادته العلمية، والذي أطلق عليه (الممتع في علم الشعر وعمله)، وهو كتابٌ جامعٌ في علم الأدب وفنونه وتاريخه ونقده، يعدّ في طليعة الكُتب النقدية التي ظهرت ببلاد المغرب.

كما نشطت حركة الكتابة مع ظهور إبراهيم الحصري الذي طَلَع علينا بكتابٍ في الأدب سمّاه (زهر الآداب وثمر الألباب) ،جميلٌ وقعه حلوٌ كلامه ومضمونه، يجمعُ بين المتعة الأدبية والفن السَّردي المشوِّق، استطاع من خلاله أن ينقل لنا الأدب المشرقي بلغة ساحرة جَذابةٍ تأخذ الألباب وتأسر النفوس، وهاهو ذا يقول في توصيفه وبيان الدافع إلى تأليفه، "إنَّ العبَّاس بن سليمان ارتحل إلى المشرق في طلب الكتب باذلاً في ذلك ماله مستعذباً فيه تعبه، إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره وفُصحاء دهـره؛ طرائفَ طريفة وغرائب غريبة، وسألني أن أجمع له من مختارها كتابا يكتفي به عن جُملتها، فكان ما كان من زهر الآداب"[1].

وظهر كتاب آخر وهو المسمَّى ـ (الضرورات الشعرية، أو ما يجوز للشاعر في الضرورة) ـ لصاحبه محمد بن جعفر القزاز (ت412هـ)، والذي كشف من خلاله عن الغاية من تسويد صفحاته وتأليفه له، والتي هي أن يطَّلع الشاعر عمّا لا يمكن له أن يستغني عن معرفته، ولتكون له الحجة فيما يقع في شعره من الاضطراب، وبدأت الحركة التأليفية في المجال الأدبي والنقدي تتوسّع وتتطور أكثر فأكثر، آخذةً طريقها إلى النُّضج والاكتمال مع ظهور كتاب العمدة لابن رشيق، فكان هذا المؤلف بحق أشمل التآليف وأعمقها في دراسة الشعر وترتيب مباحثه، وتنظيم أبوابه.

وإن الوقوف على الكتابات النقدية والأدبية بالمغرب العربي من الأهمية بمكانٍ، لذلك عقدت هذا الفصل بغرض اطلاع القارئ الكريم والمتعلم المتخصِّص على ما يزخرُ به مغربُنا الكبير من طاقات

(1) مبارك محمد زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (ط4، 1934م)، ص: 11 .

علمية كان لها وقعها وتأثيرها الكبير في إثراء الساحة الأدبية والعلمية، بما يُنبِئُ عن مدى الإسهامات الواسعة لأُدباء المغرب في إرساء دعائم المعرفة، وتثبيت أركان العلم والأدب بالمغرب العربي الكبير، وفي ضوء ذلك يحق لنا أن نتساءل ونقول: ماذا عن بذور الكتابة الأدبية والنقدية ببلاد المغرب؟ ومتى بدأت تتبلور معالـمُ الكتابة في هذا الميدان المعْرفي؟ وما هي أبرزُ الكتابات والتآليف النقدية التي أبانت عن الوجود المغربي في هذا المجال؟

1- جذور الأصالة وباكورة الكتابة في النقد المغربي القديم:

إذا كان عرب المشرق قد عرفوا النقد الأدبي منذ الجاهلية، ومرّ هذا العلم عندهم بأطواره المختلفة، طور التكوين ثم النشوء فالارتقاء، فإن النقد بالمغرب العربي ظلَّ وعلى امتداد قرونه الأولى يتميَّز بالبساطة الشديدة، متناولاً بعضاً من الأخبار النقدية والأحكام الشمولية من التي نعثر عليها على صفحات كثير من الكتب النقدية والمدونات الأدبية، وهي في أكثرها آراء جزئية ولمحاتٍ متفرِّقة في الشعر، ولم تتبلور نظرية نقدية ولا منهج نقدي واضح المعالم إلا مع ظهور ابن رشيق هذا الرجل الذي اختص في نقد الشّعر العربي عامة، وراح يبحث ويجمع له عدّته وينظم منهجه في شكل بحث علمي منهجي متكامل[1].

وربما يرجع هذا التأخّر من قبل المغاربة في تناولهم لهذا الفن ومُدارستهم له، مجاراتهم للحركة النقدية المشرقية، إلا أن بلاد المغرب في أكثر أقاليمها كما يذكر الباحث يوسف حوالة، لم تشهد نشاطاً علمياً ملموساً إلا مع منتصف القرن الرابع الهجري، اللهم إلاَّ ما كان من نشاط علمي معتبر نوعا ما على مستوى حاضرة القيروان[2].

كما أن طابع اللاّ استقرار جعل النشاط العلمي والأدبي ضعيفا خاصة في الجهة الغربية لبلاد المغرب الكبير، وذلك زمَنَ دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى الذين دخلوا في صراعات ضد بعضهم البعض، "ولم يقدّر لتلك البلاد – المغرب الأقصى– أن تشهد نهضةً علميةً، ولم يتمكَّن جامع القرويين الذي تم تأسيسُه (سنة **245**هـ) بفاس من أن يضطلع بدوره العلمي إلا بعد منتصف القرن الخامس الهجري، وإلى ذلك الحين يُمكن القول بأنه وإلى غاية نهاية القرن الثالث الهجري لم تظهر بعد الشخصية العلمية المستقلة بالمغرب العربي الكبير"[3].

---

(1) ينظر: الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، (مر ، س) ، ص: 202 .

(2) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ، (مر ، س)،ج/1، ص: 148.

(3) حوالة يوسف، الحياة العلمية في إفريقية ، ص: 09 .

وعلى هذا الأساس فإن النشاط الأدبي والنقدي لم يكن ذا بال إلى غاية تلك الفترة، وإنَّما كان اهتمام الناس ومبلغ غايتهم، هو التركيز والالتفاف حول الدراسات الشرعية الدينية والفقهية، كان ذلك هو ما شكل جوهر الحياة العلمية ببلاد المغرب في تلك الفترة الزمنية، وهو موضع الاهتمام الأكبر من طرف الدارسين، ولعل ما كتبه أحمد يزن في هذا الباب يُعبِّر بصدق عن واقع الحال في الربُوع المغربية إذ ذاك حين يقول: "إنَّ النشاط الأدبي في المغرب العربي خلال القرون الهجرية الأولى كان هيّنا ضئيلا، وذلك لانصراف النابهين من رجال الفكر إلى علوم الشريعة إحساسا منهم بأن بلاد البربر ما زالت في أمسّ الحاجة إلى نشر تعاليم الإسلام وتنظيم الحياة الاجتماعية على أصول الدين، ولم تتسع النهضة الأدبية وتتفتّح زهورها إلا في العهد العبيدي –القرن الرابع– لتُثمر أخيرا في العهد الصّنهاجي –القرن الخامس الهجري– "[1] .

وإنّ أحسن تعبيرٍ عن ذلك الحال، وأجمل تصوير يمكن أن نعرضه عن الوضع الأدبي والنقدي ببلاد المغرب في القرون الهجرية الثلاثة الأولى ما يقوله الباحث محمد مرتاض مجسّدا ذلك بامتياز "إن النقد في الديار المغربية قد طاله الإهمَالُ وغيَّبهُ النسيان، والإشكال فيه لا يكاد يختلف عن إشكال البحث في الأدب نفسه، حتى وإن كان الأدب قد فرض وجوده وأثبت ولادته ونشأته، ثم إصراره على الظهور هنا وهناك بواسطة الشعراء والأدباء الذين كانوا يتنقلون عبر الإمارات والدول الإسلامية، على حين ظل النقد يراوح مكانه، ولقيَّ جحوداً من المغاربة أنفسهم، فلم يدوّنوا فيما يبدوا آثار هؤلاء النقاد ولا آراءهم، ممّا نجم عنه غياب كلي لهذا الفن طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ولم تحتفظ لنا المظان إلّا بإشارات لا تُجدي البحث الأدبي في شيء "[2].

انطلاقا ممَّا سبق ذكره، وما تمت الإشارة إليه أمكن لنا القول بأن الحركة النقدية في مسيرتها الأولى ببلاد المغرب بدأت بصفةٍ غير منتظمة، لأننا لا نكادُ نعثر على مؤلَّف واحدٍ يجمع أهم القضايا والمحاور النقدية التي عرفها النقد العربي، إنما أكثر ما نلمسه هو جملة من الأحكام النّقدية العامة المبثوثة في كتب الأدب والأخبار، وبالتالي فإن الحركة النقدية بالمغرب بدأت في شكل نُتف وشذرات مبثوثة لا قواعد لها، وبذلك فإن التحديد الزمني لبداية النقد الأدبي في المغرب العربي أمر لا يمكن الحسم فيه، وإنما أعلنت هذه الحركة عن نفسها وبدأت في التمايز والنضج أكثر فأكثر مع نهاية

---

(1) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص: 34 .

(2) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيـع، الجزائر، (دط، 2014م) ص: 47 .

القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس، مع ظهور كوكبة من الأعلام والأدباء الذين أسّسوا للفعل النقدي بالبلاد المغربية من أمثال النهشلي، والحصري، والقزاز ومن جاء بعدهم في القرون التالية كابن رشيق، وابن شرف، والقاضي عياض، وحازم القرطاجني، وابن البنـــاء المراكشي وغيرهـم ...

ومن النّقـولات التي يمكن الاستئناس بها في هذا الميدان ما يذكره الباحث عبد المالك مغشيش في بحثه الموسوم: (النثر المغربي القديم في القرنين الرابع والخامس الهجريين)، حيث يقول: "يُجمع كثيرٌ من الدارسين على أن الحركة الأدبية والنقدية ببلاد المغرب يكتنفها الكثير من الغموض والغشاوة خاصة في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، حيث لا يزال الأدب في بداياته في مجتمع قريب العهد بالتعليم والتعريب على حدٍّ سواء، ذلك لأن مجتمعا لا عهد له باللغة العربية، ولا يزال في حالة تعلُّم وتكوين، فكيف يتسنّى له الإبداع بشيء هو فاقد له، وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقولون، وإن الظهور الفعلي للأدب المغربي وتبلوره وتماسك عناصره والعوامل المؤثرة فيه إنما تجسد مع أخريات القرن الرابع الهجري، ليزيد الاكتمال والنضج لهذا الأدب مع القرن الخامس الهجري، والذي بدأت تظهر نتائجه وثمـاره مع توهّج عدد من كوادر العلم ونوابـغ الحكـمة والأدب"(1).

كما نجد لدى عبد الله شريط توصيفاً دقيقاً لحركة الشعر والنقد بالمغرب العربي في بداياتها الأولى حين يقول:" لم تكن حركة الشعر قد نضجت وحدها في المغرب، بل قد ظهر ونضج إلى جانبها حركة نقد أدبي قوي بدأت أول أمرها نُتفا لا قواعد لها في القرن الثاني، ونضجت في القرن الثالث، وبلغت أوجّ ازدهارها في القرن الرابع ومنتصف الخامس "(2).

هكذا بدأت الحركة النقدية بخطوات متثاقلة، وشيئا فشيئا أخذت تأخذ أنفاسها وتجد متّكئا لها بعد أن ألـمّ الأدباء والنقاد ببلاد المغرب بالتقاليد المشرقية في المجال النقدي، وبذلك يمكن لنا الوقوف على الصّيرورة التاريخية للفعل النقدي ببلادنا المغاربية، وهو أن "عمل النقاد والدارسين المغاربة إنما كان صنيعهم أول أمرهم أنهم وقفوا أمام كل ما وجدوه أمامهم من تراث نقدي مشرقي فراحوا يدرسونه ويطالعون فيه، إلى أن تكوّنت لديهم ثقافة أصيلة اختزنوها في ذاكرتهم، وانطلقوا على أساسها في

(1) مغشيش عبد الملك، النثر المغربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، (مر ، س) ، ص: 55 .

(2) أبو القاسم كـرو، عصر القيروان، (مر، س)، ص:40 .

صياغة أفكارهم ولمحاتهم النقدية المحلية، والتي كان منطلقها هو النقد العربي الأصيل الآتي من بلاد المشرق" [1].

وبذلك بدأ ينْضُج الفعل النقدي بالمغرب العربي ويتشعَّب ومع مرور السنين بدأ يتبلور في شكل آراء تأسيسية انطلت عليها الصبغة المغربية المحلية مع ظهور نقاد وأدباء كان لهم حضورهم القوي في إنتاج وإبداع عمل نقدي ظل يذكُرهم لسنين عديدة، ويجعل منهم الشمعة التي أضاءت سبيل النقد بالإقليم المغربي، ويتجلى هذا الأمر بظهور نقاد ودارسين للشعر من طينة النقاد الكبار كما يقول رابح بونار:" إنَّه وفي هذه الحقبة من الزمن ـ أي القرنين الرابع والخامس الهجريين ـ تم ابتكار فنون جديدة كالنقد الشعري والأدبي، مع بروز كلا من ابن رشيق المسيلي، وابن شرف القيرواني، وعبد الكريم النهشلي، الذي سبقهما وصنَّف كتابه الممتع، والذي بيَّن فيه أساليب النقد ووجـوهه"[2].

والمحصّلة التي يمكن استنتاجها هو أن النقد الأدبي ببلاد المغرب إنما بدأ أوّل أمره مجرد أفكار وانطباعات بطريقة غير منهجية، ليصل إلى ما وصل إليه، خاصة مع الاحتكاك الثقافي القوي الذي حصل بين المشرق والمغرب في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ما أدى إلى ظهور أعلام في النقد المغـربي.

ومنه فإن البدايات الفعلية للنقد والدراسات النقدية ببلاد المغرب العربي على ما يقوله أكثر النقاد والدارسين، إنما ترجع إلى منتصف القرن الرابع الهجري، مع ظهور بعض الأدباء الذين كانت لهم بعض الآراء التي يمكن إدراجها ضمن إطار النقد الأدبي الصّريح والواضح.

وازداد اهتمام أهل المغرب بالحقل الأدبي والنقدي مع تقدُّم الزمن خصوصا مع بدايات القرن الخامس الهجري حيث بدأت الساحة المغربية تشهد بُروز طائفة من الأدباء والنقاد الذين كانت لهم إضافات نوعية وإضاءات عملية في الحقل الأدبي والنقدي، لعل من أشهرهم النهشلي، وابن شرف، وابن رشيق، هؤلاء الرجال الذين تشبّعوا بثقافة أدبية ونقدية، جراء اطلاعهم الواسع على ما دوّنه نظرائهم بالمشرق الذين سبقوا أهل المغرب في التأسيس النظري والتطبيقي للنقد العربي.

---

(1) لوناسة لبنى، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية، في القرنين السابع والثامن الهجريين، مخطوط ماجيستير،جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر 2014/2013م، ص:11 .

(2) بونار رابح ، المغرب العربي تاريخه وثقافته ، (مر ، س)، ص: 286 .

وإنَّ ظهور هذه الكوكبة من النقاد في سماء المغرب جعلهم" يؤسّسون لفعلٍ نقدي حُقّ لبلاد المغرب أن تفخر به، من خلال ما قاموا به، من التأسيس بالقوة والفعل لحركة نقدية مغربية حملت بين جوانبها من الإبداع والإضافة الشيء الكثير"[1]، وبفضل هؤلاء تمكَّن النقد الأدبي بالبلاد المغربية من إثبات وجوده، وتحقيق قفزة نوعية ملحوظة .

وفعلا، لقد بدأت بلاد المغرب العربي في التمايز وظهور شخصيتها الأدبية منذ العهد الفاطمي وازدادت تمكينا وثباتا في العهد الصنهاجي، وذلك ضمن التطوّر العام الذي شهدته بلاد المغرب الأوسط في شتى المجالات خاصة مجال الأدب، وكان أن برزت أوَّل حصيلة نقدية شارك فيها الحصري بكتابه (زهر الآداب)، وإن لم يبلغ في ذلك الشأن المطلوب الذي بلغه النقاد الذين ظهروا من بعده بالمغرب العربي.

وعلى ما يذكر كثير من الأدباء والدارسين، " فقد ظهرت أوَّل بذرةٍ نقديةٍ غرسها الحصري في القرن الرابع الهجري بما جمعه في كتابه (زهر الآداب وثمر الألباب)، ليكتب لها أن تنمو وتتّسع على أيدي تلامِذته من بعده، الذين ظهروا على مسرح الحياة الأدبية والنقدية ببلاد المغرب العربي أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجريين، فكان للحصري بذلك فضل السّبق وشرف المبادرة "[2].

وإذا فإن النقد المغربي كان قد أحسن الإقتداء بعد أن اطّلع جيّدا على ما كتبه إخوانهم المشارقة في هذا الميدان، واتّخذ منه مركزا للانطلاق، خاصة وأن البلاد المغربية كانت قبل الفتح الإسلامي خالية من أي إرث ثقافي يكون محلّ اعتزاز، أو موطن حضاري ضخم من الناحية الأدبية كذاك الذي وصلنا عن الثقافة الفارسية، أو اليونانية، أو الهندية، والتي كانت حاضرة في العصر العباسي[3].

وهذا بشير خلدون يدلي بدلوه ويقدّم نظرته بعد البحث والمدارسة للتراث النقدي المغربي حين يقول:" إنَّه وإلى غاية عصر الصّنهاجيين مع نهاية القرن الرابع الهجري بدأت تظهر بوادر العمل

---

(1) خلدون بشير، الحركة النقدية أيام ابن رشيق المسيلي، (مر، س)، ص: (57/56) .

(2) سهالي عامر، قضايا النقد الأدبي في كتاب زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري، ص: 10 .

(3) ينظر: البيومي محمد رجب، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثّر، مكتبة الرسالة العربية للكتاب القاهرة، (ط1،2008م)، ص: 16.

النقدي، حين ظهرت أول بذرة نقدية شارك فيها الحصري بكتابه زهر الآداب[1]، وإن لم يبلغ فيه ما بلغ معاصروه وتلامذته من بعده كالنهشلي وابن رشيق وابن شرف، ويتقوّى هذا الكلام، وتتأكَّد هذه النظرة أكثر من خلال ما كتبه حسن حسني عبد الوهاب في كتابه تاريخ الأدب التونسي عندما يقول:" في عهد الصنهاجيين وضع القيروانيون فنَّ نقد الشعر، فألف إبراهيم النهشلي (كتابه الممتع)، وألف ابن رشيق (العمدة)، وألف ابن شرف (رسائل الانتقاد)، وكلُّ هذه الكتب في أساليب النقد ومَناحيه "[2].

وهذا الناقد محمد مرتاض، وهو الرجل الذي خَبر الثقافة المغربية أدبا وشعرا ونقدا، وكانت له إسهاماته في تجلية وتوضيح وبحث غمار هذا الميدان يقول: "إنَّ الوقوف على بوادر وأوليات الفعل النقدي بالمغرب العربي ليس بالأمر الهيِّن، والإحاطة بالمرحلة الزمنية التي بدأ فيها النقد المغاربي يقف على رجليه، ليس من الأمور المقطوع بيقينيتها "[3].

وإنَّ كل ما يمكن أن يقال عن النقد المغربي أن العمل في هذا الاتجاه إنما بدأ في التمايز والظهور بعد النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، حيث تمثل تلك المرحلة بداية الانطلاقة الحقيقية للإنتاج النقدي الواقعي، مع ظهور أعمدة هذا الفن من أمثال؛ عبد الكريم النهشلي، وإبراهيم الحصري، والقزاز القيرواني وبقية الأعلام الذين يعترفُ لهم الجميع اهتمامهم بالعمل النقدي.

وعلى ذلك يمكن القول بأن الأدب والنقد ببلاد المغرب إنّما بدأ يعرف الانتعاش والتميّز في القرن الخامس الهجري على أيّام الدولة الصنهاجية أكثر من أي عهد مضى[4]، خاصة مع ظهور أرفع شخصية أدبية، والتي هي شخصية الحسن بن رشيق القيرواني، هذا الرجل الذي شغل الأذهان وسُلّطت عليه الكثير من الأضواء ، بحيث لا نجد من معاصريه من وصل إلى ما وصل إليه من شهرة وتقدير، بدليل كثرة الكتابات التي تناولت حياته وإنتاجه بالدرس والتحليل والمتابعة.

---

(1) يذكر كثير من الدارسين أن كتاب زهر الآداب ليس بالكتاب، النقدي الواضح، إنما هو واحد من الكتب الأدبية العامة التي ظهرت في القرن الرابع الهجري، حيث حاول فيه صاحبه أن يظهر الإرهاصات الأولى لبذور النقد الأدبي في البلاد المغربية، ينظر في ذلك: بشير خلدون، وأحمد يزن من المعاصرين، حتى أن هذا الأخير يضم كتاب زهر الآداب إلى زُمرة الكتب الأدبية وليس للمصنفات النقدية، ينظر كتابه، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: (339 ـ 345) .

(2) حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، (مر، س) ص: 77 .

(3) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، (مر، س)، ص: 38 .

(4) يتفق الكثير من الدارسين على أن القرن الخامس الهجري هو عهد النضج والاكتمال، حيث كان ثمرة ناضجة للقرون السابقة، فالقرن الرابع يمثل عصر الخصب والسعة والنماء، فيما يمثل القرن الثالث عصر الغرس والبناء، ينظر: عبد العزيز قليقلة، البلاط الأدبي للمعز بن باديس، ص: 68 وما بعدها .

2 – التيارات الأدبية المشرقية وتأثيراتها في الأدب والنقد المغربي:

لا يُجادل مرتاب في مدى قُـوَّة التأثير الذي أحدثته الثقافة المشرقية في نفسية المثقف المغربي، حيث وقف أمامها مشدوهًا يترسّم خطاها مُقْتفيا أثرها، ضاربا في فجاج الأرض ملْتمسا تحصيلها والإفادةَ منها، كيف لا وقد كانت الثقافة العربية المشرقية وقتذاك هي ذاك الجديد اللذيذ الذي فتح الأعيُن وأنار النفوس والعقول، فكان الانكبابُ عليها لا تحدُّه حدود ولا تضبطه قُيـود!

وإن تأثُّرَ أهل المغرب بالمشارقة إنما يرجعُ إلى ما لمسوه في ثقافتهم الوافدة من جِدّة وجديّة، فأقبلوا عليها إقبال الظمآن على الماء الزُّلال، وظل المشرق بالنسبة لأهل المغرب ولِقرون مديدة ، يمثل الأنموذج الأمثل الجدير بالإقتداء والاحتذاء، وهذا ما دفع طه الحاجري إلى القول:" فالمشرق العربي كان ولا يزال حتى وقت ابن رشيق يبهر أنظار أهل المغرب ويلفتهم إليه لفتاً قويا، وإن كل ما كان يمتّ إلى هذا المشرق من علم أو أدب، كان ما يزال يتعاظمهم وينزل من نفوسهم منزلة كبرى، يتطامَـنُ لديها كل ما عداه"[1].

وبشكل عام، فإن علماء المغرب وأدباءه كانوا ينظرون إلى المشرق ورجاله على أنهم الأب الروحي لهم، وتقضي سنن الطبيعة وقوانينها المقررة بأن الأدنى يأخذ من الأعلى، فلا عجب أن يتمنَّى المغاربة أن لو كان بالمشرق مقرّهم ومطلعهم،كما هتف بذلك صراحة يوما ما ابن حزم (ت **456**هـ) حين راح يبكي حظَّه أن كان غربيا أندلسيا وهو يقول[2]:

أَنَا الشَّمسُ فِي جَوِّ العلُوم مُنِيرةٌ وَلَكِن عَيبْـي أنَّ مَطْلَعِـي الغَـــرْبُ
وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ لَجَدَّ علَيّ مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي النَّهَب
وَلِي نَحْو أَكْنَـاف العِرَاقِ صَبَـابَة وَلاَ غَرْوَ أَنْ يَسْتَوحِشَ الكَلَف الصَّبُّ

إنَّ هذه الأمنيات، وهذا الكلام الشعري الأخَّاذ والحزين في نفس الوقت، والكلف بالانتماء المشرقي، لا يصدر إلاَّ عمّن وقف على واقع الحال، وتبيَّن له أن الشرق أثبت شأناً وأرسخ قدماً في

(1) الحاجـري ، دراسات وصور عن الحياة الأدبية في المغرب العربي، (مر، س)، ص: 25 .

(2) ابن حزم الظاهري، الديوان، جمع وتحقيق، صبحى رشاد عبد الكريم، نشر دار الصحابة للتراث، طنطا مصر، د.ت، ص: !12.

العلوم والفنون والآداب[1]، وهو الانطباع نفسه الذي نجده عند مثقف وأديب مغربي آخر، حين نرى ابن رشيق نفسه لا ينكر الفضل المشرقي على الأدب المغربي فيقول:" إن للمشرق فضيلة ومـزية "[2].

2- 1 – مدى تأثّر الأدباء والشعراء المغاربة بالتراث الأدبي المشرقي:

إنَّ التأثيرات المشرقية في الأدب والفكر المغربي ظاهرة للعيان بادية لكل ذي بيان، ولعل من أوضح صورها ما نجده لدى أهل المغرب من تهافت وتسابق لكل ما هو مشرقي، من ذلك أنه ما كان ليظهر مصنف علمي أو ديوان شعر لنابغة من نوابغ العرب في الشرق، إلاّ تهادَاهُ أكابر الأندلس والمغرب من العلماء والأمراء واستنسخوه وتداولوه، وهي الحالة العامة التي ينقلها لنا شوقي ضيف ويوضّحها توضيحا لا لبس فيها عندما يقول:" وإذا تركنا الحياة العقلية في الأندلس إلى الحياة الأدبية، وجدنا ظاهرة التقليد للمشرق واضحةً جلية، إذ تصاغ الكتب الأدبية عند الأندلسيين على شاكلة الكتب الأدبية عند المشارقة، فيصاغ العقد الفريد على شكل عيون الأخبار ويراه الصاحب ابن عباد فيقول، هذه بضاعتنا ردّت إلينا،كما صيغ كتاب (زهر الأداب وثمر الالباب) على شاكلة (البيان والتبيين)، ويصاغ كتاب (الذخيرة) على شكل اليتيمة للثعالبي "[3] .

هذا هو الواقع وتلك هي الحقيقة في بيان التأثير المشرقي على الثقافة والأدب المغربي فالأدباء والكتاب ببلدان المغرب والأندلس كانوا يتتبّعون كل خطوات الأدباء في المشرق، ويقلّدونهم في نماذجهم الأدبية، نلمس ذلك بشكل واضح خاصة في القرون الهجرية الأولى، اعتبار من أن اللغة واللسان العربي كان جديدا على أهل الإقليم العربي الجديد، ولعل التّمثلات التي قدمها الطاهر بن محمد توات عن التأثيرات المشرقية التي يمكن ملاحظتها وتعقُّبُعها، ممَّا يفي ويكْفي في استجلاء هذا الأمر، من ذلك تأثير الجاحظ في أسلوب وطريقة الحضري، ذلك أننا عندما نقرأ كتابه (زهر الآداب وثمر الألباب)، نجده قد اتبع نهج وطريقة الجاحظ في البيان والتبيين يتضح ذلك في تلوينه وتنويعه واستطراداته، كما نجد أن ابن رشيق كان يميل إلى تقليد ابن العميد وكذلك الشأن مع ابن الرّبيب في تقليده لابن العميد أيضا [4].

---

(1) ينظر: مخلوف عبد الرؤوف، من نوابغ الفكر العربي، ابن رشيق القيرواني، (مر، س)، ص: 07 .

(2) ابن رشيق، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، دار المعارف القاهرة ، مكتبة الدراسات الأدبية (ط11. دت)، ص: 50 .

(3) ضيف شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف القاهرة، مكتبة الدراسات الأدبية ، (ط11. دت) ، ص: 415

(4) ينظر: توات الطاهر بن محمد، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ديوان المطبوعات الجامعية 1993م، ص: (41ـ42) .

والملاحظ أنَّ تأثّر المغاربة كان في الجانب النثري أكثر منه في الجانب الشعري، وإنَّ من الأسباب التي جعلت المغاربة يحذون حذوَ المشارقة ويتأثرون بهم أول أمرهم أن المشارقة كانوا أسبق إلى فنِّ الأدب والشعر من المغاربة، فضلا عن تحكُّمهم في اللسان العربي أصالةً وطبعًا، خلافا لأهل المغرب والأندلس، وهذا عينُ ما عناه ابن خلدون وهو يقوم بتوصيف هذه الظاهرة والتعليق عليها حيث يقول: "وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن- يريد علم البيان- أقوم من المغاربة" [1].

وإذاً فإن طابع التأثير المشرقي في الثقافة المغربية لا ينكره إلَّا جاحدٌ معاندٌ، وهذا الانطباع هو ما وقف عنده الدكتور عبد الواحد شعلان، وهو يعرض جهده في تحقيق كتاب (مسائل الانتقاد) لابن شرف القيروان، حينما خلُصَ إلى نتيجة مؤداها:" أنَّه من النظرة الأولية على كتب؛ العمدة، وزهر الآداب، والعقد الفريد، يتأكد لنا ذلك الارتباط الثقافي الوثيق بين المشرق العربي وبلاد المغرب والأندلس، وأنه لمن الطبيعي جدا أن تتكوّن منزلة القيروان العلمية والأدبية من الأصل المشرقي، لأنه ليس من المعقول أن تنفصل القيروان عن بلاد المشرق، وإنَّما من الطبيعي أن تحذوا حذوَ المشرق، وأن تسير على خُطاه، وكذلك الأمر مع الأندلس"[2].

إنَّ تأثّر أهل المغرب بالمشارقة لم يقتصر على الفنون والآداب، بل تعدَّاه حتى إلى السياسة وشؤون الحكم، وذلك ما نلمسه في صنيع الأمراء والولاة بالأندلس والمغرب، حينما نجدهم يلقّبون أنفسهم وما يطلقونه من أسماء الفخامة والجلالة على خلفائهم وأمرائهم، من ذلك ما تسمّى به أمراء الطّوائف من أسماء على شاكلة، الرشيد، والمأمون، والمتوكل، والمعتمد إلى غير ذلك من الألقاب والكُنى، وكانت تلك التسميات قد استفزت ابن رشيق وجعلته يغتاظ منها مستكرها لها، فألهبت قريحته وجعلته ينفجر معترضاً عليها قائلا [3]:

مِمَّا يُزَهِّـــدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيــهَا وَمُعْتَمَــدِ

أَلَقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالهرّ يَحْكِي انْتِفاخاً صَوْلة الأَسَدِ

وهكذا؛ كان إكبار المغاربة للمشارقة واحتفاؤهم بهم، وهو يشبه إلى حد ما إكبار بعض المشارقة اليوم لعلماء الغرب الأوربي ومفكّريهم " [4]كما يقول عبد الرؤوف مخلوف .

---

(1) ابن خلدون، المقدّمـة، (م، س) ، ص: 720 .

(2) ابن شرف القيرواني، مسائل الانتقاد، دراسة وتحقيق عبد الواحد شعلان، مطبعة المدكـة، القاهرة، دط 1982م ص: 39 .

(3) ينظر: الديوان، جمع وترتيـب، عبد الرحمان ياغـي، دار الثقافة بيروت لبنان1989م ، ص: 60/59 .

(4) مخلوف عبد الرءوف، ابن رشيق ونقد الشعر(دراسة تحليلية نقدية تاريخيـة مقارنة)، وكـالة المطبوعات الكويت،ط1، 1973م ص:08

2-2- نماذج تطبيقيّة تجسّد مدى عمق التأثير المشرقي في المخيال المغربي:

إنَّ ظاهرة الاحتفاء والإكبار جلية واضحة في فكر وخيال أهل المغرب اتجاه إخوانهم المشارقة، وربَّما يكفي في ذلك انتشاء وطرب أهل المغرب من العلماء والأدباء أن يقال عنه أنَّه يشبه أحد رجالات العلم الكبراء من أهل المشرق ممن ذِكرهُ جَارٍ على كل لِسان، حتى أنه بلغ الإعجاب بالمتنبي المشرقي إلى درجة أن جعلت كثيرا من أهل الأدب والشعر ببلاد المغرب يتلقّب باسمه، ويحمل شرف الانتساب إليه، وقد كان هذا الأمر شائعا ذائعا فيهم على حد تعبير هنري بريس، ولعل من أشهر هؤلاء ابن هانئ الأندلسي، وأبو طالب عبد الجبار الاشبيلي[1]، كما درج النقاد على مقارنة الشاعر الكبير ابن دُراج القسطلي[2] بالمتنبي، كما ذكر ذلك الثعالبي في تشبيهه لابن دراج القسطلي بالمتنبي حيث قال: "كان بِصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام" [3].

وهذا ابن بسام ينقل لنا في الذخيرة كلاما في غاية النَّفاسة والنَّباهَةِ، وهو يعقد هذه المقارنة ويثبت هذه الحكاية فيقول: "وقد أجرى الثعالبي طرفاً من أمره، وأغرب بلمع من شعره، فقال في كتابه المترجم (باليتيمة): "بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام؛ وهو أحدُ شعرائهم الفحول هنالك، وكان يُجيد ما ينظم"[4].

وربما يرجع السّبب في ذلك إلى أن الكثير من الأمراء والخلفاء والقادة في بلاد المغرب والأندلس كانوا يحرّضون شعراء بلاطهم على أن تكون أشعارهم حاملة للسّمات الفنية لشُعراء بعينهم من المشرق، من ذلك أن المظفر بن الأفطس[5](ت480هـ)كان يقول لشعرائه:"من لم يكن شعره كشعر المتنبي والمعري فليسكت "[6].

---

(1) أبو طالب عبد الجبار الإشبيلي من شعراء الأندلس، عاش في القرن السادس الهجري، يُعرف بالمتنبي لمتانة وقوة شاعريتـه .

(2) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي ولد (سنة 347هـ) من أسرة بربرية ارتحلت للأندلس، أشاد بشاعريته الثعالبي، كان كثير التردّد على بلاط الأمراء يمدحهم ويتقرب منهم، أما عن شعره فإنه كان متأثرا كثيرا بأبي تمام يظهر ذلك منه من خلال ولعه الشديد بالبديع والغريب توفي (سنة 421هـ)، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/1 ، ص: (135 ـ 136) .

(3) الثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن إسماعيل، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة القاهرة، ط2، 1995م،ج/2 ، ص: 90 .

(4) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج/2، ص: 60 .

(5) سيفُ الدولة المظفر أبو بكر محمد بن عبد الله بن الأفطس عاش وحكم في زمن ملوك الطوائف، كان شغوفا بالشعر والأدب محبا لأهله مكرماً لهم توفي سنة 461هـ ، ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (م، س)، ص: (127 ـ 128) .

(6) ميدان أيمن محمد، الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب، المتنبي والمعري نموذجين، دار الوفاء للطباعة والنشر الإسكندرية، (دط، 2003م)، ص: 17.

ومن العوامل التي دفعت إلى ذلك التشابه، وتلك المطابقة بين الإبداع المشرقي ونظيره المغربي عامل الهجرة والرِّحلة العلمية بين القطرين العربيين، إذ ارتحل وهاجر عدد كبير من أدباء المشرق إلى بلاد المغرب والأندلس، كما هاجر كثير من المغاربة إلى المشرق إما لتلَقِّي العلم، أو بحثا عن الشهرة والمجد هنالك، والحق أن الشعر المشرقي قد حَظيَّ بجاذبية غريبـة في البيئة المغربية والأندلسية، حيث وقع الشعراء في أسْر المشرق، وداروا في فلك آدابه، حتى أننا نجد ناقداً مثل ابن بسام يضيق بهذه الظاهرة ويذهب إلى التَّشنيع عليها بقوله: "إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلاّ متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذُباب، لجثوا على هذا صنماً وتلو ذلك كتابا محكماً، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرسَى القضية ومنحَى الرزيّــة" [1].

وقد حاول عبد العزيز نبوي أن يشرح هذه الظاهرة ويقدِّم التبريرات العلمية والمنطقية لهذا التأثير فقال: "لم يكن الشعر المغربي بمعزل عن الشعر العربي بشكل عام، وإنما كان فرعاً من فروعه ورافدا من روافده، بحكم الانتماء إلى لغة واحدة وتراث واحد وهو الشعر العربي والفكر العربي، ولعل هذا هو سبب تأثّر بعض الشعراء المغاربة ببعض فحول شعراء العربية وتلقّبهم بألقابهم وتشبههم بهم من باب قول القائل" [2]:

فَتَشَبَّهُوا إنْ لَم تَكُونُوا مِثلَهُم إنَّ التَّشَبُّه بِالكِـرَام فَلاَحُ

وهذا البيت مأخوذ من قصيدته التي مطلعها :

أَبَدًا تَحِنُّ إِلَيكُـم الأَرْوَاحُ *وَوِصَـالُكُم رَيحَـانُها والـرَّاحُ*
وَقُلُوبُنا إِلى وِدادُكُم تَشتاقُكُـم وإِلى لذِيـذِ لِقَائِـكُم تَرتَـاحُ
وَا رَحْمَةً للِعَاشِقِـــينَ تَكَلَّفُوا سِرَّ المَحَبَّـة والهَـوَى فَضَّاحُ

---

(1) ابن بسام الشنتريني ،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، (م، س)، مج/1 ، ص: 12 .
(2) صاحب هذه الأبيات هو شهاب الدّين السّهروردي من أشهر المتصوّفة في التاريخ الإسلامي، اتهم بفساد عقيدته، فأفتى علماء حلب بقتله، فقتله الملك الظاهر ابن صلاح الدين وذلك سنة 587هـ، وله من العمر 38 سنة، ينظر: عبد العزيز نبوي محاضرات في الشعر المغربي القديم / (مر ، س)، ص: 28 .

وبلغ من اعتداد المغاربة بالمشارقة، أن الكتب التي كانت تُؤلَّف بالمشرق تنقل إلى المغرب بمجرّد أن يستنسخها أصحابها، فهذا ياقوت الحموي يقول في معجمه: "ولعل من الغريب أن يعرف القارئ أن كتابيْ البيان والتبيين، والتربيع والتدوير، نُقلا في حياة الجاحظ إلى الأندلس"[(1)].

وهكذا نرى مدى الاهتمام الذي أولاه أهل المغرب للثقافة المشرقية، حيث أحاطوا أعمالهم وإبداعاتهم بالرعاية وأسبغوا على الشعراء والعلماء هالة من التقديس والتشريف، مردُّها إلى أن شعراء المغرب إنما نظروا إلى إخوانهم من أهل المشرق على أنهم الأب الروحي لهم.

وقد كان من آثار ذلك ونتيجة لخضوع المغرب للمشرق علميا وتأثره بإنتاجه وإبداعاته، أن انتقلت تقاليد الأدب المشرقي إلى المغرب، وكان في مقدّمة ذلك القصائد الشعرية، مما أدى إلى ظهور قصائد مغربية مشبّعة بمظاهر القصيدة المشرقية شكلا وأسلوبا ولغة، خاصة في القرون الهجرية الأولى التي تلت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

وصدق مخلوف عبد الرؤوف في الرُّؤية التي انطلق منها، وهو يحلل ظاهرة التأثير والتأثُّر بين المشرق والمغرب ليقول: "إن الأدب العربي حين احتل الأقاليم الإسلامية كان يؤثر في ثقافتها أكثر مما يتأثر بها، وكان يفرض نفسه على هذه الأقاليم بسبب مقوّماته التي اشتقها من الدين والسياسة، ومن الفنية، فبقيت صُورته الفصحى غالبة موحّدة على العموم، وهذا التوحيد حفظ عليه وحدة القالب وتقارب الفكرة ، وتوافق المنهج إلى حد كبير"[(2)].

ونتيجة لتأثر أهل المغرب والأندلس بإنتاجات وكتابات وأشعار المشارقة، وكل ما بلغهم من آثار مشرقية، نجدهم قد عقدوا العزم وعكفوا على تقديم شروحات لأعمالهم، من ذلك ما قام به ابن السَّيد البطليُوسي[(3)] في شرحه لأشعار المعري والمتنبي على السواء، حيث نهض يشرح ديوان المتنبي، وكتاب سقط الزند للمعري، ولزومياته، وقد كان البطليوسي من أكثر الشُّراحِ على اختراق الحُجُب الكثيفة التي ضربها المعري حول أشعاره، بما انطوت عليه من مرام وغاياتٍ [(4)].

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (م، س)، ج/6، ص: 05 .

(2) مخلوف عبد الرؤوف، ابن رشيق ونقد الشعر ، (مر، س)، ص: 10 .

(3) ابن سيده البطليوسي، هو أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرسي عاش مابين (398 ـ 458هـ) ، لغوي أندلسي كان ضريرا إلا أنه لمع في اللغة والعربية حافظا لها، من مؤلفاته: المخصص، وشرح ديوان الحماسة لأبي تمام، والمشكل من شعر المتنبي، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/3، ص: 96 .

(4) ينظر: ميدان أيمن محمد، الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب، (مر، س)، ص: 17 .

ولعلَّ من أبلغ صُور التأثير المشرقي في الثقافة المغربية والتي تعكس مدى تأثر أدباء وشعراء المغرب بأدب المشارقة واهتمامهم بإبداعاتهم، ما قام به أهل المغرب والأندلس من وَسْم لأدبائهم وشعرائهم بأدباء المشرق وشعرائه المبرزين، فسُميّ كلا من ابن هانئ، وابن دراج القسطلي بمتنبي الأندلس، وحمدة بنت زياد المؤدّب بخنساء الأندلس[1]، وظهر ولعُ أهل المغرب والأندلس أكثر بالمشرق وتأثّرهم بهم أن سمّوا حتى مدنهم بما يماثلها في المشرق، فأطلقوا على تيهرت عراق المغرب، وعلى اشبيلية حمص، ووسموا غرناطة بدمشق، وغير ذلك، وفضلا عن ذلك فإنه ليس من العلمية في شيء ادعاء انفكاك الثقافة المغربية عن نظيرتها المشرقية، وذلك لأن الثقافة المغربية دينية كانت أم لغوية لها جذوها المشرقية، اعتبارا من أن عمليات التواصل المستمر التي سادت الأقاليم العربية كان لها دورها في إثراء هذ المعِين سلباً أو إيجابا" [2].

وإنَّ المبدعين المغاربة شعراء كانوا أم نقاداً، وقبل أن يُنتجوا لاشك أنهم وقفوا طويلا أمام هذا الرصيد المشرقي الزاخر،" وبالتالي فإن أكثر الأدباء واللغويين والشعراء الذين ظهروا على الساحة المغربية في تلك الفترة، لاشك أن لهم خلفيات ثقافية وأرصدة هائلة من التراث المشرقي، وحتى يستطيع أي واحد منهم أن يزعُم الشّاعرية، فإنه لابد أن يضع في حسبانه من سبق من عباقرة العربية في هذا المجال، وعليه فان الدارس للنقد المغربي لا يمكن له أن يبتر الأواصر التي تربطه بنظيره في المشرق العربي، فالآصرةُ قائمة والوشيجةُ ماثلةٌ، وفضلا عن ذلك فان القريحة العربية وان تباعدت سكنا فإنها تتشابه إنتاجاً"[3].

ومن الأمثلة الحيَّة عن ظاهرة التأثير المشرقي البادي على الثقافة والأدب بالمغرب العربي ما يذكره الأدباء من أن ابن رشيق كان كثير الاحتفال والميلان لآراء القاضي عبد العزيز الجرجاني، وذلك ما يعكس تأثره به وروايته عنه، فقد كان كثير النقل عنه، مكثرا من الاستشهاد بآرائه راضيا بذلك غير مُكترث، بل كان يشهد له بالخيرية والأفضلية عندما يقول: "وهو عندي أصحُّ مذهبا وأكْثرُ تحقيقاً، من كثيرٍ ممَّن نظر في هذا الشأن"[4]، كما نلمس لابن رشيق " أخذُه وتأثُّـره بمشارقة آخرين،

---

(1) خنساء الأندلس حمدة بنت زياد المؤدب من أشهر شاعرات غرناطة الأندلسية في عصر ملوك الطوائف ولقّبت بخنساء الأندلس لأنها قالت شعرا في الرثاء، كان والدها مؤدِّبا ـ معلما ـ فلقِّبت ببنت المؤدب نسبة إلى أبيها ، ورغم خوضها في شعر النسيب والغزل، إلا أنها كانت عفيفة ديّنة أديبة نبيلة ذات جمالٍ ومالٍ، ينظر: سامي يوسف أبز زيد، الأدب الأندلسي ، (مر، س)، ص: **241** .

(2) مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، نشأته وتطوره ـ (دراسة وتطبيق) .، (مر، س)، ص: **31** .

(3) المرجــع نفســه، ص:**31** ، مع بعض التصرُّف .

(4) ابن رشيق، االعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج/**2** ، ص: **280** .

على غرار الآمدي، والحاتمي، والجاحظ، وقد كان لهذا الأخير له من نفسه المنزلة الكبرى، ولكُتبه الأثر الواضح عليه، كما أخذ عن ابن سلام ، وابن قتيبة ، وقدامة بن جعفر"[(1)].

والخلاصة فإنَّ ابن رشيق، وإن تأثَّر بأهل المشرق، وأخذ عنهم، وسار على طريقتهم، واحتذى حذوهم، فإنَّـه لم يكن بدعاً في ذلك، فهو لم يختلف ولم يخالف أهل عصره، ولم يخرج عن قوانين الحياة في تأثُّره بالمشارقة، لأنَّ الأدب والنقد المشرقي، إنما كان وإلى غاية ذلك العصر، الأنموذج المحتذى والصورة المثلى.

3- مظاهر التفاعل الثقـافي والأدبي بين المشرق والمغرب:

يُشكل الأدب نوعا من النشاط الفكري الإنساني، ويُجسِّد ظاهرة من ظواهر البيئات الإنسانية، وليس من شك أبدا في أن الأدب في المغرب العربي أو الأندلس إنما يمثل امتدادا للأدب العربي في مشرقة، وعندما نقول مثل هذا الكلام، فإن ذلك لا يعني اندثار وتلاشي البيئة المغربية أو الأندلسية في الأدب العربي، إنما الذي نَعنيه ونتصوَّره، هو أنَّ إقليم المغرب الإسلامي يمثِّلُ ويجسِّد الأدب المشرقي باعتباره المكوّن الأصلي للثقافة العربية بشكل عام.

لذلك أمكننا القول بأن الأدب المغربي يحمل من صفات وسمات النَّسب المشرقي الكثير من ملامحه، وفي نفس الوقت تضفي عليه البيئة الجديدة التي ارتحل إليها ملامح أخري، تكوّن في النهاية الصورة الكاملة لأدب المغرب والأندلس.

وإذا كان الأدب المغربي في شكله العام، هو جزء من الأدب العربي العام باعتباره يمثل الامتداد المشرقي، لأنه وُلِد وترعرع في أحضانه، ثم نما وتطوّر حتى اكتمل نضجُه واستقام عودُه، بفضل عديد الشخصيات العلمية المغربية التي كان لها حضورها ومشاركتها الفاعلة في إثراء هذا التراث الفكري والعلمي، وإن ذلك ليمثل ضربا من التفاعل الثقـافي والأدبي بين المشرق والمغرب تلاحمت واختلطت أواصره، ليخلق لنا في الأخير تراثا أدبيا وفكريا يعبِّر بصدق عن شخصية المغرب فكـرا وطبيـعة وتميُّـزا[(2)].

وإنَّ ما نراه من اتجاه الباحثين والدارسين إلى الأدب المشرقي دون الأدب المغربي، وذلك لما انْقدح في أذهان أكثر الأدباء منذ العصور الأولى، حيث نجدهم يولّون وجوههم شطر المشرق باعتباره

(1) مخلوف عبد الرؤوف، من نوابغ الفكر العربي، ابن رشيق القيرواني ، (مر، س)، ص: 54 .

(2) ينظر: ميدان أيمن محمد، الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب، (مر، س)، ص: 37 ..

يُجسِّد الأصالة والجذور الأولى للفكر والأدب، وإنَّ الذي حصل من إهمال لتراثهم وأدبهم هو نابع من هذا الإحساس، حيث الرجوع إلى الأصل والانكباب على الجذور الأولى، حتى أنهم كانوا في تشجيعهم للأعمال الأدبية إنما كانوا يقتدون بمناهج وطرائق المشارقة، ويتمثّلون بأقوالهم ومآثرهم دون النظر إلى مآثر ومخلفات المغاربة، إلا في القليل النادر، كما فعل ابن عبد ربه (ت **328**هـ) في العقد الفريد [1]، وبذلك عبّرت كلمة الصّاحب ابن عباد صاح قائلا: ـ هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ـ، لأنه كان يتشوَّفُ وهو يطالع الكتاب إلى قراءة أدب أندلسي مغربي، فإذا به يجد أدب المشارقة، فقال كلمته تلك .

وتظهر الصورة أكثر في أن المغاربة وهم يكتبون عن إخوانهم المشارقة، وينقلون عنهم إنما كانوا يجسّدون بصورة عملية ظاهرة التفاعل الثقافي بين مشرق الأمة ومغربها وكان لسانُ حالهم يقول:" إنَّ لدينا هاهنا أيضا معرفة بالجذور القديمة وإن شطَّ المزار، وليس حظّنا من معرفتكم بأقلّ من حظكم بمعرفتكم بأنفسكم، خاصة وأن البلاد المغربية النائية عن عاصمة الخلافة الإسلامية بالمشرق تأخذها عاطفة الاتصال بهذا الأصل البعيد" [2].

وهذا ما تجسده ظاهرة الارتكان إلى المشرق واللَّواذَ به في تلك العصور المتقدمة، ثم إن الأدب العربي الناشئ ببلاد المغرب أول أمره إنما هو أدب طارئ على هذه البلاد ـ بلاد البربر ـ وبالتالي فلا مندوحة من أن تعتبر الثقافة المشرقية هي المنوال الذي ترسّم رجال الفكر والأدب بالمغرب خطاه، ولذلكم فإن الحياة الثقافية والأدبية ببلاد المغرب إذا ما وسمت بالركون إلى المشرق فان ذلك لا يخرج عن كون أن المشرق إنما كان بالنسبة لأهل المغرب هو الصورة المكتملة والأنموذج المحتذى.

وأنا أقرأ وأقلِّب صفحات الكتب، وجدت كلاما جميلاً ماتعاً، سطّرته أنامل الباحث محمد رضوان الدَّاية في كتابه (تاريخ النقد الأدبي في الأندلس)، وهو يُصوّر حالة التفاعل التي جسّدها أُدباؤنا بالأفق المغربي في اتصالهم وتواصلهم مع الثقافة والتراث المشرقي حيث يقول:" إن ابن عبد ربِّه في تأليفه لكتاب العقد الفريد، إنما اعتمد على مصادر نقدية لها من الشّهرة والذيوع والوثاقة العلمية

---

(1) ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن محمد شاعر أندلسي صاحب كتاب العقد الفريد، ولد بقرطبة (عام 246هـ) ، وامتاز بسعة الإطلاع في العلم، والرواية للشعر، وكان من الرواد في نشر فن الموشحات، من أعظم أعماله كتابه العقد الفريد الذي يعد موسوعة في العلوم العربية والدينية في عصره، ينظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج/1، ص: 112، وينظر: جوجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/2، ص: 177 .

(2) قرقزان محمد، قراءة نقدية جديدة لكتاب العمدة لابن رشيق، مجلة التراث المغربي والأندلسي، التوثيق والقراءة ، جامعة عبد الملك السعدي آفريل ،1991م، ص: 163 وما بعدها .

ماهلا، ذلك لأنَّنا نجده ينقل ويأخذ من: البيان والتبيين، وعيون الأخبار، وطبقات الشعراء، والكامل، فضلا عن الاستئناس بآراء الأصمعي وأبي حاتم ،وأبي عبيدة من الرُّواة ، وكان مقصده من ذلك بلا شك هو تزويد الحركة الأدبية بالمغرب الإسلامي بالأسس النقدية التي تبناها أهل المشرق، باعتبارهم الأسبق إلى هذا الميدان، وهم أكثر تحكّما بمعايير البلاغة والنقد التي عن طريقها يتحاكم النقاد إلى معرفة الجودة الفنية في التعبير والكتابة الأدبية، وهذا يجرّنا إلى استنتاج آخر هو" أن ابن عبد ربه لما فرغ من تصميم تأليفه البديع ـ العقد الفريد ـ وأراد تقديمه للمكتبة العربية بالمشرق لم يكن من هدفه إظهار الفرادة والبراعة المغربية في مضاهاتها لنظيرتها المشرقية، إنما كان قصده أن أهل المغرب ليسوا بمنأى عمَّا يكتبه إخوانهم المشارقة "[1].

ولاشك بأن هذا الفهم وهذا التّخريج يشكّل أحد أهم مظاهر التفاعل والتأثير بين الأدبين المشرقي والمغربي، وأن الدارس والمتعمّق أكثر في طبيعة تشكّل الثقافة المغربية، يجد بلا عناءٍ كثيرا من مظاهر التفاعل قد حدثت بين الأدباء المغاربة وإخوانهم المشارقة، سواء منها عن طريق الرحلات العلمية باتجاه المشرق أو العكس، حيث يرحل العلماء والأدباء المشارقة إلى الأفق المغربي، بعد أن شدّتهم إليه عناية الأمراء والحكام بما كانوا يُسبغونه من أُعطيات وهدايا وصِلات لأهل الفضل والعلم.

كما لا ننسى عاملاً آخر ربَّما ساهم وبشكل كبير في التأثير المشرقي على الثقافة المغربية ومن ثمّـة حدوث التفاعل والتناغم بين الأدبيـن المشرقي والمغربي، وهذا العامل هو ذاك الذي جسدته قضية الانتقال الرهيب للكتب والمؤلفات المشرقية نحو المغرب بالإهداء أو بالاقتناء والشراء، حيث كان الكبراء من الأمراء والقادة والعلماء يتهافتون على شراء كل نفيسٍ من الكتب يظهر بالمشرق العربي، وقد سبق لنا وعرفنا مع ياقوت الحموي كيف أن كتب الجاحظ قُرأت بالأندلس قبل أن يقرأها أهل المشـرق.

ولنا أن ننقُل هاهنا أيضا صورة أخرى من صُور التفاعل بين المشرق والمغرب وتتلخص هذه الصورة في ذلك الموقف الجليل والعمل الحكيم الذي قام به أبو علي القالي[2]وهو يجهّز نفسه للانتقال من موطنه بالمشرق للاستقرار بالمغرب الإسلامي، "حيث عَمَد إلى اختيار نفائس القصائد العربية

(1) الدّاية محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط2 1993م ص:51 .

(2) هو من أهل المشرق، لكن إنتاجه وإبداعه الأدبي كان كله بالأندلس وبلاد المغرب، وبالتالي فلا ضير من اعتبار القالي مغربيا بالرجوع إلى تراثه الذي خلفه والعلم الذي نشره بين تلاميذته من أهل المغرب والأندلس، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيـان، ج/1 ص: (226 ـ227) كما ينظر: الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، ص: (185 ـ188) .

وأصحّ المرويات في اللغة والأدب، وعيون الأخبار والآثار، والحكم والأشعار، وكان هدفه الأسمى وغايته القصوى هي تعريف أهل المغرب بأدب وأشعار المشارقة، وصقلِ مواهبهم وتربيَّة أذواقهم وتنقيحها على مذهب العرب الشِّعري" [1].

أجل، لقد كان التأثير والتفاعل كبيرا بين أدباء المشرق ونظرائهم من أهل المغرب، خصوصا وأن الحدود في ذلك الوقت كانت مفتوحة والناس يتنقلون من دون أدنى تحفُّظ أو احتراز، وكان ذلك مما أسهم في تعزيز أواصر التواصل بين القطرين العربيين ـ المشرق والمغرب ـ، ومن ذلك ما ينقله لنا ابن بسام في ذخيرته عن الحصري المغربي الذي قرأ أعمال وإبداعات الجاحظ فهضمها حتى ارتوت ذاكرته منها وراح يؤلّف على منوالها، وذلك ما جعل ابن بسام يقول: "إنَّ أسلوب الحصري شبيه إلى حدٍّ كبير بأسلوب الجاحظ وما أدراك ما الجاحظ، وطريقته في تأليف كتابه (زهر الآداب وثمر الألباب)، كمثل طريقة الجاحظ التي سلكها في كتبه : (الحيوان، والبيان والتبيين) ، ولذلك نجده يحكم عليه بأنه بلغ المراد وحصَّل الهدف، ولا ينكر عليه ذلك إلاَّ من ضاق عليه الأمد وأعمى بصيرته الحسد[2].

إن هذه التمثُّلات والنماذج التي ننقلها، هي التي جعلت أديبا مثل محمد طه الحاجري يذكرنا في دراسته التي قدمها عن الأدب المغربي القديم يقول:" لقد اطَّلع المغاربة على التراث العربي فتثقفوا بثقافته الدينية، وحفظوا أجزاء صالحة منه، فكان لكُلّ ذلك أثره الطيِّب في لغتهم وإنتاجهم الذي خلفوه لنا فيما بعد" [3].

وقد أسهمت بدورها كُبريات الحواضر الثقافية المغربية في صنع هذا التفاعل وبلورة مثل هذا الامتزاج والتَّماهي بين الأدبين المشرقي والمغربى، من ذلك ما ينقله لنا عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب عن حاضره القيروان وكيف جسدت مثل ذلك التقارب والتآلف والامتزاج العلمي والأدبي فيقول: "وبلغت القيروان في هذا العصر –القرن الخامس الهجري- منتهى عمرانها العربي الإسلامي الذي لم تضاهيها فيه مدينة من مدائن المغرب في ذلك الزمان، إذ كانت يحكم موقعها الجغـرافي

(1) عليان عبد الرحيم مصطفى، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط1 1984م، ص: 23 .

(2) ينظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (م ، س)، م/2 ص: 584، مع بعض التصرّف .

(3) الحاجري، دراسات وصور عن الحياة الأدبية في المغرب العربي، (مر ، س)، ص: 39 .

ملتقي عاما بين المشرق والمغرب"[1]، ويضيف حسن حسني عبد الوهاب مصوّرا ذلك التَّمازج والائتلاف والتفاعل قائلا: "وهكذا إذا أصبحت القيروان محطَّ أنظار بني الآمال، قصدها الناس أفواجا من كل حدب وصوب للارتزاق بالتجارة أو الصناعة أو للعلم والأدب ،فالتقي فيها الحجازي بالشامي، واليمني بالعراقي، والمصري بالأندلسي والسوداني بالصّقلي وسواهم مما لا يدخل تحت حصر"[2].

4 ـ بدايات تشكّل الشخصية العلمية المغربية:

عمل الأمراء والولاة المغاربة على إذكاء جذوة الصراع والتنافس العلمي بين الأدباء والشعراء وسائر طبقات أهل العلم، وهو عامل لا يخفى أثره في توليد الاحتكاك بين طبقة المثقفين والمتعلمين، ومن ثم إحداث التفاعل الايجابي في انتقال الأفكار وتمازجها وتلاحمها كما يصور ذلك رابح بونار: "وانتشرت في هذا العصر–القرن الخامس الهجري– ظاهرة التنافس الثقافي، وكان السِّباق قائما بين بلدان المشرق والمغرب والأندلس، وبين عواصمها المختلفة؛ المهدية، وبجاية، ومراكش، وفاس، وتلمسان، وبغداد والقاهرة، وقرطبة – وبرزت كل مدينة بلونٍ من العلوم غلب عليها واشتهرت به، وساعد على نجاح هذا التنافس الأمراء بسبب رعايتهم وتشجيعهم للعلماء والمفكرين، فقد كانوا يُؤثرونهم على سائر الطبقات ويقدّمونهم في الدولة ويجودون عليهم جودًا حاتميًّا، خُصوصاً زمن الدولة الحمادية "[3].

وممَّا زاد في هذا النمو الثقافي والارتقاء الفكري بحواضر المغرب العربي، ظاهرة الهجرة العلمية والاحتكاك بين رجالات الفكر والثقافة، حيث " فعل الاحتكاك بالأندلسيين الأفاعيل في تقدّم الحياة الفكرية بالمغرب ونهضة العلوم والآداب، وقد كانت الأندلس مَهْجَر من لم تساعده الحال من أبناء المغرب في العصر السابق، فصار المغرب مَهجر الأندلسيين في هذا العصر– أي القرن الخامس الهجري وما بعده" [4].

---

(1) المراكشي عبد الواحد، المعجب في تخليص أخبار المعرب، (م ، س)، ص: 441 .

(2) حسن حسني عبد الوهاب، المنتخب المدرسي في الأدب التونسي، (مر ، س) ، ص: 51 .

(3) بونار رابح، المغرب العربي تاريخه وثقافته، (مر، س)، ص: 283 .

(4) كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، (مر، س) ، ص: 71 .

5- الكتابات الأدبية والنقدية ببلاد المغرب العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين:

لم تخلُ بلاد المغرب ولم ينعدم بها وجُود مؤلفات وكتابات ومدوّنات أدبية ونقدية نظَّرت وقعَّدت للأدب والنقد، معتمدة تارة على ما وصل إليها من المدرسة النقدية المشرقية ومضيفة إلى ذلك الرصيد الكثير من التعليقات والشروحات والترجيحات، فضلا عن المناقشة والتحليل والموازنة بين الآراء والأفكـار[1].

وأما عن الكُتب الأدبية والنقدية التي سنتناولها بالدرس والتحليل، فأكثرها ذَكرها وألمح إليها كبار الدارسين وكتاب التراجم من القدماء والمحدثين، عند دراستهم وتعاطيهم مع التراث الأدبي والنقدي المغربي القديم، وما عرفته البيئة المغربية من حركة تأليفية في هذا المجال، ولعل من أبرز هؤلاء الذين سبقونا بالدراسة والتفتيش في الموروث النقدي المغربي القديم ممن يقتضي المقام ذكرهم على سبيل التمثيل لا الحصر، بشير خلدون في مُؤلفه (الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي)، وأحمد يزن بمصنَّفه الماتع، (النقد المغربي في القيروان في العهد الصنهاجي)، دون أن نتغافل عما كتبه محمد مرتاض في بحثه القيِّم: (النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ـ النشأة والتطور، دراسة وتطبيق).

وإنَّ من بين الكتب والتآليف النقدية التي اهتمت بدراسة الشعر، وما أثاره النقاد المغاربة من مسائل وقضايا نقدية نذكر من ذلك: (كتاب الممتع في علم الشعر وعمله) لصاحبه عبد الكريم النهشلي (ت**405**هـ) ، (وكتاب الضرورات الشعرية أو ما يجوز للشاعر في الضرورة، لأبي عبد الله محمد بن جعفر القـزاز (ت**412**هـ)، وكذا كتاب (مسائل الانتقاد)، لأبي عبد الله محمد بن شرف القيـرواني (ت**460**هـ) وكتـاب (زهر الآداب وثمر الألباب) لأبي إسحاق الحصري القيـرواني (ت**413**هـ) .

يقول الدكتور محمد قرقزان في دراسة بحثية له بمجلة (التراث المغربي والأندلسي):" إنَّ المطَّلع على تراجم مدرسة القيروان في العهد الصنهاجي، يجد أن ثمَّة ثـروة ثريـة مِعطاءة انبثقت عنها قياسا على ما سبق وما تلا من الحقب، فمن مُنجزات هذه الكوكبة التي ورثناها والباقية على الدهر أسفار: (زهر الآداب، والممتع، وما يجوز للشاعر في الضرورة، ورسائل الانتقاد، وقراضة الذهب، والأنموذج)،

---

(1) وقد شكّلت تلك الكتب القاعدة والأساس الذي بفضله تم التمكين لظهور فعل نقدي مغاربي، فكانت بذلك المرجع الأول الذي يعوّل عليه في تقفي الفن الشعري، ومعرفة أحوال الشعراء ومقاماتهم، والظواهر التي أمكن لهم دراستها والإحاطة بها، والأكثر من ذلك فإن بعضا من تلك الكتب والمؤلفات المغربية حملت في طياتها وبين حيثياتها عمقا معرفيا وتحليلا ضاهى ذلك العمق والإثارة التي حملتها كتب النقد المشرقية .

ويأتي كتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) كأجلّ هذه الآثار وأبعدها أثرا وتأثيرا في الأجيال القديمة والحديثة على الإطلاق"[1].

وعلى ذلك فقد ظهر من كُتب النقد بالمغرب العربي كتابات رفيعة الجانب موفورة الحظ تلقّفها الناس بالقبول وأخذوها بالرضا والتسليم، ثقة منهم في كاتبها ومُسوِّد قراطيسها ،إنها مؤلفات الحسن ابن رشيق (ت**456**هـ)، وأجلها قدرا وأخطرها أثرا كتابه (العمدة في محاسن الشعر)، وكتابه الثاني (قراضة الذهب في نقد أشعار العرب) .

كما أن من الكتب النقدية المغربية التي نلمس فيها بعضا من الإشارات واللمحات النقدية كتاب، (الرائق بأزهار الحدائق) لأبي طاهر التجيبي[2]، والذي قدّم فيه صاحبه شرحا وافيا لكتاب الخالدين في اختيار بشار بن برد، حيث قام بانتقاء ما استلطفه واستملحه من شعر بشار، ليتعرض بعدها إلى شرح كل ذلك مع إبداء ملاحظاته وآرائه الانتقادية، كما ظهر من كتب النقد بالمغرب كتاب (شجرة الذهب في معرفة أئمة الأدب) لابن فضال المجاشعي[3].

انطلاقا من ذلك يمكن القول أنه" وابتداءً من القرن الخامس الهجري وما تلاه من قرون، ظهرت كتابات عديدة راقية هي خلاصة تجارب نقدية وأدبية، بعد أن تزوّد أصحابُها بكمٍّ هائلٍ من المعارف، وانهالوا على مصادر النقد العربي من منابعه، ما جعل القاعدة التي انطلق منها النقاد آنذاك قويَّـة متيــنةً "[4].

وكان لوُصُول الثقافة المشرقية إلى المغرب، وتعرُّفهم على التقاليد العلمية والثقافية الأدبية السائدة هناك، واطلاعهم على الكثير من الآراء النقدية الآتية من المشرق، الأثر الأكبر في ظهور حركة نقدية نشيطة وفعالة، خاصة بعد أن تَيسَّر لهم التعرف والإطلاع على المنجزات المشرقية في هذا الميدان، فقرءوا وتعرّفوا على ما كتبه ابن سلام، وابن قتيبة، والجاحظ، وقدامة، والجرجاني، والرَّماني

---

(1) قرقـزان محمد، قراءة نقدية جديدة لكتاب العمدة لابن رشيق، مقال علمي، (مر، س)، ص: 163.

(2) أبي طاهر إسماعيل بن أحمد التجيبي، أديب بارع في الشعر والنحو واللغة ، من أهل القيروان، كان تلميذا للشاعر والناقد أبي إسحاق الحصري، من كتبه : المختار في شعر بشار، توفي سنة 453هـ ، ينظر: ابن رشيق، أنموذج الزمان، ص: (102 ـ 103) ، كما ينظر: أحمد يزن، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، (م ، س)، ص: 271 .

(3)ينظر: بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، (م، س)، ص: 44 ، وينظر: كلاّع رشيدة، النقد المغربي القديم في ضوء نظرية النص)، مخطوط دكتوراه، كما ينظر: أحمد يزن، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي،ص: (267 ــ269)، أشير فقط إلى أنني لم أتعرّض لهذه الكتب المذكورة بالشرح والتحليل، وذلك لعدم تمكني من الحُصُول عليها، أو العثوُر على دراسات وافيـة لها .

(4) ترشاق سعاد، النقد المغربي القديم بين التنظير والتطبيق، مخطوط دكتوراه، (مر، س)، ص: 33 .

وغيرهـم من أعلام المشرق، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور وبروز أعلام شكَّلوا منهجًا نقدياً متميزا، وقادوا حركة أدبيةً ونقدية أثمرت وآتت أكلها في فترة وجيزة، اجتهادات النهشلي، وشخصية ابن رشيق وطمُوحات ابن شرف القيرواني.

6- أهـمّ وأشهر الكتابات النقدية المغربية القديمـة:

عرف القرن الخامس الهجري حركة نقدية نشيطة خاصة في فترة حكم الزيريين لبلاد المغرب العربي (362 ـ547هـ)، حيث انتعشت الحركة الأدبية والفكرية بالقيروان الإفريقية في عهدهـم، حتى أنه أمكننا القول أن العصر الزيـري هو بلا خلاف عصر تأليف المجاميع الأدبية، وذلك لكثرة ما ظهر من رُموز الأدب والنقد ببلاد المغرب، بل نستطيع أن نقول؛ إنَّـه قد ظهرت مدرسة نقدية متكاملة المعالم لم تكتف بتكرار ما ألفه النقاد المشارقة، إنما أضافت الجديد إلى ما تفضَّلت به المدرسة المشرقية.

وأثمرت جهود النقاد إلى إثراء المكتبة النقدية العربية بمؤلفات نفيسة، حيث ألَّف النهشلي كتابه الممتع، ورفد ابن رشيق النقد بثلاثة مؤلفات هامة هي: (العمدة، والقراضة، والأنموذج،) فيما ألف ابن شرف (مسائل الانتقاد)، وخلّف الحُصري (زهر الآداب)، وهي كلها كُتب نافعةٌ ومفيدة في الأدب ونقده .

وعن ذلك يقول عبد العزيز قليقلة: "إن النثر الوصفي أو النقد الأدبي، أكثر ما نجده عند النهشلي، والقزاز القيرواني، وأبو إسحاق الحصري، وابن رشيق، وابن شرف، وهؤلاء هم من سأتناول بضاعتهم االنقدية بالدرس والمماحَكة والعرض"[(1)]، وفيما يلي إطلالة سريعة على أهم ما ألَّفه المغاربة في الأدب والنقد .

وإن هذا الذي نكتبه لا نسُوقه عرَضًا، وإنما هو واقع معيشٍ عرفته الديار المغربية في ذلك العصر، بدليل ما ذكره عبد الله كنّون وهو يكتب عن الأدب والأدباء المغاربة وقد علته الدهشة لكثرة المادة الأدبية وتعدُّد الشخصيات العلمية التي ظهرت بالأفق المغربي، فيُصاب بالإحباط ويشعر بالخذلان لعدم الاكتراث من طرف الدارسين المغاربة المحدثين في تجليّة هذا التراث، وإماطة اللثام عن كثير من الكنوز والدرر اللامعة في فضاء المغرب العربي القديم لذلك نجدُه يقول: "ولـمَّا بحثتُ وفتّشتُ وجدتُ كنوزا عظيمةً من أدب لا يقتصِر في مادته عن أيِّ قطر من الأقطار العربية الأخرى،

(1) قليقلة عبد العزيز ، البلاط الأدبي للمعز بن باديس، (مر، س)، ص:211 .

وشخصيات علميّة وأدبية لها في مجال الإنتاج والتَّفكير مقام رفيع، ولكن الإهمال قد عفا عن ذلك كلّه، وعدم الاهتمام بجمعه في كتاب والتنبيه عليه في خطاب أدى إلى وَأدِه"[1].

1-6- كتاب الممتع في صناعة الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي: (...هـ ـ 405هـ)

هذا الكتاب يعدُّ من أوائل المصادر التي اعتمدها ابن رشيق في التأريخ للنقد المغربي، رجع إليه كثيرا في الدراسة والتمثيل للقضايا النقدية التي شغلت بال النقاد في تلك الفترة في المشرق والمغرب، حتى اعتبر بعضهم أنَّ هذا الكتاب يعدُّ باكورة العمل النقدي ببلاد المغرب العربي، ويأتي في طليعة الكتب النقدية القيروانية في العهد الصنهاجي،" وكانت نيّـةُ صاحبه تتَّجه نحو تقديم دراسة في صنعة الشعر ونقده، فالنهشلي تعرض للشعر بالدراسة، وحاول أن يُقيم علماً خاصا به، وأن يجعل من كتابه موسوعةً في الشعر وكل ما يتعلق به، لأنه أدرك ما لهذا الفن من عظيم أثر، وسموِّ منزلة" [2]

إنَّه كتابُ نقدي ظهر في النِّصف الثاني من القرن الرابع الهجري، اعتمد عليه ابن رشيق كثيرا في كتابه العمدة وإن لم يسمّه، يقول ابن رشيق عنه: "وقد كان في زماننا من انتحل هذا المذهب، وهو عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، لم يهج أحدًا قط.."[3]، وقد حظي هذا الكتاب ببعض الاهتمام في زمانه كما يقول أحمد يـزن، " وكان حظُّه من الذُّيوع غير قليل، وهذا ما حفّز ابن رشيق في عمدته إلى الإشارة إليه بالكتاب المشهور للنهشلي دون تسميته"[4].

وصاحب هذا الكتاب، والذي هو النهشلي كما يقول عبد العزيز قليقلة: "ذاتي حيث ينتج، موضوعي حيث ينتقد، وهذه هي أعلى درجات الحياد لدى النقاد قديما وحديثا في الشرق والغرب"[5] وذلك يدلّ على أن النهشلي كان ناقدا مبدعا صاحب شخصية علمية، ولم يكن مجرد ناقل لأخبار سابقيه، إنما كان يقدّم آراءه النقدية بكل حزم وثقة في النفس، مع تحلِّيه بالموضوعية في رصد الإنتاج الشعري وتتبُّع مساره .

---

(1) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، (مر، س)، ص: 08 .

(2) سلام محمد زغلول، تاريخ النقد والبلاغـة من القرن الخامس حتى القرن العاشر الهجري، منشأة المعارف الإسكندرية، (ط1،2000م) ص: 193 .

(3) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه ، (مر، س)، ج/1 ، ص:114 .

(4) يـزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 114.

(5) قليقلة عبد العـزيز، البلاط الأدبي للمعز بن باديس، (مر، س)، ص: 219 .

ويعدّ كتاب الممتع في صنعة الشعر لعبد الكريم النهشلي من أوائل الكتب النقدية المنسوبة إلى المغرب العربي، ويأتي صاحبه ضمن طبقة الأدباء النقاد أصحاب المكانة والتميز خاصة وأنه كان أستاذا لكثير ممّن جاء بعده من النقاد كابن رشيق، وعن جملة ما ضمّن كتابه فإنه أورد فيه رأيه بوضوح عن فضل الشعر ومكانته عند العرب، مع استعراضه لموقف الإسلام من الشعر مستدلا بأقوال عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء وكبار الصحابة، وكما يقول محمد مرتاض:" فإنَّ كتاب الممتع للنهشلي يعدّ فاتحة الكتب النقدية ببلاد المغرب، وفي طليعة الآثار النقدية التي أُفردت لدراسة الشعر والدفاع عن مكانته ومكانة الشعراء، وكان لهذا الكتاب الأثر الكبير في ثقافة ابن رشيق وما كتبه في عمدته"[(1)].

كما أن النهشلي كان كثيرا ما يتناول بعض القضايا النقدية بالدراسة والتحليل، ومن ذلك تصوّره ومفهومه لبنية الشعر وأقسامه ونشأته وأصله، ودواعي النظم الشعري، وقضايا القديم والجديد، واللفظ والمعنى، والطبع والصنعة، والسرقات الشعرية، وكان من عادته ما يورد بعضا من النصوص الشعرية التطبيقية، مبديا رأيه فيها بكثير من الشجاعة والموضوعية.

2-6-كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة لأبي عبد الله القزاز القيرواني: (322هـ ـ 412هـ) [(2)].

أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز القيرواني، واحد من أعلام اللغة والأدب في بلاد المغرب، عاش في الفترة مابين القرنين الرابع والخامس الهجريين، اهتم في بداية حياته بتعليم وتدريس اللغة والنحو بمسقط رأسه القيروان، تتلمذ على يديه عدد كبير من شباب القيروان وطلبة العلم من المشرق والمغرب، خلّف لنا مجموعة تصانيف في النحو واللغة والأدب، "وقد اشتهر من كتبه ضرائر الشعر، وهو الكتاب الذي ألفه القزاز في نقد الشعر وتبيان ضروراته وجوازاته، ونجده قد درس فيه بإسهاب موضوع الضرورات التي يقع فيها الشعراء إن في الألفاظ أو في المعاني، فيضطرون بذلك إلى الخروج عن قواعد اللغة وأساليب القياس"[(3)].

حيث تتبّع هذا الأديب والناقد المغربي قضيّة الضرورات الشعرية وما يمكن للشاعر أن يُعذر فيه من تجاوزات، وكأنيِّ بالقزاز يريد أن يفسح للشعراء مجالاً لغوياً يمكن لهم أن يسبحوا في فلكه،

(1) محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي نشأته وتطوره، ص: (58 ـ 59) .

(2) ينظر في التعريف به، ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج/4، ص:(374 ـ 375)، وينظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج/5، ص: (345 ، 346) .

(3) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، (مر،س)، ص: 95 .

ويضبطوا نصوصهم ومقطوعاتهم الشعرية من خلاله، بشرط أن لا يخرجوا عنها ولا يتجاوزوها أثناء عملية البناء الشعري، وبمعنى أوضح "كان القزاز يريدُ بكتابه هذا، حصر التّغييرات التي يحدثها الشاعر في البناء، ثم تقييدها حرصا على قواعدهم، وهذا يعنى أن المحدث من الشعراء لا يجوز له أن يُحدث ضرورة جديدة لم يقع فيها القدماء"[1] .

وبذلك نلمس الغرض التعليمي الذي أراده القزاز وألّف بسببه كتابه هذا، وأما عن المراد بالضرورة الشعرية " فهي أن يضطر الشاعر إلى مخالفة قواعد اللغة والقياس النحوي، حتى تستقيم لديه أوزان القصائد وقوافيها، وقد كان الشعراء منذ أقدم العصور حتى الفطاحلة منهم يرتكبون مثل هذه الضرورات في أشعارهم"[2] .

ونظرا لما لاقاهُ الشعراء من عنت كبير في عصر القزاز من طرف اللغويين والنحاة المتزمتين، عندما يعمدون إلى تخطئة الشعراء واللّوم عليهم بسبب ما يقعون فيه من ضرورات اضطرتهم إليها مستلزمات الوزن والقافية،" فكان أن ظهر القزاز كلُغوي كبير إلى تأليف كتابه المذكور، حيث نجده يرُوم إلى تعريف الشعراء بهذه الضّرائر ويُبصِّرهم بمواضعها، حتى لا يقعوا في الخطأ، وهي بلا شك قواعد تساعد الشاعر في صياغة أفضل لألفاظه قصد إيجاد مخرج يبعده عن السقطات التي قد تضر بالمعنى وبطريقة عرضه، وقد ظهر هذا الكتاب بعد كتاب الممتع للنهشلي، وبين فيه صاحبه بعض الجوازات التي يسمح فيها للشاعر في الضرورة الشعرية"[3].

وعلى ذلك فإن هذا الكتاب أبان عن شخصية القزاز اللغوية الفذة البصيرة العالمة بدقائق الشعر، والقادرة على تمييز الخطأ من غيره من أقوال الشعراء من غير تعسُّفٍ أو ظلمٍ .

وإن القزاز في حديثه عن الضرورات الشعرية فقد اعتبرها ميزة من ميزات وفضائل الشعر في مقابل النثر، لأنها تساعد الشاعر في نظم الشعر وتجعله بعيدا عن القيود اللغوية التي تدفعه إليها ظروف الوزن والقافية، وهاهو القزاز يقول مبديا غرضه من تأليفه له: "هذا كتابٌ أذكر فيه إن شاء الله ما يجوز للشاعر عند الضرورة من الزيادة والنقصان، والاتساع في سائر المعاني من التقديم والتأخير، والقلب والإبدال، وما يتصل بذلك من الحجج عليه، وتبيين ما يمر من معانيه فأرده إلى أصوله

---

(1) عمر محمد عبد الواحد، دراسات في النقد الأدبي عند العرب في المغرب والأندلس، دار الأندلس للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية 1998م ،ط1 ص: 86 .

(2) بوقربة الشيخ ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، (مر، س)، ص: 98.

(3) المرجع نفسه، ص: 99.

وأقيسه على نظائره، وهو باب من العلم لا يسع الشاعر جهله، ولا يستغني عن معرفته ، ليكون له حُجّةً لما يقع في شعره، وما يضطر إليه من استقامة قافية أو وزن بيت أو إصلاح إعرابٍ"[1].

ولذلك فإن القزاز يغلب على دراساته الطابع اللغوي، باعتباره كان لغويا نحويا أكثر منه ناقدا أديبا، وكان يمتلك محصّلة نقدية جعلته متضلّعا بصنعة الشعر وقضاياه، ومن ثمّة فإن القضايا النقدية التي تعرّض لها القزاز في ثنايا كتابه هي قضايا لغوية بحته، وبذلك فهو يقرّر أن العيوب التي تصيب الشعر كثيرة منها، "فساد في المعنى، وخطأ في اللغة واختلاف في القوافي وغيرها مما لا يحيط به كتاب، وأنا أقتصر على ذِكْر ما يؤخذ على الشعراء من جهة النحو"[2].

وعلى ذلك فإن من أهم الضرورات التي درسها القزاز في كتابه، هي ضرورات تتعلق في عمومها إما: **1 ـ بالضرورة الإعرابية،** أو **2 ـ بالضرورة في بناء الكلمة،** أو **3 ـ بالضرورة في صياغة الجُملة من حيث التقديم والتأخير.**

ومن الأمثلة التي ساقها لذلك نذكر ما يلي: الضرورة في الإعراب: يقول القزاز "بأن حذف الإعراب مما يجوز للشاعر عند الاحتياج لذلك على رأي قوم من النحويين، وضرب لنا بذلك المثال التالي"[3]:

يقول امرئ القيس[4]:

فاليَومِ أَشْرَبْ غَيْرِ مُسْتحْقِبٍ إثمـًا من اللهِ ولاَ واغِلٍ

حيث يرى القزاز عند تطرُّقه لشرح هذا البيت: أن الشاعر حذف الإعراب من **أَشْرَبْ** وهو فعل مستقبل حقه أن يكون مرفوعا، ولكن فُعِلَ هذا فيه بما يفعل في سائر الحركات التي تُحذف استثقالاً وليس إعراباً [5].

---

(1) القزاز القيرواني، ما يجوز للشاعر في الضرورة ، (م، س)، ص:23 .

(2) المرجع نفسه ، ص: 55 .

(3) يـزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان، ص: 120 .

(4) إن امرؤ القيس قال ذلك حين قتل أبوه ونذر أن لا يشرب الخمر، فلما أدرك ثأر أبيه حلّت له الخمر بزعمه ، فهو سيشربها من غير تأثيم عليه، لأنه قد وفى بما كان قد نذر به ، أما عن المراد بالمستحقب فهو المتكسب (والمراد غير مكتسب لإثم)، أما الواغِلُ فالمراد به من يحضُر الشُّرب من غير أن يدعى له، ينظر: أحمد يزن ، المرجع نفسه ص: 120 .

(5) ينظر: القزاز القيرواني، ما يجوز للشاعر في الضرورة ج/1 ،ص: 84 .

وتكلّم القزاز عن هذه الضرورة دون أن يقول أنها قبيحة، على عكس ابن رشيق الذي رآها أنها من أقبح الحذف في الإعراب، بل إن القزاز يذكر أن عديد الرُّواة يروُون البيت بالتَّسكينِ، كما أن سيبويه مرّ على ذلك وقال: أن ذلك مما يجوز في الشعر خاصة.

ويزيد القزاز القضية وضوحا عندما يؤكد بأن امرؤ القيس إنما كان يتحدّث عن نفسه بدليل قوله قبل ذلك:

**حلَّتْ لي الخَمرُ وكنتُ امُرأً		عن شُربها في شُغل شاغـلٍ**

كما يرى القزاز أنه، يجوز للشاعر أن يجري المعتل من الأفعال مجرى السَّالم، فيجزم ولا يحذف حُروف الاعتلال، وذلك أن العرب استثقلت الحركات في الياء والواو فحذفتها عنهما وأبقتهما سواكن في الرفع، فإذا احتاج الشاعر لذلك أجرى هذا المعتل مجرى السَّالم كما في قول الشاعر[1]:

**ألم يأتِيـكّ والأنباءُ تنمِـي		بما لاقتْ لبُـــون بني زيــــادِ**

فقال -ألم **يأتيـك**- والوجه ألم يأتِكَ، ولكن أجراه على ما ذكرنا، والقزاز يأتي بعديد الأمثلة والشواهد الشعرية من التي وردت في الشعر القديم ، وهي كلها مما يجوز للشاعر الإتيان بمثله عند الضرورة أو كما يرى هو ذلك.

ومع كل هذه الجوازات والضرورات التي رخّص فيها القزاز للشعراء، إلا أننا نجده لا يتغافل عن تنبيه الشعراء كيفما كانت رتبهم ومقاماتهم إلى بعض الهفوات والأخطاء اللغوية التي سقطوا فيها، ومن أظهر ما يمكن لنا الإشارة إليه في هذا المقام تنبيهه إلى ذلك الغلط الذي وقع فيه النابغة الذبياني عندما عكس إعراب الأبيات، فجعل نهاية البيت الأول على الخفض، فيما جعل نهاية البيت الثاني على الرفع وهو ما يُسمَّى بالإكفاء، ـ والذي هو اختلاف إعراب الأبيات ـ مثل قول يقول النابغـة[2]:

**أمن آل ميّـــة رائح أو مغتدي		عجـلان ذا زاد وغيـر مزوّدِ**

**زعـــم البـــوارح أن رحلتنا غدا		وبذلك خبّرنا الغراب الأسودُ**

إنَّ القزاز حين يقول بهذه الجوازات الشعرية، فإنه يقف كالطود الشامخ في مقابل تلك الآراء التي تستنكِفُ وتستقبح هذه الضرورات، بل ويعدّونها من العيوب التي يَنصَحُ الأدباء والنقاد الشعراء

(1) ينظر: يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 121 .

(2) نقلا عن: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث (مر، س)، ص: 82 .

باجتنابها، فهذا ابن رشيق يقول: "أنه لا خير في الضرورة حتى ولو وردت عن القدامى"[1]، كما نجد أبا هلال العسكري ينكر مثل هذه الضرورات الشعرية، لأنها بحسبه " تُفسد الشعر واللغة "[2].

كما نلمس من محمد ابن شرف القيرواني رفضًا قاطعاً للضرورات الشعرية،" وهو لا يُوافق مواطنه القزاز فيما يذهب إليه، مُعتبرا إيَّاها من عُيوب الشعر ومساوئه، وليست من الضرورات والرخص التي يُتسامح فيـــها"[3].

والشيء الملفت في دراستنا لمسألة الضَّرورات الشعرية، هو قُوَّة الرَّفض الذي قابل به نقاد المغرب العربي لرأي ابن بلدهم وأستاذهم القزاز القيرواني، رغم التخريجات التي استدل بها وقدَّمها لكنّها لم تشفع له، ولم يأخذ برأيه أحد من الأدباء والنقاد واعتبروها من العيوب التي يجب تجنُّبَهَا.

6- 3 - كتاب زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري: (363 هـ ـ 413هـ) .

يُصوِّر لنا الحصري في كتابه هذا واقع الحياة الأدبية بالقيروان في القرن الرابع الهجري، وهو يشكّل كما يقول زكي مبارك –مُحقِّق هذا الكتاب– "دائرة معارف أدبية، إذ عنى صاحبه بتتبّع تطور النثر الأدبي خاصة والتأريخ له، حتى غدا لأهميته ككتاب الكامل للمبرد، وأدب الكاتب لابن قُتيبـة"[4]، بمعنى أن كتاب زهر الآداب يمثل قيمة أدبية وفنيّة وتاريخية، إنه كتاب نقدي مُمتِع ونافِـع، لا يقل عن كتاب البيان والتبيين من ناحية نصوصه النقدية، ويأتي أحسن منه من ناحية العرض، وقد اشتمل على معلومات ونصوص أدبية كثيرة ذات قيمة كبيرة في تاريخ الأدب والنقد.

ولقد عمل الحُصري على تتبّع النثر الفني المكتوب وما شهده من تطور وازدهار، متناولا مختلف الكتابات التي ظهرت في هذا الفن، "وإن السِّمة الغالبة على هذا الكتاب هي البحثُ في الأصول الشعرية والنثرية لدى العرب، بغرض تربيـة الذوق الأدبي لدى القارئ ، وتعليمه أصول الأدب من خلال ما عرضه واستقصاه من نصوص"[5]، وهاهو ذا نفسه يقول عن كتابه زهر الآداب: "فهذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية من البلاغة في الشعر والخبر والفصول والفقر، مما حسن لفظه ومعناه، واستدلّ بفحواه عن مغزاه، ولم يكن شاردا حُوشياً ولا ساقطا سُوقياً، بل كان جميع ما فيه من ألفاظه

---

(1) ابن رشيق، العمدة ،ج/2، ص: 269 .

(2) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين ـ الكتابة والشعر، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا، (ط1، 2006م)، ص: 156 .

(3) بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام بن رشيق القيرواني، (مر، س)، ص: 154 .

(4) الحصري، أبو إسحاق، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: زكي محمد مبارك، دار الجيل لبنان، دت، ص: 22.

(5) المرجـــع نفسـه، ص: 08 .

ومعانيه"[1]، ويفهم من كلامه هذا أنه جمع في كتابه الكثير من الأخبار والملح الأدبية، والآداب الاجتماعية المرتبطة بحياة الخاصة والعامة، فضلا عن تطرّقه إلى قضايا بلاغية ونقدية تتعلق بالشعر والشعراء والموازنة بينهم، وذلك بالحديث عن الطبع والصنعة واللفظ والمعنى ومنزلة الشعر ومكانة الشاعر وكذا مسألة السرقات الشعرية، بمعنى أن كتاب زهر الآداب يمثل قيمة أدبية وفنيّة وتاريخية، إنه كتاب نقدي ممتع ونافع، لا يقل عن كتاب البيان والتبيين من ناحية نصوصه النقدية، ويأتي أحسن منه من ناحية العرض، وقد حوى على معلوماتٍ ونصوص أدبية كثيرة ذات قيمة كبيرة في تاريخ الأدب والنقد .

هكذا هو الحصري نجده، يُعطي رأيه في الشعراء المحدثين والأدباء المعاصرين له، ممن أدركهم بعُمره أو لحقهم من أهل دَهره، وفي ذلك يقول: "وقد كُنت قد استدركت على كثيرٍ ممَّن سبقني إلى مثل ما جريت إليه، واقتصرت في هذا الكتاب عليه، بل ونجده يصف آرائه واستدراكاته تلك بأنّها، لُمح أوردتها كنوافث السِّحر، وفِقر نظمتها هي كالغنى بعد الفقر، من ألفاظ أهل العصر في محلول النثر ومعقود الشعر" [2].

فالكتاب كما نرى يتكوَّن من مختارات أدبية اختارها الحصري وجمعها ورتَّبها بطريقته وذوقه أخاص، وهي تشمل على جملة من الحكم، والتراجم، والمديح، الهجاء، والرسائل، والنسيب، والنكت والأخبار، كما اهتم الحصري بنقل نماذج من الآداب الاجتماعية والسلوكيات والأخلاقيات العامة، وما يتصل بالحقوق الاجتماعية التي كانت مرعية في زمانه، وقد قدّم كل ذلك بطريقةٍ رائعةٍ شائقة .

ومما نستنتجه من خلال أقواله الكثيرة التي كان يسُوقها ويستدرك بها على أدباء ونقاد عصره، أنه لم يكن مجرّد عابرٍ ناقلٍ لأقوال غيره، بل كان يمثل السَّهم النَّافذ الذي ينفـذ إلى صميم مختلف الآراء والاتجاهات فيُوازن ويقارن، ويقدّم ويؤخر، ويثبت ما يستحق الإثبات، ويسقط من الأقوال ما يراه غير جدير بالعرض والإثبات.

ومهما يكن من أمر فإن الحصري لم يكن ينقل أراء النقاد نقلا عابرا، وإنما كان يقف منها موقفا واعيا، إذ كان ينقل الموقف النقدي ويبيِّن موقفه الصريح منه، بل ويعارض أحيانا بكل جرأة

---

(1) الحصري ، زهر الآداب وثمر الألباب، ص: (33 ، 34)، وينظر: ابن بسام، الذخيرة، (ق4، مج/2)، ص:586 .

(2) ينظر: ابن بسام، الذخيرة، (ق4، مج/2)، ص:587 .

ونباهةٍ، وعموما " فإنَّ لِكتاب زهر الآداب قيمة نقدية هامة بما يحتويه من رصيد نقدي لأهم المفاهيم النقدية والبلاغة التي سادت عصره"[1].

وفعلا فإن الحصري "ضمَّن كتابه كثيرا من الوقفات النقدية التي تدل على ثقافته الكبيرة وتذوّقه لمختلف الأغراض الشعرية، وكان له اهتمام واسع بموضوع السرقات الأدبية، هذا فضلاً عمَّا ساقه من حرِّ رأيه الخالص عن قضايا اللفظ والمعنى، والطبع والصنعة" [2].

ويعتبر كتاب زهر الآداب وثمر الألباب للحصري من الكتب التي حملت أيضا بعضا من الإشارات واللمحات النقدية، وإن كان الغرض منها ليس النقد وإنما تقديم ما أمكن من حُليِّ الكلام في الأدب والشعر، وتسليط الضوء على بعض الآداب والسلوك والأخلاق والسيّر، يقول بشير خلـــدون: "يعدّ كتاب زهر الآداب واحدا من الكتب الأدبية العامة التي ظهرت في القرن الرابع الهجري، وهو يشبه في طريقته كتاب الأمالي لأبي علي القالي، والبيان والتبين للجاحظ، حيث نجد أن الحصري في كتابه يرسل القول إرسالا، ويتبع الملحة بالطرفة والقصيدة بالرسالة، وينتقل من موضوع إلى موضوع ، دون تقيّد منه بموضوع بذاته"[3].

وهذا عمر فروخ يكتب عن الحصري قائلا:" إن الحصري كان على شيء من الوجاهة في بلده وعلى كثير من العلم والأدب، فكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه"[4]، وللحصري تآليف وكتب أخرى غير زهر الآداب ذكرها ابن رشيق وياقوت الحموي، وابن خلكان، وبروكلمان نشير إلى بعض منها فيما يلي: [5].

- نور الطرف ونور الظرف، والذي قال عنه الحموي: إنه هو نفسه مختصرا لكتاب زهر الآداب.
- وكتاب آخر هو: المصُون في سرِّ الهوى المكنون.
- وكتـاب الجـواهر من الملح والنَّـوادر .

وعموما فإن الحصري "لم تتبلور لديه رؤية نقدية واضحة، لأنه لم يخلُص للنقد ولم يكن هدفه الأسمى، وإنما كان يروم جمع الأخبار في كتابه زهر الآداب، والولع بالبديع، وضروب

---

(1) بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، (مر، س)، ص: 41 .

(2) خلدون بشير، الحركة النقدية ، (مر، س)، ص: 87 .

(3) المرجع نفسه، ص: 87 .

(4) عمر فـرّوخ ،تاريخ الأدب العربي، (مر، س)، ص: 375 .

(5) ينظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج/5، ص: (105، 106) .

البيان"[1] كذلك نجده يورد الكثير من التفرّدات والنصوص الشعرية التي رأى فيها معان تفرّد بها أصحابها عن غيرهم من الشعراء، من ذلك ما يذكره وينقله عن النابغة الذبياني يصف حاله مع ملك الحيرة النعمان بن المنذر عندما يقول[2]:

فإنك كاللّيــل الذي هو مُدركي وإن خلت أن المنتآى عنك واسع

حيث يرى أن النابغة هو أول من نبَّــه إلى هذا المعنـى.

كما يستلطفه قول امرؤ القيس ويستعذب منه بيته الذي يقول فيه[3]:

وقد أغتَدي والطّيرُ في وُكُناتِها بمُنجَرِدِ قَيْــدِ الأوابِــدِ هَيْكَــلِ

حيث يرى أن كثيرا من الشعراء قد حذوْ حذوَ امرئ القيس في هذا المنوال، لأنه هو أول من استثار ذلك، فكان امرؤ القيس هو السّابق المخترع وغيره تَبــع له[4].

4-6 - كتاب مسائل الانتقاد لابن شرف القيروانــي: (390 هـ - 460هـ) .

ذكر ياقوت الحموي أن هذا الكتاب؛ "إنَّما هو مجموعة رسائل على طراز المقامات"[5]، كتبها ابن شرف يُصوِّر من خلالها الحركة الأدبية والنقدية بالحاضرة القيروانية المغربية، وقد ضمّنه مجموعة من آرائه النقدية حول الإنتاج الشعري، ومسألة القديم والحديث، والسرقات الأدبية وغيرها، يقول عن ذلك بشير خلدون: "ولابن شرف رسالة نقدية يطلق عليها أعلام الكلام ومنهم من يسميها مسائل الانتقاد، وهي عبارة عن مقامة نقدية بطلها شخص عالم وأديب، تعرّض فيها بالنقد إلى مجموعة كبيرة من الشعراء المشهورين من القدامى والمحدثين في عصره من المشارقة والمغاربة، حيث حاول أن يقدم تقييما لكل شاعر بيّن فيه خصائصه الفنية وأهم ما اشتهر به في عصره، ثم ختم مقامته بتوجيهات عامة في النقد، وضّح فيها بعض العيوب التي تقع في الشعر.

كما درس بعض القضايا النقدية التي طرحها النقد العربي القديم، كقضية اللفظ والمعنى، ومشكلة السرقات، والقديم والجديد"[6]، ونلمس هذا البسط والشّرح الذي ذكره بشير خلدون عمليا،

---

(1) بوقـربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، (مر، س)، ص: 330 .

(2) النابغة الذبياني، الديوان شرح وتقديم، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية لبنان، ط3 1996م ص: 56 .

(3) أبي زكريا الشيباني، شرح المعلقات العشر المذهبات، ضبط وشرح ، عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ص: 38 .

(4) الحصـري، زهر الآداب وثمر الألباب ،ج/1، ص: 10 .

(5) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، (م ، س)، ج/8 ، ص:37.

(6) خلدون بشير، الحركة النقدية، (مر،س)، ص: (150 ، 151).

عمليا، من خلال تلك المقتطفات واللمحات النقدية التي يستعرضها ابن شرف عند تناوله وحديثه عن كل شاعر من الشعراء الذين وردت أسماؤهم في مقاماته النقدية .

وهذا ابن بسّام محقِّق المغرب الإسلامي، وناقل أحداثه، ومترجم حياة أعلامِه ورجالِه يقول: "ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه وصبّ فيها على قالبه، فيها بعض الطول لكنه غير مملول، أخذه بطرفٍ مُستطرفٍ من أخبار الأُدباء وذكر الشعر والشعراء"[1]، وهذا الذي لخصه ابن بسّام في ذخيرته هو عينُ ما نجده عندما نقرأ كتابه ـ أعلام الكلام ـ، حيث نلفى له ذلك الكلام المسجُوع ، والذي قدّمه بأسلوب يأسر النفوس، وكلمات في غاية العذوبة والرونق والجمال .

وللباحث محمد مرتاض رأيه فيما كتبه ابن شرف حين يقول: "فالعُنوان من الوجهة المعرفية والفنية إذا لا يزيح غموضا ولا يزيل لبساً، بل إنه يترك المتلقي يهيمُ في واد الخلط، ويضطرب في دُجنَةِ الخبْط، حتى إذا فتح الكتاب مقلبا صفحاته، علم أن الناص يرمي فيه إلى محاولة تدبيج مقامةٍ، لكن المتلقي يستكْشف وهو يتتبع أفكار ابن شرف عبر ما التزم به في كتابه المذكور، بأنه لم يكتب مقامة، وإنما كان في حديثه ناقدا، ومبديا رأيه في شعر طائفة من الشعراء[2]، بدءًا بمن عاشوا في العصر الجاهلي مرورا بالعصر الإسلامي وانتهاءً بالعصر العباسي، ومع ذلك يمكن أن نُجاري ابن شرف ونقترح عنوانا لأحاديثه عن الشعراء المختارين فنطلق عليها المقامة النقدية"[3].

وقد دافع ابن شرف في رسائله تلك عن الشعراء المحدثين كثيرا، مُعتبرا أن انتقاد المبدعين والشُّعراء المتأخرين، بسبب تأخرهم الزمني، وليس بالنظر لإنتاجهم الفني، إنما هو من قبيل الرجم بالغيب، وأن ذلك من الظلم والإجحاف والنكران لحقوق المبدعين في أي زمان، يقول مُوصيا النقاد: وتحفّظ عن شيئين، أحدهما أن يحملك إجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمع له، والثاني أن يحملك استصغارك للمعاصر المشاهد على التّهاون بمن أنشدت له، فإن ذلك جُور في الأحكام، وظلمٌ من الحكام، حتى تمحّص قوليهما، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما[4].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم 4، ج/1، ص: 154 .

(2) أما عن الشعراء الذين تعرّض لهم ابن شرف بالدراسة والنقد، فهم قائمة طويلة من شعراء الجاهلية والعصر الإسلامي بلغ تعدادهم قرابة الستين شاعرا أو يزيد، أوردهم جملة لكي يُخضعهم لتشريح النقد وميزان التقويم، على ما يقول محمد مرتاض، ينظر كتابه: النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث، ص: 126 .

(3) ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث ص: 127 .

(4) ينظر: ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، (م، س)، ص: 28 .

وفي خضمِّ حديثنا عن مقامة ابن شرف النقدية لا يفوتنا أن نشير إلى تلك الملاحظة البارزة منه فيما يخص مسألة الضرورات الشعرية، والتي كان قد ألّف فيها مواطنه وابن بلدته القزاز القيرواني كتابا كاملا، حيث رفض ابن شرف أن تكون هناك جوازات شعرية بالشكل الذي عرضه القزاز، واعتبر أن ذلك من عيوب الشعر ومساوئه، وليست من الضرورات والرُّخص التي يُتسامح فيها، كما يَنقل ذلك عنه غير واحد من النقاد .

5-6- كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق: (390هـ ـ 456هـ) [1].

يعدُّ هذا الكتاب واحدا من أضخم المؤلفات النقدية، فهو كتاب نقدي بلاغي تاريخي أدبي، من أهم ما أنجز في المغرب العربي القديم، ولا تزال له أهميته ومكانته في النظرية الشعرية والدراسات النقدية بشكل عام جمع فيه صاحبه ما سبقه من آراء ولمحات نقدية، كما أنه استطاع أن يعتصر فيه ابن رشيق جملة آراء سابقيه، ويعمل على مناقشة آرائهم متعرّضا لأهم المسائل والقضايا النقدية التي تعرض لها النقاد قبله، مبديا فيها رأيه بما يتوافق وما وصل إليه اجتهاده.

ولذلك جاء كتابُ العمدة حاويا لمختلف الآراء والتوجهات، معرّجا فيه على آراء من سبقه من النقاد والدارسين، مرجِّحاً بالدليل والبرهان، الرأي الذي مال إليه ذوقه، واستحسنه خاطره، "وقد ظهر جُهد ابن رشيق في هذا المصنّف متميّزا، سواء من حيث تكامل أبوابه أو حتى في طريقة طرحه للقضايا النقدية ومعالجته لها، حيث نجده يُعرّف بالقضية موضوع الدراسة، متعرضا لمختلف الآراء حولها، مع مناقشته لها وتحديد موقفه منها" [2].

وعموما فإن ابن رشيق سعى من خلال كتابه العمدة إلى إفادة المتعلّم وتزويده بمختلف مناهج هذه الصناعة، حيث تعرض في كتابه لمائة وسبعة أبواب من مسائل النقد وقضايا البلاغة والبديع، يقول الدكتور حسين الجداونة " يمتازُ كتاب العمدة بين سائر كتب النقد الأدبي بأنه احتوى أكثر ما يريده المتأدّب من حديث عن الشعر، ومن حديث في الشعر نفسه، ويتميّز صاحبه بكونه ناقداً قديراً، إذ أن شخصيته لم تضع بين آراء النقاد الذين سبقوه "[3].

---

(1) ينظر في التعريف بابن رشيق: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/2، ص: 85 وما بعدها، كما ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/2، ص: (291 ـ 292)، كما ينظر كتابه : أنموذج الزمان عندما نجده يعرّف بنفسه كآخر مائة شاعر بالقيروان المغربية، في آخر الكتاب .

(2) كلاع رشيدة، النقد المغربي القديم في ضوء نظرية النص من خلال كتابي العمدة ومنهج البلغاء، مخطوط دكتوراه، جامعة أحمد منتوري قسنطينة، 2014/2013 ، ص: 10.

(3) الجداونة حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص: 305 .

وأما عن سبب تأليفه لهذا الكتاب فلنا أنْ نَرجع لابن رشيق ذاته وهو يصف لنا كيف وضع منهجه في كتابه فيقول:" فجمعتُ فيه أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه، ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده إن شاء الله، وعوّلت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري خوف التكرار ورجاء الاختصار"[1]، فابن رشيق يؤكد بما لا يدع مجالا للارتياب أن أكثر الأحكام والمواقف في مصنّفه هذا إنما هي نتيجة خاطرٍ وذوق فطـري .

وبذلك يُعتبر كتاب العمدة، أبرز كتاب نقدي بالمغرب عرفه الأدباء في القرن الخامس الهجري بالمغرب العربي، هذا المصنَّف النقدي الذي أخرجه ابن رشيق وقدّمه للدارسين، وضع فيه الأسُس العامة للنقد العربي، حتى قيل أن كتاب العمدة يعدّ موسوعة في النظرية الشعرية العربية، وإنما كان كذلك، لأنه كما قال بشير خلدون:" يعدُّ ثمرة اطلاع وبحث وإعادة قراءة لكل ما ألِّف في الشعر وفُنونه وقضاياه، حيث بذل ابن رشيق جهده لأن يكون كتابه جامعا لأحسن ما قاله كل واحد منهم ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه، والذي عوّل في أكثر فصوله ومحاوره، على قريحة نفسه وخلاصة خواطره، كما يقول هو نفسه عن مؤلَّفه)[2].

ولا عجب بعد ذلك أن يعدّ العمدة في جملة أبرز كتب النقد ببلاد المغرب العربي خاصة وأن صاحبه كان إلى حبّ الشعر أميل، بل إنَّ له فيه الباع الكبير والمشوار الطويل، كيف وهذا ابن بسام يصف ابن رشيق في الذخيرة فيقول:" إنْ نظم طاف الأدب واستلم، أو نثر هلّل العلم وكبَّر، أو نقد سعى النقد الصّقيل وحَفَدَ، أو كتب سجد القلم الضئيل واقْترب"[3].

وقد عالج ابن رشيق في كتابه العمدة الكثير من القضايا والثنائيات النقدية التي تعرض لها النقد العربي القديم، كما نلمس لابن رشيق كثرة الاستشهاد والرجوع إلى أقوال العلماء وعرضه لها، إلا أنه في كل مرَّة يتدخل بآرائه الخاصة، فنراه يراجع وينقد كلما لزم الأمر ذلك .

وعلى هذا الأساس فقد تميز العمدة بموضوعية شديدة عادت بالخير عليه، وتظهر تلك الموضوعية في البحث بتوثيقه الشديد لكل ما ينقله من أقوال، ذلك لأنه كان ينسب الأقوال إلى أصحابها مهما بلغت من الكثرة، مما جعل النقاد يصفون كتابه بأن توليفة متميّزة بين آرائه الخاصة،

(1) ابن رشيق، العمدة ،ج/1 ، ص: (16 ـ17) .
(2) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق، (مر، س)، ص: (16 ،17) .
(3) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المجلد 2 ، القسم 04 ص: 597 .

وآراء النقاد القدامى[1]، ولذلك فقد احتل العمدة مكانة مرموقة لدى العلماء، "حيث كان أشبه بموسوعة في كل ما يهمُّ الشعر ومحاسنه وعلومه وصنعته في زمن المؤلِّف، وفيه برنامج لتكوين كامل للشاعر المبدع وفقا لمقاييس القرن الخامس الهجري"[2]، ومنه نقول؛ أن العمدة" كتابٌ قيِّم، وذلك لما حواه من معلومات دقيقة ومضبوطة عن آراء النقاد في الشعر وقضاياه، فكان أن اشتهر بين الدارسين لهذا السبب، وعوّل عليه طلاب الأدب كثيرا في نقد الشعر فيما تلا عصره "[3] .

وفعلا فإن ابن رشيق، ومن خلال إطلالة سريعة وقراءة فاحصة لكتبه (العمدة، والأنموذج، والقراضة)، يتَّضح أن الرجل" يمتلكُ صفات الباحث والناقد من حيث الجدية في الطرح والاهتمام بالتوثيق، والاعتماد على أصول النقد الأدبي، بالعودة إليها أثناء التحليل والعرض مع الاحتفاظ بالرأي الخاص والتعليل لنفسه"[4]، وبالتالي فإن قوام ابن رشيق، واستقامة أمره ومكانته كناقد إنما ظهرت مع كتابه العمدة، والذي بفضله اشتهر ودخل ميدان النقد الأدبي من أوسع أبوابه .

"والحقيقة أن ما أنجزه ابن رشيق في كتابه المذكور يمثّل مرحلة النضج في التأليف النقدي والبلاغي، كما أن كتابه هو الكتاب الجامعُ المحكم في موضوعه ومنهجه، لا يزال مَعينا لا ينضبّ يفيد منه الدارسون والباحثون المحدثون بما حفظه من نصوص وأراء السابقين وبما اختزنه من حرِّ الرأي الخالص وجريئه، ولم يكن مجرّد عارض للآراء المختلفة ناقلا للأخبار، إنما كان يتدخل ويعطي رأيه كناقد حصيف متّزن وأديب متميز ذواقة، وشاعرٍ فنــانٍ يحسُّ "[5].

على أن إحسان عباس يشرح هذه العبارة ويوضحها أكثر بحسب مفهومه لها فيقول: " يجب أن نفهم أن تعويله على نتيجة خاطره وقريحة نفسه لا يعني الابتكار، وإنما يعني التّصرف في النقل فيما يجوز فيه التصرف، فإذا لم يكن المنقول كذلك من خبر أو رواية فعندئذ يورده بنصِّه"[6].

فإحسان عباس يجعل من ابن رشيق مجرد حاشد لأقوال النقاد، منظماً ومرتِّباً لها، مرجّحاً فيما بينها، وأنه بحسبه لم يكن ذلك الناقد المستغني عن أقوال سابقيه، وهذا الذي ذهب إليه إحسان

(1) ينظر: ترشاق سعاد، النقد المغربي القديم بين التنظير والتطبيق، مخطوط دكتوراه، (مر، س)، ص: (57 ، 58.) .

(2) محمد قرقزان، قراءة نقدية جديدة لكتاب العمدة لابن رشيق ، ص: 167 .

(3) ترشاق سعاد، النقد المغربي بين النظرية والتطبيق ، (مر، س)، ص: 273 .

(4) المرجع نفســه، ص: 46 .

(5) خلدون بشير، الحركة النقدية ، ص: 107.

(6) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن، (ط2، 2006م). ص: 444 .

عباس يستحيل في العملية التأليفية والإبداعية، لأن الإبداع يكمِّل بعضه بعضا، ولا يستطيع أي دارس مهما بلغ من الكفاية والكفاءة أن ينشد وحده، أو يستغني بنفسه عن محيطه العلمي.

وقد أثنى ابن خلدون على ما كتبه ابن رشيق كثيرا، وأعجب به غاية الإعجاب، بما ضمنه من أراء ولمحات نقدية ما جعله يقول:" وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها، ولم يكتب فيه أحد قبله ولا بعده مثله، إلى أن يقول: وبالجُملة فهذه الصّناعة وتعلمها مستوفى من كتاب العمدة لابن رشيق، وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد، ومن أراد استفاء ذلك، فعليه بذلك الكتاب ففيه البغيةُ من ذلك" [1].

أجل، لقد أراد ابن رشيق لكتابه أن يكون موسُوعة في الشعر ومحاسنه ونقده،ولغته وموضوعاته وفي البلاغة وفنونها المختلفة، أما عن مصادر كتابه فهي كثيرة ومتنوعة، حيث نقل ابن رشيق عما ينيف عن ثلاثين ناقدا وكاتبا، إضافة إلى دواوين الشعر التي أخذ عنها، وإن كان ذكر في عمدته أسماء لتسعة كتب فقط بصحيح العبارة، لأنه كان يكتفي في الغالب بذكر من نقل عنه دون الإشارة إلى الكتاب فهو يقول مثلا: وذكر الجاحظ، أو أورد الجمحي، أو قال ابن قتيبة وهكذا، وذكر بعض الدارسين" أن ابن رشيق نقل أيضا عن بعض الكتب المغربية كالممتع، وزهر الآداب، والضرورات الشعرية" [2].

وقد ضمَّ الكتاب بين دفتيه مائة وسبعة أبواب، تناول فيها ابن رشيق جملةً من القضايا النقدية، أبرزها قضية الشعر من حيث المفهوم والخصائص، ثم عرّج على بيان قيمة الشعر عند العرب وفضله عليهم، متعرِّضا للكثير من الآراء التي تبرز وتبين فضل الشعر ومنزلته من الأحاديث الشريفة والأقوال المرضية الصادرة عن الصحابة وأعلام الأمة وأشرافها، كما تناول وبإسهاب مسألة القدماء والمحدثين من الشعراء، مع إبداء رأيه في قضية القديم والجديد،كما سنبيِّن ذلك في الفصل الثالث من هذا العمل البحثي إن شاء الله .

ولم يدَّخر ابن رشيق جُهدا في التعريج على القضايا والمسائل النقدية الأخرى من مثل: اللفظ والمعنى، والسرقات الشعرية، وإن كانت هذه المسألة الأخيرة درسها دراسة مستفيضة في كتابه الآخر (قراضة الذهب)، كما استعرض ابن رشيق في ثنايا كتابه الكثير من الإشارات النقدية التطبيقية المعزّزة

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، (م، س) ، ج/2، ص: 746.

(2) بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، (مر، س)، ص: 54.

بالشواهد والأمثلة، والتي سنستَعْرِضُ كثيرا منها في مبحث: المنجز النقدي التطبيقي لدى النقاد المغاربة، وقد اجتهد ابن رشيـق وبذل وسعه وطاقته في تقديـم وجهة نظره في الكثير منها .

وهذا بشير خلدون يقدم حوصلة عن ذلك فيقول:" إن ابن رشيق بشخصيته الأدبية المتميزة لم يترك بابا إلاّ ووَلجه وقدَّم فيه رأيه، سواء بالنقل عمن سبقه، أو بالمساهمة الشخصية في بلورة رؤيته النقدية تبعا لحسِّه وذوقـه الفنيّ"[1].

ونجد إحسان عباس، والذي يعدُّ من أعمدة النقد الأدبي الحديث، يقول عن كتاب العمدة لابن رشيق:" لقد نال كتابه العمدة حُظوة واسعة بعد القرن الخامس، وأصبح مثالا يُحتذى به من يكتبون في علم الشعر، ومنْهلا لطلاب النقد الأدبي يدرسه الدارسون، ويلخّصه الملخصون، حتى نال حظاًّ عريضاً من ابن خلدون، لأن المثقف الذي كان يحرص على شيء من المعرفة النقدية لم يعد إذا قرأ العمدة بحاجة إلى أن يقرأ قدامـة، والآمدي، والحاتمي، والجرجاني، إذ استخرج ابن رشيق خير ما عندهم وأودعه كتابه وهؤلاء هم أئمة النقد، فما ظنُّك إذا وجد فيه القارئ خلاصة لخير ما عند غيرهـم أيضا" [2]، وهي نظرة صائبة من إحسان عباس، لان ابن رشيق استطاع أن يصهر من خلال ما كتبه في عمدته كل الآراء التي سبقته في تعاطي البلاغة والنقد، ويَعمدُ بعد ذلك إلى تصويب ما يراه صائبا، وتقديم ما يراه يستحق التَّقديم.

وننتقل إلى محمد مرتاض في نظرته إلى ابن رشيق وكتابه العمدة حيث يقول:" لقد خلَّف لنا ابن رشيق كتابا نفيسًا في النقد الأدبي، وهو المسمى بالعمدة، والذي وصلت أصداؤه إلى المشرق العربي، وتناوله النقاد بالرضا والقبول، وفرض نفسه على كثير من المؤلفات والمظان التي عنيّت بالنقد العربي القديم، وإنه ليصعب بل يستحيل أن يتناول أحد الدارسين النظرية الشعرية ونشأتها والخلاف فيها من غير أن يشير إلى هذا النابغة المغربي، فقد أثنى على كتابه هذا كثيرون، وأثبته الأكثرون، وكان اسم ابن رشيق حاضرا أبداً، وكتابه هذا موسوعة نقدية بامتيازٍ" [3].

وإنَّ آخر ما يمكن أن نُشير به إلى كتاب العمدة لابن رشيق ما يذكره الباحث محمد قرقزان في التنويه بهذا الكتاب والإشادة به حيث يقول: " لقد أدَّى هذا المؤلَّف النفيس دورا كبيرا جدا في أوساط الطلاب والناشئين والمتأدبين، والشعراء والنقاد والبلاغيين غابرا وحاضرا، وكأنِّي بابن رشيق

(1) بشير خلدون، المرجع السابق، ص: 242 .

(2) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (مر، س)، ص: 453 .

(3) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، (مر، س)، ص56.

القيرواني حين سمَّى كتابه العمدة قد رمى من جملة ما هدف إليه أن يكون كتابه عمدة بكل ما تحمله الكلمة، إذ تعاورته أيدي الباحثين وتخاطفه شُدّاةُ العلم، فنهلوا من معينه الثري، مادة غزيرة من مشرق العالم الإسلامي، إلى مغربه وأندلسه"[1]، وفعلا فإن الذي كتبه محمد قرقزان هو عين الحقيقة والصواب، فقد نال هذا المؤلَّف الجامع حظا وافرا من عناية الباحثين المعاصرين، فهذا عبد الرؤوف مخلوف يخصُّه بدراسة قيمة في كتابه (ابن رشيق ونقد الشعر)، كما نجد الدكتور عبد الرحمان ياغي يتناوله بالشرح والتحليل والمتابعة في كتابه المسمى: (حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها)، كما تعرض الناقد العربي الكبير إحسان عباس لما كتبه ابن رشيق، وأبان بكل موضوعية عن شخصية ابن رشيق العلمية وما تتميّز به من جرأة في التحليل والتناول وطرح القضايا ومُناقشتِها.

وإذا تحدثنا عن محمد مرتاض فإنا نجده مُنبهرا بالثقافة الواسعة التي كانت تظهر على ابن رشيق، حتى أنه عدّه من عمالقة فن النقد بالمغرب العربي، وقد كان لكثير من النقاد العرب المحدثين اهتمام متميّز بهذه الشخصية العلمية، سنتعرّف على آرائهم تلك في الفصل الأخير من هذا العمل البحثي .

6-6-كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق:

يَذكُر كثير من الدارسين أن هذا الكتاب، إنما هو رسالة نقدية طرح فيها صاحبها وجهة نظره في قضية مهمة شغلت النقاد العرب بشكل عام، والدارسين المغاربة بشكل خاص، والتي هي قضية السرقات الشعرية[2].

وقد كان الكتاب " مَجهُودا شخصيا مُتميّزا لخّصَ من خلاله زُبدة الآراء والأقوال الناتجة عن المعارك الأدبية في بلاده القيروان، والتي استخدمت فيها السرقات سلاحا للنيل من مكانة الشعراء بتهجين ابتكاراتهم وتقليل قيمتها" [3]، واجتهد ابن رشيق من خلال كتابه هذا في بيان مدى حاجة الشعراء المتأخرين إلى كثير من معاني القدماء وأن أخذ المعنى وتناوله بألفاظ مناسبة تدل على الابتكار

---

(1) قرقـــزان محمد، قراءة نقدية جديدة لكتاب العمدة لابن رشيق، (مر، س)، ص163 .

(2) لقد شاع أن كتاب قراضة الذهب عبارة عن رسالة من ابن رشيق كتبها إلى صديقه أبي الحسن علي بن القاسم اللواتي، إذ يظهر أن اللواتي كان معجبا بشعر ابن رشيق يترنّم به في وحدته وخلوته، وذات مرّة سمعه أحد جلسائه ينشد بيتين من شعر ابن رشيق، فادّعى ذلك الجليس أنهما مأخوذان من شعر عبد الكريم النهشلي، فبلغ ابن رشيق ذلك ، فهاج هائجه وماج مائجه، ونهض وكتب هذه الرسالة خصيصا للرد على من اتهمه هو شخصيا بالسرقة، إلا أن الدارسين ومحققي الكتاب ينفون أن يكون قراضة الذهب وضع خصيصا لذلك ، ينظر قي ذلك: قليقلة عبد العزيز، النقد الأدبي في المغرب العربي، (مر، س)، ص: 144 .

(3) عمر محمد عبد الواحد، دراسات في النقد الأدبي عند العرب في المغرب والأندلس، (مر ، س)، ص: 104 .

والجدية، لا يدخل ضمن إطار السرقة، خاصة وأن ابن رشيق نفسه اتّهم بها، فكان كتابه هذا دافعا له للتّصدي لفكرة السرقة التي مثّلت في ذلك العصر السلاح الذي يُشهر في وجه كل مبدع، والتهمة الجاهزة التي تعصف بالنصوص، وتُلقي على كواهل الشعراء مهما بلغ تجويدهم للألفاظ وتناولهم للمعاني.

وعلى ذلك فإن الرسالة التي قدمها ابن رشيق والمسماة (قراضة الذهب)، إنما هي مقالة نقدية التزم فيها ابن رشيق بوحدة الموضوع من حيث أنه، لم يعالج إلاَّ مسألة السرقات الشعرية، وساعده في ذلك أنه كان يُدافع عن موقفه الخاص، وهو ما اتّهم به من أمر السرقة، فجاءت الرسالة معالجة للموضوع من كافة جوانبه، إذ بين فيها حقيقة السرقة، ومتى تكون؟ وكيف، وجملة شروطها، ونراه يَعقدُ لها تعريفاً خاصًا في رسالته القراضة فيقول: وقد ألّف النقاد والعلماء كتباً عدّة في موضوع السرقات، اتفق أهل التحصيل منهم على أن السرقة إنما تقع في البديع النادر، والخارج عن معترف العادة، أمَّا ما كان الناس فيه شرعا واحدا من مستعمل اللفظ الجاري على عادتهم وألسنتهم، وكذلك ما كان من المعاني الظاهرة المعتادة فإنها مُعرَّضة للأفهام متسلّطة على فكر الأنام، ومن هاهنا قلَّ اخترع المعاني، وقلّت السرقات فيها [1].

حيث نرى ابن رشيق يذهب إلى القول أن الألفاظ المستعملة بين الناس، والمعاني التي يشترك فيها عقول البشر لا سرقة فيها، وإنما يطلق وصف السرقة بحسبه على البديع المخترع، الخارج عن مُعترف العادة.

ونظرا للدراسة المسهبة المستفيضة لموضوع السرقات، فإن ابن رشيق نلقاه متأثرا كثيرا بامرئ القيس، وهو على العكس من زميله ومواطنه ابن شرف نجده مُعجبا غاية الإعجاب بابتداعاته واختراعاته، ويجعل من شعره المنطلق لكثير من المعاني اللطيفة المبتكرة والتي امتدت ظلالها لدى شعراء العصور اللاحقة، وبذلك فهو يجعله من شعراء الطليعة المقدّمين، فيقول في ذلك:" إنه المقدّم لا محالة، وإن وقع في ذلك بعض الخلاف، فالمميّز الحاذق بطرق البلاغة يجد في كلامه من الفضيلة في نفسه مالا يجد لغيره من كلام الشعراء، والبحث والتفتيش يزيدانه جلالة، ويوجبان له على ما سواه مزيّـة"[2]، ويمثل لذلك بأبيات كثيرة من شعره انْمازَ فيها على ما سواهُ من الشعراء نختار منها قوله:

---

(1) نقلا عن: يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، (مر ،س)، ص: 246 .

(2) ابن رشيق ، قراضة الذهب، (م، س)، ص (20 ـ 21) .

وقد أغتدي والطير في وُكُناتها بمنجرد قيد الأوابـد هيكل

يرى ابن رشيق أن امرؤ القيس" يأتي بالاستعارة بشكل عجيب من خلال وصفه لفرسه الضَّخم السريع، وما هو إلا أن ينطلق وراء الوحوش الأوابد حتى يقيّدها فلا تستطيع الإفلات منه، فكان بذلك امرؤ القيس أوَّل من سبق إلى الاستعارة البديعة فاتَّبـعه الناس"(1).

ومنه، فإن كتاب القراضة كما يقول الكثير من الدارسين، قد خصّصه ابن رشيق لدراسة ظاهرة السرقات الأدبية بشكل أكثر شمولا وعُمقا، متوخّيا في ذلك الطريقة التحليلية في نقد أشعار العرب، إذ نراه يقف من المعاني التي ركّبـها جماعة من الشعراء ليحلّلها ويكشف ما فيها من جمال أو قبح، ويقارن بينهم من حيث الطريقة التي تناولوا بها ذلك، ومقدار ما أضافه كلٌّ منهم بالنسبة للآخر، وهو في أكثر ذلك يصدر عن عقل نيّر، وذوق أصيل، وتفكير عميق (2).

6-7- كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيرواني للحسن ابن رشيق:

هو كتابٌ ترجم فيه صاحبُه للعديد من شعراء المغرب العربي، بل إنه أودع فيه خُلاصة ما تم إنتاجه من إبداع شعري ببلدِه القيروان، ذكر فيه أشعارهم مُعلّقا عليها، ناقدا لها، "وقد كان يطبّق فيه خلاصة تجاربه في النقد، فتناول شعراء عصره بدراية ودُربةٍ وذوقٍ ومرانة كافيةٍ " (3) .

وإنَّ أهمَّ ما يمكن أن يقال عن أنموذج الزمان أنه يعتبر بمثابة ديوان عام لشعر المغاربة الذين عاشوا في إفريقية وبلاد المغرب في الفترة التي نكتب عنها والتي هي القرنين الربع والخامس الهجريين، حيث ترجم فيه لمائة شاعر وشاعرة، لا نكاد نعثر لأكثريّتهم على شعر في غيره من المصادر، لأن أغلب الشعراء الذين ترجم لهم لم يعرفوا إلا من خلاله إذا ما استثنينا الأعلام المعروفين من أمثال: النهشلي والحصري، وابن شرف .

فهذا الكتاب وفضلا عن كونه سِجلاًّ لشعراء القيروان ممن عاصرهم ابن رشيق أو جالسهم، أو وقع على شيء من أشعارهم وأخبارهم،" وكان هدفُه من وراء ذلك هو التأريخ للحركة الشعرية بالقيروان المغربية، بتسجيل وتخليدِ من عرفهم أو سمع عنهم من الشعراء"(4) .

---

(1) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان ص: **247** .

(2) ينظر: قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي، (مر، س)، ص: **239** .

(**3**) ياغي عبد الرحمان، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، دار الثقافة ،بيروت ط**1** ،**1961**م، ص: **452** .

(**4**) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص: **329** .

لقد أقبل ابن رشيق على تتبُّع إنتاج شعراء عصره بالقيروان الإفريقية من خلال كتابه الأنموذج، "ونلمس لديه إحاطة واسعة ودراية بالألفاظ والمعاني لذلك فقد خاض في أشعار شعراء بلاده بالدرس والتحليل والتقديم والتأخير بوصفه شاعرا من جهة وناقدا من جهة أخري، وقد كانت له آراء جريئة في دراسة إبداع أولئك الشعراء " [1] .

وفعلا فإن كتابه (القراضة)؛ يعدّ من الأعمال النقدية الجليلة التي زادت ابن رشيق منزلة بين النقاد، من خلال جملة النصوص الشعرية التي تناولها بالدراسة والتطبيق، حيث نلمس فيه تعرضه إلى عينات هائلة من الشعراء، فمنهم الجاهلي، والإسلامـي، والأموي، والعباسي والأندلسي، والمغـربي .

والجدير بالذكر أن الكتاب ليس ترجمة حرفية لحياة الشعراء، إذ أنه وفضلا عمَّا يُورده من تعاريف بالشعراء الذين ترجم لهم، فإنه كان يورد أيضا نماذج وأمثلة تطبيقية على أشعارهم، مسقطا عليها آراءه النقدية، مُتعرِّضا لما يمكن أن يراه من خلال تلك الشواهد من قضايا نقدية أثناء الترجمة لهؤلاء الشعراء، ولذلك نجده في كتابه هذا يرفض بخس الشعراء المحدثين حقّهم في التميّز والإبداع لمجرد تأخُّرهم الزمني، ومن المهم التنبيه إلى أن هذا الكتـاب يحمل بين طيَّـاته مادة شعرية معتبرة تفـوق الألف بيتٍ .

وهذا أحمد يزن يقدم لنا حَوْصلةً لما ورد في هذا الكتاب فيقول:" يتضمَّنُ الكتاب نماذج مختارة لشعراء القيروان المعاصرين له، في الأوصاف والأمداح، والملح والمعاتبات والتشبيهات وغيرها من الفنون، وقد تعرض فيه ابن رشيق إلى أحوال حياتهم كما درس شعرهم، وكشف عن مذاهبهم واتجاهاتهم الفنية بطريقة موجزة غالبا، وقد كانت عنايته في هذا الكتاب متّجهة إلى الإبداع والإنتاج الشعري أكثر من دراسة حياتهم"[2].

وإنَّ من جملة الأسباب التي جعلت ابن رشيق يعزم على تأليف كتابه الأنموذج، وقوفه الشَّخصي على النقص الموجود في هذا الباب، حيث تنعدم كُتب التراجم التي تخصّصت في دراسة وتتبّع مسار الشعراء ببلاد المغرب، فدعاه ذلك الفراغ الموجود، إلى خوض غمار الكتابة في طبقات الشعراء بإفريقية، وعكف على جمع إنتاج شعراء بلاده المغرب، تأسيّا بما صنعه أهل المشرق في جمعهم

(1) ترشاق سعاد، النقد المغربي بين النظرية والتطبيق ، ص: 276 .

(2) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص: (329 ـ 330) .

لإبداع المشارقة، فكان أن خرج علينا بكتابه هذا الذي يُترجم فيه لأكثر من مائة شاعر، ونظرا لشمولية هذا الكتاب واستيعابه لعدد وافر من الشعراء، فقد وصفه الأديب التونسي حسن حسني عبد الوهاب بأنَّـه: " أجمل وأشمل ما كتبه الكاتبون في تراجم أدباء إفريقية"[1].

كما شهد هذا التأليف إشادة كبيرة من طرف شعراء عصر ابن رشيق، نلمس ذلك من خـلال هذا التقريض الذي بعث به عبد الرزاق النحوي أحد شعـراء القيروان إلى ابن رشيق، نقتبس منها الأبيات التالية [2]:

يامُبْرزًا إبريــزَ خيــر سبَيـكةٍ ومُكلّلاً إكليـلَ خيـر مُتــوّج
ومُطرّزا حُلل البـلاغة مُعجـزا كلَّ الورى ببـلاغة الأنمـُـوذج
فكأنــه للسمع لفــظ أحبّــة وكـأنه للعيــن روض بنفســج
وكأنه للقلب سِحـر علاقـة في مُهجة تخشى الصّدود وترتجي
خصّصت أهل الغرب منه بمشرق بأقر من شمس النهــار وأبهج
رتبت بين ذوي الفصاحة منهم وفصلت بين مرتّب ومثبّــج
وكشفت عن شعري لتُلحقه به فاستر على خِل لِسترك مُحْـوَج

وقد أضاف ابن شيق من خلال كُتبه السالفة الذكر إضافة نوعية إلى رصيد المكتبة العربية، وأكمل ما بذل سابقوه من جهود، فكان عمله بحق خلاصة تجاربه الذاتيـة وآرائه وثقافتـه، وإن ما أودعه في كتبه من وقفات نقدية، يمثل بحقٍّ البحث العميق والدراسة المستفيضة المسهبة المكلّلة بروح الموضوعية والمعالجة الحيادية.

كانت هذه وقفة موجزة على أهم الكتب والتآليف التي عرفها المغرب العربي في الفترة التي نكتب عنها، وقد رأينا كيف أسهم الأدباء والنقاد المغاربة في طرح أفكارهم، وعرض تجاربهم النقدية بكل شجاعة وأريحية، والأكثر من ذلك أن نتلمس لديهم المبادرة في التحليل والعرض والمناقشة وإبداء الرأي، الأمر الذي يَنِـمُّ عن تبلور رؤية نقدية ومنهج علمي رصين، كفل لهم التعرّض لكل القضايا والمسائل التي ناقشها النقاد المشارقة قبلهم، رغم التأخر الزماني في التفتح على الثقافة المشرقة

(1) حسن حسني عبد الوهاب ، بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، (مر، س)، ص: 132 .
(2) ابن رشيق، أنموذج الزمان، (م، س)، ص: 156 .

ومدارستها، إلا أن ذلك كله لم يمنعهم من الإطلاع على الكم الهائل من التراث الأدبي والنقدي، والإبداع فيه مع حلول القرن الخامس الهجري.

7- قراءة في الموروث النقدي والإنتاج الأدبي لنقاد المغرب العربي:

لا شك أن القارئ للمصنفات الأدبية التي كتبها الأعلام المغاربة سيجد أن هنالك كتبا تضمنت مباحث كثيرة ذات صلة وثيقة بالنقد، يأتي في طليعة تلك المصنفات الأدبية،كتاب زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني المتوفى (سنة**413**هـ)،" والذي نجده قد استدرك فيه أشياء على من سبقه، وأراد أن يكون كتابه صورة لعصره، وذكر الأسباب التي دعته إلى كتابه مُصنّفه ذلك، وكان من غاياته أن يوفّر للدارسين كتابا يُستغنى به عن جميع كتب الأدب المشرقيـة [1].

وقد جاء مؤلفه (زهر الآداب) على شكل موسوعة أدبية، أخذ فيها من كل فن بطرف، وكان الحُصري يريد به أن ينقل للمغاربة شيئا من الثقافة المشرقية، وما يلاحظ على ذلك الكتاب أنه يغلب عليه السّجع المستملح، أتى به على شاكلة بديع الزمان الهمداني، والثعالبي، وعن ذلك يقول زكي مبارك:" كان غرضه بتأليفه زهر الآداب أن ينقل للمغاربة أدب المشـارقة، ويختصر عليهم مشقَّة التّعب، ومكـابدة الارتحـال والسَّفر، وألم البحث في الأسْفَـار"[2] .

إنَّ الحصري كان يرى أنَّ المغاربة في حاجة إلى التزوّد بأدب المشارقة، لذلك اتجه إلى تذليل ذلك، وجعل من نفسه واسطة بين المشارقة وبين ما رأى أن يقدّمه لأهل بلده من المغاربة، ومع هذا المقصد الشريف الذي كان يتوخاه الحصري، إلا أنه نال من العتب واللّوم ما نال، بسبب تجاهُله لتراث بلده، وعدم اعتباره ونقله لما كتبه الأعلام المغاربة في هذا المجال.

وبالفعل فإن ما يظهر على كتابات الحصري، أنَّها تكاد تخلُو من الإشارة والتنويه بجهود أبناء بلده من المغاربة، ماعدا بعض المقتطفات القليلة التي أوردها لكل من النهشلي، وابن هانئ، وعلي الإيادي، فيما اشتمل إنتاجه أكثر على ما خلفه المشارقة، لأن نفسه كانت تُمنّيـه بدراسة أدبِ المشارقة، والتعريف بهم لدى إخوانهم المغاربة، لذلك جاء كتابه (زهر الآداب) حافلا كثيرا بأدب

---

(1) الحصري، مقدّمة زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق زكي مبارك، مع بعض التصرف (م، س)، ص: 35 .

(2) المصدر نفسه ، كلمة المحقق، زكي مبارك، ص: 11 .

المشارقة وإنتاجهم، يقول ابن رشيق عن زهر الآداب للحصري:" إنه تأليف في مُلح الشعر والخبر، صنعه بالقيروان، جمع فيه أخبار أهل المشرق ووقائعهم "[1].

وبذلك أمكننا القول بأن كتاب الحصري (زهر الآداب)، هو من الكتُب الأدبية العامة التي ظهرت ببلاد المغرب في القرن الرابع الهجري، جمع فيه صاحبه كثيرا من الأخبار والقصص والأحاديث على شاكلة ما كتبه الجاحظ، وكانت نفسه تتُوق لأن يكون ما جمعه مُشاكلا ومضارعا للمنجز الأدبي والفكري الذي قدّمه الجاحظ للعربية، وكأنه كان في قرارة نفسه يقول:! إذا كان الجاحظ بالمشرق فهاأنـذا بالمغرب، ولا ننسى التنويه ببعض الجهود النقدية والطرائف الأدبية التي أوردها الحصري في كتابه ذلك لأنه أثبت فيها بعضا من الإشارات والمواقف النقدية والتي تمثل في عمومها عُصارة ثقافة الرجل النقدية، وليس من لوْم أو عتْبٍ عليه، كَونُه يمثل البدايات الأولى لجذور النقد، وكفاه بذلك شرفا ونُبـلاً .

عن طريق هؤلاء الرِّجال الأفذاذ، وصل الأدب وارتقى الإبداع بنوعيه الشعري والنثري في القرنين الرابع والخامس الهجريين وبلغ قمّة ازدهاره، كما أشار إلى ذلك الكثير من أرَّخوا للأدب ودرسوا الشعر، وكانت تلك الفترة بحقّ عصرا لعمالقة الأدب المغربي في شتى أشكاله، وفي جميع صوره

لقد مثل ذلك العهد رجال أفذاذ طوّروا البحث الأدبي، وارتقوا به إلى أعلى المراتب، فكان منهم ابن أبي الرجال، وابن الربيب، والنهشلي، والحصري، وابن رشيق، "وبذلك فقد ظهر أدباء فُحول أنتجوا لنا خطابا أدبيا متكاملا، خطابا مُنتجا للمعرفة الأدبية تنظيرا وتفسيرا، وحوارًا ومنهجاً، وحقّق الأدب المغربي بفضل أولئك الرجال امتداد تلك المرحلة تراكما معرفيا لم يسبق له مثيل، سواء قبل الإسلام أو بعــده[2].

وعليه يمكن القول بأن الحياة الثقافية والأدبية في بلاط الدويلات التي أثبتت وجودها إذ ذاك[3]، وقد سمتْ وارتقتْ، بل ووصلت إلى قمة ازدهارها الفكري والحضاري كما يقول حسن حسني عبد

---

(1) ابن رشيق، العمدة،(م، س)، ج/2 ، ص: 33 .

(2) ينظر: مغشيش عبد الملك ، النثر الفني في القرنين الرابع والخامس الهجريين، (مر ، س)، ص: 78 .

(3) نعني بذلك الدّويلات التي أسّست عواصم لها بإقليم المغرب العربي، والتي من بينها: الدولة العبيدية ، والدولة الصنهاجية ثم الدولة الحمادية، وقد كان لحكام تلك الدول النّصيب الأكبر في ذلك الرقي والازدهار، عن طريق الرعاية والاهتمام الذي أسبغوه على العلم والعلماء.

الوهاب:" في هذا العصر خَطر الأدب من نظم ونثر، في حلّة من التفنّن والرّقــة، وظهر فيه الاختراع الجيد، وتوليد المعاني الرقيقة، نظير ما حصل للآداب بالعراق في مُبتدأ الدولة العباسية"(1).

كما يُشيد صاحب (معجم البلدان) بالمستوى العلمي الرفيع الذي حصّلته القيروان بالمغرب في ذلك العهد فيقول:" وكانت القيروان في عهد المعز بن باديس –القرن الخامس الهجري– وجهة العلماء والأدباء تشدُّ إليها الرحـال من كل فج، لما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب وعنايتـه بهـم"(2).

ويذكر الكثير من الأدباء في تقييمهم للإنتاج الأدبي بالمغرب العربي، خاصة في القرن الخامس الهجري عندما يؤكّدون بأن الإبداع الشعري، والكتابة الأدبية النثرية قد عرفت ازدهارا كبيرا، واتسعت مجالاتها خاصة في زمن المعز بن باديس الصنهاجي،" هذا الأمير الذي كان محبا للعلماء والشعراء على اختلاف طبقاتهم، حيث شجع الشعراء على نظم الشعر، وبالغ في إكرامهم، لدرجة أنَّه وصل عددهم ببلاطه أكثر من مائة شاعر، وبذلك فقد مكّن المعز بن باديس للشعراء في عصره وانتصر للشعر الذي تنوّعت أغراضه وفنونه" (3).

وإن ممَّا تميّز به نقاد المغرب العربي حتى صار لهم ذلك سجيّة، هو ثقافتهم الواسعة والمعرفة الشاملة، وقد انطبع ذلك على أكثريتهم كما تُجمع على ذلك كتب التراجم والسيَّر، " فهذا ابن رشيق وإضافة إلى كونه شاعرا وناقدا وكاتبا، فقد كان عالما بالتاريخ والأخبار واللغة، كما جمع أستاذه أبو عبد الله جعفر التميمي النحوي المعروف بالقزاز (ت412هـ) بين الإحاطة بعلم النحو واللغة، ونظم الشعر، والبراعة في الكتابة والتأليف، أما عبد الكريم النهشلي فيشهد له جميع من جاء بعده بالموسوعية في علم التاريخ والأنساب، ووقائع العرب فضلا عن كونه شاعرا وناقدا "(4).

فيما شهد ابن بسام لأبي إسحاق الحصري قائلا: " كان أبو إسحاق هذا صدر الندى، ونُكتة الخبر الجليِّ، وديوان اللسان العربي، راض صِعابه وسلك أوديته وجمع أشتاته، وأحيا مَواتَهُ ،حتى صار لأهله إمـاما" (5).

(1) حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، (مر، س)، ص: 105 .
(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (م، س)، ج/7 ، ص: 28.
(3) بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي ص: 09.
(4) ترشاق سعاد، النقد المغربي بين النظرية والتطبيق ، (مر، س)، ص: 47.
(5) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، (مج/4 ، ق/2)، ص: 584 .

وبذلك فقد ظل الشعر وما يرتبط به من قضايا نقدية وفنون أدبية عامة، ميدان دراسة ومثار مناقشة وخلاف بين الشعراء من جهة، وبين النقاد وعلماء اللغة والأدباء من جهة أخرى، ما جعل الحركة النقدية في المغرب العربي تتقدّم وتتطور في الفترة التي نتكلم عنها ونبحث فيها .

وبفضل جملةٍ من الاجتهادات والملاحظات النقدية التي قدّمها بعض المبدعين من الأدباء والنقاد، تمكّن النقد ببلاد المغرب من إثبات وجوده وتحقيق قفزة نوعية ملحوظة، وتقديم صورة مشرّفة واضحة المعالم عن النقد المغربي القديم، ويصف عبد العزيز قليقلة طبيعة النقد والأدب وحال رجاله في الفترة التي نتكلم عنها قائلا: "وظهر إذ ذاك نُقَّاد مبرزون إلى جانب أنهم أدباء أفذاذ، ويأتي في طليعتهم كلاًّ من النهشلي، والقزاز، والحصري، ثم ابن رشيق، وابن شرف"[1].

وإذا تكلمنا عن الفترة التي نكتب عنها ـ أي القرنين الرابع والخامس الهجريين ـ وفي ظل وجود حكم مغربي قوي مع الأمراء الزيريين، انتعشت الحياة الأدبية والثقافية بالقيروان، مما أدى إلى نشأة مدرسة نقدية واضحة الأركان بينة المعالم، لم تكتف بتكرار ما قاله النقاد المشارقة، بل ساهمت بدورها وأثرت المكتبة النقدية العربية بمؤلفات نفيسة، خاصة ما كتبه النهشلي، وابن شرف، والحصري، والقزاز القيرواني، دون أن ننسى ما كتبه ابن رشيق الذي أغنى النقد المغربي بثلاث مؤلفات، كان لها دورها الفاعل في رفعة الإنتاج المغربي والإشهار به، خاصة مع ما تميَّز به هذا الرجل من كونه خلاصة لفكر مغربي محلِّي خالص، ما جعله يقف كالطّود الشّامخ في طليعة المؤلّفين المنتمين لمدرسة القيروان النقدية الأدبية.

وإن هذا التطوُّر للمدرسة النقدية المغربية، صاحبه تطوّر وازدهار في القول الشعري، حيث أنَّ نَظْم الشِّعر قد عرف بدوره تطورا وازدهارا كبيرا، خصوصا في العهد الزيري –القرنين الرابع والخامس الهجريين– "وإذا كان المغاربة قد قلَّدوا واتّبعوا المشارقة في الجانب الشكلي، وحافظوا على سِماتِ وخصائص الاتجاه الملتزم بعمود الشعر العربي المشرقي، فإنهم من حيث المضمون كما يقول حسن حسني عبد الوهاب ، لم يكتفوا بالأغراض المعروفة عند السابقين من أهل المشرق، بل أبدعوا مواضيع جديدة تتناسب مع بيئتهم المحلية، وأضافوا غرضاً جديدا هو المسمى برثاء المدن" [2].

(1) قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي ص: 167 .

(2) الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، (مر، س)، ص: 74 .

واعتبر كثيرٌ من الدارسين أن الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والخامس الهجريين هي مرحلة مهمّة في تاريخ الأدب والنقد المغربي القديم، حيث عرفت بعصر الازدهار والنماء الثقافي والفكري والحضاري والشعري بالمنطقة، وبذلك فإن تاريخ الفكر والنقد والأدب ببلاد المغرب بدأ فتـيًّا، لكنه تطوّر ونما حتى صار له من الحظوة والقوة ما لنظيره بالمشرق، بعد الخبرة التي اكتسبها النقاد، وامتلاكهم القدرة على تطبيق نظريات النقد وخوض معاركه ومناقشاته، وإن المتتبّع للإنتاج الأدبي والنقدي بالمغرب العربي سيجده بأنه عرف ازدهارا كبيرا في الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجريين، حيث خلّف نقاد هذا الإقليم تراثا نقديا لا يستهانُ به، تنوّعت مشاربه وتعدّدت اتجاهـاته.

ذلك لأنه وابتداءً من العهد الصّنهاجي بدأ القيروانيون يكتبون في فنّ نقد الشعر، حيث ألف إبراهيم النهشلي كتابه الممتع، فيما ألف ابن رشيق العمدة، واشتهر ابن شرف برسائله مسائل الانتقاد، وكل هاته الكتب هي في أساليب النقد ومناحيه، وإنه وفي القرن السابع الهجري ظهر مجدِّد أدبي وناقد ألمعي مغربي أحدث ثورة في عالم النقد والأدب، إنه الناقد المجدّد حازم القرطاجني(ت**684**هـ)، إذ يعتبر من النقاد المجدّين والمجدِّدين في عملهم،خاصة وأنّ النقد بعده فقد بريقه، ولم يظهر من الشخصيات الأدبية والنقدية من استطاع أن يضيف الجديد

من خلال هذه القراءة السّريعة للمنجز النقدي المغربي القديم نخلص إلى أنَّ النقاد المغاربة قدّموا لنا لمحات نقدية جديدة، وأضافوا إشارات كثيرة فاقت جهود السّابقين، كما يكتب عن ذلك الباحث المغربي أحمد يزن، والذي نجده يتتبّع جهود الأدباء المغاربة القدامى مُعليًّا من شان وقيمة تلك الجهود ، وإن ممَّا يعرضه الأستاذ المذكور في هذا الصدد قوله:" فهذا القزاز القيرواني في كتابه (ما يجوز للشاعر في الضرورة)، والذي يعتبر أوَّل كتابٍ وصلنا في بابه، حيث نجد صاحبه يقف إلى جانب الشعراء، ويُعضِّدهم في خروجهم عن القيود اللغوية والنحوية، وفاءً بحقِّ الصنعة الشعرية، وهو بذلك يتقدّم خطوات إلى الأمام على مَنْ سبقه مِنَ العلماء، ويخالف أكثر النقاد الذين يتشدّدون مع الشعراء في هذه الناحية "[1] .

كما وقفت مع الحصري في كتابه زهر الآداب والذي يُظهر من خلاله ذوقاً رفيعاً في الأدب واطلاعا واسعا على ما أنتجه الأدباء من الشعر الماتـع، والنثر البليغ .

---

(1) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي،(مر، س)، ص: **445** .

كما أمكنني البحث أن أستشفَّ من خلال قراءة ابن رشيق لفن الشعر في كتابه العمدة، اتجاها ينمَازُ عن اتجاه النقاد السابقين، حيث أننا نجد أنفسنا ولأول مرة أمام" ناقدٍ يضع بين أيدينا خلاصة ما قيل من أحكام سابقة في قضايا النقد، فيناقشها ويعمّق النظر فيها، ويضيف الجديد إليها، ثم يبوّبُ وينظم كل ذلك تبويبا حسنا، وبذلك كانت محاولته فريدة من نوعها لإرساء نظرية متكاملة في نقد الشعر على أسُسٍ صَلبةٍ "[1]، وصدق محمد مرتاض فيما ذهب إليه وهو يقدّم رأيه الخاص في التراث النقدي الذي خلّفه ابن رشيق حينما يقول: "ومما لا يجحده جاحدٌ، هو أنّ ابن رشيق يعدّ فلتةً من فلتات الزمان، شاعرا وناقدا استطاع أن يفرض نفسه ليس في ديارنا فحسب، ولكن في سائر البلاد العربية ونظريّاته أوفى نظرية تدرّس في الجامعات العربية، المختلفة، وكتابه مشهورٌ متداولٌ، وهذا حسبُه ما كان يرجُوه ويأمَلُـه " [2] .

8- المنهج النقــدي في كتابات النقاد المغاربة القدامى:

مما لا شك فيه فإن النقاد المغاربة قد وصلتهم من خلال الثقافة المشرقية مذاهب متفاوتة في النقد، وكان من الضروري أن يتأثروا بالحركة النقدية بالمشرق، خاصة وأن الرّوح النقدية الموضوعية كما يقول إحسان عباس بدأت تسري لدى النقاد المشارقة مع بدايات القرن الثالث الهجري، حيث ظهر جماعة من النقاد الذين اهتموا بدراسة الأدب ونقده كالأصمعي(ت213هـ)، ومحمد بن سلام الجمحي(ت237 هـ)، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)، وابن قتيبة الدينوري (ت276هـ)

وما إن حلَّ القرن الرابع الهجري حتى ازدهر النقد الأدبي بالمشرق العربي، "وتطوّر تطورا لا مثيل له، وتعدّدت فيه المذاهب الأدبية وتنوعت الميولات الفنية، وكان كل ذلك بفضل جيلٍ ذهبي من النقاد يأتي على رأسهم ابن طباطبا، وقدامة بن جعفر، وأبا بكر الصّولي، والقاضي الجرجاني، وغيرهم كثير، ولا شك فإن النقاد والدارسين المغاربة قد شغلتهم مثل تلك الأفكار والمذاهب، وتأثروا بها، وراحوا يترسّمون خطاها، ويتتبّعون مناهجها وطرقها"[3]، وإنني في هذا المبحث سأعرّج على النقاد المغاربة المتميزين، محُاولا تحديد مناهجهم إنْ في الكتابة الأدبية أو في التناول النقدي للمسائل التي عالجوها بحسب ما يتوفَّر لدينا من مادة علمية .

---

(1) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 446 .

(2) محمد مرتاض، انقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث، (مر، س)، ص: 42 .

(3) بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، (مر، س)، ص: 30 .

8-1- الحصري ومنهجه النقدي:

بلا ريب أن القارئ لكتاب زهر الآداب وثمر الألباب سيجد أن الحصري انتهج فيه منهج الجاحظ في تلويناته وتفريعاته وحذا حذوه، خاصة كتابه البيان والتبيين، ويتّضح ذلك من خلال ما جمع فيه من مختارات شعرية ونثرية، ونوادر، ومُفاكهاتٍ،" والحصري لا يتقيّد بموضوع محدَّدٍ، إذْ نجده كثير التنقل بين الأبواب الأدبية، ولم يقيّد نفسه بالحديث عن موضوع محدد حتى نهايته، إنما يكتب عنه هنا وهناك بحسب ما يقتضيه المقام" (1).

وإذا كان الجاحظ قد مزج بين الجد والهزل والملحة والطرفة والإيجاز والاستطراد، فكذلك الحُصري نجده يتبنى هذا التوجّه، وكان ولعه شديدا بجمع واختيار ما يناسب من النصوص على حسب ما كان يقتضيه ذوق العصر وما تستلزمه ضرورات البلاغة، وإنَّ سيره على هذه الخطة واضح من قوله " وليس لي في تأليفه من الافتخار أكثر من حسن الاختيار، واختيار المرء قطعة من عقله تدلُّ على تخلفه أو فضله" (2).

ولعل التَّسمية التي أطلقها الحصري على كتابه (زهر الآداب) تبيّن لنا أنه كان ينقل من كل روضٍ زهرةٍ، بحسب ما يقوله ويتصوَّره عبد الله شريط: "إنَّ إبراهيم الحصري تبنى منهجية لا تختلف عمّا كانت تسير عليه المجاميع الأدبية في نهج يجمعُ بين التنويع والتلوين" (3).

فمنهج الحصري إذا هو الجمع بين الجد والهزل، والتلوين والتنويع، وكأنه كان يتمثل بطريقة عملية قول أبي العتاهية: (4)

لَا يُصلِحُ النَفسَ إذا كانَت مُصَرَّفَةً إلّا التَنَقُّلُ مِن حالٍ إلى حالِ

وقد تحدث الحصري بنفسه عن منهجه التأليفي الذي سلكه فقال: " هو كتاب ينصرف الناظر فيه من نثره إلى شعره، ومن مطبوعه إلى مصنوعه، ومحاورته إلى مفاخرته، ومناقلته إلى مساجلته، وخطابه المبهت إلى جوابه المسكت، وتشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته الغريبة وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجدّه المعجب إلى هزله المطرب، وجزله الرائع إلى رقيقه البارع" (5).

---

(1) مغشيش عبد المالك ، النثر المغربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ص: 265 .

(2) ابن رشيق، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، (م، س)، ص: 37 .

(3) شريط عبد الله، تاريخ الثقافة والأدب بالمشرق والمغرب، ص:141 .

(4) نقلا عن: ابن بسام، الذخيرة، (مج/ 4، ق1)، ص: 587 .

(5) أبو إسحاق الحصري، زهر الآداب ج/1 ، ص: (33، 34).

ومن يتتبّع الحصري وما كتبه سيجدُه مُولعا بكتابات المشارقة، متيّمٌ بطريقتهم، لذلك يظهر منه أنه كان يترسّم خُطى الجاحظ في البيان والتبيين، وما كتبه أبو علي القالي في أماليه، وعلى ذلك جاء كتاب مليء بالكثير من الآراء العلمية والأدبية والنقدية، تخيرها من مجموع قراءاته وأبحاثه وإن عمله ليعطينا تصورا واضحا عن مقدرته الأدبية وذوقه الرفيع في التعبير وحسن الاختيار" .

كما أنَّ من الملاحظات البارزة في منهج الحصري النقدي هو تركيزه على البديع بشكل كبير متأسّيا في ذلك ببديـع الزمان الهمداني" [1]، وجاعلا من أبي تمام أنموذجه الأول، وهي في الواقع رُؤية حقيقية يقف عليها كل من قرأ للحصري، حيث سيجد التلوين والتنويع في طرح الأفكار وعرض الفنون الأدبية المختلفة بشيء من التشويق والمفاكهة التي رأى أنها قد تنفع القارئ في الاستزادة والتركيز في القراءة والمتابعة لما يكتب، خاصة وأن النفس كثيرا ما تطرب إلى الهزليات والمفاكهات، في حين أنها تشعر بالملل والسآمة والانقباض عندما تصطدم بما هو ثقيل ومركّز في كل شيء.

8-2- ابن رشيق ومنهجه النقدي:

إنَّ المنهج النقدي الذي سلكه ابن شيق نلمسه واضحا جليا في ثنايا الخطبة التي صدّر بها كتابه العمدة حيث نراه يقول: "وقد عوّلت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري، خَوف التكرار ورجاء الاختصار، إلاّ ما تعلّق بالخبر وضبطته الرواية، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه، ليؤتى بالأمر على وجهه، وكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه، ولا أَحَلْت فيه على كتاب بعينه، فهو من ذلك، إلاّ أن يكون متداولا بين العلماء، لا يختص به واحد منهم دون الآخر"[2]، وهكذا نلحظ المنهج العام الذي رسمه ابن رشيق لنفسه بحيث أنه كان يعمد إلى القضايا فيشرحها بأسلوبه وطريقته الخاصة، إلا ما كان على سبيل الخبر والرواية فإنه ينقله بحرفيته، ويحتفظ به على شاكلته، كما تظهر طريقته وتميّزه على من سبقه في التبويب والتنظيم والتنسيق في نقل الآراء المختلفة، متخيِّرا منها الرأي الوجيه ليقدّمه للقارئ بمنتهى النزاهة والصدق والأمانة العلمية.

---

(1) هو أبو الفضل أحمد بن الحسن المعروف ببديع الزمان الهمداني ، كاتب وأديبٌ ولغويٌ بارع، استوطن همدان وعاش بها ونسب إليها ، ولد (سنة 358هـ، مات وهو في ريعان شبابه بحيث م يتجاوز الاربعين من عمره وذلك سنة 395هـ) ، من أهم كتاباته المقامات المشهورة بمقامة بديع الزمان الهمداني، كان له الفضل في وضع أسس هذا الفن ، حيث تبعه في ذلك أدباء كثيرون من بعده منهم الحريري، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/1، ص: 187 .

(2) ابن رشيق، العمدة، ج/1، ص: 16 .

هذا هو ابن رشيق الناقد المتميز، ونظرا لكثرة الدراسات والأبحاث التي دارت حوله والتي راحت تبين طريقة الرجل ومنهجه في الانتقاد، وأهم القضايا النقدية التي تناولها في كتبه المؤلفة في هذا الخصوص، حيث يذكر الباحث عبد الرؤوف مخلوف أن ابن رشيق له منهجه النقدي الخاص:" إذ نراه يُبوِّب القضايا الأدبية المتعلقة بالشعر تبويبا لم نر أكثره لأحد قبله، وما ورد منه لسابقيه كان عبارات أخذها هو وجعل منها أبوابا تحتها دراسة وتفصيلا ومناقشة واختيارا إلى أن يقول:" والتنظيم والتبويبُ في التأليف ركنٌ هامٌ وعنصر له اعتباره في الكشف عن ذهنية المؤلف وعقليته، وليس كل الناس يجيد رسم الخطة، وتصوّر المنهج، وإنما ذلك وقف على الممتازين منهم" [1].

مما سبق؛ يتبين لنا أنَّ ابن رشيق كان ناقدًا منظّما في ترتيب أفكاره، وعرض أرائه وملاحظاته، فهو لم يكن مجرد جامع وناقل لآراء من سبقه وعاصره من الأدباء والنقاد، وإنما طبعها بأسلوبه الخاص، وأسبغ عليها نظريته الشخصية، وبذلك فإن ان رشيق استطاع أن يسمو بطريقة النقاد ومنهجهم من حالة الفوضى والتداخل في عرض الأفكار، إلى فضاء التنظيم والتحكُّم المنهجي الواضح في عرض الملاحظات وطرح الآراء النقدية.

وكما يقول عبد الرحمان ياغي:" فإن الفضل يرجع لابن رشيق؛ لأنه الناقد المغربي الوحيد الذي صاغ كتابه (العمدة) من متفرق نظريات النقد وقضاياه، فانتقل بها من الفوضوية إلى المنهجية، ومن الأحكام الجزئية إلى التنظيم والتبويب "[2].

مما سبق يظهر لنا أن منهج ابن رشيق النقدي تميّز بالخصائص التالية: الأمانة العلمية، والدِّقة في الأخذ عن الغير، وإسناد الأقوال والآراء إلى أصحابها، والشخصية العلمية المستقلة ذات الجرأة والرأي الواضح الصريح، وإن هذه الاستنتاجات سبق وأن أشار إلى بعضها الناقد الكبير إحسان عباس في كتابه: (تاريخ النقد الأدبي عند العرب)، وفي نفس الإطار نجد الباحث إدريس ساعي يُبلور هذه الأفكار، ويلخّص لنا طريقة ابن رشيق فيقول:" إنَّ منهج ابن رشيق هو منهج ـ دون شك ـ علمي رصينٌ، قلَّ أن نجده في كتب الأولين، وإنَّ الدّعائم والركائز التي قام عليها منهجه ذلك في

(1) مخلوف عبد الرؤوف، ابن رشيق ونقد الشعر، (مر، س)، ص: 199 .

(2) ياغي عبد الرحمان، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، ص: 400 .

كتابه(العمدة)، يمكن لنا أن نستخلصها من الخطة التي استفتح بها كتابه المذكور، وتمثلت في الخطوات التالية [1]:

- التخيّر والانتقاء ، ورصد أحسن ما قيل في فن الشعر ونقده .
- الصدق والأمانة في النقل والرواية، سواء أكان ذلك من عند ناقد، أو عالم، أو من كتاب .
- الابتكار والإبداع فيما أضافه من خاص فكره ورأيه، مُناقشا ومؤيّداً ومعترضاً ومرجِّحا .

8-3- القزاز القيرواني ومنهجه النقدي:

فالقزاز القيرواني لم يبسط الكلام في الخطة التي انتهجها في تسجيل وتقديم ضروراته الشعرية وكلُّ ما هنالك أنه بيّن الغرض من تأليفه لكتابه، والذي وضعه كما يقول بغرض إسعاف الشعراء ببيان ما تسوّغه لهم الضرورة الشعرية، ولذلك نجده يعمد إلى صياغة نوع الضرورة التي يرومها، ليمثل لها بما يراه ويحضره من منظوم الشعراء.

وبذلك فإن القزاز فيما يورده من نصوص وشواهد شعرية يعضّد بها رأيه ويقوي بها وجهة نظره في مسألة الضرورات الشعرية، إنه بذلك يُعطينا فكرة واضحة عن مدى بصره بالشعر وتضلّعه في علوم العربية والنحو بوجه خاص، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على أن علماء وأدباء المغرب العربي كانوا على درجة كبيرة من الوعي والإدراك والإلمام بالعلوم اللغوية والنقدية على الأقل منذ أواخر القرن الرابع الهجري.

8-4- المنهج النقدي لابن شرف القيرواني:

وإذا كان منهج ابن رشيق قد بان لنا منهجه، واتّضح من خلال الخطبة والمقدّمة التي صدّر بها كتابه العمدة، فإننا نلفى ابن شرف أيضا يفصح عن منهجه ، ويُظهر خطّته في ثنايا ما كتبه في رسائله الانتقادية حين يذهب إلى القول موجّها الدارسين ومرشدا لهم إلى الاتجاه الصحيح بحسب اعتقاده فيقول:" أوَّل ما عليه تعتمد، وإيَّاه تعتقد، ألاَّ تستعجل باستحسانٍ ولا باستقباحٍ، ولا باسترادٍ ولا باستملاح، حتى تُنعم النَّظر وتستخدم الفكر... ـ إلى أن يقول: وتحفّظ من شيئين: أحدهما : أن يحملك إجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له، والثاني: أن يحملك إصغارك

---

(1) ساعي إدريس، علم البلاغة في الموروث النقـدي المغربـي (العمدة أنموذجا)، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة الجزائر، العدد: 09 ، ديسمبر 2015م ، ص: 215 .

المعاصر المشهور من التهاون بما أنشدت له، فذلك جَوْر في الأحكام، وظلمٌ من الحكَّام حتى تمحّص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما " [1] .

انطلاقا من هذا البسط القوي الذي وضّح من خلاله ابن شرف منهجه النقدي بكل إحكام تظهر لنا أهم الوقفات والملامح النقدية للرجل وهو ينظر إلى الإنتاج الشعري كيفما كان هذا الإنتاج قديما أو مُحدثاً، لشاعر كبير أو صغير، وفي ضوء ذلك نستعرض أراء الدارسين في خطة ابن شرف ونهجه النقدي والذي تجلت خصائصه في المعطيات التالية:

لقد تعرَّض ابن شرف في مسائله النقدية إلى انتقاد مشاهير الشعراء الجاهليين والإسلاميين، وشعراء الغزل، والمحدثين من الطبقة العليا كالمتنبي، وأبو تمام، والبحتري، والصنوبري، وبالتالي فقد كان منهجه النقدي كما ينقل ذلك أحمد يـزن " مُنطلقا من التركيز على أهم خصائص هؤلاء الشعراء ومنازلهم ومذاهبهم، ملمّا بسقطات بعض الشعراء منهم ، مقدما للقارئ كل ذلك بعبارات فصيحات بديعات النظام لها مقاصد ظِرافٍ وأسانيد طِرافٍ، كما يقول هو عن نفسه، مُحتذيا في ذلك أهل البديع في مقاماتهم من حيث السجع والتنميقَ والكلام على لسان من اتخذه ناطقا بلسانه في مقاماته النقديَّة"[2].

وهذا محمد مرتاض يكتب عن ابن شرف القيرواني بعد أن يُعجب بمنهجه النقدي فيقول عنه: لقد كان ابن شرف ناقدا متحكّما في منهجه بلا ريب ، وإن تظاهر أول الأمر بأنه يقرأ القراءة العابرة، ويقتصر على الآراء البسيطة في استنباط الصّور، وضرب الأمثلة بجمل شعرية، فإنه حين يفرغ من ذلك كله يصل إلى وضع قوانين للنقاد يلخصها في الآتي [3]:

ـ يجب على الناقد ألاّ تستثيره الأبيات الطّنانة فيُسارع إلى الاستحسان، أو تصرفه الأبيات المنفِّرة فيحكم عليها بالرداءة والسذاجة .

ـ الدعوة إلى إعمال الفكر، والتعمُق في الفهم، قبل إبداء الرأي، والميـلان إلى موقفٍ بعينه .

ـ ضرورة التروي وإمعان النظر والتفكير قبل التقديم والتأخير، والإفصاح عن الرأي بالمدح أو القدح .

---

(1) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، (م، س)، ص: 28 .

(2) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص: 370 .

(3) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي ـ بين القديم والحديث ـ، (مر، س)، ص: (138 ـ 140) .

ـ يُنبّه ابن شرف ويحذّر من خُطورة الانحياز المكشوف لشاعر ما بالنظر لأقدميتّه، أو النفور منه لحداثته، ويُوصي النقاد والدارسين كعادته بعدم التعصّب، وترجيح ما يمكن ترجيحه بالنظر إلى ما تَوفَّر فيه من عُمق في المعنى، ونضج في الأسلوب، وتجديد في الفكرة .

وعُموماً؛ فإن الخلاصة التي يمكن الخروج بها من خلال ما تم تناوله في هذا الفصل، هو أنَّ الدرس النقدي بالمغرب العربي لم تظهر ملامحه ولم تتبلور جذوره إلاَّ مع نهاية القرن الثالث وبدايات القرن الرابع الهجري، وكلُّ ما كان قبل ذلك هو مجرَّد أحكام شمولية بسيطة، تعبِّر عن آراء بعض الشخصيات الأدبية من التي كان زادها في هذا الفن ضئيل، والبضاعة مُزجاة، وقد كان لهذا التأخُّر أسبابه ودوافعه وقفنا على الكثير منها في ثنايا وتضاعيف هذا العمل البحثي.

وإنَّ البدايات الفعلية للممارسة النقدية ببلاد المغرب إنما أخذت تظهر على هذا الأفق مع نهاية القرن الرابع الهجري، حيث برزت للعيان شخصيات أدبية كان لها دورها الفاعل في التأسيس لحركة نقدية، خاصة مع الظهور اللافت لعبد الكريم النهشلي وكتابه الماتع (الممتع في علم الشعر وعمله)، وما تلاهُ بعد ذلك من الآثار الأدبية ومُناقشتها من طرف الأديب أبي إسحاق الحصري والذي راح يجمع أشتاتا متفرِّقة من اللمحات والإشارات النقدية في كتابه الظريف، (زهر الآداب وثمر الألباب).

أما المنطلق الحقيقي للدراسة النقدية الفاعلة فإنها تبتدئ مع القرن الخامس الهجري ومن الدولة الصنهاجية، والتي تمثل بحق المرحلة الخصبة في تاريخ الأدب والنقد ببلاد المغرب العربي، حيث بالإمكان الحديث عن بداية التنظيم والترتيب والكتابة الفعلية في النقد الأدبي بهذا الإقليم مع طهور كلا من ابن رشيق، وابن شرف القروانيين واللذان قاما بإرساء معالم نقدية واضحة لا يجادل فيها إلاَّ مُكابر مُرتاب.

كما كانت لي وقفةٌ مطوّلةٌ مع أهم التآليف والكتابات الأدبية والنقدية النظرية والتطبيقية التي شرّفت إقليم المغرب، وأبانت عن مستوى النُّضج الثقافي والعلمي الذي عرفه إقليم المغرب العربي، ومما يسجل في هذا الصَّدد أنه وفي فترة وجيزة ظهرت تصانيف نقدية استطاع أصحابها الإلمام بكل القضايا النقدية التي كانت مطروحة على الساحة النقدية العربية، مع الإشارة إلى أنه وفي خضم الدراسة لأهم تلك الكتب، كانت لي وقفات مع ما تمَّ تثبيته عمليا من تمثّلات وتطبيقات نقدية تشهد بالقوة والفعل، على أنَّ النقاد المغاربة لم يكونوا مجرَّد منظرين للعملية النقدية، بل كانت لهم

وقفاتهم العملية من خلال المنجز النقدي التطبيقي الذي تم الوقوف عليه بالدرس والتحليل وإبداء الرأي .

وفي الأخير لا يسعني إلاَّ أن أقول: لقد خُضت في هذا الفصل وأَبنتُ بشيء من التفصيل عن الجهود النقدية التي بذلها النقاد المغاربة في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ومما سبق بيانه فقد أثمرت تلك الجهود عن ميلاد سلسلة من التآليف والتصانيف النقدية، ناقش في ثناياها أصحابها الكثير من القضايا النقدية التي عرفها النقد العربي في بلاد المشرق، والملاحظ أن النقاد المغاربة كثيرا ما كان لهم حضورهم القوي، وشخصيتهم الفاعلة في الإدلاء بآرائهم بكل حرية وجراءة، وإن كانت تلك الآراء لا تخرج عن الإطار العام الذي رسمه النقاد المشارقة للثنائيات النقدية التي تعرّضوا لها في عملهم النقدي، واستطاعوا بجهدهم ذلك تقديم نظرية نقدية مغربية للقارئ العربي تمُثّـل خلاصة عامة وحوصلة شاملة لكل ما تدارسه النقاد السابقون، مع تطعيم تلك الآراء بنظرتهم الشخصية وآرائهم المتفرّدة الأصيـلة .

كانت هذه أهم الإشارات والمقتطفات التي ألمحت إليها في هذا الفصل، والذي أطلعنا من خلاله القارئ الكريم على واقع التراث النقدي الذي حملته أبرز المصنَّفات النقدية بمغربنا العربي القديـم .

* * *

الفصل الثالث

القضايا النقدية في ميزان النقد المغربي القديم

1 – نظرية الشعر وبنيته في تفكير النقاد المغاربة القدامى.
2– عوامل وبواعث الإبداع الفني والشعري عند الأدباء والنقاد القدامى.
3– أهم القضايا النقدية التي ناقشها النقاد المغاربة القدامى.
4– النقاد المغاربة والنقد التطبيقي.

أكثرُ القضايا النقدية التي سنناقشها هاهنا، إنَّما هي من قَبيلِ المسائل التي تداول على مُدارستها والبحث فيها، عديدُ النقاد الذين خاضوا غمار البحث الأدبي والنقدي مشرقاً ومغرباً، وإنْ كانت الأسبقية ترجعُ لنقادنا بالإقليم المشرقي في التناول والطرح، فهم الذين مهّدوا السَّبيل لهذه المسائل ولازموها ردحاً من الزمن، قبل أن تتفتَّق أذهان المغاربة، بعد أن ركِبُوا كُلَّ صعبٍ وذلول، في سبيل أن يكون لهم رأي يزاحمون به رأي إخوانهم المشارقة، ويُظهِرون من خلاله الشخصية العلمية المغربية في ميدان الأدب والنقد، ونحن في هذا المقام سنعمل على استنشاق عبير أولئك الأعلام بإحياء ذكرهم وتسليط الضوء على فكرهم، رغبةً منَّا في إبراز مجهُودهم، وتقريب تلك المسائل إلى أذهان الدارسين والمثقفين في عصرنا هذا، إذ لكلِّ عصر لغتُهُ المتداولة والمفهومة .

فالأمل يحدونا في استثارة الإرث المغربي في المجال الأدبي والنقدي، وتركيزُنا سيكون مُنصبًّا على تِبيان جانب الأصالة والتمايز؛ اللذين طبعا تفكير النقاد المغاربة وهم يسعون جادين من أجل المشاركة في إثراء التراث العربي، وتقديمه للقراء في ثوب قشيب تعلُوه الجِدَّة وتتخلله الموضوعية ما أمكن، ولأنَّ هذا الفصل يُشكِّل البؤرة والعمل الأساس في بحثي هذا من بين سائر الفصول الأخرى، لذلك فقد تتبَّعت مباحثه، وحاولت التركيز فيها ما أمكن .

ولاشك فإن عملية المتابعة والتقصِّي ستكون لأراء ثُلَّة من نقاد المغرب العربي، الذين اعترف بفضلهم وجُهدهم البعيد قبل القريب، وكانوا حلقة الوصل بين أساتذة النقد في المشرق وتلاميذهم الذين جاءوا من بعدهم، وارتوت الأرض المغربية بمداد كلماتهم، يتقدَّمهم ويحمل لواءهم عبد الكريم النهشلي، ويلحقُه كلا من الحُصري، والقزاز القيرواني، ويتبعُ خطاهم ابن شرف، وابن رشيق.

إنها الأسماءُ الخمسة اللامعةُ في سماء الأدب والنقد بالمغرب العربي في فترته الذهبية –القرنين الرابع والخامس الهجريين–، وإنَّ رُؤيتنا هذه تتقاطع مع ما ذهب إليه بشير خلدون عندما نجده يقول وهو بصدد البحث والكتابة في التراث الأدبي والنقدي المغربي القديم:" لقد توقَّفت عند عديد الأسماء والشخصيات العلمية والأدبية من التي ذَكرتْها كتُب التراجم الأدبية، وكلُّها أسماءٌ لمعت في اللغة والأدب والنقد، لعلَّ من أشهرها: عبد الكريم النهشلي، وأبي إسحاق الحصري، وأبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز، والحسن بن رشيق، وأبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني" [1]، ويعتبرُ هؤلاء الأعلامُ

(1) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام بن رشيق القيرواني، (مر، س)، ص: 07 .

الخمسة من أبرز الشخصيات الأدبية والنقدية الذين أسّسوا للفعل النقدي بالمغرب العربي القديم، وإنَّ تمثُّلنا بهؤلاء النقاد سوف لن يخرج عن إطار كوكبة النقاد المشهود لهم بالحضور الذهني الوقاَّد، والإنتاج الفكري الغزير، إنَّهم النّقاد المغاربة الذين تشرّفت بإنباتهم وتكرّمت باحتضانهم التُّربة المغربية من أقصاها إلى أقصاها، ومن نِيلها إلى مُحيطها، تلك البقعة الطيّبة التي جعلت من البحر ماءها شمالا، ومن ذرَّات الرّمل مرعاها جنوباً، إنها بلادُ الإباء وأرض الرفض المغاربية، بما حلَّ فيها وارتحل من دُويلات وعواصم، جعلت من الثقافة عُنوانها الأبرز، ومن التكحُّل بجمال الحرف العربي سِيمتَها الأساسية [1] .

1- نظرية الشعر وبنيته في تفكير النقاد المغاربة القدامى:

تعدُّ قضية مفهوم الشعر وبنيته، من أهم القضايا النقدية التي اشتغل عليها النقاد العرب القدامى، والأكثر تناولاً من طرف الدارسين وكل المشتغلين بالحقل النقدي والشعري، حيث أولاها الأدباء أهمية كبرى، لارتباطها بفنِّ الشعر الذي اشتهر به العرب، ونبغُوا فيه، وكرَّسوا له كلَّ حياتهم ووجدانِهم، حتى صار صناعتهم النافقة التي أبدعوا فيها وأخلصوا الولاء لها، لذلك اتجهت هِمَّتهُم إلى تقديم تصوُّراتهم ومفهُوماتهم للخطاب الشعري، وأكثروا في ذلك من الأقوال والتعريفات، ولعلّ من أقدم التعاريف لفن الشعر وأشهرها تداولا وأكثرها جريانا على الألسنة، ذلك التعريف المختصر الجامع المانع الذي صاغهُ قدامة بن جعفر إذ يقول: "الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى "[2].

وإنَّما قال (موزونا) ليفصل ما هو موزون عن غير الموزون من الكلام المنثور العادي، أما ضبطه بالقافية، وذلك لتميّز الشعر بالقافية والمقاطع، وبالتَّالي عدمُ إدخال ما ليس له قوافي من الكلام حتى وإن كان موزونا [3].

وإنما استفتحت هذا المبحث بهذا التعريف، اعتبارا من كونِه أقصر التعاريف وأشهرها وأقربها التصاقاً بالذهن، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية باعتباره من أجلِّ التَّعاريف وأبرزها ظهوراً لدى النقاد المحدثين، حتى أننا نجد من يقول عنه: إنَّه أوَّل تعريف نقدي موضُوعي للشعر، لأنه حمل فيه صاحبه

---

(1) ينظر: محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث،(مر،س)، ص:48 .

(2) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مكتبة المصطفى، (دط، دت)، ص: 15 .

(3) ينظر: خفاجي عبد المنعم ، قدامة بن جعفر ونقد الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دط، ص: 53 .

الحدود الأربعة التي يقوم عليها الخطاب الشعري، والتي هي: اللفظ والمعنى، والوزن، والقافية [1]، وهو التَّوصيف والتَّرجيح الذي ذهب إليه بشير خلدون أيضا عندما يقول،" لقد نظر النقاد العرب إلى الشعر وعرَّفوه بتعاريف كثيرة، إلا أنه مع ذلك يبقى التعريف الذي قدّمه قدامة بن جعفر للشعر، هو السّائد والمعتبر" [2].

ولم يتوان النقاد المغاربة من الذين ثبتت أقدامهم في هذا الميدان، وترسَّخت في الاعتبار مقدرتهم النقدية مشرقا ومغربا؛ في تقديم وطرح عديدِ التعريفات للفن الشعري، وكانت لهم إسهاماتهم كغيرهم من النقاد المشارقة، كما يقول محمد مرتاض:" حيث أدلى كل واحد منهم بِدلوه، وبذل أقصى جُهده من أجل أن يسْتميزَ برأي أو ينفرد بإشارة، فتعدّدت بذلك المفاهيم، إمَّا تقليدا لأحكام سابقة وإما ابتكارا واجتهادا "[3].

1-1- الشعر وبنيته عند الحسن ابن رشيق:

إنَّ من أشهر تعاريف الشِّعر لدى النقاد المغاربة، ذلك المفهوم الذي يُقدّمه الحسن بن رشيق عندما يقول:" الشعر يقومُ بعد النِّية على أربعة أشياء وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية فهذا هو حدُّ الشعر، لأن من الكلام موزونا مُقفى وليس بشعر، لعدم القصد والنية، كأشياء اتّزنت من القرآن ومن كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) وغير ذلك، مما لم يُطلق عليه أنَّه شعر" [4]، ويذهب أحمد يزن إلى أن ابن رشيق على حق، بالنظر إلى ما هو وارد في القرآن أو في السنة الشريفة، فمثلا نجد آيات في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ** ﴾ [5]، وفي السِّيرة نجد من أقوال الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) ممَّا يُشبه الشعر:

مَا أنْتَ إلاَّ أُصْبُع دُميتَ وَفِي سبَيلِ اللهِ مَا لـقيْتَ

فا الملاحظ من النَّصين أنهما يشبهان الشعر في وزنه، إلا أن الكلام لم تتحقق فيه أركان الشعر، وإن جاء موزونا عرضا، لهذا جاء تعريف ابن رشيق باشتراط النِّية [6].

---

(1) ينظر: لوناسة لبنى، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنين السابع والثامن الهجريين، مخطوط ماجيستير، جامعة الحاج لخضر باتنة، موسم 2013 /2014م، ص: 84 .

(2) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق القيرواني، (مر، س)، ص: 13 .

(3) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي نشأته وتطوّره،(مر. س)، ص: 39 .

(4) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، (م، س) ج/1 ،ص: 119 .

(5) سوره فاطر، الآيــة 18 .

(6) ينظر: يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، (مر، س)، ص: 145 .

وما نراه في التعريف الذي قدّمه ابن رشيق، أنه لم يخرج عن الإطار العام الذي رسَّمه قدامة بن جعفر للشعر، غير أنه أضاف عُنصر النِّيَّة والمقصدية للتفريق بين الخطاب الشعري الفني وغيره من الخطابات الأخرى، وممَّا يُسجَّل لابن رشيق، أنه لم يكن بمعزل عن التأثّر بالمفهوم العربي الخالص للشعر، والذي يَعتبر الشعر كلاما جميلا يتَّصف بمقومات ثابتة، أهمها الوزن والقافيـة [1].

وإنَّ ابن رشيق كغيره من النقاد نظر إلى الوزن والقافية على أنهما عنصران أساسيان في الشعر، وقد سبقه في ذلك قُدامة بن جعفر، الذي جعل من الوزن والقافية إحدى الأضلُع الأساسية في البناء الشعري، إلا أنَّ ابن رشيق انفرد عن قدامة بشرط آخر والذي هو النيَّـة، وهي إضافة جيدة في تحديد المقومات الأساسية للشعر، اعتبارا من أن الشعر ليس مجرد كلام ووزن وقافية، إنما هو مشاعر وانفعالات وحالات نفسيَّة يُعبّر عنها الشاعر، وهو اجتهاد رائدٌ من ابن رشيق يُحسب له في التقدُّم على أقرانه ومعاصريه في الحديث عن المشاعر والعوامل النفسية، وتأثيراتهما في توليد الإبداع الشِّعـري، ولا شك فإن هذا الذي ذهب إليه ابن رشيق، هو عينُ ما ركّز عليه أَعلامُ النقد الحديث وهم يُقرّون بأهمية أحاسيس الأديب ومشاعره، حيث أنها تمثل لديهم أهم عناصر التجربة الأدبية[2].

وأكثر من ذلك؛ فإن جمالية الشعر العربي تكمن في اعتبار أن خاصيّة الشعر، تجعل من الشاعر يشعر بما لا يشعر به غيره، وهذا ما تفطّن إليه ابن رشيق عند شرحه للتعريف الذي أتى به فنراه يقول: "وإنما سُميّ الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن لدى الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ أو ابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان إطلاق اسم الشاعر عليه مجازًا لا حقيقة، ولم يكن له إلاَّ فضل الوزن"[3].

وابن رشيق يُتابع في ذلك أستاذه النهشلي في تفضيل الشعر على النثر، لذلك نجده يقول: "كلامُ العرب قسمان؛ منظوم ومنثور، وكل منهما ثلاثُ طبقاتٍ، جيدة، ومتوسطة، ورديئة، فإذا اتّفقت الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لأحدهما فضل على الأخرى،كان الحكم للشعر ظاهرا في القسمة، لأن كلَّ منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أنَّ الدُّرَّ وهو أخو اللفظ ونسيبُه، وإليه يقاس وبه يُشبّه إذا كان منثورا ، لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في

(1) ينظر: لوناسة لبنى، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنين السابع والثامن الهجريين، (م، س)، ص: 74 .

(2) ينظر: زروقي عبد القادر، أدبية النص عند ابن رشيق، في ضوء النقد الأدبي الحديث، دار كوكب العلوم الجزائر، ط1، 2004م، ص: 369 .

(3) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، (مر، س)، ص: 116 .

الباب الذي له اكتسب ومن أجله انتخب، فإذا نظّم كان أصْون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظُ إذا كان منثورا تبدَّد في الأسماع وتدحْرج عن الطِّباع"[1].

وإن ابن رشيق إذ يُقدّم الشعر على النثر من خلال النص المذكور، وذلك لما في الشعر من زينة الوزن والقافية، وهو يريد من وراء ذلك أن الوزن إنما جيء به لتزيين الكلام، وهذا الكلام الواضح الصّريح منه لا يترك للقارئ ريبة ولا أدنى شك في اتّضاح مدى ميلان ابن رشيق إلى الشعر على حساب النثر، وإيثاره له وتقديمه عليه، بل ومحاولته جاهدا استمالة القارئ والمتلقي في قبول قناعته والإيمان بما يعتقده .

ولم يتوقف بالُ ابن رشيق في التنويه بالشعر والإشادة به،" وأنَّهُ هو الفخرُ إذا افتخر الناس، والتاريخ الذي يُسجِّل الأمجاد ويخلِّد التِّلاد، بل نراه يَسبر أغوار الشاعر ويتداخلُ في نفسيته، وليس من عجب في ذلك، فقد كان هو نفسه شاعرا آخذا في النظم مأخذ الجد ضاربا فيه بسهم، لذلك فلا عجب إن صوَّر لنا بوضوح من يستحقُّ لقب الشاعر ممّن لا يستحق"[2].

وكما يقول إحسان عباس: " فابن رشيق إنما انتصر للشعر على حساب النثر، وإذن فهو من أنصار الشعر، حيث قدّم في ذلك أراء وجيهة، طبعها بلغته الخاصة وشخصيته المتميزة "[3]، والنقاد المغاربة كغيرهم من جملة النقاد والأدباء العرب، حيث ينزعون في أغلبيتهم إلى تفضيل الشعر على النثر، فهذا النهشلي يرى أن الشعر خير كلام العرب بعد القرآن الكريم وأشرفِه، كما يعقد ابن رشيق فصلاً كاملاً من كتابه في تبيان فضل الشعر يقول فيه: " إنَّ كل منظوم أحسن من كل منثور"[4].

1-2- الحصري ومفهوم الشعر:

نجد الحصري يقدّم كلاما جميلاً يعقد فيه موازنة طويلة بين الشعر والنثر ليقول في الأخير:"بأنَّ الشعر كلام العرب الأول، بَنَا لِقوم بُيوتا شريفةً وهدم لآخرين بيوتاً مُنيفةً، ولهذا السبب هو مُقدَّم على النثر، لأن العرب أودعوه كل المعاني، ولذلك كان مُقدّماً عندهم"[5]، فالحُصري وإن لم يُقدَّم رأيه بصريح العبارة في ماهية الشعر، إلا أنه وبعد الموازنة بينهما يقرُّ للشعر بالأفضلية والأسبقية، ويسُوق

(1) ابن رشيق، المرجع السابق، ج/1، ص: (19 ـ 20) .
(2) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوّره، ص: 58 .
(3) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (مر، س)، ص: 454 .
(4) سبقت الإشارة إلى ذلك في الصفحات الأولى من هذا الفصل .
(5) الحصري، زهر الأدب وثمر الالباب، (م، س)، ص: 640 .

لذلك كلاماً للصّاحب بن عباد؛ يدلُّ على أنه مع الشعر وأسبقيته:" النثر يتطاير كتطايُر الشَّرر، والنَّظم يبقى بقاء النّقش في الحجر "[1]، وإذن فإن الحصري لم يقدِّم تعريفا مُحددا للشعر، وإنما اكتفى بنقل بعض الأقوال عمن سبقه من الأدباء والنقاد كما يقول بشير خلدون:" إنَّ أكثر ما قدَّمه الحُصري في هذا الباب، هو أنه حَشدَ مجموعة من الأخبار والآراء، أخذها عن شيوخه وأساتذته"[2].

ومع ذلك كُلِّه لا بد من الإشارة إلى أن هناك استثناءات نجدها لدى بعض النقاد العرب في موازنتهم بين النثر والشعر، حيث أن منهم من ذهب إلى تفضيل النثر على النظم، ومن هؤلاء عبد القادر المرزوقي، وأبا حيان التوحيدي، بدليل ما يذكره هذا الأخير عندما يقول:" النَّثر هو الأصل، بينما النظم هو الفرع، والأصلُ أشرفُ من الفرع، والكتب السماوية إنما نزلت بالنثر والإعجاز القرآني لم يقع بالنظم، وذلك كلُّه دليل على شرف النثر بحسبهم "[3].

1-3- النهشلي في تعريفه للشعر:

نُعرِّج هاهنا على أوَّل ناقد مغربي ظهرت بصمته النقدية، وطرح رؤيته في فضاء النقد العربي تحت قميص البيئة المغربية، إنه الأديب والناقد عبد الكريم النهشلي الذي يقول:" والشِّعر عندهم هو الفطنة، ومعنى قولهم ليت شعري، أي ليت فطنتي"[4].

فاالنهشلي يرى في الشعر أنه ليس مجرد ألفاظ موزونة مُقفاة، إنَّما هو الفطنة والشعور، أي أنه عاطفةٌ وأحاسيس ووُجدان، لأنه ينبع من القلب، وبذلك فهو يعبّر عن خلجاته وكوامِنِه، وعلى ذلك فإن المفهوم الذي أضفاه النهشلي على الشعر، هو أنه ربطه بالحذق والمهارة واستشرافِ المستقبل على رأي الدكتور محمد مرتاض[5]، والمراد من ذلك أن الارتقاء بالشعر إلى أسمى درجاته وأعلى مراتبه، لن يكون إلا إذا جاء على أيدي شعراء يتقنون القواعد ويحذقون الصَّنعة.

ولا يتوقف مراد النهشلي عند هذا الحد من الشعر، بل إننا نراه من جانب آخر يُثني عليه ويقدّمه ويؤثره على النثر، ويجعل منه أعلى درجةٍ عليه، فنجده يقول: " والشعر أبلغُ البيانين وأطولُ

---

(1) ينظر: الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ص: 640 .

(2) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق القيرواني، ص: 88 .

(3) التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، تصحيح وشرح وضبط أحمد أمين، وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، (دط ،دت)، ج/ 2، ص: 132 .

(4) النهشلي، إبراهيم بن عبد الكريم، الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف الإسكندرية، (دط، دت) ص: 24، وينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق القيرواني، ص: 57 .

(5) ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوّره، ص: 39 .

اللسانين وأدبُ العرب المأثور، وديوانُ علمها المشهور"[1]، وبذلك فإنَّ النهشلي يميلُ إلى جانب الشعر ويقدمه على النثر، لأن الشعر بحسبه خير كلام العرب بعد القرآن الكريم، ترتاح له القلوب وتجذَلُ به النفوس وتصغى إليه الأسماع، وتشحذ به الأذهان، وتُحفظ به الآثار، وتقيّد به الأخبار[2].

وحتى يُظهر مكانة الشعر ومدى تأثيره في النفوس، نجده يسُوق لنا تلك الأبيات المؤثرة التي قالتها قُتيلة بنت النضر بن الحارث للرسول﴿صلى الله عليه وسلم﴾، بعد أن أمر بقتل أبيها الذي كان يُظهر عداوةً شديدةً للإسلام، إلا أن الرّسول﴿صلى الله عليه وسلم﴾ لما سمع أبياتها قال: (**لَوْ كُنْتُ سَمِعْتُ شِعْرَهَا هَذا مَا قَتَلْتُه**)[3].

وعلى ذلك نجد النهشلي يحفَلُ بالشعر أكثر مما يحفل بالنثر، ويجعل منه الوسيلة إلى الغايات العظمى، وممَّا يدل على تقديمه له قوله: "كَم عسيرٍ كان الشعر فرج يُسره، ومعروفٍ كان سبب إسدائه، وحياة كان سبب إرجاعها "[4]، لذلك فإن النهشلي " يجعل من الشعر وكأنه الفنّ الأوحدُ الذي كان يثير العرب ويخيفهم ويروّعهم، ويشتِّت صفوفهم، أو يلُمَّ شعثَ اختلافهم"[5].

وهذا ملمح مهم أشار إليه كثير من النقاد القدامى، ولعلّ النهشلي واحد منهم، وهو يُظهر ويُبرز مكانة الشاعر في القبيلة قديما، بل إنه الفارس الأول الذي يبثُّ فيها الفرحة العارمة والانتشاء الذي لا يضاهى، كما يقول محمد مرتاض وهو بصدد تفسير ميل النهشلي إلى الشعر واهتمامه بالشعراء، يقول عبد الكريم النهشلي :" وكان الشاعر في الجاهلية إذا نبغَ في قبيلة ركبت العرب إليها فهنأتها به، لذبِّهم عن الأحساب، وانتصارهم به على الأعداء، وكانت العرب لا تهنّئ إلا بفرس مُنتج، أو بمولود وُلد، أو شاعر نَبــغ" [6]، لذلك اكتسب الشاعر مكانة مرموقة بين أفراد قبيلته، وذلك لما كان يلعبه من دور حيوي بينها، فهو يشبه دور وسائل الإعلام في عصرنا الحاضر، حيث

---

(1) النهشلي، الممتع في علم الشعر وعمله، (م، س)، ص: 24

(2) ينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية، ص: 62 .

(3) أما عن قصيدة قتيلة بنت النضر بن الحارث فجاء فيها :

أَمُحَمَّدُ وَلَدتْكَ خَيْرُ نَجيِبَةٍ　　　فِي قَوْمِـهَا وَالفَحْلُ فَحْلُ مُعْرِقُ

ماَكَانَ ضَرُّكَ لوَ مَنَنْتَ وَرُبمَا　　　منَّ الفتَى وَهُو المُغيِـظُ المُحْنِقُ

فَالنَّضَرُ أقْرَبُ مَنْ قتَلَتَ قرَابَةً　　　وَأحَقُّـهُـمْ إنْ كَانَ عِتْـقُ يُعْتَـــقُ

ينظر: عتيق عبد العزيز ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ط4، 1986م، ص:51 .

(4) النهشلي، لممتع في علم الشعر وعمله ، ص:15 .

(5) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، (مر، س)، ص: 41 .

(6)النهشلي، الممتع في علم الشعر وعمله، ص: 25 ، وينظر: ابن رشيق، العمدة، ج/1 ، ص: 37 .

كان لأشعاره قيمتها ومكانتها العالية في حالتي السِّلم أو الحرب، ولها أثرُها الكبير في رِفعةِ القبيلة وعُلوَّ شأنها، باعتباره الوحيد القادر على تخليد مآثرها ومفاخرها، وتمجيد بطولاتها وأمجادها والحطِّ من قدر أعدائها، وعن هذا الدَّور يقول ابن رشيق:" كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهِرِ كما يصنعن في الأعـراس"[1].

وكيف لا يُعطَى الشاعر كل هذه المكانة والمهابة، وقد كان الشعر عند العرب في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون، حتى روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: "كان الشعر علم قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحَّ منه"[2].

ونظرا لهذه المكانة التي تبوأها الشاعر في الجاهلية، نظر إليه الناس بعين الإجلال والرهبة، واستقر في مكامن نفوسهم أن الشاعر كما السَّاحر والكاهن، إنما يستمدّون قوّتهم من عَوالم غيبية ليس بِوُسع الناس فهم كُنهها.

والملاحظة البارزة في هذا الشأن، هي أن أكثر النقاد العرب الأوائل ذهبوا هذا المذهب في تقديم ما هو منظوم على ما هو منثور، اعتبارا من أن الشعر أكثر عُلوقا بالأذهان ولُصوقا بالذاكرة من النص النثري كما ذهب إلى ذلك أبو هلال العسكري [3]، كما أن الشِّعر أقرب إلى الغناء منه إلى الكلام العادي، فيكون بذلك أسرع حفظاً وأكثر رسوخاً من النثر، لذلك سارعت الطّباع إلى قبوله وتقديمه على غيره.

1-4- محمد بن شرف ومفهوم الشعر:

من النقاد المغاربة الذين تناولوا مفهوم الشعر ودرسوا قضاياه، وفصّلوا القول فيها؛ ابن شرف القيرواني (ت**460**هـ)، وقد كان ابن شرف هذا مُنافساً عنيداً ومعارضا مشاكساً لابن رشيق في كثيرٍ من الأفكار والتّصورات التي كان يقدمها هذا الأخير ويُترجمها في ثنايا أشعاره، إلاَّ أنه لم يَبرز في المجال النقدي بالشكل الذي برز به ابن رشيق، لأن ابن شرف تنازعته الشَّاعرية وعَجنت طويَّتهُ أكثر من غيرها، وبعد بحثٍ وتفتيش وجدنا آراء مبثوثة هنا وهناك ننقُل منها في المجال الشعري وماهيته ما يلي:

---

(1) ابن رشيق ، العمدة، ج/1، ص: 65 .

(2) المجالي جهاد ، مفهوم الإبداع الفني في الشعر، دار دروب للنشر والتوزيع، عمان الأردن، (ط1، 2016)، ص: 41.

(3) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري شاعر وأديب ولغوي رائد، ترك لنا كتابا مهما في الدراسات النقدية والبلاغية، وهو المسمَّى الصناعتين، كانت وفاته سنة 395هـ ، ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/2، ص: 286 .

يقول ابن شرف " إنَّ أملحَ الشعر ما قلّت عبارته وفُهمت إشارته، ولمحت لمحه، ومُلحت مُلحُه، ورقّقت حقائقه، وحقّقت رقائقه، واستغني فيه باللّمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة"[1].

إنَّ ما يُفهم ويستشف من تعريف ابن شرف؛ هو أن أجود الشعر وأملحه، ما كانت عبارته موجزة، وإشارته جليَّـة لا لبس فيها ولا غموض، هذه هي عبارة ابن اشرف وهذا هو تصوّره ومفهومه لبُنيـةِ الشعر، وعلى العموم فإننا لا نكاد نعثر على مفهوم وضح وصريح للشعر يقدمه ابن شرف، وكل الذي ورد عنه أنه قدّم توصيفا لحقيقة الشعر المقبول في الأذواق ويلخصه بالقول؛ إن الشعر الحسن ما كانت ألفاظه قليلة وعباراته موجزة، ومقاصدُه واضحةً، بعيدة عن التَّعقيد والغموض، إلا أنَّ محمد مرتاض يستدرك على ابن شرف ويختلف معه في جانب يراه مُهمًّا في القول الشعري، لذلك نجده يقول:" ومن المتّفق عليه أن الغُموض مرغُوب فيه في الحقل الفني، وشرط قويٌّ من شروط وجوده، بشرط أن لا يُفضي ذلك الغُموض إلى التعقيد والتعميَّة على المتلقي، تجعل منه مذهولاً أمام ما يقرأ أو يسمعُ "[2].

1-5- الشعر ومفهومه عند القزاز القيرواني:

قدَّم لنا الأديب واللغوي الكبير القزاز القيرواني مُصنّفا بديعا في الجوازات والضرورات الشعرية في كتابه الذي سماه (ضرائر الشعر)، أو (ما يجوز للشاعر في الضرورة)، كما يذكر هو نفسه في مُفتتح كتابه، وعلى العموم فإنَّ القزاز لم يقدّم مفهوما واضحا للشعر، وإنَّما حاول أنه يلتمس الأعذار للشعراء من خلال ما كتبه في الضرورات الشعرية [3] ،كما سيأتي بيانُ ذلك عند حديثنا عن التآليف النقدية بالبيئة المغربية فيما بعد .

هذا ما استطعتُ الوقوف عليه من جملة التعاريف التي قدّمها النقاد المغاربة للشعر، وهي في مُجملها محاولات جادة، حرص من خلالها هؤلاء النقاد على إبراز الخصوصية المغربية، وتقديم رؤيتهم المحليَّة، ويظهر بوضوح كيف أن النقاد المغاربة أبانوا عن شخصيتهم العلمية، ولم يكونوا مجرَّد مُجترِّين مقلّدين لما تقدّم به النقاد المشارقة قبلهم، ولعل في التعريف الذي ساقه النهشلي، ما يبُرز هذه الخصوصية، كما أن ما تفضل به ابن رشيق في اشتراطه المقصدية في مفهومه للشعر ما يضفي نوعا

---

(1) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام ، تصحيح وضبط: عبد العزيز أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1344هـ، 1926م ، ص: 37 .

(2) مرتاض محمد، النقد المغربي القديم في المغرب العربي ـ النشأة والتطور ـ ، ص: 63 .

(3) المرجع نفسه ، ص:(53 ـ 55) ، مع بعض التصرف .

من الجمالية والفرادَةِ في النظر للخطاب الشعري، خاصة إذا ما علمنا أن هذه الخاصيَّة الأخيرة المشترطة في بنية الشعر، هي توجُّه معظم الأدباء والنقاد الحداثيين كما يقول محمد مرتاض، لأن أيَّ خطاب شعري إن كان يخلو من المقصدية إنما يغدو مجرَّد نظم، على غرار الشعر التعليمي، أو شعر الألغاز ونحو ذلك [1].

2- عوامل وبواعث الإبداع الفني والشعري عند الأدباء والنقاد القدامى:

ناقش النُّقاد العرب منذ البواكير الأولى من عُمْر النقد الأدبي، فكرة الإبداع الشعري وعوامل الإلهام التي تسُوق الشاعر إلى نظم قصائده وإخراج مكنوناته، ومع تطوُّر النقد وارتقاء التفكير تنبّه الأدباء إلى أهمية تخيّر الوقت المناسب للعملية الإبداعية،" وأشار أكثريتهم إلى أن لحظة الكتابة أو وَمضةَ الإبداع كما يسميها بعضهم، هي نوع من الحدس الذي يُمكِّن المبدع من الاستبصار بغوامضِ قضيته أو فكرته التي تُشغله وتؤرق عقله"[2].

وإن الناظر في صحيفة بشر بن المعتمر[3]، يجده يضع عدة شروط للإبداع والكتابة الفنية، لعل من أهمها: نشاط الذهن والقريحة، وفراغ البال وصفاء النفس، وبحسبه فإن هذه الأحوال مُجتمعةً هي التي تهيِّئُ النفس للحظة الإبداع أو ومضتُه، يقول بشر بن المعتمر:" خُذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك وإجابتها إيّاك، فإن قليل تلك الساعة أكرمُ جوهرًا وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرَّةٍ من لفظ شريف ومعنى بديعٍ" [4].

انطلاقا من هذا التوجيه الذي تفضل ببيانه ابن المعتمر نطرح التساؤل التالي؟ كيف نظر النقاد عبر الأزمنة المختلفة إلى العملية الإبداعية؟ وماذا عن المبدعين أنفسهم؟ وهل كان الشعر ينزل عليهم هكذا؟ وينثال عليهم انثيالا وقت ما يشاءون؟ أم كانوا يستحضرون في سبيل ذلك أجواء معينة؟

---

(1) ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث ، ص: 35 .

(2) جهاد المجالي، مفهوم الإبداع الفني في الشعر، ص: 302 .

(3) هو أبو سهل الهلالي المعروف ببشر بن المعتمر من مؤسسي الفكر الاعتزالي، كما أن له اليد الطّولى في بناء قواعد البلاغة العربية ويعد ابن المعتمر من اوائل النقاد العرب، قدم للنقد العربي صحيفة سميت بصحيفة بشر بن المعتمر لخص فيها ما جادت به قريحته في مجال الكتابة والحفظ وطرق الاستعداد للإبداع الفني ، تعرض لها الجاحظ في البيان والتبيين بشيئ من الشرح والتوضيح توفي مطلع القرن الثالث الهجري سنة 210 هـ، ينظر: بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام بن رشيق المسيلي، (مر، س)، ص: 137 .

(4) الجاحـظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م .ج/1 ص: 136 .

وماذا عن فكرة الإلهام وشيطان الشعر التي كان الشعراء القدامى يستظلون في ظلالها؟ وما جدوى وحقيقة مثل هكذا أفكار في ميزان العقل والعلم؟ وكيف تطوَّرت فكرة الإلهام والإبداع الشعري عند النقاد العرب؟ وما موقف النقاد المغاربة من كل ذلك؟

2-1- فكرة الإلهام وشيطانُ الشعر عند القدماء:

اعتقد العرب قديما كغيرهم من الأمم بالأرواح، ونسبوا إليها كل ظاهرة غريبة أو خارقة، وكانت الجنُّ بالنسبة إليهم أعتا هذه الأرواح، وأشدّها إثارة للفزع والخوف في نفوسهم، وعلى سبيل المثال "فإن الجن أو ما يدعى بالهاتف، والذي هو الصوت القادم من المجهول؛ كان هو المُلْهِم للشعراء، وهو يُسمَعُ أحيانا ولكن لا يُرى[1]، وكان هناك نوع آخر يُدعى بالتابع والذي يوحي اسمه بأنه يتبع الشعراء أينما حلوا وارتحلوا، فيوحي لهم قصائدهم، وبذلك فقد كانت الشياطين عند العرب هي مصدر الإلهام لدى الشعراء، كما عبَّر عن ذلك أحد شعرائهم، وهو أبو النّجم العُجلي حينما قال"[2]:

إنّي وَكُلُّ شاعِرٍ مِنَ البَشَرْ شَيطانُهُ أُنثَى وَشَيطاني ذَكَرْ

حتى أنه كانت كثيرا ما تروى حكايات مثيرة عن موقف العرب من فكرة شياطين الشعراء، من ذلك ما يرويه أبو زيد القرشي في كتابه ـ جمهرة أشعار العرب ـ فيقول" إنَّ شيطانا يُدعى هُبيد كان قريناً لشاعرين مشهورين من شعراء قبيلة بني أسد؛ هُما: عُبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم، حيث كان يوحي لهما شعرهما، حتى أنهم كانوا يقولون: ومن هو هُبيد دون عُبيد "[3] !؟

ومن الأخبار والمرويات عن شعراء الجاهلية أنَّ "شيطان الأعشى الذي كان يمدُّه بالشعر يسمَّى مِسحل السَّكران، بينما كان للشاعر الجاهلي المشهور امرئ القيس، شيطانا اسمه لاَفِظ بن

---

(1) أدى الاعتقاد في القديم إلى أن هناك قوى غيبية خفية غير ظاهرة هي التي تقف خلف الشاعر، وهي قوة الجن والشياطين عند العرب، وربات الشعر عند اليونان، حيث جعل الجاهليون لكل شاعر شيطان، فشيطان امرئ القيس هو لاقط، وشيطان النابغة هادر، وشيطان عبيد بن الأبرص هبيد، وادعى بشار بن برد أن شيطانه شنقناق، ينظر في ذلك: عباس إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (من س)، ص: 16 وما بعدها .

(2) ينظر: جهاد المجالي، مفهوم الإبداع الفني في الشعر، (مر، س)، ص: (43ـ 44) .

(3) جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، (مر، س)، ص:(306 ـ 307) .

لاحِظْ، وساد لديهم هذا الاعتقاد، حتى خُيِّل إليهم بأن روائع الشعراء لديهم، إنما يقف وراءها أكبر الشياطين معرفة ودُربة، وإن قوّة الشاعر الفنية إنما تتأتى من قوة الشيطان الموكَّل به "(1) .

وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى عند بعض الشعراء الإسلاميين الذين كانوا ينسبون ما يكون منه إلى الشياطين، كما كان الاعتقاد عند أهل الجاهلية، وفعلا فإن ذلك ما كان يعتقِدُ به كثير من شعراء العصر الأموي، من أنهم مدعومُون ومُلهَمين عن طريق الشياطين، فهاهو ذا الفرزدق " ينسبُ شِعره إلى شيطانه ـ عمرُو، أو، أبو لُبنى في بعض الأحيان ـ ، وقد رُوي عن الفرزدق أنه حاول نظم الشعر مرة ولكن دون جدوى، ولما أعياه ذلك أعاد المحاولة في فجر يوم ثان، فركب ناقته حتى وصل إلى جبل دُباب بالمدينة، فصرخ بأعلى صوته مخاطبا شيطانه: أخاكم أخاكم أبا لبنى ! يقول الفرزدق؛ فجاش صدري كما يجيش المرجل، فعقلت ناقتي وتوسدت ذراعها، فما قُمت حتى قلت مائة بيتٍ من الشعر، وثلاثة عشر بيتا"(2). ونجدهُ مرات كثيرة يمدح شيطانه بقوله(3):

كَأَنَّها الذَهَبُ العِقيانُ حَبَّرَها لِسانُ أَشعَرِ أَهلِ الأَرضِ شَيطانا

ويُخبرنا جرير أيضا عن شيطانه الذي سمَّاه إبليس الأباليس، وهو شيطان مُكتهل مجرِّب، صقلنه الخبرة والدربة، فجاء شعره أجود ما يكون، وفي ذلك يقول(4):

إني ليُلقي عليَّ الشعر مكتهل من الشياطين إبليس الأباليس

ويقال أيضا أن جرير إنما أخزى الشاعر الراعي النميري (ت90هـ) وقبيلته بني نُمير في قصيدة سميت ـ بالقصيدة الفاضحة ـ بمدد من شيطانه، والتي يقول في مطلعها(5) .

فَغُضِّ الطَّرفَ إنكَ منْ نُميْر فـلاَ كعْـبًا بلَغتَ وَلا كـِـلاَباً

وحينما احتمى بنُو نمير بشاعرهم الراعي النُّميري طالبين منه الثأر من جرير خذلهم واعتذر إليهم بأنَّه لا حيلة له بشيطان جرير، ويظهر مما سبق أن الاعتقاد بإلهام الشياطين للشعراء الذي ظهر في العصر الجاهلي، والذي توارى الحديث عنه بعض الوقت في فترة صدر الإسلام، عاد لينتعش من جديد في العصر الأموي ويجد قبولا في أوساط الشعراء بتأييد من الطبقة السياسية، الذين شجعوا مثل

(1) عبد المالك الشامي، النقد الأدبي في الأندلس بين النظرية والمصطلح، المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية، فاس المغرب، دط ، 2017 م ص: 18 .

(2) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه، ج/1، ص: 208 .

(3) الفرزدق، ديوان الفرزدق شرح وتعليق: علي فاعور، دار العلم للملايين لبنان، ط1 ،1987م ص: 693 .

(4) ينظر: جهاد المجالي، مفهوم الإبداع الفني في الشعر، (مر، س)، ص: 51 .

(5) جرير، ديوان جريــر، دار بيروت للطباعة والنشر لبنان، (دط، 1986م)، ص: 63 .

هذه الأفكار بغرض صرف الناس عن طموحاتهم السياسية، وبالتالي تحقيق أغراضهم ومُكتسباتهم التي كانوا يطمحون إليــها .

لكن هل ظل هذا الاعتقاد سائدا مستمرا في العصور اللاحقة بدءً من العصر العباسي، أم تغيَّر مفهوم النقاد والأدباء لمفهوم ودواعي الإبداع الشعري؟ ، لاشك أن مثل هذه الأفكار واعتقاد الناس بشيطان الشعر والإلهام سرعان ما بدأت تتهاوى وتنهار وتتراجع في ظل الدولة العباسية التي منحت الناس حريتهم الفكرية خاصة مع تحرير العقل العربي من طرف العلماء الذين عكفوا على إخضاع كل شيء للعقل والتفكير المنطقي مع بروز حركة المعتزلة، هذه الفِرقةً التي كان لها دورها الفعال والمؤثر في تحرير العقل العربي من الأساطير والخرافات، وكان منهجهم يُكبر من دور العقل، ويسعى إلى الارتقاء به، وانحسرت بذلك فكرة شياطين الشعراء .

2-2- النقاد العرب وتطوُّر فكـرة الإلهـام والإبـداع الشعري:

لعل أوَّل مادةٍ نقدية مكتوبةٍ وصلت إلينا في هذا الخصوص هي صحيفة بشر بن المعتمر أحد مُفكِّري المعتزلة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك في مفتتح هذا الفصل، والذي فصَّل القول في بنية وطبيعة العملية الإبداعية، مُنبّها إلى أهمية الحافز النفسي ودوره في إثراء وإثارة القريحة الشعرية، ناصحاً الشعراء أن يتحرّوا بعناية، الوقت الملائم، والمزاج المناسب لنظم قصائدهم، وهي فكرةٌ وجيهة وتحليلٌ عميقٌ بالنظر إلى الاعتقاد القديم الذي كان يتبناه الشعراء الأوائل.

وهذا أبو تمام يتَّفِقُ تمامَ الاتفاق مع ما ذهب إليه ابن المعتمر حين يقول في وصيته لتلميذه البحتري،" يا أبا عبادة: تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفرٌ من الغُموم" [1]، ويوضح أبا تمام كلامه أكثر ويشرح وصيته للبحتري حينما يرشدُه إلى الأوقات المناسبة للتدفُّق الشعري، حاثاً إياه على ضرورة تخيّر أوقات الأسحار عند الهبوب من النوم، لأنه وقت الخُلوة والفراغ من الشواغل، مُعلِّلاً ذلك بالقول:" وذلك لأن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم "[2]، وإن هذا التوقيت الذي نصح به أبو تمام تلميذه البحتري، هو وقتٌ يكاد يقول به معظم الأدباء ونقاد الشعر، اعتبارا من أن النفس تكون فيه مستريحة، والذهن مجتمعٌ، والبال منشرحٌ، فضلاً عمَّا يتميز به السَّحَر من لُطف ورقَّةٍ في الهواء وهدوء وسكينةٍ .

---

(1) ابن رشيق، العمدة، ج/2، ص: 114، وينظر: الجاحـظ ، البيان والتبيين، (مر، س)، ج2 ،ص: 750، وإنما تأثر أبو تمام بنصيحة بشر بن المعتمر التي وردت في صحيفته والتي جاء فيها : "خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك "، كما سبق بيان ذلك .

(2) الجاحـظ، البيان والتبيين، ج/2 ، ص: 750 .

ونظرا لأهمية هذا الأمر، وتعلّقه بالحافز والباعث على العملية الإبداعية من أساسها، فقد تباحثه الأدباء والنقاد بعناية خاصة، وكان من جملة ما ذكروه، أن الإبداع الفني والقول الشعري لا يتولَّد في روْع الشاعر، إلاَّ إذا كان هنالك الحافز القوي والباعث الحثيث، وإنما يجيء الشعر نتيجة الانفعالات التي تهزّ كيان الشاعر، في حالات الرضا أو الغضب، أو في حالات الحب أو الجفا والتباعد، كما يصدر نتيجة الخوف أو الطمع، وحالات الانتشاء بجميع صوره ومظاهره، "وقديما سأل الخليفة عبد الملك بن مروان الشاعر أرطأة بن سهيّة أتقول الشعر اليوم؟ فقال: والله ما أطربُ ولا أغضبُ ولا أشربُ ولا أرغب، وإنما يجيء الشعر من إحداهنَّ "[1]، ويربط دعبل الخُزاعي الشاعر صاحب التجربة الإبداعية، الإبداع الشعري بالانفعال والتوتر النفسي حينما يقول: من أراد المديح فبالرغبة، ومن أراد الهجاء فبالغضب، ومن أراد النَّسيب فبالشَّوق[2].

ويأتي الشعور بالحب، وتَوقَان الشاعر لمن يحب، كأحد أهمِّ الحوافز وأمضاها التي تبعث الشعراء على القول الشعري في الغزل والتشبيب، ولنا أن نمثِّل في ذلك بالشاعر كثير عزّة[3] الذي اعترف بمنتهى الصراحة أنه "لم يقل غزلاً قط منذ أن رحلت حبيبتُه ومُلهمتُه عـزَّة، ذلك أن مَوت عزّة أفقده الحافز فما عادَ يقوى على الغزل" [4]، وربما هذا التأثير العجيب للحب في النظم الشعري هو ما جعل ناقدًا مثل ابن قتيبة يقول: "التّشبيب قريبٌ من النفوس لائِطٌ بالقلوب، لِما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلْفِ النساء، فليس يكاد أحد يخلو أن يكون متعلِّقاً منه بسبب، وضاربٌ فيه بسهم حلالٍ أو حرام"[5]، ونجد حازما القرطاجنّي يُعبّر عن الفكرة ذاتها ويتبنى نفس الرأي فيقول:" لا يمكن للشاعر أن يبدع في الغزل، ما لم يُعاني سكرات العشق ووجدَ المحبِّ"[6].

---

(1) ابن قتيبة، محمد بن مسلم الدينـوري، الشعر والشعراء، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة، ج/1، ص: 80

(2) ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/ 1 ، ص: 305 .

(3) الشاعر العاشق كثير عزّة، شاعر عربي عاش في العصر الأموي، يسمي كثير بن عبد الرحمان بن الأسود بن عامر الخزاعي عُرف بعشقه لعزّة بنت جميل الغفارية ولم يتزوجها، نظّم فيها الكثير من الأشعار ، عاش في كفالة عمه بعد موت أبيه وكلّفه برعي الإبل، ومما عرف به أنه كان قبيح المنظر قصير القامة ولذلك صُغّر اسمه فقيل له كثيـر، رآه الخليفة عبد الملك بن مروان فازدراه وتمثل بالمثل العربي المشهور: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فرد عليه كثير شعرا وكان مما قال:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيه وَفِي أَثْوَابِـهِ أَسَدُ هَصُورُ

ينظر في ذلك: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/4، ص: (106 ـ 107) .

(4) جهاد المجـالي، مفهوم الإبداع الفني في الشعر، ص: 240 .

(5) ابن قتيبـة، الشعر والشعراء،(م ، س)، ص: 81 .

(6) القرطاجني، أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي تونس، (دط، 1982م)، ص: 42

كما أنَّ لغريـزة الخوف حينما تستثار دوراً قويًّا وحافزا مُلهمًا في قول الشعر، حيث أكَّد النقاد العرب على أهمية هذا الحافز، والدور الذي يؤديه في تهيئة المزاج النفسي والإبداعي لدى الشاعر، ولذلك نجدهم يُدرجون الرهبة والخوف ضمن القواعد الأربعة الأساسية في نظم الشعر، فقالوا :" قواعد الشعر أربعة: الرغبةُ، والرهبةُ، والطربُ، والغضبُ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطَّرب يكون الشوق ورقّة النّسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعّد، والعتاب الموجِـع "[1].

ومن الأمثلة الظاهرة في ذلك والتي توقف عندها عديد الدارسين للشعر، تلك القصيدة المشهورة عن النابغة الذبياني، وهو يقدّم اعتذارياته للنعمان بن المنذر، بعد أن هاب جَنابه وخَاف سطوته، ممَّا جعله يبُوح بقصيدته هذه مستعطفا إيّاه معتذرا له فيقول[2]:

أَتاني أَبَيتَ اللَعنَ أَنَّكَ لُمتَنــي وَتِلكَ الَّتي أُهتَمُّ مِنها وَأَنصَبُ

فَبِتُّ كَأَنَّ العائِداتِ فَرَشنَنــي هَراساً بِهِ يُعلى فِراشي وَيُقشَبُ

حَلَفتُ فَلَم أَترُك لِنَفسِكَ رَيبَةً وَلَيسَ وَراءَ اللَهِ لِلمَرءِ مَذهَبُ

لَئِن كُنتَ قَد بُلِّغتَ عَنّي خِيانَةً لَمُبلِغُكَ الواشي أَغَشُّ وَأَكذَبُ

وَلَكِنَّني كُنتُ اِمرَأً لِيَ جانِبٌ مِنَ الأَرضِ فيهِ مُستَـرادٌ وَمَذهَبُ

إلى أن يقول:

فَإِنَّكَ كَاللَيلِ الَّذي هُوَ مُدرِكي وَإِن خِلتُ أَنَّ المُنتَأى عَنكَ واسِعُ

يلاحظ من متن القصيدة وفحواها أن الخوف والرّهبة التي تملّكت نفسيَّة النابغة جعلته يُبادر إلى الملك الغساني النعمان بن المنذر، ويبدع شعرا جميلاً فواحاً، جعلت الملك النعمان يُعجب ويُطرب بشعر النابغة الذي رفعه إلى السماء بمدحه وثنائه، أكثر مما ورد في اعتذارياته .

ويندرج ضمن هذا الإطار- أي الرهبة والخوف - قصيدةُ كعب بن زهير في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، واعتذاره له في قصيدته المشهورة - بانت سعادُ -، حيث كان حافزُ الخوف مُلهماً لكعب بعد أن أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه لما جاء به من قدح وذمّ وهجاء لشخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين جميعا، فقَدِم كعب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، مُتخفيا طالبا الصَّفح

(1) ابن رشيق، العمدة، (م، س)، ج/ 1، ص: 120.

(2) النابغـة، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية لبنان، (ط3، 1996م)، ص: 54 .

والعفو والأمان، مُقرّاً بالدخول في الإسلام، فلما ظفر بالأمن والأمان، قال قصيدته الخالدة في مدح الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، والتي جاء فيها[1]:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ مُتَيَّــمٌ إِثرَها لَـم يــزل مَكبـولُ

وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَلوا إِلّا أَغَنّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحولُ

وهكذا يتجلَّى لنا بأنَّ الخوف والرهبة، من أهمِّ الدَّواعي والأسباب الملهمة للقول الشعري.

ويظهر الغضب كأشد الانفعالات النفسيَّة لدى الإنسان، ويدفع إليه التوتر الذي ينشأ كردِّ فعل على تصرّفات ومواقف الآخرين، وإنما ينشأ الشعور بالغضب في نفس الإنسان، حينما يُواجَه بموقف عدائية، أو عندما يخيبُ أملُه وظنُّه في الآخرين، ولا شك فإن احتدام الغضب في نفسية الإنسان فإنه يستدعي عند البعض منهم من الموهوبين والشعراء تحديدا؛ نوبة من الإبداع، فتنفجر القريحةُ شعراً في الافتخار حينا، وأحيان أخرى بالهجاء [2].

وقد عدَّ النقاد قديما الهجاء من القواعد الأربعة الأساسية التي تجيش بها النفس شعرًا ،كما سبق وأن ذكرت ذلك، من خلال ما أقرّه ابن قتيبة، من أن شعور الغضب هو أحد الحوافز الأساسية في تحريك القريحة الشعرية، فيقول: "وللشعر دواع تحث البطيء، وتبعث المتكلِّف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب"[3]، فهذه العناصر التي ذكرها ابن قتيبة هي مُحفِّزات مُهيِّجة، تبعث المتكلف فتجعله مطبوعا، وتحث البطيء فتجعله سريع البديهة.

وقد امتدح النقاد قديما شعر عنترة الذي قيل بدافع الغضب، وأضاف إليه قوم شعر جرير، إذ روى الأصمعي قولاً في ذلك نقله ابن رشيق يقول فيه "كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب، وزاد قوم، وجرير إذا غضب"[4]، وقد كان الحطيئة شاعرا مُهاب الجانب لسلاطة لسانه ولذاعة كلامه، لأنه كان يقول كلاما حادًا قاسياً في الهجاء، يعكس غضبه وشرَّه إذا هو استغْضبَ[5]، ومن أجل تفادي مَعرَّة لسانه، قام عمر بن الخطاب بسجنه بعد هجائه للزّبــرقان مخاطبا إيّاه [6]:

---

(1) كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير ، تحقيق : علي فاعور ، دار الكتب العلمية لبنان دط 1997 م ص: 60 .

(2) نقلا عن : مرتاض محمد : النقد الأدبي في المغرب العربي، ص: 59 ، وينظر: جهاد المجالي، المرجع السابق ص: 252 .

(3) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ،ج/1، ص: 78 .

(4) ابن رشيق، العمدة، (م، س)، ج/1، ص: 121 .

(5) ينظر: المصدر نفسه، ج/2، ص: 170 .

(6) *الحطيئة، ديوان الحطيئة*، شرح حمدو طماس، دار المعرفة لبنان، ط2، 2005م، ص: 86 .

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها وَاِقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

ونظرا لِشدَّة لسانه وقوة هجائه قام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واشتري منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم كي لا يعود في هجاء أحد منهم ، ثم أطلق سراحه بعد أن استعطفه بأبيات من الشعر يصور من خلالها أبناءه الصغار وقد عُدموا الكاسب لهم جاء فيها[1] :

ماذا تَقــولُ لِأَفراخٍ بِذي مَرَخٍ حُمْرِ الحَواصِلِ لا ماءٌ وَلا شَجَرُ

ألقَيتَ كاسِبَهُم في قَعرِ مُظلِمَةٍ فَاِغفِر عَلَيكَ سَلامُ اللَهِ يا عُمَرُ

أنتَ الأَمينُ الَّذي مِن بَعدِ صاحِبِهِ أَلقَت إِلَيكَ مَقاليدَ النُهى البَشَرُ

لم يوثِروكَ بِها إِذ قَدَّموكَ لَها لَكِن لِأَنفُسِهِم كانَت بِكَ الخِيَرُ

وقد قيل إنه وفى بعهده طيلة حياة عمر رضي الله عنه، ولكنه عاد إلى الهجاء بعد وفاته .

ومن النماذج الشعرية الشهيرة التي صدرت عن بعض الشعراء نتيجة الانفعال والغضب، ما كتبه جرير في هجاء الراعي النميري وقبيلته بني نُمير، وهي قصيدة لاذعةٌ يظهر فيها دور حافز الغضب في تأجيج المشاعر واستشعار الغضب، وممـّا يروى في ذلك؛ أن الراعي النميري كان يميل إلى تفضيل الفرزدق على جرير، فيقول حينما يُسأل عن أيّهما أشعر؟ الفرزدق أشعرهما وأكرمهما؛ فلقيَّه جرير وطلب منه أنْ لا يتدخل بينهما بحكم، فوعده الراعي بألاّ يعود لمثل ذلك، إلاَّ أنه عاد إلى تفضيل الفرزدق عليه، فلقيّه مرة أخرى بالبصرة وأنّبه على تكرار فعلته، فأخذ الراعي يعتذر إليه إلا أنَّ ولده أفسد ما كان بينهما بعد أن أساء الأدب مع جرير، فانصرف جرير مُغضباً حانقًا عليهما، فبات ليلته بالبصرة وأنشأ قصيدته التي سماها هو (الدمّاغة)، وتسميها العرب (الفاضحة)، وهذه بعضٌ من مختارات أبياتها[2]:

فَلا صَلّى الإِلَهُ عَلى نُمَيرٍ وَلا سَقِيَّت قُبورُهُمُ السَحابا

وَخَضراءِ المَغابِنِ مِن نُمَيرٍ يَشينُ سَوادُ مَحجِرِها النِقابا

وَلَو وُزِنَت حُلومُ بَني نُمَيرٍ عَلى الميزانِ ما وَزَنَت ذُبابا

فَغُضَّ الطَرفَ إِنَّكَ مِن نُمَيرٍ فَلا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِــلابا

إِذا غَضِبَت عَلَيكَ بَنو تَميمٍ حَسِبتَ الناسَ كُلُّهُمُ غِضابا

---

(1) الحطيئة ، *ديوان الحطيئة*،(م، س)، ص: 66 .

(2) القصيدة طويلة حيث سهر جرير على إنشائها ليلةً كاملا إلى أن قال البيت المشهور ـ فغض الطرف إنك من نمير...عندها وضع قلمه وأطفأ قنديله وقال : والله لقد أخزيتهم أبد الدهر، فلم يرفعوا رأسا بعدها إلا نُكس بهذا البيت، ينظر: ابن رشيق، العمدة، ج/1، ص: 51 .

2-3- النقاد المغاربـة وبواعـث النظـم الشعـري:

ناقش النقاد المغاربة هذه القضية كغيرهم من النقاد العرب، باعتبارها من المسائل النقدية المتعلقة بالعملية الإبداعية في حدّ ذاتها، فهذا ابن رشيق يعقد لها بابا مستقلا سمّاه: عمل الشعر وشحذُ القريحة ذكر فيه" أن للناس مع الشعر ضروبا وأشكالاً وألواناً يَستدعون بها الشعر فتشحذُ القرائح وتُنبَّهُ الخواطر وتلين عريكة الكلام، وتسهِّل طريق المعنى، كل امرئ على تركيب طبعه واطِّراد عاداتِهِ" [1]، حيث أن من الشعراء من ينبسطُ عليه الكلام عند الخلوة والعُزلة وتذكُّر الأحباب، كما هو الحال مع ذي الرّمة، وعلَّل ابن رشيق ذلك بكونه كان عاشقا، "ومن الشعراء من كان يهيج عليه الشعر عندما يجول في الرّباع المخضرة والرياض المعشبة"[2]، كما هي وصيَّة الأصمعي للشعراء عندما يقــول: "ما استدعيَّ الشعر بمثل الماء الجاري والشرفُ العالي والمكانُ الخالي"[3].

وهذا ما كان النهشلي أستاذ ابن رشيق يطبّقه ويعمل به، حيث كان عندما يريد استدعاء الشعر يعتلي سطح بُرج أو هضبة ليكتشف الطبيعة من حوله، فيلقّح خاطره ويجلي ناظره كما ينقل ذلك عنه ابن رشيق، فيما كان جرير يصنع قصائده ليلا فيشعل سراجه ويختلي بنفسه، كما كان الفرزدق حين تتأبَّى عليه صنعة الشعر، يركب ناقتَه ويطوف خاليا في شعاب الجبال وبطون الأودية، والأماكن الخَربة الخالية، فينقاد له الكلام [4].

يقول ابن رشيق في ذلك:" ليس يُفتح مُقفلٌ، مثل مُباكرة العمل بالأسحار عند الهبوب من النوم، لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسّها في أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعيبها، وإذ هي مُستريحة جديدة كأنما أنشأت نشأة أخرى، ولأن السَّحر ألطف هواء وأرق نسيماً وأعدل ميزانا بين الليل والنهار، فالسَّحَر أحسن لمن أراد أن يصنع شعرا، وأمَّا من أراد الحفظ والدراسـة وما أشبه

(1) ابن رشيق ، العمدة ،ج/1، (م، س)، ص: 205 .

(2) المصدر نفسه ، ج/1 ، ص: 206

(3) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج/1، ص: 79 .

(4) قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي للمعز بن باديس، (مر، س)، ص: 248 .

ذلك فالليل، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين:﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وطئًا وأَقومُ قِيلاً**﴾ [1]، " وهـذا الكلامُ لا مطعن فيه ولا اعتراض عليـه" [2].

هكذا يقدّم ابن رشيق رأيه، وينصح المبدعين بالوقت المناسب الذي تتفتَّح فيه القريحة، ويحضُر فيه التركيز، ومن دون شك فإن ابن رشيق يكون قد اطلع على آراء من سبقه، بعد أن هَضمَها وعَجن عريكتها إذ به يتوجَّه إلى القارئ ويهديه زُبدة الآراء وأنفسها وأرشدها، ويظهر لنا هذا الترجيح من خلال ما نجده لدى الأدباء والدارسين الذين نراهم في أكثريتهم يتبنّـون هذا الرأي، لأن الذَّاكرة تكون مُستريحةً ومهيَّـأة للتلقي والإبداع، ولا أدلّ على ذلك من أن كثيرا من التربويين وعلماء النفس المحدثين، ينصحون الدارسين وطلبة العلم باستغلال وقت الأسحار والصباح الباكر، لكونه التوقيت المناسب للحفظ والمذاكرة والإبداع.

وهاهو حازم القرطاجنِّي يناقش المسألة ويؤكد على أن "الحالة الشعرية أو المزاج الشعري إنما يتأتَّى للشاعر من خلال ما يمر به من ظروف وأحوال تستثير مشاعره وتهيّج انفعالاته، ولذلك فإن الشعر لا يتأتى إلا بتوفُّر ثلاثة أمور هي: المهيئاتُ، والأدواتُ، والبواعث"[3]، ويفسَّر القرطاجني طبيعة هذه البواعث وكيف أنها تثير المبدع وتدغدغ عواطف الشاعر وانفعالاته، فيجيش قلبه تدفُّقاً، وتنساب الكلمات على لسانه انسياباً فيقول: "ولـمَّا كان أحقّ البواعث بأن يكون هو السبب الأول الداعي إلى قول الشعر، هو الوُجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة وإلافِـها عند فِراقها، وتذكُّر عُهودها، وعهودهم الحميدة بها" [4].

ويأتي بعد دلك ابن خلدون بقرون، ليؤكد صحة ما ذهب إليه النقاد قبله فيقول:" وخير الأوقات لذلك هي أوقات البكر عند الهبوب من النوم، وفراغ المعدة، ونشاط الفكر، وفي الهواء الجُمام، وربما قالوا إن من بواعثه العشق والانتشاء "[5].

---

(1) سورة المزمّل ، الآية 06 .

(2) ابن رشيق، العمدة ،ج/1 ، ص: 208 .

(3) القرطاجنـي، منهاج البلغاء، (م، س)، ص :41 .

(4) المصدر نفسه، ص: 249 .

(3) ابن خلدون، المقدمة ،ج/2 ، (م ، س)، ص: 744.

وعلى ذلك، فإن نقاد المغرب العربي وعلى رأسهم ابن رشيق متأثرين بوصية أبي تمام لتلميذه البحتري، ويجعلون من وصيته تلك؛ القول الفصل والتوجيه السليم.

3- أهم القضايا النقدية التي ناقشها النقاد المغاربة القدامى:

تباحث النقاد العرب القدامى عديد القضايا والمسائل النقدية، وكانت لهم آراء ووُجهات نظر مختلفة حول هذه المسائل، وقد اتَّسع مجال دراستهم ليشمل الملية الإبداعية بكل تفاصيلها وحيثياتها، وحيث أن الإبداع شعرا كان أم نثر واسع ومتشعب، فقد نظر إليه النقاد من كل جوانبه، وسبروا أغوار النصوص من حيث بنائها، جِدَّتها، وجزالتها، ونظروا في حال المبدع من حيث ثقافته، وشخصيته ومدى امتلاكه للموهبة واعتداده بنفسه، أو اتكاله على غيره في توليد المعاني واختيار الصِّيغ والعبارات، كل ذلك بحث فيه أدباؤنا القدامى، حتى أنهم أزالوا الغَبش وأبانوا عن الأصيل من غير الأصيل في العملية الإبداعية.

وإنَّني في هذا الفصل سأقوم بدراسة تأصيلية لأهم المسائل والقضايا النقدية التي خاض فيها النقد القديم، وتشمل هذه الدراسة بشكل خاص، القضايا الجوهرية التي دار حولها الجدل، وكثُر بشأنها الكلام، وتشعَّبت حولها الآراء، وأحسب أنه لا يخالفني الرأي أيّ مُطَّلع على تراثنا النقدي، في أن أكثر ما تباحثه نقادنا القدامى في هذا الميدان، هو ما تعلق بقضايا اللفظ والمعنى، والطبع والصنعة، والقديم والجديد، ومشكلة السرقات الأدبية، دون أن نغفل مسألة الشعر وبنيته، وعوامل الإبداع الفني، وما تبقى من القضايا فقد اختلفَ بشأنها النقاد، فتدارسها قوم وتغافل عنها آخــرون.

وانطلاقا من ذلك ستكون قراءتي ودراستي متمركزة حول أهم القضايا إثارة للجدل وأكثرها طُروقا ومدارسة، ثم لأن هذه العيّنات المسجلة والمسائل المطروحة، هي أكثر القضايا التي ركّز عليها الأدباء والنقاد في عملهم النقدي، مع الإشارة إلى أن تتبّعي لهذه المسائل سيكون مُنصباً على القراءات التي قدّمها النقاد المغاربة القدامى، وأهـم الاجتهادات والآراء التي ظهرت بإقليم المغرب العربي .

3-1- اللفظ والمعنى في التفكير النقدي القديم :

تعدُّ قضيّة اللفظ والمعنى من أهم القضايا التي أثارها النقاد منذ القديم، واحتدم حولها النقاش[1]،كلٌّ منهم يميل إلى ترجيح كفَّة أحد الركنين، بناء على أيٍّ منهما يعطي للنص قيمته الفنية؟ "حيث أن منهم من نظر إلى مقوّمات العمل الأدبي فردّه إلى جانب المعنى مقلّلا من قيمة اللفظ، ومنهم من ردّه إلى جانب اللفظ مُقلّلاً من شأن المعنى، وبالتالي فصلوا بين اللفظ والمعنى، وهناك من نظر إلى اللفظ والمعنى على حدٍّ سواء"[2] .

وبلا شك فإن هذه الفكرة مُستوحاةٌ من ذلك التقسيم وتلك القراءة التي قدمها بشير خلدون وهو بصدد تحليل رؤية النقاد القدامى إلى مسألة اللفظ والمعنى فقال: "وانقسم النقاد بشأنها إلى ثلاثة طوائف، قسم اهتم بالألفاظ وفضلها على المعاني، وقسم اهتم بالمعاني على حساب الألفاظ، وقسمٌ ثالث اتخذ موقفاً وسطاً، حيث جعل من الألفاظ والمعاني في مرتبة واحدة، واعتبرَهُما بمثابة الروح للجسد"[3].

واعتبارا من التقسيم السابق، فإن من أوائل النقاد الذين مالوا إلى كفَّة اللفظ وقدّموه على المعنى، نذكر الناقد الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، هذا الأديب المتميّز يُعتبر من أوائل النقاد العرب الذين جعلوا من الألفاظ هي الأساس في تقدير القيمة الفنية للعمل الأدبي، وذلك من خلال المقولة الذائعة الانتشار والتي يقول فيها:" والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي، والقروي، والمدني، وإنَّما الشأن في إقامة الوزن وتخيُّر اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصيغ وجنس من التصوير.."[4].

فالجاحظ في موقفه هذا إنما يُرجِّح اللفظ على المعنى، لأن المعاني مُتاحة لكل إنسان، وإنما الأساس في تخيُّر اللفظ وسُهولة المخرج، وكثرة الماء وجودة السبك، وإذا كان الجاحظ هو أول من تناول هذه القضية ودرسها بعُمق، فإنَّنا نلقاه يميل إلى كفّة اللفظ ويُعلي من شأنه؛ ـ أي الشكل

---

(1) تعود جذور هذه المسألة إلى التساؤل الذي تم طرحه عن إعجاز القرآن ، وهل هو مُعجز بلفظه أم بمعناه، حيث ذكر المتكلّمون أن القرآن إنما هو نص مُؤلف من لفظ ومعنى ، وإنما الإعجاز القرآني مرتبط بالمعنى، ليتم نقل هذا التساؤل بعد ذلك إلى الشعر. للتوسع في ذلك ينظر: سامي يوسف أبو زيد، النقد العربي القديم، ص: 337 ، وينظر: العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية بيروت لبنان، (ط1 ، دت،)، ص: 241 .

(2) لوناسة لبنى، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية (مر، س)، ص 101 .

(3) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، (مر، س)، ص169 .

(4) الجاحــظ، الحيــوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، (ط3 ، 1969م)،ج/3، ص: (131 ـ 132) .

والصياغة اللفظية، ويقلِّل من قيمة المعنى ـ المحتوى ـ وقد عملت هذه المقولة على ترسيخ أفضلية اللفظ على المعنى عند أكثر النقاد والدارسين الذين جاءوا من بعده.

كذلك نجد قدامة بن جعفر (ت337هـ)، وأبا هلال العسكري (ت322هـ) من النقاد الأوائل الذي تبنوا رؤية الجاحظ وسلكوا مسلكه ونهجوا نهجه، فيما مال نقاد آخرون إلى المعنى على حساب اللفظ، وجعلوه أساس الإلهام والمرجع الأول في إضفاء البهاء والسّناء على اللفظ، ومن هؤلاء المُحتفين بالمعنى المقدّمين له نذكر منهم: ابن طباطبا العلوي[1]، والحاتمي[2]، والآمدي[3]، وابن الأثير.

وهناك فريق ثالث، "حاول التسوية بين الركنين، وجعلهما على مسافة واحدة في اكتساب النص الشعري نظارته وحيويته وجماليته"[4]، ومن أبرز هؤلاء نجد: ابن قتيبة (ت276هـ) والذي نلقى له رأيا صريحاً في ذلك والذي هو التسوية بين اللفظ والمعنى، ويتضح هذا الأمر من خلال معادلته الشهيرة في تقسيم الشعر إلى أربعة أضرب، وهي الفكرة الرائجة والمشهورة عنه[5]، كما نجد ممن ذهب هذا المذهب أبو بكر الباقلاني، والقاضي عبد العزيز الجرجاني، كما نلمس لبشر بن المعتمر موقفاً وسطاً عندما يعمل على التسوية بين الألفاظ والمعاني فيقول:" ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريماً، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف"[6]، وإذا كان الأمر بهذا التباين عند النقاد المشارقة، فما هو موقف النقاد المغاربة من المسألة؟

---

(1) هو أبو الحسن محمد بن أحمد ابن طباطبا العلوي، يرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب، من أهم وأنفع كتبه كتاب .(عيار الشعر) اقتصر فيه على دراسة الشعر ونقـده ، توفي سنة 322هـ ، ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج/2 ، ص: 118 .

(2) أبو عبد الله محمد بن الحسن البغدادي الملقب بالحاتمـي نسبة إلى أحد أجداده، كاتب وشاعر، عاش في العصر العباسي في القرن الرابع الهجري في الفترة مابين(310/388هـ)، كانت بينه وبين المتنبي منافرة، فعاش مُبغِضًا له ولذلك نقد شعره، وشنّع عليه واتهمه بسرقة معاني أرسطو في كتابه المسمى الرسالة الحاتمية ، ينظر: سامي يوسف أبو زيد، النقد العربي القديم، ص: 209 .

(3) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمـدي أديب وشاعر من بلدة آمـــد بديار بكر السورية اليوم، عاش في القرن الرابع الهجري عصر الازدهار العلمي والأدبي بالبلاد العربية ، خلّف لنا كتابه ـ الموازنة بين الطائيين ـ والذي يعتبر من أجل الكتب التي ظهرت في النقد والموازنات الأدبية، توفي سنة 370هـ ، ينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ، ص: 137 .

(4) أبو زيد سامي يوسف ، النقد العربي القديم، (مر، س)، ص: 342 .

(5) ينظر: الجداونة حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، (مر، س)، ص: 160، وللتوسّع في دراسة المسألة ينظر: ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، (م ،س)، ص: (64 ـ 70) .

(6) الجاحظ، البيان والتبيين، ج/1، ص: (135 ـ 136) .

2-3- اللفظ والمعنى عند النقاد المغاربة:

إذا ما نظرنا إلى النقاد المغاربة فإننا نجد لهم اهتماما بالمسألة أيضا، فهذا أستاذهم وكبيرهم **عبد الكريم النهشلي** نجده يُقدِّم اللفظ على المعنى حينما يقول:" والكلام الجزل أغنى عن المعاني اللطيفة من المعاني اللطيفة عن الكلام الجزل"[1]، وقد لاحظ ابن رشيق نفسه اهتمام أستاذه بالألفاظ وتفضيلها على المعاني فقال:" وكان عبد الكريم يُؤثر اللفظ على المعنى كثيرا في شعره وتآليفه"[2]، وبذلك فإنَّ النهشلي كان من أنصار اللفظ، متَّفقاً في ذلك مع الجاحظ ومُقتفيا أثره .

أ- ابن رشيق وقضية اللفظ والمعنى:

نلمس لدى ابن رشيق ميلاً إلى اللفظ على حساب المعنى، متابعا في ذلك رأي أستاذه النهشلي، وهذا الاختيار منه نابع في أساسه من التوجُّه العام الذي سلكه وانتحاه النقاد والأدباء العرب منذ القديم، ذلك لأن جمالية النص الأدبي وأدبيّته كما يقول عبد القادر زروقي خاضعةٌ لتشكِيله اللُّغوي، الذي يعتبر كمعطى جمالي يؤسس لقيمة العمل الأدبي، أي أن الفضاء اللغوي المشكَّل من تشابك علاقات الألفاظ القائمة على مبادئ الاختيار والتأليف"[3].

إنَّ هذا التَخريج السليم من الأستاذ زروقي للمنْحَى العام الذي ارتضاه ابن رشيق في مسألة الموازنة بين الألفاظ والمعاني، إنما يذكره ابن رشيق ويصدحُ به علنا لـمَّا نجده يقول:" فاللفظ أغلى من المعنى ثمنا وأعظم قيمة، وأغنى مطلبا، فإن المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ، وحسن السبك، وصحّة التأليف"[4]

على أن ابن رشيق في دراسته لهذه المسألة لا يكتفي برأيه الخاص وإنما نجده يعرِّج على آراء مَنْ سبقه مِنَ النقاد، حيث يذكر بأن الناس في هذه المسألة على آراء ومذاهب شتى، فمنهم من يؤثر اللفظ على المعنى ويجعل منه غايته ووكده، وهؤلاء أنفسهم ينقسمون إلى أضرب، فمنهم من يتحرى فخامة اللفظ وجزالته على مذهب العرب من غير تصنُّع، كما هو الشأن مع بشار بن برد في مثل قوله[5]:

---

(1) ابن رشيق، العمدة، (م، س) ،ج/1، ص: 127، وينظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (مر، س) ص: (448 ـ 449)

(2) ابن رشيق، المرجع نفسه، ج/1 ، ص: 127 .

(3) زروقي عبد القادر، أدبية النص عند ابن رشيق ، (مر، س)، ص: 225 .

(4) ابن رشيق، العمدة ،ج/1 ،ص:127 .

(5) المرجع نفسه، ج/1، ص: 124 .

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً هتكنا حِجاب الشمس أو تقطَّرت دماً

إذا ما أعْرنا سيِّدا من قبيــلةٍ ذُرى منبر صلّى علينا وسلّما

وآخرون أصحاب جلبةٍ وقعقعة، يتخيّرون الألفاظ بلا طائل ولا معنى، كما هو الشأن مع أبي القاسم بن هانئ ومن جرى مجراه، ومن ذلك قوله(1):

أصاخَتْ فقالت وقعُ أجردٍ شَيظم وشامَت فقالت لَمعُ أبيضٍ مخذم

وما ذَعرت إلا لِجَرسِ حُليّها ولا رَمقت إلا برى في مِخدم

حيث نجدُه يعلّق على ذلك بقوله، فليس وراء ذلك هذا إلا الفساد وخلاف المراد .

وفريق ثان ذهب إلى سهولة اللفظ فاعتنى بها، فغفر له النقاد مع هذه السهولة التي يتعاطاها ما كان من ركاكةٍ ولينٍ مُفرطٍ، وخيرُ من جسّد ذلك أبو العتاهية، وعباس بن الأحنف، وقد ساق النقاد من نماذج وأمثلة السّهولة في الألفاظ والمعاني قول أبي العتاهية (2):

يَا إِخْـوتِي إنّ الهَـوى قَاتِلِــــي فيّسِّروا الأكْـــفَان من عَاجِــل

ولاَ تلُومُوا في اتّبَـــاع الهَـــوى فَإنّنـــي في شغْل شَـــاغِـــــلِ

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هُجنة اللفظ وقبحه وخشونته كابن الرومي، وأبي الطيب ومن شاكلهُما، إلى أن يقول: وأكثرية النقاد على تفضيل اللفظ على المعنى(3).

أما عن رأيه الخاص في القضية فإنه يقول:" اللفظ جسمٌ رُوحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسد، يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختلَّ بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهُجنةً عليه، وكذلك إذا ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظا، كالذي يعرض للأجسام من العرج، فإن اختل المعنى كلُّه وفسد، بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه"(4)، بهذه العلاقة التلازمية بين

(1) ابن رشيق، العمدة، ج/ 1، ص: 125 .

(2) زروقي عبد القادر، أدبية النص عند ابن رشيق، (مر، س)، ص:244 .

(3) ينظر: قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي للمعز بن باديس، (م، س)، ص: 245، وينظر: عبد القادر زروقي، أدبية النص عند ابن رشيق، ص: (243 ـ 245).

(4) ابن رشيق، العمدة، ج/1 ، ص: 124 .

الجسم والروح ربط ابن رشيق بين اللفظ والمعنى،" وجعل سلامة الشعر وجاذبيته في تحري الجودة في كلا الطرفين، وبذلك فإن البليـغ الحق عنده هو من يخيـط الألفاظ على قدر المعـاني "[1].

وعموما، فإن ابن رشيق قد بحث هذه المسألة بشكل واضح ومفصل؛ وأعطاها الاهتمام اللازم، ليخلص في الأخير إلى القول بأن اللفظ والمعنى متلازمان ولا ينفصلان، وهو بذلك يقف الموقف الوسط في المسألة، وهي نظرة عميقة تعدُّ من أحسن وأفضل الأفكار النقدية التي طرحها في كتابه العمدة.

فيما اهتم **ابن شرف** بالمعاني أكثر من اهتمامه بالألفاظ، حيث يرى أن ارتباط اللفظ بالمعنى كارتباط الروح بالجسم، ولا قيمة لِلَّفظ إلا بما فيه من المعنى، بدليل قوله:" إنَّ من الشعر ما يملأُ المسامع بما في مبناه من فخامة وقعقعة، لكن لا تتسرَّع إلى قبوله حتى تُفتِّش عن معناه، فكم من معنى عجيبٍ في لفظ غير غريبٍ "[2].

أما الحصري فواضح من منهجه النقدي العام أنه يتبنى رُؤية الجاحظ ويسير على أثره في الاحتفاء باللَّفظ، بمعنى أن الحصري إنَّما يرفع من شأن اللفظ ويُشيد به في العمل الأدبي، أما المعنى فلا مزيَّة ولا فضل له عنده إذا ما قيس باللفظ، ودليل ذلك هو انبهار الحُصري بالبديع واهتمامه بالزخرفة اللفظية، وكثرة إيراده للألفاظ المنمّقة في كتابه (زهر الآداب وثمر الألباب) [3].

والمحصلة أن قضية اللفظ والمعنى هي قضية بارزة تناولها النقد العربي في القديم والحديث، حيث رأينا أن هناك من الأدباء من يجعل اهتمامه كلّه مُنصبا على المقومات المعنوية للنص، وهناك منهم من يُولي عناية خاصة لمقومات المبنى ويجعل منه الأساس في اكتمال العنصر الإبداعي، في حين ذهبت فئةٌ ثالثة من النقاد إلى التسوية بين الركنين، وأن اللفظ والمعنى مترابطان ترابط الرّوح مع الجسد، وتلاحمها هو الذي يُعطي للنص جماليته وقوته .

ب– الطبع والصّنعة :

كيف نظر النقاد العرب إلى مسألة الطبع والصنعة الشعرية، وما هي مواقفهم من ذلك؟ وكيف نظروا إلى أهل الصنعة؟ وما هي المفارقات الموجودة بين الثنائيتين؟ وماذا عن موقف النقاد المغاربة؟

---

(1) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 456 .

(2) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، (م، س)، ص: 22 .

(3) ينظر: بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقـدي المغاربـي، ص: 261 ، وينظر: بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق القيرواني، ص: (173ـ174) .

وهل كانت آراؤهم متوافقة مع كبار النقاد المشارقة؟ أم أن لهم مواقف أخرى؟ ذلك ما سنقف عليه في هذا المبحث؟

تعدُّ هذه القضية أيضا من أبرز القضايا التي اهتم بها الأدباء والنقاد بشكل عام، وفي تراثنا العربي نجد بشر بن المعتمر من أوائل النقاد الذين نظروا للمسألة بعين البحث والتحقيق، وتبعه بعد ذلك الجاحظ[1] عندما نبّه إلى ضرورة توفُّر الطّبع في كمال وجمال العمل الأدبي، والشاعر المتميز هو الشاعر المطبوع المعتمد على طبعه وبديهته في المقام الأول، فيما يأتي شعراء الصنعة في الدرجة الثانية كمرتبة أقلَّ، لكن ما المراد بالطبع وما حقيقته في التراث النقدي العربي؟

وردت تعاريف كثيرة تُجلِّي مفهوم الطبع، فهذا مصطفى عليان عبد الرحيم ينقل لنا التعريف التـالي:" والبديهية والارتجال الذي هو الطبع، ملكة فطرية ومنحة إلهية تولد مع الإنسان، وتجرى صِفاتها النفسية في كيانه وأصل تركيبه، وينعكس أثرها فيما يتناوله الأديب على أي جهة من جهات التجارب الشعرية، وعلى ذلك فإن للطّبع محاسن لا تُنكر وإشادة لا تقصر، لذلك تغنَّى به النقاد العرب كثيرا وعدَّدوا محاسنه"[2] .

وهذا الجاحظ يُثني على المطبوعين ويجعلهم في الطبقة العليا لأهل البلاغة والبيان فيقول: "فهؤلاء المطبوعين الذين ترد عليهم المعاني سهوًا رهوًا، وتنثـال عليهم انتثيالا"[3] "، بخلاف أصحاب الطبع المصنوع الذين لا يتأتى لهم الكلام إلا بكدِّ القريحة وإجهاد النفس.

كما يُراد بالطبع جريان الشعر على البديهة والفطرة في أوقات مُناسبة تخلُدُ فيها النفس إلى السكينة، أما التكلّف والصنعة فمعناها الكدُّ والمطاولة والتعقيد في الألفاظ والمعان [4]، وبذلك فإن الطَّبع هو صفةٌ فطريةٌ يولد مع الإنسان، ويصقل بالخبرة والتجربة والمثـاقفة، وقد أولى نُقادنا القدامى هذا المصطلح عناية خاصة في تناولهم للإبداع الفني في الشعر، حيث نجد نقاد كباراً قد طرقوا هذا

---

(1) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعروف بالجاحظ، عاش في الفترة مابين (159/ 255هـ) ، يعتبر من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ترك لنا إرثا لغويا وأدبيا متميزا من ذلك ،البيان والتبيين، والبخلاء، والحيوان، كان دميما قبيحا جاحظ العينين، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون خفيف الروح كثير المزح والفُكاهة، أدرك الكثير من علماء اللغة والأدب وأخذ عنهم من بينهم: أبو عبيدة، والأصمعي، وأبي زيد القرشي، والأخفش، والنظام، التحق ببغـداد وتصدر للتدريس، كان كثير القراءة والمطالعة، حتى وُصِف بأنه نسيجٌ وحده في العلوم، ينظر في ترجمة حياته: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/4، ص: (470 ـ 473) .

(2) عليان عبد الرحيم مصطفى، تيارات النقد الأدبي في الأندلس، (مر، س)، ص: 458 .

(3) الجاحظ، البيان و التبيين، ج/ 2 ،(م، س)، ص: 05 .

(4) ينظر: لوناسة لبنى، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية، (مر، س)، ص: 116 .

المفهوم من أمثال القاضي الجرجاني، والمرزوقي، وابن الأثير، وحازما القرطاجني فيما بعد، على أنه قد تناول هذه المسألة قبل ذلك كلا من الجاحظ، وبشر بن المعتمر، وابن قُتيبة، وكان أكثر النقاد والأدباء قد أشاروا إلى أن الجاحظ، يُعتبر صاحب الفضل والسبق في التطرّق لقضية الطبع والصنعة، إذ هو أوَّل من أشاع القول وروّج لفكرة الطبع لدى الشعراء العرب في الجاهلية في ردٍّ منه على الشعوبيَّة[1] التي ناهضت كل ما هو عربي؛ بعد أن استفحل أمرها في العصر العباسي بزعامة الفرس والأعاجم، فقال الجاحظ حينها: "وكل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناةٌ ولا مكابدةٌ ولا إجالة فكرٍ ولا استعانة، وإنما هو أنْ يصرف وهمَهُ إلى الكلام أو يصرف وهَمهُ إلى جُملة المذهب، وإلى العمود الذي يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا، وتنثالُ عليه المعاني انثيالاً "[2] .

هذا النّص يكشف حقيقة الطبع وأنه عند العرب سجيَّة وطبيعة، وأن أكثر نثرهم وشعرهم إنما هو بديهة وارتجال، لأنهم مفطورون على الفصاحة، فلا معاناة ولا مُكابدة طالما وُجدَ الباعث والمثير الملْهِم.

واتفقت كلمة النقاد على أن الطبع الجيد، هو كل ما سلم من التكلف والتعمُّل، وهُذِّب بالرواية والدُّربة، وبذلك فإن الطبع ملكة أساسية، وصفة ضرورية لكل من يطمح إلى الشاعرية، فالشاعر المطبوع هو من يأتيه الشعر سهلا دون تعمّل وتكلُّف، بحيث يصدر شعره عفوًا عن طبع مُتدفِّق، أما المتكلِّف فهو من يفتقر إلى كل ذلك ويتّكِئ على قريحته، ويُكدُّ خاطره، وبعد الفراغ من قصيدته يعمدُ إلى مراجعتها فينقح ويحكّك فيها .

وكان أكثر النقاد[3] إنما يميلون إلى الشعراء المحافظين على طريقة العرب وعلى عمود الشعر كالآمدي، والقاضي الجرجاني، ومن النقاد المغاربة نذكر ابن رشيق، وابن شرف، والحصري، فيما مال

---

(1) الشعوبية هذه النِّحلة والنَّزعة الفاسدة كما يقول عنها أحمد أمين، مأخوذة من الشعوب جمع شعب، والذي هو جيل الناس، وهي أوسع من القبيلة وأشمل، وعلى هذا فالعرب شعب ، والفرس شعب ، والروم شعب وهكذا ، وذهب قوم إلى أنها ماخوذة من الشعوب الواردة في قوله تعالى﴿ **يأيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقنَاكُمْ مِنْ ذكَرٍ وأُنْثَى وجَعلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لتَعَارَفُوا** ﴾ سورةالحجرات، الآية : **15** والراجح أن هذه التسمية لم تطلق ولم تستعمل إلا في العصر العباسي، للنزعة التي تحملها والذي هو الإدعاء بمساواة العرب أو تحقيرهم، وتجلّت صورة الشعوبية بشكل فاضح في التعصّب للعجم وبخاصة الفرس، وإن أقدم الكتب التي وصلت إلينا تحمل هذا الاسم ،كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، للتوسع ينظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام ،(مر، س)، ج/**1** ، ص:**67** وما بعدها .

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، (م، س)، ج /**3** ، ص: **28** .

(3) من أوضح الأمثلة لذلك ما نجده لدى الآمدي من ميلان إلى البحتري رغم ادعائه الوساطة والاعتدال ، ويرجع سبب ذلك لما وجد عنده من اتكاء على الطبع، وإن أكثر ما وجد لدى البحتري من صنعة فهو أملح فيها من أبي تمام، كما يقول ابن رشيق الذي تشيَّع بروح الآمدي في موقفه من الشاعرين ، ينظر: شادي محمد إبراهيم ، ثنائيات النقد العربي، (مر، س)، ص: **284** .

نقاد آخرون إلى الصنعة وضرورة استخدام البديع لكن بدون إسراف، وأبرز هؤلاء ابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وأبي هلال العسكري .

3-3- قضيّة الطَّبع والصنعة لدى النقاد المغاربة:

تعرّض نقاد المغرب العربي لهذه القضية، وقدّموا رأيهم فيها كما هو حال بقية النقاد العرب بدء بالجاحظ، وابن قتيبة، والآمدى، والجرجاني، والمرزوقي وغيرهم من النقاد المشهورين، وقد درج النقاد على توصيف الخطاب الشعري ونعته بالصناعة مثل سائر الصناعات الأخرى، وليس من خلاف في أن الصناعة تتطلب ثقافة متينة وإلماما شاملا بالقواعد التي تُفضي إليها كما يقول محمد مرتاض:" فإنَّ الصنعة التي نُومئ إليها، هي ما يندرج تحت ألوان البيان وأوجه الزخرفة والبديع، ويكاد هذا المفهوم يسودُ معظم التواليف في هذا الباب"[1].

ولمعرفة موقف نقاد المغرب العربي من الطبع والصنعة، وإلى أي جهة كانت ميولاتهم، يجدُر بنا ابتداءً، التعرُّف على مدلول الطبع والصنعة، حتى يكون وقوفنا على هذه المسألة واضحا وإحاطتنا بكُنهها شافيا مقبولاً .

إنَّ الطبع والصنعة من الثنائيات التي تتردد كثيرا في مفردات النقد العربي، وهي تجسّد واقعا إبداعيا في شعر العرب ونثرهم، وفي الغالب ما يأتي الطبع كا الموهبة والبديهة، وتأتي الصنعة على أنها بنتُ الدُّربة والثقافة، وهذا ابن قتيبة يصفُ الشاعر المطبوع فيقول:" هو من سَمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجُزه، وفي فاتحته قافيته، وتبيّنتَ على شِعره رونق الطَّبع ووشْيَ الغريزة "[2] .

وإذا فإن الطبع، هو الكلام على البديهة والارتجال، أما الصنعة فهي التنقيح والمراجعة للأبيات قبل نشرها، وهي على أشكال، منها المحمود المغتفر، ومنها المذموم كالذي يستكرهُ الألفاظ ويتكلّفها.

أ- ابن رشيق والشعر المطبوع من المصنوع:

لقد سجلت لنا أنامل ابن رشيق ما كانت تختزنُ نفسيتُه، وما الذي كان يستشعره هذا الرجل وهو يقرأ للمطبوعين والمتصنّعين من الشعراء، فانبجست قريحته بكلام يعرب عن دواخله ويخرج مُضمراته وهو يقول:" ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وُضِع أولاً وعليه

(1) مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي ـ النشأة والتطور،(مر، س)، ص: 114 .

(2) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ،(م، س)، ص: 90 .

المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلّفا تكلُّف أشعار المولَّدين، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سمَّوهُ صنعةً من غير قصد ولا تعمُّل، لكن بطباع القوم عفوا، فمالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره.."[1].

هذا النص من ابن رشيق يُعطينا فكرة جلية عن حبّه للطبع وامتعاضه من الصنعة، ونراه يؤكّد على أن كل خطاب يأتي عفوًا طبيعيا مُنسابا مُتسلسلا لاشك أنه هو الأصل، وهذا الباحث عبد القادر زروقـي كواحد من الذين درسوا الميراث النقدي لابن رشيق يقول:" فالإغراق في الصَّنعة لا يثبتُ الأدبية، فهي تتحقق بأشياء أخرى، والشعر الذي يتخذ من آلية الإيقاع البديعي غاية بذاتها ولذاتها، ما هو إلاّ نِتاج لحدس زُخرفي في أساسها الإفراط والتفريط، بحيث ينْطمسُ موضوعه تحت بريق الزخرف"[2] ، فيما يأتي الخطاب المصنوع في المرحلة التالية له كدرجة ثانية.

والصنعة التي يَرُومُها ابن رشيق ويجعلها في مرتبة ثانية بعد البديهية والطبع، ليست تلك التي تعني التكلف والتَّمطيط، إنما مراده التنقيح والتجويد على ما كان يصنع زهير بن أبي سلمى، والذي كان تستغرق عنده القصيدةُ زمنا غير قليل، وهو يعمل فيها التنقيح والتجويد والتبديل والتنظيم، ليخرجها للناس وقد بلغ بها من الجمال والكمال والتأثير الفني مبلغه، فهذا ابن رشيق يقول: "إن الصنعة إذا تزاوجت مع الطبع ألَّفت فناً راقيا، وكوّنت نصًّا متناسقا دقيقا"[3]، أما إذا كثرُت الصنعة وبانت للعيان، فإنها من العيب الذي يشهد بخلافه الطبع .

وعلى ذلك فإن ابن رشيق لا يرفضُ الصنعة من أساسها، وإنما دعا الشاعر إلى الاستعانة بالصنعة الخفيفة غير الظاهرة، عندما نجده ينصحُ الشعراء بقوله:" إن البيت الذي وقع مطبوعاً في غاية الجودة، ثم وقع في معناه ببيت مصنوع في نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة، ولا ظهر عليه التعمُّل؛ كان المصنوع أفضلها "[4] .

وبذلك فإن الشعر المصنوع في نظر ابن رشيق، قد يكون أحسن حالا وأكثر رونقاً من الشعر المطبــوع .

---

(1) ابن رشيق، العمدة ، (م، س)، ج/1، ص: 129 .

(2) ينظر: زروقـــي عبد القادر، أدبية النص عند ابن رشيق ، (مر، س)، ص: 289 .

(3) ابن رشيق، العمدة،، ج/1، ص 129

(4) المصدر نفسه ، ج/1، ص:131 .

وقد تجادل النقاد وتلاحَيا أكثر في مسألة الطبع والصنعة، حتى أنه تشكَّلت مدرستان بفعل النقاش الكبير الذي بعثه أنصار كل فريق أو مدرسة ، وكان رأسا هاتان المدرستان ومعْلمتهُما الكبرى الشاعران الكبيران؛ أبا تمام والبحتري، حيث سارت خلف كل واحد منهم جلبة كبيرة، وصدى غير مسبوقٍ، وقد وسم بعض النقاد طريقة أبي تمام بالصنعة، فيما أسدل آخرون على منهج البحتري الطبع والبديهة، على أننا نجد ابن رشيق يرى رأيا آخر فيقول مشيرا إليهما: "وقد كانا يَطلُبانِ الصنعة ويُولعان بها، فأما حبيب فيذهب إلى حُزُونة اللفظ وما يملأ الأسماع منها، من التصنيع المحكم طوعا وكرها، يأتي للأشياء من بعيد يطلبها بكُلفة ويأخذها بقُوة، أما البحتري فكان أملح صنعة وأحسن مذهبا في الكلام، يسلك منه دَماثةً وسهولةً مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ، لا تظهر عليه كُلفة ولا مشقة"[1] .

وبذلك فإن الشعر عند ابن رشيق على ثلاثة أنواع، كما يقيّد ذلك بشير خلدون ويضبطه [2] :

1- شعر مطبوع يصدر عن نفس صادقة تعيش على الفطرة والبساطة، وتنشد على سجيَّتها دونما تكلُّف أو تعمّلٍ.

2- وشعر مصنوعٌ مهذبٌ وهو الذي اعتنى به صاحبه وأعاد فيه النظر تمحيصاً وتنقيحاً، دون أن يجهد نفسه أو يكدّ خاطره في البحث عن الصور البيانية والبديعية؛ مثلما كان يصنع زهير بن أبي سلمى في مطولاته المسمَّاةِ بالحوليات.

3- وهناك نوع ثالث هو الشعر المتكلف، وهو شائع لدى المتكلفين من الشعراء ممن اهتموا بالمعاني يبحثون عن الغامض منها، وأغرقوا في تناول الموضوعات المجرّدة دون أن يكترثوا بالألفاظ، كما هو الحال مع أبي تمام الذي يقول عنه ابن رشيق: " إلا أن الطائي كان يطلب المعني ولا يبالي باللفظ، حتى لو تم له المعنى بلفظة نَبطيَّـةٍ لأتى بها" [3].

هكذا تظهر لنا طريقة ابن رشيق في تتبّع الشعراء ونقد أشعارهم، فهو يُناقش المسألة من جميع جوانبها، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن ابن رشيق كان أوسع نظرا وأبعدَ فهمًا لموضوع الطبع والتكلّف، بحيث نجده لا يتسرع في إصدار الأحكام إلا بعد مُدارسة وبيان، وموقفه هذا يمثّل الموقف الوسط المعتدل بين أكثرية النقاد كما يقول بشير خلدون:" إنَّ ابن رشيق يُحبِّذ

---

(1) ابن رشيق، العمدة، (م، س)، ج1، ص: 130 .

(2) ينظر مع بعض التصرف، خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص: 207 .

(3) ابن رشيق، العمدة ، ج/1 ، ص: 132 .

التوسُّط في العملية الشعرية التي يرى أنها تنطلق من الطبع، وتنقَّح وتُهذَّب عن طريق الصنعة الخفيفة التي تحافظ على رونق الشعر وجزالة العبارة "[1].

ب- **الطبع والصنعة عند ابن شرف القيرواني:**

لم نعثر على حُكم نقدي واضح من ابن شرف لهذه المسألة، ويظهر من كلامه وتعليقاته على بعض الشعراء أنه يميل إلى الطبع ومُعجب كثيراً بالشعراء المطبوعين، وعنده نُفورٌ من الصنعة المتكلِّفة، فها هو ذا يصف البحتري بكل إعجاب ويرى في الشعر المطبوع القوة والأناقة والعذوبة والصفاء فيقول عنه:" لفظُه ماء ثجاج، ودُرّ رجراج، ومعناه سراجٌ وهاجٌ على أهدى منهاج، يسبقه شِعرهُ إلى ما يجيش به صدره، إن شربته أرواك، وإن قدحته أوراك، طبعٌ لا تكلُّف يعيبُه، ولا عِناد يُثنيه"[2]، وهي شهادة من ابن شرف للبحتري بالتفوّق في مجال الطبع والصّفاء وسرعة البديهة" [3]،كما يقول محمد مرتاض .

كما نجده يصف شعر العباس بن الأحنف قائلا:" وهو الذي رقّـق العِشقُ كلامه وثقّفت قوَّةُ الطبع نظامه، فله رقّة العشاق وجَوْدة الحذَّاق"[4]، وما يلاحظ على ابن شرف من خلال استشهاداته بهذه النقولات، هو التعبير عن مدى إعجابه بالشعر والشعراء المطبوعين، ما يعني بمفهوم آخر عن ميلان الرجل إلى المطبوعين من الشعراء على حساب أهل الصنعة، وهو الأمر الذي جعله يُعلِّق على طريقة أبي تمام قائلا:" وأما حبيب الطائي فمتكلّف إلا أنه يصيب، ومُتعب لكن له من الراحة نصيب، وديوانه مقروٌ، وشعره متلوٌ "[5] .

ولا نجد من نقاد وأدباء المغرب العربي من استهوته الصّنعة وسلبت عليه لُبَّـه غير القاضي عياض[6]، وقريباً منه الحصري صاحب (زهر الآداب)، حيث نجدُه شغُوفاً بالصنعة والزّخرفة مُتلهّفا

---

(1) خلدون بشير ، الحركة النقدية ص: 211 .

(2) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام ،(م، س)، ص: 24 .

(3) مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، بين القديم والحديث، (مر، س)، ص: 127 .

(4) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، ص: 19 .

(5) المصدر نفسه، ص: 23 .

(6) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصُبي السبتي، كان إمام وقته في علوم الحديث والنحو واللغة وكلام العرب وأنسابهم ، ولد سنة 476هـ رحل إلى الأندلس حيث حصّل علوما كثيرة ليتصدّر للتعليم والتدريس بعدها كما مارس القضاء ، اشتهر بورعه وعبادته وبرع أكثر في الحديث الشريـف والتاريخ والفقـه واللغـة والادب ، كان شاعرا مجيـدا (توفي سنة 544هـ)، ودفـن بمراكش المغربيــة ، ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج/4، ص: (48 ـ 49) .

عليها، ولذلك فهو" يقيسُ قيمة العمل الأدبي بما يشتمل عليه من صنعة، لأنه يؤثر الزّخرف بكل ألوانه، ويفضل الأسلوب المسجوع على المرسل"[1].

ج- الحصري ومسألة الطبـع والصنـعة:

الدارس لكتاب الحصري يجد ثمَّة كثيرا من الأخبار والأقاصيص التي تعقد بعضا من المقارنات والمفارقات بين شعر أهل البداواتِ وأشعار أهل الحضر، ونجدُه كثير الميلان لأهل البدو، معلِّلا ذلك بأن شعرهم أزكى وأنقى، لأنه يصدر عن طبع لا عن تطبُّع، خلافا لأهل الحضر فإن شعرهم مُهلهل خلق النَّسيج خطؤه أكثر من صوابه، ومع كون الحصري أكثر تعاطفاً مع الشعراء المطبوعين الذين يقول عنهم:" والكلام الجيِّد الطبع مقبولٌ في السمع، قريبُ المثال بعيدُ المنال، أنيق الديباجة رقيقُ الزجاجةِ، يدنُو من فهم سامعه كدُنوِّه من وهم صانعه، فيما يقول عن الشعر المصنوع في موازنة بينهما: والمصنُوع مُثقف الكعُوب معتدل الأنبوب، يطرد ماء البديع على جنباته، ويجول رونق الحسن في صفحاته ،كما يجُول السِّحر في الطرف الكحيل، والأثر في السَّيف الصقيل[2].

إلا أن بشير خلدون يقول: بأن الرَّجل كثيرا ما يؤثر التوسط بين الحالتين ـ الطبع والصنعة ـ اعتبارا من أن الشاعر لا يمكن له أن يعتد بموهبته وطبعه فقط، وإنما لابد له من خبرةٍ ودربة ومراسٍ[3]، بدليل قوله:" وأحسن ما أجري إليه وأُعوِّل عليه، التوسُّط بين الحالين والمنزلة بين المنزلتين، من الطبع والصنعة" [4] وعلى ذلك فإن الطَّبع والصنعة شيئان متلازمان وضروريان في الآن نفسه لأي شاعر، إلا إلا أن ما يلاحظ على الحصري، أنه لم يتقيد في عمله الأدبي بهذه النظرة النقدية التي يطرحها ، حيث أنَّنا كثيرا ما نجده ينساقُ نحو الصنعة اللفظية على رأي ابن رشيق، فهو كان يحبُّ المجانسة ويكثر من المطابقات والاستعارات .

د- رأي القـزاز القيرواني في مسألة الطبع والصنعة:

نكتفي في ذلك بإيراد ما سجّله بشير خلدون في هذا المجال حيث يقول:" فالملاحظة البارزة لدى القزاز أنَّه لم يجعل الطبع من خصوصيات الشعراء القدامى فقط، كما أن التكلُّف ليس من خصائص المولَّدين فحسب، وإنما الشعراء جميعاً قدامى ومحدثين، فيهم المطبوع، وفيهم المتكلف،

---

(1) شقّور عبد السلام، القاضي عياض الأديب، دار الفكر المغربي، المغرب، ط1، 1983م، ص: 301 .

(2) ينظر: يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص:354 .

(3) بنظر: خلدون بشير، الحركة النقدية، ص: 205 .

(4) نقلا عن: يزن أحمد، النقد الأبي في القيروان، ص:354 .

مستدلاً في ذلك بالخبر الذي ينقله ابن رشيق في عمدته عن القزاز قائلاً:" وسمعتُ أبا عبد الله القزاز غير مرّة يقول: إنما سُميَّ الأعشى صنَّاجة العرب، لأنه أوَّل من ذكر الصّنج في شعره، قال: ويقال، بل سميَّ صناجة؛ لقوَّة طبعه وحِلْيةِ شعره، يُخيَّل إليك إذا أنشدته، أنَّ آخرَ ينشدُ معك، ومثله من المولدين بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما، فتجد له في نفسك هزّةً وجلبةً من قوة الطبع"[1].

أما عن رأي عبد الكريم النهشلي في المسألة، فإنه لم يُسعفنا الحظُّ في الوصول إلى رأي شافٍ منه في هذه القضية، ولم نظفر بطائل من وراء البحث في ذلك، وإنّ كلّ الذي أدلى به عبارة عن أحكام عامة مُقتضبة، مثل قوله هذا شاعر مطبوع أو ذاك شاعر متكلِّف على رأي الباحثين: محمد مرتاض، وبشير خلدون [2].

3-4- القِـدمُ والحداثة أو القديم والجديد:

ترتبط هذه المسألة بموقف جمهور النقاد من التحول الذي طرأ على الشعر العربي، بعد أن هبّت رياح التَّجديد مع ظهور جيل من الشعراء المولَّدين[3] قبل نهاية القرن الثاني الهجري، حيث ضعفَتِ السليقة، ودبَّ اللحن إلى الألسن، فظهر طائفة من اللغويين الذين تعصَّبوا للشعر القديم، وإنما فعلوا ذلك لحاجتهم إلى الشَّاهد اللغوي[4] وعدم ثقتهم فيما يأتي به المولدون كما يعلّل ذلك ابن رشيق، وبذلك فهم فصلوا بين مرحلتين من الإبداع الشعري، وقالوا بأن المرحلة الأولى تبتدئ مع ظهور القصيدة العربية مكتملة إلى غاية منتصف القرن الثاني الهجري، فيما تبتدئُ المرحلة الثانية مع قرب نهاية القرن الثاني الهجري ومعها ظهر ما سميَّ لاحقا بالشعر المحدث، " وكان اللغويُّون هم أوَّل من أسَّس لهذا التقسيم، وحُجتهم في ذلك أن الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام، هو الذي يُحتجُّ به فقط، لنقائه وصفاء لغته، وقربه من السليقة، وبُعده عن عبث المولدين" [5].

---

(1) ابن رشيق، العمدة، ج/1، ص: 131 .

(2) ينظر: محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي، (مر، س)، ص: 133 ، وينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية ص: 206 .

(3) فالمولدون في الأصل كلمة تطلق وتضاف إلى الشعر، وهي تعني الشعراء الذين لا يحتج بشعرهم وهم الذين جاءوا بعد الشعراء الإسلاميين، باعتبار أن طبقات الشعراء تبدأ بالجاهليين ثم المخضرمين الذين عاشوا العصرين الجاهلي والإسلامي، فالإسلاميين الذين انتهوا بانتهاء خلافة بني أمية، وبعد هذه الطبقة تأتي طبقة المولّدين والتي تشمل بشار بن برد ،وأبا نواس وغيرهم، وإنما سمّوا مولدين لأنهم ولدوا من أمهات أعجميات ، ينظر: أحمد أمين ، ضحى الإسلام، (مر، س)، ج/1، ص: 27 .

(4) ابن رشيق، العمدة، ج/1، ص: 91 .

(5) شادي محمد إبراهيم ، ثنائيات النقد العربي القديم، دار اليقين للنشر والتوزيع، المنصورة مصر، (ط1، 2016م)، ص: 166 .

وعلى ذلك فإن المراد بالقديم؛ هو ذلك التراث الشعري الذي خلَّفه القدامى من الشعراء الجاهليين والإسلاميين، والأمويين، فيما يُراد بمصطلح الجديد، الشعر الذي ظهر مع قيام الدولة العباسية واستمر فيما بعد عُهودا طويلة، ويتصدَّر كوكبة هؤلاء الشعراء كلا من: بشار بن برد، وأبي نواس، وأبي تمام، ومسلم بن الوليد، وابن المعتز، وابن الرومي، حيث اهتم هؤلاء المحدثون بالصياغة، فراحوا يبحثون عن صياغة المعاني في قالب جميل حافل بالعبارات والألفاظ المنمّقة والصور البديعية الرائعة، فيما تميّز الشعر القديم بمتانة الكلام، وجزالة الأسلوب، وفخامة المنطق [1]، وهذا ابن رشيق ينقل لنا عن أبي عمرو بن العلاء " أنَّه كان لا يَعدُّ الشعر إلاَّ ما كان للمتقدمين"[2] .

ومع تقدُّم الزمن، ظهرت خصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، وراح كل فريق ينتصر لمذهبه الذي يتبناه ويعتقد صوابه، فالذين انتصروا للقديم وتعصَّبوا له، اعتبروا أن الشعر القديم هو المثَـلُ الأعلى في جودة المعاني وسهولة الألفاظ، ورفضوا تبعا لذلك ما جاء به المحدثون لمخالفتهم طريقة العرب في طَـرْقِ المعاني، واختيار الصِّياغة والأسلوب السهل، وألوان التشبيهات والاستعارات.

وزاد في شدّة هذه الخصومة والمنافـرة بين الفريقين مع ظهور شاعرين كبيرين، أحدهما نَسج على طريقة القدامى- والذي هو أبو عبادة البحتري -، والآخر أوغَلَ في التجديد والاختراع، وهـو - أبو تمام حبيب بن أوس الطائـي[3] .

على أن هذه الخُصومة الفنية وبقدر ما ظهر فيها من تعصُّب ومُغالبةٍ، إلا أنها خدمت الحركة النقدية، وعملت على بعثِ التنافس العلمي والأدبي الحر والنزيه مع بداية القرن الرابع الهجري، فظهرت تواليف وكُتب في المشرق والمغرب تُعرّي هذه الظاهرة وتدرسها من كافة جوانبها، وإذا كان النقاد المشارقة أشبعوا المسألة دراسة وقتلوها بحثا، فما هو موقف النقاد المغاربة من مسألة القديم والجديـد؟

---

(1) ينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية ، ص: 181 .

(2) ابن رشيق، العمدة، ج/1، ص: 90 .

(3) كان أبو تمام صاحب صنعة لا تضاهى بل هو رئيس مدرسة الشعرية المحدثة وإن لم يؤسسها وحده وإنما شاركه فيها شعراء آخرون كبشار بن برد، وابن هرمة وأبي نواس، ومسلم بن الوليد ،وابن المعتز وكل هؤلاء ساهموا بقسط وافر في وضع لبنات هذه المدرسة ، وتطورت وتوضّحت أكثر في مجيء أبي تمام ـ، ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره،، ص: 76 .

أ- الحصري ومسألة القديم والجديد:

إذا تكلمنا عن الحصري فإننا نلفى له كلاما ونُقولات كثيرةٍ تدل على أنه كان ميَّالا للمحدثين من الشعراء، لما لمسه في أشعارهم من كلام بديع ونظم مُنمَّق وسحر يأسر النفوس، وعلى ذلك فإن الحصري عند معالجته لقضية القديم والجديد نجده يستشهد بنماذِجَ شعرية محدثةٍ لشعراء من أمثال؛ أبي نواس، وأبي تمام ممّا يفسِّر إعجابه الشديد بالجديد وميلانه الكبير إلى البديع الذي طغى على شعر المحدثين، "وبذلك فإن الحصري وإن تظهر منه بعض الحيادية اتجاه هذه القضية، إلا أنَّ الدارس لآرائه يستشف منه ميلانا إلى الجديد والتجديد" [1].

ب- النهشلي وقضـية القديم والجديـد:

يرتكز موقفُه في كون أن العبرة عنده ليست بتقادم الإنتاج أو حداثته، وإنما بقيمته وجودته مع مراعاته لمطامح العصر، نستشفُّ كل ذلك فيما ينقله عنه تلميذه ابن رشيق عندما يقول: " ولم أر في هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي فإنه قال، قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت مالا يحسن في غيره، ويستحسن عند أهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء والحذّاق تقابل كل زمان بما استجيدَ فيه، وكثر استعماله عند أهله بما لا يخرج عن حُسن الاستواء وحدِّ الاعتدال.. إلى أن يقول: والذي أختاره أنا هو التَّجويدُ والتحسينُ الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابره على الدَّهر، ويبعد عن الوحشي المستكره، ويرتفع عن المولّد المنتحل ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة " [2].

وكلامُه هذا في غاية الصراحة والوضوح، فهو يقول أنه لا يميل إلى الخطاب الشعـري، إلا من حيث تكُون جودته، ويظهر بهاؤُه وحُسنه، ومعنى ذلك أن النهشلي يعمل على التسوية بين الخطاب الشعري قديمه وجديده، ولا فضل لأحدهما على الآخر إلا في الجودة والرداءة،" فهو بذلك ينظر إلى القضية من زاوية فنيّة بحتة، فلا يقدم قديما على جديد، ولا جديد على قديم إلا بمقدار ما فيهما من عناصر القوة والضعف، أو الجودة والرداءة" [3].

---

(1) مرتاض محمد ، النقد الأدبي في المغرب العربي، (مر، س)، ص: 78 .

(2) ابن رشيق، العمدة ، ج/1 ، ص: 93 .

(3) خلدون بشير، الحركة النقدية ، (مر، س)، ص: 187 .

ج- موقـف القزاز القيرواني من قضية القديم والجديد :

أبو عبد الله محمد بن جعفر القزاز (ت 412هـ)، ورغم كونه لم يكن ناقدا بالمفهوم العميق للعبارة، إنما كان يغلب عليه النظر في العلوم النحوية والبلاغية أكثر من غيرها، إلا أننا نلمح لديه بعض الآراء النقدية خاصة ما تعلق منها بالجوازات الشعرية، والتي يتّضح منها دفاعه عن المولّدين والمحدثين من الشعراء، فهم لم يرتكبوا أخطاء وأغلاطا وإنما هي ضرورات مسمُوحة لهم، أو كما يخرِّجُ بشير خلدون مفهومية القزاز [1]، وإذن فبحسب القزار فإن هؤلاء الشعراء لم يقعوا في المحظور المرفوض، وإنما هي مجرد هفواتٍ تستسيغُها طبيعة اللغة وقواعد النَّحو[2].

د- موقـف ابن رشيق من القديـم والجديـد:

إنَّ ابن رشيق وقبل أن يُدلي بدلوه في القضية ويطرح رأيه مَطْرَحَ النقاش، نراه يستعرض جملة من الآراء لِنقاد سبقوه أو عاصروه، ومجموع هذه الآراء نلمح فيها خدمة للرأي الذي كان يرومه والفكرة التي كان يقصدها، متوخّيا في الوقت نفسه، لو أن النقاد أجمعوا أمرهم على استساغة مثل هذه الآراء وتبنّيها لأنها تمثل التوسّط والاعتدال، فيقول مُستعرضا رأي ابن قتيبة موافقا له فيما ذهب إليه: "كل قديم من الشعراء فهو مُحدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله، وإن الله لم يقصُر الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم، بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره"[3].

فابن رشيق لم يكن لينقل لنا هذا النص النقدي، والذي يجنح من خلاله ابن قتيبة إلى الانتصار للمحدث ونفي التعصُّب للقديم، وهو الرأي الذي انشرحت له سريرة ابن رشيق وتاقت نفسُه إلى تبنّيه، وجعله في جُملة معتقداته النقدية حينما يصرّح بوضوح قائلا: " ليس أحدٌ أحقَّ بالكلام من أحد، وإنما السَّبق والشّرف معا في المعنى على شرائط"[4]، ونراه يأتي بنماذج شعرية تؤيِّد رأيه وتذهب إلى جانب الإشادة بالمحدث، وأنه لا فرق بين قديم وجديد إلا من جهة الجودة والإحسان.

---

(1) خلدون بشير، الحركة النقدية ، ص: 188 .

(2) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره ، (مر، س)، ص: 82 .

(3) ابن رشيق، العمدة، ج/1 ، ص: 90 ، وينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، (م ، س)، ص: 63 .

(4) ابن رشيق، المرجع نفسه ص:91 ، وللتوسع في فهم مراد ابن رشيق ينظر: عبد القادر زروقي، أدبية النص عند ابن رشيق ص: 156 وما بعدها .

وها هو ذا يقول مؤكّدا ما يعتقدُه مرة أخرى: وإنما مثل القدماء والمحدثين، كمثل رجلين ابتدأ هذا بناءً فأكمله وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه، فالكُلفة ظاهرة على هذا وإن أحسن، والقدرة ظاهرة على ذاك وإن خشن، وبحسبه فإن الأفضلية لا تأتي من هذا اللسان أو ذاك ولكن تــأتي من اختراع المعنى وسموّه وشرفه، ليؤكّـد ابن رشيق رأيه هذا ويقول: إن الشعراء المتقدمين كامرئ *القيس*، والنابغة، والأعشى، لم يتقدَّموا لتقدم زمانهم، وإنما بحلاوة كلامهم وطلاوته، وبُعده عن السّخف *والركاكة*[1]، ويذهب إلى تفسير ظاهرة ميلان الرواة والأدباء القدامى وتعصّبهم للقديم على الجديد أو المحدث المولّد، فيقول:" وما ذاك إلاَّ لحاجتهم إلى الشاهد اللغوي، وقلَّة ثقتهم فيما يأتي به المولَّـدون"[2]

بمثل هذه الحيادية تتَّضح لنا قناعات ابن رشيق وموضوعيته، فهو لم يؤثر القديم لقدمه ولا الجديد لحداثته، ولكنه يحاول إقناع المتلقي كما يقول محمد مرتاض بأن الصّفتين متكاملتين ومتضافرتان لا تستغني إحداهما على نظيرتها، مع فرق في الشكل فقط، ليختم ابن رشيق دراسته لهذه القضية، بأنه لا صراع بين القديم والجديد، وأن أحدهما صِنو الآخر، فللقديم مزيّة السَّبق وأصل الغرس، وللجديد صفةُ الرقَّـة وحسنُ الدِّيباجـة [3] .

وبذلك فهو يجعل من النظر في نقد الشعر قائما على موضوعية تتَّخذ من أدبية النص الناتجة عن استقلال الأثر الشعري عن عصره وقائله، واعتبارها المقياس الصحيح لقبول الشعر أو رفضه، ليكون مقاسُ الشاعرية بين القديم والجديد والمحكّ الصحيح لها ، هو القدرة على إبداع شعر يجمع بين صحّة العبارة وعذوبتها وجمالها في آن واحد، ساء أكانت لدى القدماء أم المحدثين، وهو محكٌّ مبنيٌ على أن الجودة أو الرداءة، لا للعصْر أو الزَّمن [4] .

---

(1) ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، (مر، س)، ص: 87 .

(2) ابن رشيق، العمدة ج/1 ، ص:91 .

(3) ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، ص: 88 .

(4) ينظر: زروقي عبد القادر، أدبيـــة النص عند ابن رشيق،(مر، س)، ص: 156 .

هـ- موقف ابن شرف وهو ينتصر للجديد:

لم يتوان ابن شرف في تقديم رأيه في مسألة القديم والجديد مثله مثل بقيَّة نقاد المغرب العربي، وما يلاحظ على ابن شرف استقلاليته برأيه وتفرّده بنزعته الشخصية، حيث عبر عن رأيه بأبيات شعرية غايةً في الملاحة فقال(1):

قل لمَنْ لا يرى المُعاصِر شيئا ويرى للأوائِـــل التَّقديـــما

إنّ ذَاكَ القَديـــمَ كان جديدًا وسيغْدوا هذَا الجديد قديمًا

فنلاحظ أنه يُنكر على المتشبّثين بالقديم ويرى أنهم متعصّبون، وتعصّبهم ذاك مقيت، لأنه لم ينزع إلى سبب فنّي أو إجادة لغوية، إنما غاية ما هنالك أنهم مالوا للقديم لأنه الأسبق نظما والأقدم ذُيوعا، والعبرة بحسبه ليست بتقادم الشيء ولا بتوالي العصور والدهور، يقول في ذلك: "وتحفَّظ من شيئين، أحدهما أن يحملك إجلال القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له، والآخر أن يحملك استصغار المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له، فإن ذلك جورٌ في الأحكام، وظلمٌ من الحكام حتى تمحّص قولهما، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما"(2).

إن ابن شرف عندما يطرح مثل هذه الآراء النقدية، إنما يبرهن عليها بنماذِج تطبيقية من أشعار القدماء، مُنبِّها على وجود الخطأ فيها حتى وإن كانت لفحول الشعراء، من ذلك تعليقه على قول زهير بن أبي سلمى وهو يرى أنه جانب الصَّواب في مثل قوله(3):

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تُمتــه، ومن تُخطىء يُعمّــر فيهرَم

يقول ابن شرف:" إن قول زهير ـ خَبط عشواء ـ إنما يصحُّ لو أن بعض الناس يموت وبعضهم ينجوا، وقد علم زهير أن المنايا لا تخطئ بشيء، وإنما دخل الوهم عليه موت قوم اعتباطا وموت آخرين هرمًا، فظن طول العمر سببه أخطاء المنيّة وسبب قصره إصابتها، فبعُدَ الصواب من ظنِّ"(4).

ويعلق محمد مرتاض على هذا الرأي الحصيف من ابن شرف فيقول: " لقد بهر زهير الجاهلين بهذه الحكمة، فَوعَوْها وردّدوها وآثروها على ما وصل إليهم من غيرها، لكن هذا الناقد بنفاذ بصيرته ودقّة تمعّنه، لم يساير تلك الآراء الجاهزة، وإنما حكَّم ذهنه وفرض شخصيته وأدخل سلوكه

(1) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام ، ص: 28 .

(2) المصدر السابق، ص: (28 ـ 29)، وينظر أيضا : قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي، ص: 265 .

(3) أبي زكريا الشيباني، شرح المعلقات العشر المذهبات، شرح وضبط عمر فاروق الطباع، ص: 122 .

(4) ابن شرف، أعلام الكلام،، ص: (33 ـ 34) .

وتديّنه، منبها إلى أن كل شيء بإذن الله، والموت ليس في وسعه أن يصيب أو يخطئ، ولكنه مُوجَّه بأمر إلهي، يُصيب من يكتبه الله عليه، ويناى عمّن يؤجَّل إلى زمن آخر "[1].

وبذلك فإن ابن شرف؛ لم ينظر إلى هذه المسألة نظرة سطحية، وإنما درسها بإسهابٍ وأجاد القول فيها، مبينا أن ما يذهب إليه أكثر الناس من ميلان إلى القديم وتقديس له، إنما يرجع إلى الطبيعة البشرية من حُبٍّ للقديم وارتباط به وانجذاب إليه، رغم أنه ليس كل قديم ينبغي أن يقابل بهذه الهالة من التقديس والتبجيل.

وعلى العموم فإنه يكاد يجمع نقاد المغرب العربي على عدم حصر الجودة والتميُّز في زمن معين، ويذهبون إلى القول بأن الإبداع، إنما هو سمةٌ يشترك فيها القدماء والمحدثون، وإذا ما نظرنا إلى رأي ابن رشيق في المسألة، فإننا نجده لم يأت بجديد في مسألة المقارنة بين القدماء والمحدثين كما يقول إحسان عباس:" وكلُّ الذي عمله هو أنه ساق أمثلة عمَّن كانوا يتعصبون للقديم كابن الأعرابي[2]، وأبي عمر بن العلاء، ومن نظروا إلى الجودة و الحسن حيث هو، ووضعوا ميزان للتَّسوية بين الفريقين وجعلوا العبرة في الجودة والقوة، وكذلك كان رأيه هو"[3].

أما الحصري فنجده كعادته يسردُ طائفة من القصص والأخبار المتعلقة بأشعار القدماء والمحدثين، وهو يميل إلى إبداء إعجابه بالمحدثين دون أن يُغضب القدماء، لذلك يمكن القول بأن الحصري إنما قدّم نظرةً توفيقيةً دون أن يظهر رأيه الصّريح أو يميل إلى طائفة على حساب أخرى، ولعل النظرة التوفيقية كثيرا ما ميّزت نظر الحصري في مختلف القضايا النقدية التي تعرّض لها[4] .

وخلاصةُ القول في هذه المسألة عند نقاد المغرب العربي بدءً بالنهشلي وانتهاء بابن شرف نرى أنهم، وإن التزموا شيئاً من الحيادية في استعراض آراء من سبقهم من النقاد، إلا أننا نلمس فيهم أنهم ناقشوا القضية ـ أي مسألة القديم والجديد ـ مناقشة علمية هادئة، خلصوا منها للقول الهادف،

---

(1) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي نشأته وتطوره، (مر، س)، ص: 93 .

(2) أبو عبد الله محمد بن زياد الهاشمي المعروف بابن الأعرابي، إمام في اللغة والرواية ولد في حدود سنة 150هـ، كان من أعلام عصره في ضبط الشعر وروايته، حافظا ملمّا بعلوم اللغة وأشعار العرب وأنسابها، حتى قال عنه تلميذه ثعلب: لم يكن أحد في علم الشعر أغزر منه، عُرف بتعصّبه الشديد للشعر القديم (توفي سنة 231هـ)، ينظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/ 2، ص: 126 .

(3) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (مر، س)، ص: 455.

(4) هناك من الدارسين من ذهب إلى القول بأن الحصري كان ميالا إلى المحدثين من الشعراء، وذلك لما لمسه في أشعارهم من كلام بديع ونظم منمّق، ومما يؤكد هذا الكلام ويعضده حسب قولهم، مانجده من استشهادات له بأشعار المحدثين من أمثال أبي نواس، وأبي تمام، الأمر الذي يعطي الانطباع بإعجابه الشديد بالحديث وميلانه إلى البديع الذي طغى على أشعار المحدثين ، ينظر: محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، ص: 96 وما بعدها .

وهي أن جودة الإنتاج وحسن السَّبك عُملتان لا تعرفان مكاناً ولا تتقيَّدان بزمانٍ، والأصلُ هو ما يحمله النص الشعري من قيمة فنية وليس بتقادم زمانه، وبذلك فإن النقاد المغاربة متّفقون على عدم حصر الجودة والتميّز الشعري على زمنٍ دون زمن، وإنما الإبداع بحسبهم سمةٌ يشترك فيها القديم والمحدث، فالإحسان غير محصور، والفضلُ ليس مقصور على رأي ابن بسام، وإن كنَّا نلمس من القزاز وابن شرف ميلاناً منهما وانحيازا للجديد المفيد على حساب القديم[1]،كما يُقـرّر ذلك محمد مرتاض .

3-5- السرقات الشعرية والأخذ الأدبي:

إنَّ قضية السَّرقات الأدبية والشعرية هي قضيةٌ قديمةٌ في الفكر الإنساني بعمومه، وعرفها الأدب العربي منذ العصر الجاهلي، وكان أوّل من تناول أمر السرقات الأصمعي عند حديثه عن شعر النابغة الجعدي، وشعر الفرزدق[2]، حيث نجده يقول" تسعةُ أعشار شعر الفرزدق سرقة، وأما جرير فما علمته سرق إلا نصفَ بيتٍ "[3]، كما تفطّن إلى قضية سرقات الشعراء الجاهليين الناقد ابن سلام الجُمحي[4] حين أشار إليها في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، وتحدث عن الظاهرة بعده ابن قتيبة، وابن المعتز، وابن طبـاطبا، والآمـدي، والقاضي الجرجــاني، وعموما فقد شغلت هذه القضية بال النقاد العرب في القديم والحديث، لأنها كما يقول القاضي الجرجاني:" إن السرقة داءٌ قديـمٌ، وعيبٌ عتيـق" [5].

---

(1) ينظر: محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، ص 95 .

(2) ويسمى همام بن غالب بن صعصعة التميمي وكنيته أبو فراس، عاش في كنف الدولة الأموية في الفترة من (38هـ إلى سنة114هـ) نظّم الشعر في مختلف الأغراض والفنون المعروفة في عصره، وظهر في وقته شاعران مقتدران هما (الأخطل وجرير)، نشأت بينهم مشاحنات ومعارضات ونقائض، تميّز شعره بقوّة الأسلوب والجودة الشعرية، برع خاصة في المدح والفخر والهجاء، حتى قال الرواة: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية، ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/1، ص: (255 ـ 257) .

(3) المرزباني، محمد بن عمـران، المُوشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد علي البجـاوي، دار النهضة، دط، 1965م، ص: 167.

(4) هو محمد بن سلام بن عبد الله بن سالم الجمّحي البصري صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء، كان من أهل الفضل والأدب عاش في الفترة من 139/ 232هـ، يعتبر ول من ألف في النقد الأدبي ، جمع الكثير من الآراء حول الشعر والشعراء ودرسها دراسة نقدية واعية فقام وصنّفهم في عشر طبقات بحسب إجادتهم للشعر، قاده تفكيره إلى طرح الكثير من الأفكار النقدية كمسالة انتحال الشعر وتزيّد القبائل في شعر شعرائها، ينظر: أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، (م،س)، ص: 180 .

(5) القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، (م، س)، ص: 207 .

ثم تطوَّر البحث في قضايا السرقات الأدبية، حتى أنه أُلِّفت كُتباً قائمة بذاتها، تبحث هذا الموضوع خاصة في القرن الرابع الهجري، "حيث ظهرت مؤلّفاتٌ في سرقات أبي تمام، والبحتري، وسرقات المتنبي، وسرقات أبي نواس وغيرهم، وقد وجد بعض النقاد المتقدّمين من تتبعهم وفحصهم لمسألة السرقات ذريعة في الحطِّ من شأن كبار الشعراء، والتقليل من مكانتهم الشعرية، ومن أبرز النقاد القدامى الذين توسَّعوا في دراسة مشكلة السرقات نذكر، الجاحظ، وابن طباطبا، وأبي هلال العسكري، وابن رشيق، والآمدي، والقاضي الجرجاني، والحاتمي وابن وكيع التنسي، وابن الأثير وأطلقوا عليها ألقابا ومُسمّياتٍ عدّة، ووضعوا لها مصطلحات متعدّدة "[1]

وكان للنقاد آراء مختلفة ومتشابكة حول المسألة، وأكثروا من البحث فيها والطّعن فيمن ولغ في إنائها، حيث تفاوتت أحكاهم فيها بين مُتسامح ومُتشدّد، فالآمدي، والقاضي عبد العزيز الجرجاني وحازم القرطاجني، وابن رشيق تناولوها بموضوعية بعيدا عن الحدَّة والانفعال، في حين نظر إليها الحاتمي، وابن وكيع التنسي، والعُميدي بشيء من الحزم المشفوع بالنِّقمة والتشفِّي والغَيظ [2].

وهذا ابن الأثير يفصِّل الكلام في الحديث عن السرقات فيقول:" واعلم أنَّ عُلماء البيان تكلّموا في السرقات فأكثروا، وقد كنت ألفت كتابا في ذلك، وقسمته ثلاثة أقسام: النّسخ، والمسخ، والسّلخ "[3].

ويعرِّف هذه المصطلحات فيقول: أما النَّسخُ، فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه وأما المسخُ، فهو إحالة المعنى إلى ما دونه، وأما السَّلخ ، فهو أخذ بعض المعنى لا كلّه ، وجملة هذه المسمَّيات التي يقدّمها ابن الأثير، يمثل لها بأمثلة ونماذج من النصوص الشعرية، ليؤكد أن أكثر السرقات تدور حول هذه المعاني .

وأساس هذه القضية هو النَّظر في مدى وجود الابتكار والابتداع لدى الشاعر أو ركونه إلى مجرد التقليد والمتابعة، حيث تحرى النقاد من خلال متابعتهم لها مدى أصالة الشاعر وابتكاره في فنّه،

---

(1) عتيق عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (مر، س)، ص: (333 ـ 334) .

(2) ينظر: أبو زيد سامي يوسف، النقد العربي القديم ، (مر، س)، ص: 372 .

(3) ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق : محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا بيروت دط، ج/2 ، ص: 345 .

أو مجرَّد تقليده وتأثره بغيره جرياً على ما يقوله النهشلي:" إنَّ اتِّكالَ الشاعر على السرقة بلادةٌ وعجزٌ، وتركُه كل معنى سُبق إليه جهل، وإنما المختار أوسط الحالات"[1].

انطلاقا من هذا التقديم نطرح التساؤل التالي: ما المراد بالسرقات الأدبية؟ وما هي حدودها؟ وماذا عن توصيف النقاد لهذه الظاهرة؟ إنَّ السرقة الشعرية في اصطلاح الأدباء:" هي أنْ يعمدَ الشاعر إلى أبيات شاعر آخر، فيسرق معانيها أو ألفاظها، وقد يَسطوا عليها معنى أو لفظا، ثم يدَّعِي أن ذلك لنفسه"[2]، وعرَّفها آخرون بقولهم:" هي أن يَعْمدَ شاعرٌ لاحقٌ فيأخذ من شعر الشاعر السَّابق بيتا شعريًّا، أو شطرَ بيتٍ، أو صُورة فنِّيةٍ، أو حتى معنى، فهي نقلٌ، أو مُحاكاةٌ، أو اقتراض"[3]

فالسرقة بهذا المفهوم ترتبطُ باللفظ والمعنى أو بهما معاً، وهذا ما ألمح إليه القاضي الجرجاني عندما قسّم المعاني إلى معاني مشتركة يجوزُ تداولها بين فئات المبدعين، ومعاني خاصة وهي التي يمكن أن تدعى فيها السرقة .

وقد تنبَّه النقاد الأوائل إلى هذه المشكلة الخطيرة وتناولوها في كتاباتهم من أمثال ابن سلاّم، وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وزاد الاهتمام بهذه الظاهرة ودراستها مع ظهور أصحاب البديع بصفة خاصة، حيث تزعَّم هؤلاء حركة التجديد في المعاني والأساليب، وادعوا لأنفسهم العبقرية والإبداع الفني، فقام النقاد بالتصدي لإنتاجاتهم ووضعها على بِساط البحث والتَّحري، ونقدوا معانيهم ومُشتملات أفكارهم، عن طريق تفكيك النص الشعري، ومعرفة النصوص الأدبية الدخيلة على النص الأصلي .

فكان من نتيجة ذلك أن اتَّهموهم بالسرقة والاتكال على معاني القدماء وأساليبهم، "وظهرت على إثر ذلك حركة تأليف واسعة، من ذلك ما كتبه أحمد بن أبي طاهر، وأحمد بن عمّار في سرقات أبي تمام، وما كتبه مُهلهل بن يموت في سرقات أبي نواس، وألّف ابن وكيع التنسّي في سرقات المتنبي، وكتب غيرهم من النقاد في سرقات البحتري وأبي تمام، ومع الدراسة والتَّحقيق تبيّن أن أكثر كتابات هؤلاء النقاد تعتَـورُها المبالغة والتجريحُ والاتهامُ بالسَّرقة"[4].

---

(1) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وعمله ونقده ، ج/2 ، ص:281 .

(2) خلدون حسين، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، (مر، س)، ص:218 .

(3) نقلا عن: شريط رابح، مقاربة التَّنـاص في النقد العربي القديم، مقال علمي، مجلة المعيار في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية والثقافية، دوريَّة محكمة، يصدرها المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت، العدد:13، جوان 2016م ، ص:74 .

(4) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص: 219 .

وهو الأمر الذي دفع لاحقاً ببعض الأدباء الكبار مثل الآمدي، والقاضي الجرجاني إلى الوقوف على هذه المسألة ودراستها وتفحّصها وبيان القول الفصل فيها، فألّف الآمدي كتابه (الموازنة بين الطائيين)، فيما كتب الجرجاني (الوساطة بين المنبي وخصومه)، وكان العملان اللذان تقدّم بهما هذان الناقدان، بمثابة حجر الزاوية ونقطة الارتكاز لدى أكثرية النقاد الذين جاءوا من بعدهم في المشرق والمغرب، وذلك لطبيعة التّحري والمعالجة وما اتسمت به من صدقٍ ونزاهةٍ في تعريَّة هذه المسألة، والإحاطة بها من كل جوانبها.

واتفقت كلمةُ هذان الناقدان على التَّضييق في مدلول السرقة، وأن هذا المصطلح يجب أن يَنضبط بحدودٍ وقيودٍ، وبذلك كانت كلمتهم أن لا سرقَةَ في المعاني العامة، ودافعوا بشدّةٍ عن الشعراء الذين اتهموا بأخذ المعاني المشتركة، وقالا أن السرقة لا تتمُّ ولا تكون إلا في المعاني المبتكرة، والبديع الذي لم يُسبق إليه"[1]، ومعنى ذلك أن هناك معانٍ وألفاظٍ متداولةٌ أخذها الشعراء عن بعضهم البعض، وهي لا تدخل ضمن خانة السرقات كما يرى ابن رشيق عندما يذهب إلى القول:" ولـمَّا كُثرت هذه الكثرة، وتصرَّف الناس فيها هذا التصرُّف، لم يُسمَّ آخذه سارقاً "[2] .

انطلاقا من هذه الرُّؤية الموضوعية، توسَّع مدلول السرقة لدى النقاد، وأخذ الأدباء بعد ذلك يتناولون هذا المصطلح بشيء من المرونة، آخذين في الاعتبار أنَّ الأفكار تتلاقحُ ، وأنه لا مندوحة في تأثّر اللاحق بالسابق، وهي أفكار واستنتاجات وصل إليها النقد الغربي الحديث، وعلى ذلك درج النقاد المحدثون، أَنْ لا سرقة في الألفاظ المباحة المتداولة، ولا في المعاني العامة، ولا في المعنى الخاص الذي أصبح كالعام المشترك لكثرة شيوعـه، وإنما يكون السَّرق في البديـع المبتكر الذي يختصّ به شاعر بعينـِهِ[3] .

ويظهر أبو هلال العسكري والذي نجدُه يتَّجه إلى محاولة تهذيب مصطلح السرقة، حيث نراه يُخفّف من وطئتها ، ويسمِّيها – الأخذ الأدبي- في كتابه الصناعتين، ويجعل من الأخذ نوعان، نوع مُستحسن أطلق عليه مسمَّى (في حُسن الأخذ)، والآخر مُستقبح مُستهجن أطلق عليه مُصطلح (في قبح الأخذ) [4] .

---

(1) أبو زيد يوسف سامي ، النقد العربي القديم، (مر ، س)، ص: 376 .

(2) ابن رشيق ، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، (م، س)، ص: 19 .

(3) ينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية، ص: 220 .

(4) ينظر: شريط رابح، مقاربة التناص في النقد العربي القديم، (مر، س)، ص: 74 .

3-6- نقاد المغرب العربي والسرقات الأدبية:

فالسَّرقات الشعرية أو الأخذ الأدبي، من المواضيع التي أسالت حبر كثيرٍ من الأعلام والنقاد في المشرق قبل المغرب، وظلت السّرقة من أفظع وأبشع ما يُتَّهم به الشاعر، والمطلع على المدونة النقدية العربية يجد نقاداً كُثر ممن حاولوا استجلاء هذه المسألة، وفرز كل ملابساتها اللفظية واللغوية، والدَّوران مع أهم المفردات والمصطلحات التي حِيكت حول قضية السرقات، حتى أنَّ منهم من تتبَّع أغوارها وسبر حيثياتها، فلم يتم له الانتهاء من رسم كُنهِها وتتبُّع خطواتها، حتى وجَد نفسه وقد بلغت مسوّداتُ صحائفه ما يزيد عن المائة صفحة، وهو يناقش ويأخذ ويراجع فقط هذه المسألة –الأخذ الأدبي– ، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على مدى الاهتمام الذي أولاه النقاد لهذه القضية التي رأوا من شأنها أنها تحطّ من قدر العالي، وتُغمِطُ جُهود المجدّين المجتهدين إنْ هم وسِمُوا بها.

وإذا كان النقاد المشارقة قد قتلوا هذه المسألة بحثا، فإن النقاد المغاربة قد تطرّقوا لهذه القضية بكثير من التحفُّظ، ولم يطلقوا ألسنتهم في الشعراء إلا لماما، إذ كثيـرا ما نجدهم يلتمسون لهم الأعذار محاولين توجيه ما شابته السّرقة من المعـــاني والألفاظ الوجهة المقبولة من غير ما تجريـح أو تطاولٍ إلاَّ في القليل النادر، ولو تفحّصنا على عجلٍ بعضا من الآراء النقدية التي صدرت عن النقاد في المغرب الإسلامي، فإننا نجد على سبيل المثال، أن ابن بسام غير متحمّس ولا مُندفِعٍ لكيل التُّهم وإلقاء عبارات القدح، على من ظُنَّ به كذلك، شُعورا منه بأن تُهمةً كهذه تحتاج إلى براهين ساطعة واطلاع دقيق[1]، وها هو ابن بسام نفسه يقول:" ولست أقول؛ أخذ هذا من هذا قولًا مُطلقاً، فقد تتوارد الخواطر ويقـع الحافر حيث الحافر، إذِ الشعر ميدانٌ والشعـراء فرسانٌ "[2]، وابن بسام ينطلق في رؤيته هذه من النظرية القائلة، بأن الشعر لاينبني إلا بالشعر، ولا يوجد الشعر إلا بنـاءً على شعر، وذلك من لوازم العمليـــة الشعرية والذي هو التناص كما هو في عرف الناس اليوم .

كما نجد أبا البقاء الرُّندي يصف ظاهرة السرقة الأدبية أنها ممّا تعمُّ به البلوى على حسب تعبير الفقهاء فيقول:" وأما السّرقة فهي على أنواع وبابها متّسعٌ، والتّخلص منها بالجملة يكاد يُمتنع"[3]،

---

(1) يطالع: مرتاض محمد ، النقد الأدبي في المغرب العربي، (مر، س)، ص: 99 .

(2) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (م، س)، مج /1 ، ص: 08 .

(3) نقلا عن: الداية محمد رضوان ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، (مر، س)، ص: 463 .

لذلك نجد أن هذه القضية قد امتلأت بها الكثير من المظان والمصادر التي عَنيّت بالشعر والشعراء، ولم يسلم من الرَّمي بها وتوجيه عبارات الثَّلب حتى كبار الشعراء، كالمتنبي، والمعري، وأبي تمام، والبحتري وغيرهم ممن شغلوا الناس وملأوا الدنيا إبداعاً واختـراعاً.

وإن المنهج الحق في هذه المسألة، هو ذاك الذي سلكه بعض أصحاب النزاهة والرزانة من النقاد الذين لم يكونوا يبالغون ويتسرّعون في استصدار الأحكام، وتلفيق التّهم بحق أو بغير حق، فهذا أبو هلال العسكري يقول بلسان العقل:" ليس لأحدٍ من أصناف القائلين غِنى عن تناول المعاني ممّن تقدم، ويصُبُّ على قوالب من سبق، ولكن عليهم إن أخذوها أن يكسُوها ألفاظاً من عندهم، ويبرزُوها في معارض من تأليفهم، ويوردُوها في غير حِليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها، وكمال حليتها ومعرضها، فإن فعلوا ذلك فهم أحقُّ بها ممّن سبق إليها، ولولا أن القائل يؤّدي ما سمع، لما كان في طاقته أن يقول، وإنَّما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين "[1].

هكذا إذا؛ نظر كبارُ النُّظّار في الشّعر، وعليّة النقاد إلى مسألة السرقة، وليس لمجرد المشابهة في لفظه أو التّوارد على معنى من المعاني، مما يُطيح بالشاعر الجهبذ أو يحط من قيمته، كيف وهذا القاضي عبد العزيز الجرجاني نراه يشجُب التسرُّع في استصدار حكم السرقة، ويدْعو إلى التأنّي والتّؤُدَةِ، والمراجعة الدقيقة لكثير من المفاهيم والمصطلحات الضابطة لهذه المسألة "[2].

أ– النهشلي والسرقة الأدبية:

يستوقفنا عبد الكريم النهشلي على آراء جريئة واضحة في المسألة، فهو يقول معرّفاً السّرقة: "والسرقة في الشعر ما نقل معناه دون لفظه، وأبعد في أخذه، على أنّ من الناس من بعدُ ذهنه إلاّ عن مثل بيت امرئ القيس وطرفـة حين لم يختلفا إلا في القافية، فقال أحدهما وتجمّل، وقال الآخر وتجلّد"[3]، ففي قول امرئ القيس[4]:

وقوفا بها صحبي على مطيّهم يقـولون لاتهلك أسى وتجمّل

ويقول طرفـة[5] :

---

(1) أبو هلال العسكري، الصناعتين ، تح ،محمد البجاوي ، (م ، س)، ص: 202

(2) ينظر: محمد مرتاض، النقد الأدبي في المغرب العربي نشأته وتطوره ، ص: 102 .

(3) ابن رشيق، العمدة ،ج/2 ،ص: 280 .

(4) ينظر: أبي زكريا الشيباني، المشهور بابن الخطيب التبريزي، شرح المعلقات العشر المذهبات، ص: 35 .

(5) المصدر نفسه ، ص: 77 .

وقوفاً بها صَحْبي علَى مَطيِّهم يقُولونَ لا تهلك أَسَى وتَجلَّدِ

والملاحظ على النهشلي أنه كان يَكرهُ على الشعراء تناول المعنى الواحد وإن تباعدت الألفاظ واختلفت، ويرى أن أخذ المعنى وتوظيفه إنَّما يدخل في جملة السَّطو على أفكار الآخرين، وذلك مما يقتلُ الإبداع ويقضي على الابتكار المتأصل، ولأنَّ الاعتماد على نتاج الآخرين يُحجّر الفكر ويميت المبادرة، لذلك عدّ النهشلي السرقة اتّكالا، والاتكال يولِّد البلادةَ والعجز[1].

والمعتمد عند عبد الكريم النهشلي أن السرقة في الشعر؛ إنما تكون في المعنى دون اللَّفظ، ولا تكون إلاَّ في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر، وبالتالي فالسرقة لا تكون في المعاني المشتركة الجارية على ألسنة الناس وعاداتهم، وفي أمثالهم ومحاوراتهم، لذلك نجد النهشلي يُضيِّق في هذه المسألة كثيرا، ويجعلها محصورة فقط في الكلام المبتدع النادر والخارج عن مستعمل العادة والعرف؛ من العبارات والألفاظ، أما ما كان من قبيل المعاني الشائعة التي ترسَّخت في الأذهان وأصبحت جزء من ثقافة العصر، والتي بإمكان أي شاعر أو مُبدع التصرّف فيها واقتباسها، فإنها لا تدخل ضمن إطار السرقة .

يقول عبد الكريم النهشلي: "واتِّكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سُبق إليه جهل، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات "[2]، ويفهم من كلام النهشلي؛ أنَّ على الشاعر أن يتوسط الأمور ويستفيد من تراث السابقين بدون إفراط أو تفريط، وعليه أن يستفيد من معاني وقوالب السابقين، ليؤسِّس من خلالها معاني وقوالب جديدة، من أجل مواكبة الإبداع، وهذا عين ما تؤسّس له النظريات الحديثة التي تدع للاستفادة من نصوص الآخرين تحت مسمى التناص[3]، ومؤدَّى هذه النظرية أنه لا وجود لنص عُـذري بريء من أفكار الآخـرين.

يقول الباحث محمد مرتاض في شرحه للعبارة التي ساقها النهشلي" فهذه الفكرة الثلاثيـة الأبعاد هي من أحسن ما قيل في السّرقات الأدبية إلى الآن "[4].

---

(1) ينظر: بشير خلدون، الحركة النقدية ص: 223 .

(2) ابن رشيق، العمدة ،ج/2، ص: 281 .

(3) ومفهوم التناص عند ذوي الاختصاص: أن النّص عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص إنما هو عبارة عن تشرّب وتحويل لنصوص أخرى، وبالتالي فالتناص كمفهوم حداثي يأتي في مقابل السرقات الأدبية، وقد اعتبره النقاد من الأدوات الرئيسية في الدراسات النقدية، وهو يأتي كأحد الآليات الحديثة ليجسد فكرة تقاطع وتعالق النصوص وتشربها من بعضها البعض، ينظر عبد الله الغدامي، النقد الثقافية ـ مقدمة نظرية وقراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي ، بيروت لبنان ، ط1، 2000م، ص: 33 .

(4) ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، ص: 104 .

والخلاصة؛ أن النهشلي اهتم بقضية السرقات الأدبية، ونبّه إلى أهميتها في تحقيق التجديد والإبداع الفني، في حالة الاستثمار في تناول المعاني بأساليب جديدة ومفردات مبتكرة تتماشى وروح العصر، وبذلك فإن النهشلي لم يُحجِّر على المبدعين والشعراء ،بل دعاهم إلى التوسّط في استعمال المعاني، وهي الفكرة التي رسى عليها البحث النقدي الحديث، في إشارته إلى تلاقُح النصوص وتشرُّبها من بعضها البعض.

ب– ابن رشيق والسرقات الأدبية:

ناقش ابن رشيق بدوره مسألة السرقات الأدبية وبحث فيها مطوّلاً ،محدِّدا معالمها، آخذا في تتبُّع مفاهيمها، حتى وصل به الحال إلى تِعداد وضبط مصطلحاتها التي أوصلها إلى –ستَّة عشر مصطلحا– كما يذكر ذلك محمد مرتاض[1]، وقد اجتهد ابن رشيق في تقديم نماذج شعرية لكل مصطلح أورده، مما يدلّ على دِقَّة معالجته لهذه الظاهرة النقدية التي أخذت الكثير من جُهد النقاد ووقتـهم.

وقد توصَّل ابن رشيق إلى حوصلة مهمَّة لمفهوم السرقة، مبينا أن هنالك الكثير من الإسقاطات التي لا تدخل ضمن هذا الباب، وإن عدَّها بعض الدارسين كذلك، ومن أمثلة ذلك؛ الاشتراك بين الشعراء في الألفاظ المتعارف عليها، فمثل هذا التوارُد لا يعدّ من السرقة الشعرية، ولنا أن نسجل بكل إكبار ذلك الجهد الذي بذله ابن رشيق، حيث أنه لم يترك أي نقطة تتعلق بالقضية إلا وتعرض لها وبحث فيها، ويظهر على الرجل استعابه لجميع الآراء التي سبقته في دراسة موضوع السرقات، حيث قام بمسح نقدي لمصطلح السرقات الشعرية وأحصى لها ستة عشر (16) مصطلحا، وقد تأثر كثيرا بآراء عبد العزيز الجرجاني وقال عنه :"هو عندي أصحُّ مذهبا وأكثر تحقيقا، من كثيرٍ ممن نظر في أمر السرقات"[2]، وهذا الذي تركنا نراه يجعل من مواقف الجرجاني الرأي السديد، والقول المفيـد.

ونظرا لاهتمامه بموضوع السرقات نجده يخصّص لها بابا كاملا في عُمدته سماه باب السرقات وما شاكلها، وزاد أمر اهتمامه بالمسألة أن ناقشها وبسط فيها القول أكثر، بكتاب مُنفرد سماه (قراضة الذهب في نقد أشعار العرب)؛ حيث حاول أن يجمع في ذلك الكتاب كل ما استطاع

---

(1) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، ص: (105 ـ 107) .

(2) ابن رشيق، العمدة ،ج/2، ص: 280 .

استعابه من الآراء والأفكار التي سبقته في المسألة، مُضيفا إليها آراءه الخاصة المبتكرة التي تحمل الكثير من الجديَّة والوجاهة النقدية .

وإنما نقُول هذا الكلام عن ابن رشيق لأنه،" فصّل القول في المسألة ودرسها من جميع جوانبها، وأطال الكلام فيها وقلّبها ظهر لبطن، حتى عُدَّ كلامه فيها من باب التنظير للمسألة، خاصة وأنه سلك في تنظيره النقدي؛ مسلكاً زاوج فيه بين التنظير والتطبيق في التحليل والتعريف بالمسألة، فكان كلامه فيها أكثر عمقا، وأبعد أثراً "ا[1]، وبذلك يعدّ ابن رشيق من أكثر النقاد المغاربة دراسة لمسألة السرقات .

ويظهر تأثُّر ابن رشيق بأستاذه النهشلي واضحا في المسألة، ذلك أننا نجده، ينتصر لما ذهب إليه عبد الكريم من أن المعاني العامة المتداولة بين الناس لا تسري فيها السرقة، وإنما تكون السرقة في المعاني المخترعة التي اختص بها أفراد دون غيرهم، يقول ابن رشيق في السرقات:" وهذا باب متسعٌ جدا، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه، ذلك لأن السّرقَ فيه الغامض الذي لا يقدر على كشفه إلاَّ البصير الحاذق بصناعة الشعر ونقده، وفيها الواضح المكشوف الذي لا يخفى على الجاهل المغفّل"[2]، وكأنه بذلك لا يريد التحجير على الشعراء .

وقد تنبّه إحسان عباس إلى مُبتكرات ابن رشيق واجتهاداته، عند حديثه عن السرقات الشعرية فنجده يقول:" إنَّ ابن رشيق يخترع لنا مسمّى آخر يندرج ضمن باب السرقات، إلا أنه ليس بسرقة إنَّما هو تلفيق، وذلك بأن يأخذ الشاعر المعاني المتقاربة ويستخرج منها معنى مؤكّدا يكون له كالاختراع، ويرى أن أكثر الشعراء الذين توسّعوا في ذلك، هو ما كان من أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري، فإنّهما بلغا في ذلك كل غاية، وهو ملمح يدلُّ على ذكاء ابن رشيق وقوَّة بصيرته النقدية"[3]، ويضيف إحسان عباس قائـلا:" وبهذا النوع الذي سماه الملفّق تفوّق على كل من بحث أمر السرقات من قبل، وهو دليل أي قوي على أن ابن رشيق كان ناقدا أصيل الذوق عميق النظرة"[4].

---

(1) ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي،(مر، س)، ص: (108ـ 109) .

(2) ابن رشيق، العمدة، ج/2 ، ص: 280 .

(3) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (مر، س)، ص: 466 .

(4) المرجع نفسه، ص: 466 .

وعن وجهة النظر الشخصية لابن رشيق فإنه يطرح المشكلة من زاوية خاصة ويرى بأن السرقة أنواع[1]:

ـ منها سرقة اللفظ مع المعنى وهي أفحش السرقات وأفظعها.

ـ ومنها سرقة المعنى مع تغييـــر بعض اللفـظ .

ـ وهناك نوع آخر للسرقة وتعتمد على تغيير بعض المعنى أو قلبه عن وجهه حتى يخفيه.

وانطلاقا من هذه التفريعات والتنويعات التي عددها لأوجه السرقة، فإننا نجده يخرُج لنا بمصطلحات خاصة، نذكر منها على سبيل التمثيل: الاصطراف، الانتحال، الإغارة، الغصب، المرافدة، الاهتدام، والإلمام، الاختلاس، المواردة، والتلفيق...إلخ، وقد عرّف ابن رشيق بهذه المصطلحات كلها، وقدّم الشواهد عن كل حالة منها .

وبذلك فإن ابن رشيق في بحثه مسألة السرقات إنما يتبنى كثيرا من الآراء التي عرضها شيوخه وأساتذته من قبله ، من الذين أخذ عنهم وتأثر بهم، من أمثال النهشلين والقاضي الجرجاني، والأمدي، ومن أدلة ذلك أننا نجده ينقل كلام الآمدي ويتبناه والذي هو:" والسَّرق إنما يكون في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر، لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم، ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم " [2] .

ومن أهم المصطلحات التي يذكرها في عمدته، ويمثل لها بنصوص تطبيقية نذكر ما يلي:

الاصطراف ويعرّفه بقوله:" هو أن يُعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه، أمّا إذا ادّعاه جمُلة فهو انتحال، إذ لا يقال منتحل إلا لمن ادّعى شعرا لغيره، وأمّا ما يأخذه الشاعر غلبة وقهرا فسماه الإغارة والغصب، فإن أخذه هبة فتلك المرافدة أو الاسترفاد، فإن كان السّرق لما دون البيت فذلك الاهتـدام، فإن حوّل المعنى من غرض إلى آخر ـ من مدح إلى نسيب أو العكس ـ فذاك الاختلاس، فإن جعل مكان كل لفظة ضدّها فذلك هو العكس، فإن صحّ أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر ، وكانا في عصر واحد فتلك المواردة ، فإن ركّب البيت من أبيات فذلك هو الالتقاط والتلفيق"[3]

---

(1) ينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية، ص: (227 ـ 230) .

(2) ابن رشيق، العمدة ،ج/2، ص: 281 .

(3) المصدر نفسه، ج/2، ص: (282 ـ 286) ، وينظر في بيان مصطلح الاصطراف، ومشتقات السّرقات: محمد مرتاض، وكتابه: النقد الأدبي في المغرب العربي نشأته وتطوره، ص: (106 ـ 107) .

وما يلاحظ على ابن رشيق أنه تدارك على النقاد قبله بعض المصطلحات، ومثّل لكل مصطلح فيها، وأتى بأمثلة عليها، وقدّم نظرته الخاصة في الموضوع، ومن الأمثلة التي ساقها ابن رشيق ونُمثّل ببعض منها في هذا المقام – ونكتفي بواحد منها خوف الإطالة – ما يقوله عن الفرزدق وقد أغار على أبيات جميل بُثينة عندما سمعه ينشد :

تَرى النّاس مَا سرْنا يسِيرُون خَلفَنا فَإِن نحْنُ أَوْمأْنا إلى النَّاس وقَفُوا

فقال الفرزدق:" ومتى كان الملك في عُذرة!؟ إنما هو في مضر، وأنا شاعرها، فغلب الفرزدق على البيت ولم يتركه لجميل "[1] .

وإن أحسن ما تفرّد به ابن رشيق أثناء تعرضه لمسألة السرقات قوله:" إنَّ أشرف السّرقة هي تلك المتمثلة في نظم المنثور وحلِّ المنظوم،كما كان يصنع أبو العتاهية في نظمه لكثير من الأقوال والحكم"[2].

نخلُص ممَّا سبق إلى أن ابن رشيق كان واحداً من النقاد المعتدلين، سالكاً في ذلك سيرةَ من سبقه من كبار النقاد والأدباء كالآمدي، والقاضي الجرجاني، وأستاذه عبد الكريم النهشلي وكلهم اتفقوا على أن السرقة لا تكون إلا في البديع المخترع الذي اختص به شاعر بعينه .

ج– الحصري والسرقات الشعرية:

تحدّث الحصري في كتابه زهر الآداب عن السرقات الأدبية أيضا، وقد توسّع فيها كثيرا مُتتبّعاً بعض الشعراء، مبرزًا سقطاتهم الشعرية عن طريق عرض نماذج تطبيقيَّة لما يمكن أن يدرج ضمن سياق السرقات الأدبية.

ومن الأمثلة التطبيقية لتمثّلات الحصري في هذا المجال، حيث نجده ينتهج طريقة الموازنة الأدبية في تتبُّع وتقفي آثار الشعراء بغرض إظهار النص الأصلي من النص المسروق، والمبدع من الشعراء من غيره، كما أنه تصدَّى لفن البديع ،والذي أبدع فيه الحصري كثيرا، حتى قيل لاحقا:" إن نقاد المغرب العربي إنما أبدعوا وحذقوا في البديع أكثر من غيره من أبواب البلاغة والنقد" [3].

---

(1) ابن رشيق ، العمدة ج/2 ، ص: 284 .

(2) المصدر نفسه ،ج/2 ، ص: 293 .

(3) ساعي إدريس، علم البلاغة في الموروث النقدي المغربي (العمدة أنموذجا)، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة الجزائر، العدد: 09 ، ديسمبر 2015م، ص: 214 .

ونلمس وضوح وتجلّي شخصية الحصري أكثر في هذا الفن، كما نلمس اهتمام الحصري ببعض القضايا النقدية الأخرى في شكل إشاراتٍ مقتضبةٍ، وليس بذلك التفصيل والإسهاب عند نقاد المغرب الآخرين كابن شرف، وابن رشيق .

نعم لقد حفل كتاب الحصري (زهر الآداب) بإيراد نماذج تطبيقية وأمثلة كثيرة لما يمكن أن يدرج ضمن السرقات الشعرية، وقد توسّع كثيرا في تقصّي مواضعها، حتى لكأنه يستشعر متعة ولذّة خاصة في ذلك، على عادته التي كان يرومها من تأليفه لكتابه (زهر الآداب وثمر الألباب، في تحقيق المتعة الأدبية باختيار ما حَسُن وملُح من الأخبار والمرويات.

أما عن طريقة الحصري في عرض وتناول أمر السرقات فإنها كانت عملية تطبيقية أكثر منها تنظيرية، حيث نراه يقول في ذلك:" إنّ حقَّ من أخذ في معنى سُبق إليه، أن يضعه أجْودَ مما صنعة السابق إليه، أو يزيد عليه حتى يستحقّه، أما إذا قصر عنه فهو مُسيء معيب بالسرقة، مذمومٌ على التقصير"[1]، وإذا؛ فطريقة الحصري في التنبيه والإشارة إلى موضع السرقة تتلخص غالبا في إيراد أبيات شعرية في معنى من المعاني، ثم ينبه إلى أن شاعرا آخر قد سبق إلى هذا المعنى، أو يشير إلى ذلك .

أمثلة تطبيقية:

من ذلك حُكمه على عبيد الله بن طاهر من أنه أخذ من عقيل بن علقمة، يقول ابن طاهر :

لكُلَّ أب بنْتُ يُرجى بقَاؤُها ثلاثـةُ أصهـَار إذا ذُكر الصِّهر

فبيْت يُغطّيهاَ وبعْل يصُونهـَا وقَبْر يُواريهَا وخَيْرهما القَبْـــر

يقول الحصري إنه أخذ هذا المعنى من بيت عقيل بن علقمة الذي يقول فيه:

إنّي وإن سبــَقَ إليّ المهْـرُ ألْفُ وعبـْدانِ وذُود عشْـــر

أحَبُّ أصهـَارِي إليَّ القبـْر

فالحصري يرى أن عبيد الله بن طاهر أبان عن إضافتين مهمتين وهما: الصِّهران الآخران غير القبر، وهما: البيتُ، والبعلُ[2].

والسرقة عند الحصري كما تكون في الشعر تكون في النثر أيضا، فقد سجل لنا الحصري أن أبا تمام أخذ بقول عمر بن عبد العزيز في قوله لغلام خطب وتكلم أمامه فأعجب ببيانه، فقال تكلم

---

(1) ينظر: الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب ،(م، س)، ص: 116 .

(2) أحمد يزن، النقد الأدبي في القيرواني في العهد الصنهاجي، ص: 349 .

فهذا السحر الحلال: حيث أخذ أبو تمام ذلك القول، وقال مخاطبا أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي واصفا قصائده بقوله[1]:

هي السِّحْر الحــلاَلُ لمُجْتليه وَلمْ أرَ قبْلَها سِحْرا حَلاَلاً

وجملة القول" أن الحصري لم يأت بجديد في قضية السرقات كما يقول الشيخ بوقربة، إنما كرّر ما يقوله النقاد الذين سبقوه، اللهم إلاَّ تنبيهه على ما أخذه شعراء المغرب من معاني شعراء المشرق"[2].

ابن شرف ومفهومه للسرقة الأدبية:

فالمطَّلع على اجتهادات ابن شرف يلمحُ بوضوح كيف عدّ هذا الناقد السرقة من عيوب الشعر الكبرى، وها هو ذا يقول:" ومن عيوب الشعر السرقة، وهو كثير الأجناس في شعر الناس، فمنها سرقة ألفاظ ومنها سرقة معان، وسرقة المعاني أكثر لأنها أخفى من الألفاظ، ومنها سرقة المعنى كله، ومنها سرقة البعض، ومنها مسروق باختصار في اللفظ وزيادة في المعنى وهو أحسن المسروقات، ومنها مسروق بزيادة ألفاظ وقصور عن المعنى وهو أقبحها، ومنها سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص، والفضل في ذلك للمسروق منه ولا شيء للسارق" [3].

فابن شرف يجعل من السرقة أمرا مُشينا وفعلا مُستقْبحا وعيباً لا يخفى، ولعل غريزة حبّ الظهور والتقـوّي بالآخرين، هي التي جعلت فعل السرقة يتفشّى بين الشعراء، وصداه ينتشر في كثير من قصائدهم، هذا وقد اجتهد ابن شرف في تعداد أنواع السرقة الأدبية موضحا بالبرهان والتمثيل الشعري كل نوع منها، ليخلص من كل ذلك إلى أن أشد أنواع السرقة ما كان في المعاني[4]، وهاهو ذا يقول:" إنَّ السرقة أنواْع، فمنها ما يكون في الألفاظ، ومنها ما يكون في المعاني، وسرقة المعاني أكثر شيوعا لأنها أخفى من الألفاظ "[5] .

ومن الأمثلة التي يسُوقها ابن شرف في أمر السرقات ما يذكره عن أبي نواس وسرقته معنى من بيت أبي الشَّيص حيث يقول:

---

(1) يراجع، سهالي عامر، قضايا النقد في كتاب زهر الآداب للحصري، (مر، س)، ص: 41 .

(2) بوقربة الشيخ، مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، (مر، س)، ص: 330 .

(3) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام ، (م، س)، ص: 42 .

(4) ينظر: إبراهيم طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)، دار الكتب العلمية لبنان، ط1، 1985م، ص: 578 .

(5) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، (م، س)، ص: 42 .

وقَفَ الهَوَى بِي حَيْثُ أنت فليْسَ لي مُتأخّر عنْه ولَا مُتقَدَّم

حيث عمد الحسن بن هانئ إلى سرقة المعنى بكامله فقال :

فمَا جَازه جُود ولَا حَلّ دُونَه ولكنْ يَسِير الجُود حيْث يَسِير

ليعلق ابن شرف قائلا: فالسرقة واضحة ، وبيت أبي الشيص أحلى وأطبع[1] .

وعلى الجملة فإن مسألة السرقات الشعرية من بين أكثر القضايا الأدبية التي طرحت للنقاش وسال حولها حبر كثير، ولاكتها الألسنة وأشبعها الدارسون بحثا، كلٌّ يُدلي بدلوه لإظهار براعته ومقدرته، ومع ذلك الجُهد لم تتّفق كلمتهم على مفهوم دقيق للسرقة والأخذ الأدبي، بل كل منهم انتصر للفكرة التي كان يرومها ويراها، إما دفاعا عن شاعره المفضل أو تقوُّلا بالحدس فيمن شهد له الناس بالشاعرية والجاذبية والنبوغ والتفرّد [2].

وعلى ذلك فإنَّ الغرض من بسط الكلام في مسألة السرقات، إنما هو لاكتشاف مدى أصالة الإبداع من عدمه، والحكم على درجة ابتكار الشاعر أو الأديب، ومقوّمات ثقافتــه .

كانت هذه هي نظرة النقاد المغاربة إلى مشكلة السرقات الأدبية التي شغلت بال النقاد كثيرا، وقد وقف المغاربة منها موقفا معتدلا، اعتبارا من أن السرقة باب متسع لا يقدر أحد من الشعراء السلامة منه.

والذي يظهر بعد التتبُّع والدراسة لما تطرق إليه أدباء ونقاد المغرب العربي من جملة القضايا النقدية التي طرحها النقد العربي القديم نخلص إلى أن عبد الكريم النهشلي كان أكثر النقاد المغاربة اهتماما بهذه المسألة –مفهومية الشعر وبنيته– ، حيث لاحظنا عليه إسهابه في الحديث عن ماهية الشعر وأوليّته، مقارنا بين الشعر والنثر، مقدِّما الشعر عليه مبرزا مبررات هذا التقديم، ومعدِّدا مزاياه، لذلك اتخذه العرب ديواناً لهم لأنه يحمل أخبارهم وينقل آثارهم، وهو الأمر الذي جعلهم يُعطون للشاعر كل تلك القداسة، وذلك الزخم الكبير من التقدير والتبجيل.

وعمُوما فإن النهشلي تناول هذه القضية بكثير من التفصيل، وأحاط بكل حيثياتها وملابساتها، وكانت له في ذلك الكلمة الفصل، لذلك نجد ابن رشيق يرجع إليه كثيرا، ويتمثل بآرائه ومُلاحظاته النقدية التي يقدمها في هذا الجانب، وإذا ما حاولنا المقارنة بين آرائه النقدية في هذه المسألة، مقارنة

---

(1) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام ، ص: 43 وما بعدها .

(2) إبراهيم طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)، ص: 578 وما بعدها .

بما قدمه من ملاحظات نقدية في بقية المسائل الأخرى، فإننا نلحظ أنه النهشلي لم يتوسَّع في باقي المسائل والقضايا النقدية التي تناولناها بالدراسة في هذا الفصل، مثل توسُّعه في الحديث عن بُنية الشعر وأهميّته، وكانت آرائه في ذلك تحمل كثيرا من الجدّة والقوة العلمية والوجاهة النقدية.

أما ابن رشيق القيرواني فإنه وإنه بدا عليه الاهتمام بأكثر المسائل التي تناولها النقد العربي القديم، إلا أننا نلحظ منه اهتماما زائدا وبحثا موسّعا لمسألة السرقات الشعرية، والدليل على ذلك هو أنه تناولها في كتابه النقدي؛(العمدة) ، ولم يكتف بإشاراته تلك، وإنما زاد اهتمامه بالمسألة ليخصّص لها بحثا مستقلا في رسالة سماها (قراضة الذهب في نقد شعر العرب) حيث نجده يفصِّل القول فيها، بعد أن خصَّص ما يزيد عن مائة صفحة كاملة، مُبينًا وجهة نظره فيها باهتمام بالغٍ.

والشيء الذي جعله ربما يحيط بالمسألة بحثا ،كونه شاعرا إلى جانب اهتمامه بمسائل النقد وقضاياه، والعامل الآخر الذي جعله يبحث في المسألة أكثر ويكثر فيها من الاصطلاحات والتفريعات، ما اتُّهـم به من أمر السرقة، وقد كان هذا عاملا محفّـزا له على بحث مسألة السرقات وتقليبها من جميع جوانبها، وإذا كانت هذه المسألة قد بحثها نقاد كثيرون فإن ابن رشيق تفوّق عليهم جميعا في ذلك، وتوسَّع في هذا الباب على كل من بحث فيه، نرى ذلك جليًّا في كتابيْه (العمدة، والقراضة)، وإحاطته بمسألة السرقات من خلال ما تناوله من النصوص المختارة ، حيث كان تحليله لها في غايـةِ الذَّوقِ والعُمقِ والأصالة.

وإذا نظرنا إلى ابن شرف القيرواني؛ خاصة ما تناوله في كتابه (أعلام الكلام)، فإننا نجد له كلاما جميلا وتخريجا حسنا عند حديثه عن القديم والجديد، عندما نراه يدعُو النقاد والأدباء إلى دراسة الأثر الأدبي ثم الحكم عليه، دون النظر في تقدّم المتقدِّم أو تأخر المتأخِّر، وإنما الأساسُ هو التجويد والتحسـين.

أما عن الحصري فإنه يظل على مذهب شيوخه من أمثال بديع الزمان، والخوارزمي، بديعُ المذهب، ميّالا إلى الصَّنعة مُؤثرا للزخرفة والكلام المسجوع بشكل لافتٍ، وهو يستلطف أشعار المحدثين والمولّدين أكثر من غيرهم، لما عندهم من لطـــائف الابتداع وغرائب الاختراع.

كانت هذه خلاصةٌ عامةٌ، وحوصلةٌ شاملـةٌ لمجموع آراء النقاد المغاربة في دراستهم للمسائل والقضايا النقدية، وأعمق الآراء التي ميّزت دراستهم لها ، وعلى الرغم من قوة تلك المعارك وضراوتها

إلا أنها ساهمت بشكل كبير في إعطاء حركية ودافعية للنشاط الثقافي، والذي تجلَّى من خلال سعي النقــاد إلى الكشف عن مَكــامن السرقــات ومواضعها، وبالتــالي اكتشاف النص الأصيل المبتدع من النَّص الدَّخيـل.

* * *

الفصل الرابع

المنجز النقدي المغربي القديم في رُؤى النقاد المحدثين

1 – التراث النقدي المغربي بعيون النقاد القدامى في المشرق والمغرب.
2 – االنقاد المغاربة القدامى في ميزان النقد العربي الحديث.
3 – مدى تأثير النقاد المغاربة فيمن جاء بعدهم من الأدباء والدارسين.
4 – المنجزُ النقدي التطبيقي للنقاد المغاربة القدامى في رؤى النقاد المحدثين.
5 – الأدباء والمفكرون المغاربة ومرحلة إثبات الذات .
6 – الاستقلالية والخصوصيَّة في تفكير وإبداع النقاد المغاربة القدامى.

في هذا الصفحات سيكُون الجُهد مُنصبا على إبراز المنجـز النقدي المغربي في كتابات وأعمال النقاد المحدثين، ويشكّل هذا الفصل محوراً مهمًّا في الإبانة عن جهود النقاد المغاربة القدامى، من خلال عرض جملة الآراء التي تمكّنت من جمعها والإحاطة بها، والتي قدّم أصحابها قراءاتٍ معينةٍ عن المجهود الذي بذله النقاد المغاربة في ذلك الزمن المتقدّم، خاصة وأن المكانة الحقيقية لأي مُنجز أدبي أو علمي، إنما كان تُقاس بآراء النقاد والدارسين ونظرتهم إليه، وبيان حُدود قيمته .

وحتى أُعطي الموضوع حقّه من الدراسة فقد وضعت تصوّرا عرّجت من خلاله على المنجز النقدي المغربي في كتابات النقاد العرب في القديم والحديث، مع إبراز الخصوصية والاستقلالية لدى الأدباء والنقاد المغاربة، في طرح أفكارهم وتقديم رُؤاهم النقدية، على أن منهجية الدراسة والعرض لهذه الآراء؛ إنـما انطلقت فيها من زاوية النظر فيما تقدّم به كل ناقد مغربي بشكل مستقل، بحيث تعرَّضت لجهود النهشلي، فابن رشيق، والحصري، وابن شرف،كل واحد منهم بشكل منفرد، مع الإشارة عندما تقتضي الضرورة ذلك إلى أهم التفرّدات والاجتهادات التي ميّزت الفعل النقدي لهؤلاء الأعـلام.

والشيء المُلفِتُ في هذا الصَّدد أن الكفّة كثيرا ما كانت تميل في غالب الأحيان إلى الحسن بن رشيق كناقد متميِّز، شكّل الاستثناء في الإقليم المغربي، بل إنه استطاع بمجهوده الكبير أن ينقل النقد من المشرق إلى المغرب، فكان كلُّ من ظهر بعدهُ في المشرق والمغرب لا يمكن له الخَلُوص إلى رأي بعينه أو ترجيح مسألة معينة، إلاَّ بعد أن يتعرّض لرأي هذا الناقد الألمعي الكبير، كما يقول محمد مرتـاض[1] .

انطلاقا ممَّا سبق؛ ستكون لنا وقفة مع عديد الأسماء التي درست الإبداع المغربي، وعاينت عن قرب ما أنتجه أعلام المغرب العربي في الأدب والنقد، حتى نتمكَّن من أخذ صورة صحيحة عن هذا التراث، ومن ثمة معرفة الحجم الحقيقي للجهد المغربي في خدمة الأدب والفكر والممارسة النقدية السليمة والفاعلة، على أنَّني أشير إلى أن هذا الفصل الأخير اقتضت ضرورة البحث فيه أن يكون أطول الفصُول، وذلك لارتباطه بالفكرة الأساسية التي تضمنتها إشكالية هذا البحث .

(1) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي، نشاته وتطوره، (مر، س)، ص: 136 .

1- التراث النقدي المغربي في عيون النقاد القدامى بالمشرق والمغرب:

رغم الصورة السلبية التي ارتسمت في أذهان الكثير من المتابعين للشأن الأدبي والشعري المغربي منذ زمن الصاحب بن عباد[1] ، ومقولتِه التي قابل بها الإبداع الآتي من المغرب الإسلامي بعد أن قرأ كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربِّه وتعليقه الساخر يومها ـ **هذه بضاعتنا ردّت إلينا** ـ[2]، حيث ظلَّت هذه النظرة ومثل هذا الاعتقاد، يطبعُ تفكير الكثير من مُفكري المشرق ومُبدِعيهم، الذين اعتقدوا وترسَّخ في أذهانهم أن الإبداع كل الإبداع إنما مصدرهُ الشَّرق، أما أهل المغرب فهم أصحاب شروح وهوامش وتعليقات ليس إلاّ [3].

إلاَّ أنَّ ذلك لا ينفي وجود كثيرٍ من الآراء الجادة المنصفة، والدّراسات الموضوعية من بعض مفكري المشرق وعلمائه، يُنوِّهون من خلالها ويشيدون بالإنتاج المغربي، وينظرون بكل إكبارٍ وتقديرٍ لبعض القامات الفكرية والأدبية المغربية التي تركت بصمتها وأثْرت التراث النقدي العربي، وإنَّ من أبرز تلك الآراء التي بان لي من الواجب نقلها في بداية هذا الفصل، ما ذكره القفطي في إنباه الرّواة، وهو يتكلَّم عن الناقد المغربي الحسن بن رشيق بعد أن تصفَّح كتابه(العمدة)، ورأى ما فيه من تميُّزٍ وتفرُّدٍ في الدراسة الأدبية والنقدية فقال عنه: " فهذا كتابه العمدة وهو أجلُّ كتبه وأكبرها، اشتمل من هذا النوع -يريد بذلك مسائل النقد والبلاغة- على ما لم يشتمل عليه تصنيفٌ مثله، وأحسن فيه غاية الإحسان، وقد ذكر هذا الكتاب بحضرة القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني فقال: هو تاجُ الكتُب المصنّفة في هذا النَّوع" [4].

---

(1) الصَّاحب بن عباد، هو أبو القاسم إسماعيل بن عباس بن عباد بن إدريس القزويني الأصفهاني، وسمي بالصّاحب لأنه كان أول من صحب مؤيِّد الدولة البويهي من صباه، فسمَّاه بالصَّاحب لطول مصاحبته له،كان شاعرا جواد، وأحد أعيان العصر البويهي، اشتغل بالوزارة ، ويعدُّ من الوزراء القلائل الذين غلب عليهم العلم والأدب، ولد سنة (326هـ)، كانت له مخالطة مع ابن العميد، وأخذ الأدب عنه، واستفاد منه، قال عنه الثعالبي: (هو صدر المشرق، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان، لا تكفي العبارة في الإفصاح عن علوّ كعبه في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، (توفي سنة 385هـ)، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/1، ص: (228 ـ 229) .

(2) ذُكر عن الصاحب ابن عباد أنه كان قد التمس وطلب كتاب ابن عبد ربه ـ (العقد الفريد) ـ بغرض الإفادة من تراث المغاربة وأدبهم، والإطلاع على علومهم، فوجده يعجُّ بأدب المشارقة وأخبارهم، فقال قولته تلك، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/1، ص:229 .

(3) سأتحدّث عن هذا المفهوم وخلفياته وآثاره، في مبحث الاستقلالية والخصوصية لدى الأدباء والنقاد المغاربة، ص: 240 وما بعدها.

(4) يذكر القفطي في إنباه الروّاة هذا الخبر عن عبد الرحمان البيساني، والذي عُرف باسم القاضي الفاضل، وقد كان أحد أئمة الكتابة والنباهة والفضل في زمانه، وقد استوزره السلطان صلاح الدين الأيوبي، حيث كان يفخر به كثير، وكان يقول عنه في جملة ما يقوله: لا تظنوا أني فتحت ما فتحت من البلاد بالعساكر، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل، اتخذه صلاح الدّين مستشارا خاصا به لفصاحته وبلاغته، حتى قيل عنه بأنه رب القلم والبيان واللسن واللسان، توفي سنة 596هـ ، وهو صاحب المقولة المعروفة التي بعث بها إلى العماد الأصفهاني يعتذر فيها عن كلام استدركه هذا الأخير عليه :"إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قيل في غده ، لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو

هذا واحدٌ من الآراء التي خطر لنا إثباتها في هذا المقام، للتدليل على مكانة النقد والنقاد المغاربة، وأن المنجز النقدي الذي قدّموه للدارس العربي سيظل أحد الروافِد التي خدمت التراث العربي في عمومه دون تفريق بين مشرقٍ أو مغربٍ، وإنَّ أكثر الدارسات المنصفة إنما نظرت إلى الجدّة في الكتابة والتنوع في البحث، بغض النظر عن بيئته ومبدعه.

والحق أن الثناء والإشادة بابن رشيق كناقد ومبدع متميّز،كانت محلَّ حفاوةٍ وتبجيل من طرف كثيرٍ من الدارسين المشارقة القدامى، لعل من أشهرهم ابن خلكان، وياقوت الحموي[1]، والصفدي[2] فضلاً عما ذكرناه عن القفطي كما أشرتُ عن ذلك من قبل، ويكفي الرَّجل فخرًا وشرفاً أنْ أثنى عليه كثيرٌ من الأدباء والدارسين في القديم والحديث .

فهذا ابن خلكان في ترجمته لابن رشيق يقول عنه:" هو أحدُ الأفاضل البلغاء، له التصانيف المليحة منها،كتاب (العمدة، والأنموذج، وقراضة الذهب) "[3]، وبالفعل فإن ما اشتملت عليه هذه التّصانيف التي ذكرها ابن خلكان، من ملاحظات وآراء نقدية جريئة، يجعلها تكون محلَّ ذكر وإشادةٍ وتنويه، استفاد منها الأدباء والدارسون في كل العصور، بل إنَّ منهم من اقتصر عليها، خصوصًا كتابه (العمدة) لشموليته، هذا الأخير الذي استعذب كثيرٌ من القراء طريقة عرضه للمسائل والقضايا النقدية والبلاغية التي ناقشها النقد القديم، ومن الأدلّة الظاهرة على ذلك ما نلمسُه من إشادة وتنويه من ابن خلدون، حتى أننا نجده يقول عن عُمدة ابن رشيق: " وهو الكتابُ الذي انفرد بهذه الصّناعة وأعطاها حقَّها، ولم يكتب أحد فيها قبله ولا بعده مثله،.. وبالجملة فهذه الصناعة وتعلّمها مستوفى

زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر على استيلاء النقص على جملة البشر "، ينظر: القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، دط، 1374هـ/1955م ،ج/1، ص: 304 ،كما ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (م، س)، ج/1، ص: 56 .

(1) إنَّه المترجم والجغرافي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي من أصل رومي، عاش في الفترة من(574/ 626هـ) ببغداد صاحب التصابيف المليحة والتراجم الغالية النفيسة ، منها كتابه معجم البلدان، والآخر أطلق عليه معجم الأدباء ، ينظر ترجمة حياته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/6، ص: (127 ـ 135)،كما ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/3، ص: 96 .

(2) الصفدي فهو صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الدمشقي الشافعي، ولد في أُخريات القرن السابع الهجري ، وطلب العلم حتى نبغ فيه ،كانت له همّـةٌ عالية في طلب الآداب والعلوم المختلفة، جاوزت مؤلفاته الخمسين ، منها كتابه الوافي بالوفيات الذي استدرك فيه على ما لم يذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان، ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/3، ص: 174 .

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/2 ص: 86 .

من كتاب العمدة لابن رشيق، وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجُهد، ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب، ففيه البُغية من ذلك "[1] .

إنَّ هذا الرأي من ابن خلدون، يُعطي الانطباع بأن النقد المغربي في القرن الخامس الهجري بلغ مبلغاً عظيماً بظهور ثلةٍ من الأدباء والنقاد المغاربة من أمثال ابن رشيق، حتى أنَّ ابن خلدون يجعل كتاب (العمدة) وما خلّفه ابن رشيق الأساس المكين، والقول المبين في صنعة الشعر، بل ويجعل من صاحبه الرجل المتفرِّد عن أهل زمانه في هذا الفن، وأنِّ كتابه العمدة هو المعتمدُ والمرجع الذي لا يضاهي في مجال صنعة الشعر ونقده، ومن أراد تعلم ذلك فعليه بالكتاب ففيه البغية والصواب بحسب ابن خلدون، وهي شهادة وأية شهادةٌ من عالم كبير وقامةٍ من قامات العلم، ويكفي ابن رشيق شرفاً وفضلاً أن يكون في جملة العلماء الذين أثنى عليهم ابن خلدون، وشهد لهم بالأحقيَّة والأسبقيَّة .

ولا يفوتني في هذا المقام الإشارة إلى رأي ابن بسام، حيث يقول عن ابن رشيق: "كان أبو عليٍّ رَبْوة لا يبلغها الماء، وغاية لا تنالها الوجناء، إنْ نقد سعى الطبع الصقيل، أو كتب سجد القلم الضئيل، شُعاع القمر، وحديث السمر، ومُعجزة الخبر"[2]، وفي موضع آخر نجده يُعلي من شأنه ويصفه بالأديب الكامل، وذلك ما نلمسه وهو يسمّي أحد فصول أبواب كتابه قائلا: " فصلٌ في ذكر الأديب الكامل أبي علي بن رشيق المسيلي" [3]

ولاشك فإنَّ ابن بسام وهو من هو علما ودرايةً وسعة اطلاع، يقدِّم لنا رأيه في الناقد المغربي ابن رشيق القيرواني إذ كان يرى فيه الشُّعلة المتوقّدة، والكتاب المفتوح على التراث العربي تاريخا ونقداً وشعرا ،وإن كتاباته في هذا الميدان أشهر من نار على علم كما يقولون، لأنّ ما قدّمه للناس في مجالي النقد والأدب، كان وسيظل القلعة التي يقصدها كل قاصد، وينوء عن حملها كل مقتصد، وكتابه الكتاب النفيس الذي يصبوا إليه كل عالٍ ورخيص، ومهما كُتب عنه فإنه سيظل الرَّوض المِعطاء الذي لا تنفذ رائحته بتوالي الحِقبِ والسنينِ.

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج/2، ص: (744 ـ 746) .

(2) ابن بسام، الذخيرة ، (م، س)، ، (مج/ 4، ق2) ، ص: 597 .

(3) المصدر نفسه، ص: 584 .

2- النقاد المغـاربة القدامـى في ميـزان النقـد العربي الحديـث :

نظر النقاد العرب المحدثون إلى الموروث النقدي المغربي القديم كمُنجزٍ فردي لبعض الأقلام والأعلام الذين عرفتهم البيئة المغربية، وانطلاقا من ذلك راحوا يقيّمون أعمالهم ومُنجزاتهم من خلال الكتب والمصنّفات التي خلّفها أولئك النقاد القدامى في الأدب والنقد.

وعلى هذا الأساس سيكون عملي متَّجها إلى إبراز أهم الجهود التي قدّمها نُقاد وأدباء المغرب العربي القديم، وذلك من خلال النظرة الفردية لكل واحد منهم، وما خلفه من إبداع نقدي أو كتابة في هذا المجال، يقول الناقد محمد مرتاض: "إنَّ ما تركه نقاد المغرب العربي لم يكن مُجرّد لمحاتٍ عابرة، أو وقفات قاصرة، إنما عمل بعضهم وحاول أن يؤسِّس لمنهج نقدي؛ يطبعه الوضوح ويسِمُه التّبيين"[1].

كما قادتنا عملية القراءة والتفحّص لأراء النقاد المحدثين من العثور على كلام في غاية الاتزان والعقلانية للناقد إحسان عباس، وهو من هو في القراءة الموضوعية والموازنة العلمية المتّسمة بالدقة، حيث نجدُه يذكر الحاضرة القيروانية وما اتَّسمت به من حُضور أدبي وعلمي لافت ومتميز، والتي اجتمع في أحضانها أَخلصُ رجال الفكر والأدب إبّان زمن ازدهارها فيقول:" يُمكن القول بأن مدرسة القيروان قد استقلَّت ببعض الآراء النقدية، بفضل حيويَّة وحركية بعض النقاد الذين أثنى الناس على ذكرهم؛كالنهشلي، وابن رشيق، وابن شرف، وقدَّموا بعض التميُّز الذي ظهرت به هذه المنطقة في المغرب العربي القديم، في تفـرُّدها بالنهضة الأدبية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين "[2].

وانطلاقا من ذلك نورد فيما يلي جُملة الآراء والأقوال والتعليقات التي ذكرها النقاد المحدثون عن النقد والنقاد المغاربة القدامى، من الذين تجاوزت شُهرتهم الأفاق، وحازت مُؤلفاتهم على كثير من الإشادة والتنويه.

2-1- النقاد المحدثون وابن رشيق القيرواني:

تُشكِّل شخصية ابن رشيق حالة خاصة لدى الدارسين من الأدباء والنقاد المحدثين، ويظهر ذلك من خلال عديد الكتابات والدِّراسات التي تتبّعت إنتاج هذا الناقد المغربـي، بما وجدوه في كُتبـه من مادة علمية وافرة، وتحليل علمي رصين لما كتبه النقاد قبله أو المعاصرون له، لذلك راحوا يتتبّـعُون ما خطّت أنامله بمزيد عنايةٍ، وكبير اهتمـام.

---

(1) مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغربي العربي (النشأة والتطور) ، (مر، س) ، ص: 151 .

(2) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (مر، س)، ص: 476 .

وإنّني في هذا المحور سأحاول أن أقف على جملة الآراء التي قيلت في الرجل أو فيما كتبه، وحتى أكون مُنصفاً؛ سأعمل على تسجيل كل ما أعثر عليه من كتابات، سواء كانت بالإشادة أو بالانتقاص.

إحسان عباس وابن رشيق: لقد خصّص إحسان عباس حيّزا هاما من كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من القرن الثاني حتى القرن الثامن هجري) ، ونراه يدرسُ النقد الأدبي في القيروان في القرن الخامس ويخصّص لذلك حوالي (خمسين صفحة)، وفيما يلي بعضاً مما ذكره الرَّجل في ابن رشيق إذْ يقول:" إن رجلاً كابن رشيق ليُعدُّ الأديب والناقد المتكامل، ذلك لأن كتاباته النقدية حاول أن يُجمل فيها كلَّ المسائل الانتقادية التي كانت في زمانه وقبله، وظهرت تلك الآراء في كتابيه، أنموذج الزمان، والعمدة، وإن كان هذا الأخير هو الأهم والأبعد أثرا، بما جمع فيه من الآراء النقدية"[1]، ليواصل قائلا: "ومن المفيد الإشارة أيضا إلى أن ما سجَّله في كتابه العمدة من أراء أكثرُها من بنات أفكاره وشُحنات قريحته كما صرح هو بذلك عندما قال:" وعوّلت في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري، إلاّ ما تعلق بالخبر والرواية، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ومعناه "[2].

وأكثر من ذلك؛ فإن إحسان عباس يرى في ابن رشيق ليس بالرجل الناقد فحسب، ولكنه الأديب الناقد المتميِّز في منهجه، لأنه يستثير القارئ ويجذبه إليه دون مللٍ، ويظهر هذا التميُّز من خلال بعض الخواص والملامح التي استفرد بها في عمله النقدي والتي منها: كونه صاحب صنعة، وصاحب الصنعة أدرى بها وبطريقتها أكثر من غيره، بمعنى كونه شاعرا وناقدا، وتجربتُه في الصناعة الشعرية جعلته يمسك بخيوط بِنائها، ومن ثمة التمكُّن من التفرّس فيها وانتقادها [3].

ويجتهد إحسان عباس في إبراز الخصائص والملامح التي انفرد بها ابن رشيق، وما ذاك إلاَّ لأنه استملح أرائه وجذبتُه طريقته في الاستدلال عند الانفراد بالرأي، ولذلك كتب عنه أنه" انفرد ببعض الآراء الخاصة التي لم يسبقه إليها أحد،كقوله، بأن الشعر أجودُ ما يكون إذا صدر عن غِنَى، وإنما الفقر آفةُ الشعر، وحجّته في ذلك أنَّ الشاعر إذا صنع قصيدة وهو في غنى وسعة، نقّحها وأمْعنَ

(1) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 451 .

(2) ابن رشيق، العمدة، ج/1 ، ص: 17 .

(3) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 458.

النظر فيها على مهل، بخلاف ما لو كان مُضطراً فإنه يَرضى بِعفْو كلامه، وأخَذَ ما أمكنَهُ من نتيجة خاطره، ولم يتَّسِع في بلوغ مراده، ولا بلغ مجهوده نيتـه"[1].

كما يرى إحسان عباس أن ابن رشيق تميّـز أيضا "بامتلاكه لقوَّة الشّخصية، ويظهر ذلك من خلال جرأته في مخالفة الآراء المألوفة والمعروفة قبلـه، والتي طرحها كبار النقاد وخالفهم هو فيما ذهبوا إليـهِ"[2].

ومن الأمثلة على ذلك والتي تُبيّن جرأته وقوة شخصيته قوله:" ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيا بعضه على بعض، وأنا استحسن أن يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده"[3].

ويبلغ إعجاب إحسان عباس بابن رشيق إلى أن يقول عنه:" لقد تميّزت طريقته النقدية بالبساطة والسهولة المؤدية إلى التشويق وحُسن الإقنـاع، وذلك ما يفسِّر رُبما سرَّ القبول والرضا التي استقبل بها الناس كتابه العمدة"[4].

وإذا كان بعض الدارسين يقرأُ لإحسان عباس في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) قوله عن ابن رشيق بأن حظّه من الأصالة النقدية ضئيلٌ، فإن قوله ذلك ليس بالكلام الثابت ولا بالتصريح المقصود أصالة، لأننا نجد إحسان عباس بعد ذلك يتراجع عن هذا الحكم القاسي ليصرّح في بقية الصفحات من كتابه قائلا: "ولكن ابن رشيق رغم ذلك ناقدٌ قديرٌ، لم تَضِع شخصيته بين من سبقة من النقاد، ـ ويذكر بعضاً منهم ـ إلى أن يقول: ولعلَّ ابن رشيق أبرز مثل عن الناقد الذي يملك الإعجاب عن طريق شخصيته لا عن طريق الجِدَّةُ في الرأي"[5].

ويواصل إحسان عباس إشادته المتميزة بناقد المغرب وعَلَمِها البارز في سمائها، في القرن الخامس الهجري عندما يقول: "يقف ابن رشيق بحيويته وقفةً بارزةً بين نقاد القرن الخامس، وبتلك الشخصية النقدية القوية والهمَّة العالية، نال كتابه العمدة حظوة واسعة بين نقاد القرن الخامس، ذلك أن العمدة يمتاز بين كتب النقد الأدبي بأنه احتوى أكثر ما يريده المتأدب، من حديث عن الشعر

---

(1) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 460 .

(2) المرجع نفسه، ص: 458 .

(3) ابن رشيق، العمدة، (م، س)، ج/1 ، ص: 175 .

(4) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 462 .

(5) المرجع نفسه، ص: 453 .

ومن حديث في الشعر نفسه، ولهذا نال الكتابُ حظوةً واسعةً بعد القرن الخامس، وأصبح مثالاً يحتذيه من يكتبون في علم الشعر، ومنهلاً لطلاب النقد الأدبي يدرسه الدارسون ويلخّصه الملخِّصون، حتَّى نال ثناء عريضاً من ابن خلدون، لأن المثقّف الذي كان يحرص على شيء من المعرفة النقدية لم يعد إذا قرأه بحاجة إلى أن يقرأ قدامة، والآمدي، والحاتمي، والجرجاني، إذ استخرج ابن رشيق خير ما عندهم وأودعُه كتابه، وهؤلاء هم أئمَّةُ النقد، فما ظنُّك إذا وَجد فيه القارئ خلاصة لخير ما عند غيرهم أيضاً "[1].

ويخلُص إحسان عباس في كتابه المذكور إلى تعديد مميّزات وخصائص ابن رشيق النقدية، فهو بحسبه يتميّزُ عن غيره من نقاد عصره بالمميزات التالية [2]:

طرافة التجربة، الجرأة، طرافة الرأي، تأثُّره بالإقليمية، الفهم النفسي لوظيفة الشعر، الإيمان بقيمة التجربة الحسيّة، هذه بعضُ المميزات والتفرّدات التي ألحقها الناقد الكبير إحسان عباس بابن رشيق، وهي بلا شك تُعطينا فكرة واضحة عن ثقافة الرجل، ومقدرته في القراءة الشعرية وممارسة الفعل النقـدي.

محمد مرتاض وابن رشيق: إنَّ ما نلمسه في كتابات محمد مرتاض أنه كان مُعجباً غاية الإعجاب بابن رشيق، وقد بلغ من كَلَفِه به أن كان يذكره في أحيان كثيرة بضمير المتكلم فيقول؛ ناقدنا، أو الناقد المسيلي الجزائري القدير، مفتخرا بالانتساب إلى بلاده الجزائر، وبذلك فقد فرض ابن رشيق نفسه كقامةٍ أدبيةٍ ونقدية، ولا عجب بعد ذلك حين نجده يكتب عنه قائلا:" إن ابن رشيق فرض نفسه على كلِّ ناقد، وأثبت قيمته عند كل أديب، فهو ليس شاعرا فحسب، وليس ناقدا فقط، ولكنَّه كل ذلك، وحسبُه شرفا أنه أوَّل ناقد في المغرب العربي خصَّص كتابا كاملا لهذا الفن، وهو أكبرُ ناقد عرفه المغرب العربي، بل والعالم العربي حتى حقبةٍ متأخرةٍ، وقد ظل كتابه العمدة ولا يزال يُدرَّس في الجامعات العربية، ويُستقَى منه النظريات التي قدّمت خدمةً جليلةً للأدب العربي في هذا الإقليم، وفي العالم العربي قاطبة "[3].

ويزيد مقالته هذه شرحا وتوضيحا عندما يؤكد بما لا يدع مجالا للشك، بأن ابن رشيق عُرف بثقافته الواسعة، وتنوُّع تآليفه وكتاباته، فهو ناقدٌ بالدرجة الأولى، وصاحب نظريات ثابتة ما تبرح

---

(1) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 453 .

(2) المرجع نفسه، ص: (458 ـ 460) ،مع بعض التصرف .

(3) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي نشأته وتطوره ، ص: 83 .

شامخةً تطلُّ على عصرنا هذا، ليخلص إلى القول؛ إنَّ ابن رشيق إنما ذاع اسمه واكتسب شهرتهُ بكتاب واحد أكثر من غيره، وهو تُحفته العمدة [1].

ونحن إذْ ننقل كلام محمد مرتاض؛ فإن ذلك اعتزاز آخر منّا على جِديّة ومكانة العمل والجهد الذي قدَّمه ابن رشيق في تجلية وبيان التراث الأدبي والنقدي المغربي القديم، اعتبارا أنَّ ما كتبه الحسن ابن رشيق، يُشكِّل عملاً رائدا في حقل الدراسات النقدية المغربية القديمة، كما ينظر إلى ذلك الكثير من الدارسين المحدثين.

وعلى ذلك؛ فإن ما ينقله مرتاض عن ابن رشيق أو عن غيره من نقاد المغرب العربي ليشكل الرأي الحصيف والموقف الصائب، تبعا لتجربة الرجل وخبرته في سبر أغوار وتتبّع دقائق الأدب والنقد بالإقليم المغربي.

وهاهو ذا مرة أخرى يُتابع عمل ابن رشيق ويقول عنه:" فابن رشيق لم يكن ناقداً تقليدياً يستعرضُ آراء سلفه ومعاصريه ويمضي، ولكنه كان حاذقاً مُتمكِّنا من النَّفاذ إلى العُمق الفني"[2]، ونجده يلتفت إليه مرة أخرى محاولا إنصافه فيقول:" لعله من الإنصاف التوكيد بأنَّ ابن رشيق كان دُرّة في جِيدِ النقد المغربي القديم، وقمرا لامعا بين النجوم التي أحاطت به، لأنه عَصَرَ فِكره وجَهَد نفسه، ليتجاوز ما أَلْفاه قبله في كتابه العمدة الذي أحسن اختيار اسمه، ووُفِّق في انتقاء صفته، وكأنَّه كان يرى أن كتابه سيظل عُمدة للدارسين، وأساسا للباحثين على مرِّ الأزمان"[3].

وبذلك فإن محمد مرتاض قد أعطى لناقدنا المغربي حقَّه، وأثنى على مجهوداته الكبيرة في خدمة الأدب والنقد بالديار المغربية، وفرض نفسه كناقدٍ وشاعر ليس في بلاد المغرب فحسب، ولكن في سائر البلاد العربية، ونظرا لشاعريته وحِذقه وحِسّه الأدبي والنقدي، فقد كان ابن بسّام يُفضله على ابن شرف كما يذكر ذلك محمد رضوان الداية[4].

انطلاقا من هذه المكانة التي وصلها ابن رشيق نجد ذلك الإطناب والمتابعة الدقيقة من قبل النقاد المحدثين لأعمال ومنجزات ابن رشيق، وإشادتهم كثيرا بشخصيته، وبالمنجز النقدي الذي قدّمه الرجل، "أجمع كثير منهم على أن ابن رشيق كان ناقداً متميزا في مسيرة النقد الأدبي وتاريخه الطويل،

---

(1) ينظر: مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي في القديم والجديث، (مر، س)، ص: 23 .

(2) مرتاض محمد، االنقد الأدبي في المغرب العربي (النشأة والتطور) ،ص: 205 .

(3) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي في القديم والحديث، ص: 31 .

(4) ينظر: الداية محمد رضوان ، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، (مر، س)ص: 349 .

وبرهن بما خلّفه من مؤلّفات ومساهمات نقدية على أهمية بلاد المغرب في الإضافة الحقّة للتراث المغربي إبداعا ونقدا، رغم أنَّه لم يلقَ الاهتمام اللازم من قبل الدارسين المشارقة، مقارنة بالمكانة التي حَضيّ بها معاصِرُه عبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم"[1].

ومن النقاد والدارسين المحدثين الذين نظروا في التراث النقدي المغربي، وكتبوا عنه وعن أدباء تلك الفترة بكل إعجاب وفخر، نذكر **عبد الرؤوف مخلوف** في دراسته عن ابن رشيق القيرواني يقول: "إنَّ ابن رشيق وان كان شاعرا فهو عـالمٌ، حين يخـوض في حديث النقـد والأدب"[2].

كما نجد عبد الرؤوف مخلوف وهو الذي أتيحت له فرصة دراسة حياة ابن رشيق وتراثه النقدي والأدبي يقول عنه أيضا:" تدورُ مباحث كتاب العمدة حول النقد والبلاغة، وله في ذلك الباعُ الذي لا يُطاول"[3]، فهذه الآراء التي يتصرِّح بها الدارسون حول طبيعة الجهد النقدي الذي قدمه ابن رشيق لم تأت هكذا اعتباطا، وإنَّما استنادا إلى القيمة الفنية والعلمية التي رصدها الرَّجل وجمعها في مؤلفاته النقدية الثلاثة ،(العمدة، والقراضة، والأنموذج) .

ونظرا لكون الباحث عبد الرؤوف مخلوف من الدارسين الذين تابعو بشكل لافتٍ منجزات وأعمال ابن رشيق، وغاص بحثا فيما قدمه الرجل، فإنه كتب عنه يقول أيضا:" ولم يكن ابن رشيق مُجرّد نقالةٍ مُتلقّيا عن شيوخه فحسب، ولم يكن مجرد قارئ لما كتبه غيره قبله، وإنما كان فوق ذلك بكثير، كـان بوتقةً تَصْهر ما يُلقى فيها، ثم تُخرجه للناس شيئا جديدا كلَّ الجدّة، كان يسلِّط على ذلك كله من عقله وذهنه فيُحيله خلقاً آخر برؤيته وثقافته، يرضى عما يتلقى أحيانا، ويرفض أحيانا ويُناقش ويُعارض أحيانا، فيذهب غير المذهب ويرى غير الرأي، ممَّا يؤكِّد أن الرجل كانت له شخصيته الواضحة فيما خلف من آثاره، وليس كما زعم بعض الدارسين من أنه لم يكن لابن رشيق منهج خاص، وشخصية متميزة [4]، ويضيف قائلا: "ولستُ أزعمُ أن ابن رشيق هو أبو عُذرَة كل ما تحدَّث فيه، أو أنه وُفِّق إلى كل ما عرض له، ولكني أقرر أن ابن رشيق قد فتح لنا في النقد فُتوحًا لم تكن قبله، أو لم تكن قبله على الصورة التي انتهى هو إليها، ويكفي الرجل ليثقل ميزانه أن يأتي بجديد في

---

(1) أبو زيد سامي يوسف، النقد العربي القديم، ص: 260 .

(2) مخلوف عبد الرؤوف، من نوابغ الفكر، (ابن رشيق القيرواني)، ص: 06 .

(3) مخلوف عبد الرؤوف، ابن رشيق ونقد الشعر، ص: 13 .

(4) المرجع نفسه، ص: 498 .

أكثر الذي يقوله، وأن تراه يناقش كل ما سبقه إليه غيره وأن يأتي فيه إلى رأي عن اقتناع، وللمجتهد أجرٌ أو أجران"[1].

ويزيد عبد الرؤوف مخلوف ثناءً على ابن رشيق فيقول:"برز ابن رشيق في النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، حيث كانت القيروان التي ينسب إليها الشاعر عامرةً بضروب الفن من علمٍ وأدب، وكانت منافسة لبلاد المشرق العربي في جميع مجالات الفنون، ويبرزُ فيها ابن رشيق كعالم متعدّد المواهب يجمع بين النقد والشعر واللغة ، وإنْ كانت شُهرته في مجال النقد أوضح وأبين"[2].

ومن دون شك فإن رجلاً كانت هذه ميزته وهذا أسلوبه فإن كتابه العمدة، يمثل مرحلة النّضج والتطوّر في التأليف النقدي والبلاغي، كيف وهو المؤلَّفُ الذي قال عنه كثيرٌ من الدارسين، بأنه الكتابُ الجامعُ المحكم في موضوعه ومنهجه، والذي لا يزال مَعيناً لا ينضب، يستفيد منه الدارسون والباحثون المحدثون بما حَفظــه من نصوص وآراء السابقين، وبما اختزن من حرِّ الرأي الخالص الجـريء[3]، وما أجمل وأنصف تلك المقولة الرائعة عن عمدة ابن رشيق، عندما يكتب أحدهم قائلا: " إنَّ النقاد والدارسين إذا بحثوا عن شتات النقد العربي، وجدوه مُجتمعا في عمدة ابن رشيق" [4].

ومع الأسف الشديد فإن ابن رشيق، وعلى الرغم من كل ما قدّمه للنقد العربي، إلاَّ أنه لا يسلم من الانتقاد والتعريض، فمن قائل؛ أنَّ حظَّه من النقد ضئيل، إلى قائل؛ أنه كان مجرَّد ناقل وجامع لأراء غيره، وفي الحقيقة أن مثل تلك الآراء لا تنقص من مكانة ابن رشيق شيئا، لأنها نظرات بعيدة كل البعد عن الرؤية الموضوعية الجادة،كما ذهب إلى ذلك بشير خلدون" ولم يكن دور ابن رشيق وهو يعرض لنا الآراء المختلفة مجرد راوية ناقلا، وإنما كان في كل مرَّة يتدخل ويُعطي رأيه كناقد حصيفٍ متزنٍ، وأديب متميّز ذوّاقة، وكشاعرٍ فنـانٍ يحسُّ"[5].

وإذًا فإن ما يتقوّلُه بعض الدارسين من أن ابن رشيق كان كثير النقل والرّواية لآثار السابقين، فإن هذه النظرة القاصرة لا تعتبر سُبّةً على الرجل بقدر ما هي ميزة انفرد بها ابن رشيق عن غيره في

---

(1) مخلوف عبد الرؤوف، ابن رشيق ونقد الشعر ، ص: 499 .

(2) مخلوف عبد الرؤوف، من نوابغ الفكر العربي،(ابن رشيق القيرواني)، (مر، س) ، ص: 52 .

(3) ينظر: الصيقل، محمد بن سليمان، البحث البلاغي والنقدي في كتاب العمدة لابن رشيق، مخطوط ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، الرياض، السعودية، 1405هـ، ص: (01 ، 02) .

(4) شويط عبد العزيز، ابن رشيق المسيلي شاعرا وناقدا ، مداخلة علمية مقدّمة في الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري ، أيام (21 ـ 22، ماي، 2006م)، جامعة المسيلة، الجزائر، ص: 69 .

(5) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، (مر، س)، ص: 107 .

تأليفه لكتاب العمدة، ذلك لأن كثيرا من الدارسين المحدثين وبعد تفحُّصهم وتحقيقهم لكتاباته، تبيَّن لهم أن ابن رشيق كان يُجسِّد حقيقة الأمانة العلمية في الأخذ عن الغير، وإسناد الآراء إلى أصحابها، فهو بذلك لم يكن يتبنى أقوال غيره، إنما كان يُسند الأفكار والآراء إلى أهلها، ويشير إلى أصحاب الفضل والمزية بدون مداراة ولا مُواربةٍ، وكأني به كما يقول بشير خلدون:" قد اطَّلع على آراء من سبقه في اللغة والأدب والنقد والبلاغة وأكثر من القراءة والنظر في كتب المشارقة، فنقل عنهم وتأثر بهم، ولكن بعد نظرٍ وتفحُّص وتدقيق وتمحيصٍ، فكان بذلك واعياً في تمثّله واستشهاده، ذكيًا فطناً في روايتـه وتأييـده للآراء أو تفنيدها "[1] .

ومن النقاد الذين تناولوا كتابات ابن رشيق بالدرس والتحليل الباحث **محمد حفني شرف** حينما نجده يقول:" حتى إذا انتقلنا إلى كتاب العمدة، وتقابلنا مع ابن رشيق وجدناه يمتاز عمّن سبقه من العلماء بالبعد عن الاضطراب، وأنه يتناول الفكرة الواحدة فيناصِرُها ويدرسها دراسة هادفةً ممحّصة، كما أنه كان أحسن من سابقيه تنظيماً وتبويبًا فلا استطراد ولا تكرار، ولا غَرْو فابن رشيق كان أكثر فهمًا ونُضجا، وأحسن برهنة واستنتاجا من العلماء المتقدمين عليه زمانا، ولا أدلَّ على ذلك من أن فهمه للبلاغة كان يقترب من فهمنا لها في العصر الحديث"[2].

ومن النُّقاد المحدثين الذين قدّموا أرائهم بكل موضوعية في شخصية ابن رشيق العلمية والأدبية نجد الناقد **عبد العزيز قليقلة** وهو الذي كانت له جولات كثيرة مع الأدب والتراث النقدي المغربي القديم حيث نجده يقول: "وقد حصل ابن رشيق في المغرب على الشهرة التي حصل عليها المتنبي في المشرق؛ بفارق مهمٍّ، هو أن المتنبي برع في الشعر وحده، أما ابن رشيـق فقد برع في الشعر والنقد معاً"[3]، وإن ذلك لعمري من الخصوصيات التي تميّز بها ابن رشيق عن كثير من النقاد الكبار، عندما جمع بين الممارسة الفنية والتنظير النقدي كما يقول أحدهم:" فكان شاعراً جمع بين النقد والنظم الشعري، فأدرك عوامل تكوينها وكيفية إخراجها، فكان المسؤول الأعلم بالأمر من السائل، والمجرّب الأعلم بالأمر من المطَّلع "[4].

---

(1) خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي،، ص: (107/106) .

(2) نقلا عن:بوقربة الشيخ، منهج النقد الأدبي عند ابن رشيق القيرواني، مخطوط ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب، 1987م،ص: 12

(3) قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدب للمعز بن باديس، (مر، س)، ص: 165 .

(4) شويط عبد العزيز، ابن رشيق المسيلي شاعرا وناقدا، (مر، س)، ص:55 .

ولا نبرح الحديث عن الناقد الألمعي ابن رشيق ونظرة بعض الدارسين المحدثين إلى تراثه وإنتاجه الأدبي حتى نتوقف مع **أحمد أمين** والذي قال عنه في ظهر الإسلام : وظهرت في المغرب حركة جيِّدة في النقد الأدبي، وردت أول الأمر نُتفًا في كُتب الأدب عندهم، ثم ارتقى هذا حتى صار موضوعا قائماً بنفسه، وتُوِّجت هذه الحركة بكتاب(العمدة) لابن رشيق، و(أعلام الكلام) لابن شرف، وهما من خِيرة الكتب في النقد الأدبي، ويواصل أحمد أمين حديثه عن ابن رشيق ليقول: وقد نقل ابن رشيق في كتابه العمدة فنَّ نقد الشعر من نقد شاعرٍ خاص أو شعراء مُعينين كما فعل صاحبيْ الموازنة والوساطة، إلى نقد الشعر بعــامةٍ [1].

كما نجد **عبد الرحمان ياغي** وهو من الأكاديميّين الذين اعتنوا عناية خاصة بآثار ابن رشيق النقدية، يكتب عن الرجل فيقول:" إنَّ قيمة ما خلّفه ابن رشيق من مؤلفات وآثار تتلخّص في أمرين اثنين: القيمة العلمية والفنية لما كتبه الرجل، والأمر الآخر ما حفظته لنا كتبه من آراء السابقين عليه أو ممن عاصروه ممن لم نعثر على كتبهم"[2]، كما نجد له إشادة أخرى بطريقة ابن رشيق في سلوكه لمنهج نقدي متميز يقول عنه؛ "وإلى ابن رشيق يرجع الفضل في صَوْغ نظرية مغربية في النقد، إذ نلقاه الناقد المغربي الممنهج الذي استطاع صياغة كتابه العمدة من مُتفرّق نظريات النقد وقضاياه، فانتقل بها من الفوضوية إلى المنهجية، ومن الأحكام الجزئية إلى التنظيم والتبويب"[3].

وكان ممن درس ابن رشيق وعرض للكثير من أفكاره في البلاغة والنقد **محمد سلامة يوسف** صاحب كتاب، ابن رشيق القيرواني وآراؤه البيانية والنقدية، ومن جملة ما أورده في كتابه ذلك قوله: "هذا بحثٌ مُوجز عن علم من أعلام العربية هو ابن رشيق القيرواني، وعندما اتصلت أسبابي بأسبابه وجدتني بإزاء شخصيةٍ خصبةٍ متعددة الجوانب فهو عالم لغوي، وأديب ناقدٌ، وشاعر، وأشد ما راعني منهجه الذي أخذ به نفسه من الأمانة العلمية، وردِّ الرأي إلى صاحبه، والرجوع بالفضل إلى ذويه، وذِكْر مصادره التي استقى منها وأخذ عنها"[4].

فمثل هذه الآراء الوجيهة لا تصدر اعتباطا، إنّما هي لرجال أخلصوا ولائهم للعلم والمعرفة، فكان بحقٍّ ما صدر عنهم يمثّل الموضوعية والصّدق الفني والإخلاص المعرفي .

---

(1) ينظر: أمين أحمد، ظهر الإسلام ،ج/1 ، ص: 306 .

(2) ياغي عبد الرحمــان، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، (مر، س)، ص: 400.

(3) المرجع نفسه، ص398 .

(4) نقلا عن: بوقربة الشيخ، منهج النقد الأدبي عند ابن رشيق القيرواني، (مر، س)، ص: 16.

وأيضا ممن درس الحياة الأدبية في القيروان، واطلع على جهود النقاد بها **محمد زغلول سلاّم** حيث نجده يكتب عن ابن رشيق فيقول عنه:" بأنه ناقد القيروان وشاعرُها، بل هو عمدة دراسات الشّعر في القرن الخامس الهجري، إذ استطاع أن ينقل النقد من المشرق إلى المغرب، بحيث لم تبق الجهود النقدية بعدهُ وقفاً على المشارقــة فقط" [1].

أما محقّق كتاب العمدة؛ **عبد العزيز الميمني** فإنه يُلخّص لنا ما وجد فيه من عناصر القـوة ومكامن الإبداع والتشويق، ولذلك نجده يقول:"كتابُ العمدة في صناعة الشعر ونقده تأليف راوية وناقل جهْبذٌ بصيرٌ بالشعر والشعراء، وإذا كان ابن المعتز، والقاضي الجرجاني، وأبو هلال العسكري وغيرهم تقدّموا إلى وضع كتبهم في هذا الشأن، إلا أن استفاء المباحث وتفريع الأبواب، والتنويع والنقد والتزييف، والجرح والتعديل مع رعاية الإنصاف، واستيعاب جملة من أدوات الكُتاب والشعراء والمواد اللازمة لهم، لا يشارك كتابُ صاحبنا فيها أيَّ كتابٍ"[2] ،

لقد أبان الميمني من خلال دراسته للعمدة عن كثير من الجوانب المضيئة في هذا المؤَلف فهو مستوفي لجميع المباحث، متعدّد الأبواب والموضوعات، فضلا عمّا داخله من التنظيم والتقسيم والتبويب فكان صاحبه قد تفوق بحق على كثير ممن سبقه إلى الكتابة في مجال النقد الأدبي.

وهذا **محمد هدَّارة** وهو من النقاد المحدثين الذين هضموا التراث العربي يقول عن ابن رشيق: "يُعدّ أبو الحسن علي ابن رشيق من القممِ الشامخةِ في نقدنا العربي، وهو يتناول خاصةً مشكلة السرقات الشعرية في كتابين له من كتب النقد العامة، أولهما ؛كتاب العمدة، والثاني، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب"[3] ، وإنَّ الناقد محمد مصطفى هدارة إذ يُشيد بابن رشيق، ويذكر له جُهده وفضله في الإحاطة بموضوع السرقات، لا ينطلق في ذلك من فراغ، ولا يقدّم رأيه جُزافاً، إنما أعدَّ العُدّة لذلك، باعتباره من النقاد العرب القلائل الذين درسوا مسألة السرقات الشعرية دراسةً عصريةً فاحصةً مُستوعبَة، في كتابه الذي أخرجه في هذا الباب تحت مسمَّى: مشكلة السّرقات في النقد العربي ـ دراسة تحليلية مقارنة ـ .

---

(1) محمد زغلول سلام، تاريخ النقد والبلاغة من القرن الخامس حتى القرن العاشر الهجري، منشأة المعارف الإسكندرية، (ط1، 2000م)، ص: 131 .

(2) نقلا عن: مخلوف عبد الرؤوف، ابن رشيق ونقد الشعر ص: 76 .

(3) نقلا عن: بوقربة الشيخ، منهج النقد الأدبي عند ابن رشيق القيرواني، (مر، س)، ص: 241 .

ونعرض في هذا المقام لرأي أديب ودارس مغاربي آخر وهو الناقد التونسي **الشاذلي البُويحى**، وكان هذا الرجل قد وطّد علاقته بابن رشيق من خلال تحقيقه لكتاب (قراضة الذهب)، وبذلك فإن الشاذلي بويحي حينما يتحدَّث عن ابن رشيق إنما يتحدث عن خبرة ومُصاحبة، وإن الباحث التونسي وإنْ لم نجده دائم الثناء على ابن رشيق، إلا أننا نلفاهُ يقول عنه: إن كتاب العمدة فريد في بابه، وقد تناول فيه ابن رشيق الكثير من القضايا النقدية التي بفضلها استحق ثناء ابن خلدون، والقاضي الفاضل، ومع ذلك لنا أن نقول؛ بأنَّ جهد ابن رشيق فيه محدود، لم يزد على أن جمع الأخبار والروايات والمذاهب والآراء الخاصة بصناعة الشعر ونقده[1] .

ومع ذلك فإنَّا نجده في موضع آخر يقول:" فكتاب العمدة يمثل المذهب العربي الأصيل في نظرته إلى الشعر عند اكتمال حركة علوم اللغة والأدب والتفقه فيهما، أي في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، ثم هو يمثل على الخصوص مذهب مدرسة القيروان الأدبية، مع ما قد تمتاز به هذه المدرسة في نظرتها إلى الأدب، وما تتجه إليه عبقرية المؤلف الشخصية من ذلك"[2]، وهي إشادة أخرى بالجهد الذي قدمه ابن رشيق في ثلاثيته التي خدم بها الأدب والنقد العربي بعامة، وفي البيئة المغربية بشكل خاص.

وعموما فإن ابن رشيق" قد ترك بصمته في مسيرة النقد العربي القديم، حيث أعاد صياغة القضايا النقدية في عمدته بطريقة سهلة ميسّرة جذابة، حتى أن كتابه أصبح حجر الزاوية في النقد الأدبي في المشرق والمغرب على السواء، وكأن الناس رأوا فيه كل ما يحتاجون إليه من آراء وتفسيرات، وهو بذلك يعدُّ من أبرز النقاد الذين اهتموا بالشعر وكيفية إبداعه، فكان سيِّدَ عصره كونه ناقدًا وشاعرا، مما جعله يُحكِّم ذوقه وفطنته في بعض الأمور المتعلّقة بالشعر والشاعر على حدّ سواء، وليس أدلَّ على ذلك من أنه استطاع أن يجمع وينتخب ويستوفي أفضل ما أودعه المشارقة والمغاربة في كتبهم ويصهر كل ذلك ويخرجه للناس في حلّةٍ وسبيكة جديدةٍ "[3].

ولا يعني ذلك أن كلَّ النقاد والأدباء هم راضون عمّا قدمه ابن رشيق، ذلك لأن ثمة فئة من النقاد المحدثين خاصة، لم يرقُـهم المنجز النقدي للرجل، وشنّعوا عليه طريقته ومنهجه النقدي، لعل من

---

(1) ينظر، بوقربة الشيخ، منهج النقد الأدبي ي عند ابن رشيق القيرواني، (م، س) ، ص: (284 ـ 285) .

(2) ابن رشيق ، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقيق : الشاذلي البويحي،(م، س)، ص: 605 .

(3) الجداونة حسين، في النقد الأدبي القديم ، (م، س)، ص: 318 .

أبرزهم : محمد منـدور الذي يقول عنه " إنَّه رجلٌ جمع في كتابه الكثير من أخبار الأدب العربي والنقد وعلوم البلاغة، دون أن يتضح للمؤلِّفِ منهجٌ خاص، وشخصيةٌ متميّزة "[1] .

وهناك أيضا بدوي طبـانة والذي يرى، أنَّه لا أثر للإبداع أو الابتكار لابن رشيق في كتابه العمدة، ولا فضل لصاحبه إلا جمع المادة العلمية وترتيبها، كما نلمس للشاذلي البويحي مُحقّق كتاب قراضة الذهب، عدم الرضا عمّا قدمه ابن رشيق في الحقل النقدي [2].

2-2- النقاد المحدثون وعبد الكريم النهشلي:

ومن النقاد المغاربة الذين كان لهم أثرهم الواضح في الموروث النقدي المغربي، وتركوا بصماتهم النقدية مكتوبة في الصحائف أو في صدور الرجال من التلاميذ المميّزين، تبرز لنا بجلاء شخصية عبد الكريم النهشلي، هذا الأديب والناقد الطالع من الغرب، إذ يُعتبر من أبرز الشخصيات الأدبية والنقدية بالبلاد المغربية، كان له أثره الواضح في الدرس النقدي المغربي، كما كان له تأثيره فيما ظهر بعده من تلامذته خاصة ابن رشيق، وابن شرف، ترك لنا كتابه المسمى (الممتع في علم الشعر وعمله)، والذي نلمس فيه مدى تأثّر النهشلي بقدامة ابن جعفر، خاصة في طريقة تقسيمه للشعر كما يقول إحسان عباس [3].

وإنَّ من أبرز الآراء النقدية التي تفرّد بها النهشلي تفريقُه بين الغزل عند العرب مع غيرهم من العجم، حيث نجده يذهب إلى القول، بأن من عادة العرب في الغزل، أن يكون الشاعر مُتماوتاً مفتُونا، فيما عادة العجم أن تكون المرأة طالبةً راغبةً، ولعله بموقفه هذا إنما يجسّد الأساس الأخلاقي الذي اعتمده وعوّل عليه كثيرا في نظريته النقدية [4].

من هذا الموقف النقدي الأولي يتبيّن لنا " أن النهشلي قد خاض بكل قُوّة في سوق الأدب القيروانية، وخطا النقد خطوات مباركة بفضل آرائه في الشعر والشعراء كما يقول محمد الطمار"[5].

---

(1) منـدور محمد، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، (دط، 1996م)، ص: 339 .

(2) نقلا عن: ساعي إدريس، علم البلاغة في الموروث النقـدي المغربـي (العمدة أنموذجا)، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة الجزائر العدد: 09، ديسمبر 2015م، ص: 216 .

(3) ينظر: عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 448 .

(4) المرجع نفسه ، ص: 450 .

(5) الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، (م، س)، ص: 89 .

كما أن من أبرز وأعمق أراء النهشلي النقدية، موقفُه الواضح في مدى تأثير البيئة في الشعر والذوق، حيث نجده قد أبان عن موقفه من ذلك في قوله:" قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسنُ في وقت مالا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيدَ فيه ، وكثر استعماله عند أهله"[1]، وهو بنظرته هذه قد سبق عصره في استحسانه للعمل الفني وتقديمه إياه؛ لجودته وحسنه بغض النظر عن زمان صدوره، فالنّهشلي لا يميِّز بين قديم وجديد، إنما المعيار هو التجويد والتحسين، واعتقاده ذلك يترجمه بقوله: "والذي أختاره أنا التَّجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابرُه على الدّهر" [2].

2-3- النقاد المحدثون وابن شرف القيرواني:

ومن نقاد المغرب العربي الذين كان لهم إسهام واضح في الحركة الأدبية والنقدية المغربية القديمة وشهد لهم الدارسون في القديم والحديث بالتفوق وشدة العزيمة وقوة العريكة محمد بن شرف القيرواني، هذا الرجل الأديب والشاعر الذي عاصر ابن رشيق وكانت بينهما ملاسنة ومنافسة، ترك لنا مؤلَّفا نقديا يسمى (مسائل الانتقاد) وقيل بل سمَّاه (أعلام الكلام)، ذكر ذلك ابن بسام في ذخيرته وقال عنه: "ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه، وصب فيها على قالبه، منها مقامة فيها بعض طول لكنه غير مملول، أخذة بطرف مستطرف من أخبار الأدباء وذكر الشعر والشعراء"[3]، ويقول إحسان عباس: "إنَّ مقامة ابن شرف قد تعرّضت بالنقد لما لا يقل عن أربعةٍ وأربعين شاعراً، وقد أسهب ابن شرف في تتبّع سقطات عدد من الشعراء، وبيان بعض العيوب في الشعر، وإبراز أهم ما يتميز به كل شاعر في الشعر وفي غيره "[4].

وأطال ابن شرف الوقوف عند أبي نواس كما ذكر ذلك ابن بسام، حيث نجده ينقل لنا عنه:"كيف أنه ترك السيرة الأولى، ونكب عن الطريقة المثلى، وجعل الجدَّ هزلاً والصعب سهلاً، وتعليل ذلك أن أبا نواس ظهر في وقت قد انحلت أسباب العربية ،ومُلّت الفصاحة، فنزل بالشعر إلى مستوى الأفهام في عصره، فرغب الناس في شعره ، وكان أبو نواس قادر على الشعر القوي، لكنه عنيّ

(1) ابن رشيق، العمدة ج/1 ، ص: 93 .

(2) المصدر نفسه، ص: 94.

(3) ابن بسام، الذخيرة، المجلد/4، القسم1، ص: 196 .

(4) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: (468 ـ 469) .

بما ينفق في سوق الجمـاهير يومئذ"[1]، ولذلك نجده يصف شعره قائـلا : " فشعر أبي نواس نافق عند هذه الأجناس، كاسدٌ عند أنقد الناس" [2].

وتحدث ابن شرف في رسائله عن شعراء من المشرق وشعراء من المغرب، خاصة وأن عصره شهد ظهور ابن هانئ ، وابن عبد ربه، وابن درّاج القسطلي، وعلي الإيادي التونسي، وكل هؤلاء من شعراء المغرب، إلى جانب حديثه عن أبي تمام ،والبحتري ،وابن الرومي، والمتنبي، حيث قدّم بعضا من أرائه الانتقادية، وأشار إشارات لطيفة إلى ما تضمنته أشعار بعض هؤلاء الشعراء، استجاد من خلالها أشعار بعضهم، وأنكر على آخرين منهم مذاهبهم الكلامية، وقد كان الأساس الدّيني هام لديه في الحكم على أشعار الكثيرين منهم[3]، فنجده يقول عن ابن هانئ:" فيا له من رجلٍ يستعين على صلاح دَنياه بفساد أخراه، لرداءة عقله، ورقّة دينه، وضعف يقينه، ولو عقل لم تضق عليه معاني الشعر حتى يستعين عليها بالكُفر "[4].

لقد أشار ابن شرف في رسائله إلى الكثير من العيوب التي وقع فيها الشعراء، وأشار ضمن ذلك إلى عيوب بعض كبار الشعراء الجاهلين كما يقول إحسان عباس والتي كانت بمثابة توجيهات عامة في النقد[5]، وقد أشرنا إلى نماذج منها في مبحث المنجز النقدي التطبيقي عند النقاد المغاربة الذي سنستعرضه لاحقا .

كما نبَّــه ابن شرف في رسالته النقدية إلى بعض العيوب التي تُشين بالشعر مثل" اللحن وخشونة الكلمات، وتعقيد الكلام، وكسر الوزن، والافتتاحات الثقيلة، والسرقات الشعرية، وغير ذلك ضاربا لذلك بأمثلة ونماذج من أشعار الشعراء أكثر النقاد من ترديد أمثالها " [6].

وتعرض ابن شرف لامرئ القيس أيضا، ووقف عند الكثير من مقطوعاته ونصوصه الشعريــة، وما يُسجَّل على ابن شرف عند تناوله لشعر امرئ القيس، هو أنه نظر إليه بشيء من الانتقاص والدّونية وشرح بعض أشعاره بشيء من التشنيع والتهويل، كما يقول إحسان عباس،" هذا الشاعر الذي جعل منه النقاد رأس الشعراء وعلامة القدماء، يأتي ابن شرف ويمحي كل ذلك، ويرى في شعره

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، (المجلد4، القسم1)، ص: 207 ، وينظر: ابن شرف ، أعلام الكلام، ص: 22 .

(2) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام ، (م، س)، ص: 22 .

(3) ينظر: عباس إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص: 470 .

(4) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، ص: 26 .

(5) يطالع ، عباس إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص: 470 .

(6) المرجع نفسه، ص: (474 ـ 475) .

مصدر الشرور والفجور، والحق أن نظرة ابن شرف إلى شعر امرئ القيس كان أساسها ومنطلقها النظرة الأخلاقية قبل كل شيء" [1].

2-4- الحُصري القيرواني والنقاد المحدثون:

وشهد الإقليم المغربي ظهـور أديب وناقد أخر له من الحيوية والنشاط الأدبي الشيء الكثير، إنه الناقد واللغوي أبا إسحاق الحصري (ت**413**هـ) [2]، كما يشير إلى ذلك بشير خلدون في دراسته المستفيضة عن الحركة النقدية بالقيروان وبلاد المغرب فيقول:" ظهر في ذلك العصر -نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين- أول بذرة نقدية شارك فيها الحصري بكتابة زهر الأدب، وإن لم يبلغ فيه ما بلغ معاصروه وتلاميذته من بعده؛ كالنهشلي، وابن رشيق، وابن شرف "[3].

إنَّ الحُصري بعملِه الأولي فتق باب النقد، وفتح الباب أمام النقاد المغاربة ليأخذوا منه بسهم، وضمّن كتابه إشارات ولمحات نقدية في غاية الأهمية، كانت بالنسبة لمن جاء بعده من أهل المغرب المفتاح الذي قادهم إلى خوض عوالم النقد وارتياد أفاق الشعر والأدب، وهذا عين ما نبّه عليه وأشار إليه بشير خلدون وهو يتكلم عن الحصري حين قال:" كان بإمكان الحصري أن يكون ناقداً فذًّا لو أنه أبان عن آرائه النقدية وأسهم بها بشكل صريح دون أن يلمح إلى ذلك، أو تتبّع من أورد أحكامهم وآرائهم في كتابة (زهر الآداب) بالموافقة والاستحسان، ليخلص إلى القول، بأن الحُصري لم يضع كتابه للاختيارات النقدية بقدر ما كان يريد الإفادة الأدبية والمتعة الفكرية [4].

ويقول عنه أحمد أمين: ومن كبار المؤلفين في الأدب إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، فهو صاحب كتاب (زهر الآداب) وابن خالة أبو الحسن الحُصري الضرير، إلى أن يقول: وإنّ ما كتبه الحصري يدلّ على ذوقٍ في الأدب رقيقٍ، واطلاع واسع على ما أنتجه الأدباء من الجمل الروائع والرسائلِ البليغةِ [5] .

---

(1) عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 471 .

(2) للتعرف أكثر على حياة أبي إسحاق الحصري وإنتاجه الأدبي والشعري ينظر: ابن رشيق، أنموذج الزمان، ص: 45، كما ينظر: بسام، الذخيرة، (المجلد4، القسم1)، ص: 584 وما بعدها .

(3) خلدون بشير، الحركة النقدية على عهد ابن رشيق المسيلي، (مر، س)، ص: 93 .

(4) المرجع نفسه، ص: 205 وما بعدها

(5) ينظر: أمين أحمد، ظهر الإسلام ،ج/1، ص:306 .

وقال عنه ابن رشيق:"كان شُبّان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه، حتى أنه رَأُس عندهم وشرُف لديهم، وسارت تآليفه وانثالت عليه الصِّلات من جميع الجهات وله ديوان شعر، مات (سنة **413**هـ) "[1]، وإن هذا الذي يذكره ابن رشيق، إنما هو رأي الخبير المجرّب المعاين لواقع الحال .

فيما اعتبر أبو القاسم كرو،" أن الحصري جمع لنا كتابه زهر الآداب والذي يُعتبر من أضخم المصادر لتاريخ الأدب العربي، وهو يَنضاف إلى سلسلة كتب النقد "[2].

وكيف لا يكون كتابه كذلك، وقد جمع فيه صاحبُه كل غريبة على ما يقوله ابن خلكان في وفيات الأعيان، وأراد من خلاله أن يكون المستغنى به عن كتب أهل المشرق، تيسيرا على أهل زمانه، ودفعاً لمشقّة السَّفر والارتحال .

فيما يقدّم محمد النقّير نظرته إلى المجهود الذي طرحه الحصري فيقول:" إنَّ المتأدّب لو اقتصر على زهر الأدب لكفاه، من حفظ الجيِّد من النثر والنظم لاكتساب ملكة الأدب، وأغناه عن جميع التآليف في هذا الغرض "[3] .

إنَّ هذه الآراء؛ والتي هي في أكثرها لنقاد مغاربة من القدماء والمحدثين، نسْتَبينُ من خلالها ما كان عليه الحصري من ثقافة أدبية، واطلاع واسع بالموروث الأدبي والنقدي الذي اجتمع حوله الناس، وأجمعوا عليه بشكل عام .

والمحصِّلة أن كتاب زهر الآداب للحصري كما يذكر كثير من الدارسين، ليس كتاب نقدٍ يُعنى بقضايا النقد بذاتها، إنما هو كتابُ أدبٍ؛ اعتنى فيه بجمع النصوص الأدبية واختيارها وتصنيفها والموازنة بينها استحسانا لها، اعتمادا على ذوقه ونظراته دون شرح أو تحليلٍ أو تعليلٍ أو تعليقٍ في الغالب الأعم، وهذا الناقد المغربي أحمد يزن يكتب عن الحصري قائلا: "ونقول في أمانة وصدق، أن الحصري لا يكتفي بالجمع والانتقاء، بل كان يضيف إلى ذلك آراءه وخواطره الشخصية وشروحه، وكان ينسب النصوص والأقاويل إلى أصحابها " [4].

---

(1) ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، (م، س)، ص: 45 .

(2) أبو القاسم كرو، عصر القيروان ، (مر، س) ، ص: 33 .

(3) النقير محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، (مر، س) ص: 44 .

(4) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، (مر، س)، ص: 366 .

ولقد ألمح هو نفسه إلى هذا المنهج عندما قال:" وليس لي في تأليفه من الافتخار أكثر من حُسن الاختيار واختيار المرء قطعة من عقله، تدل على تخلّفه أو فضله" [1].

2-5- القزاز القيرواني والنقاد المحدثون:

رأي عبد العزيز قليقلة: يقول عنه: كان القزاز ناقدا فارسا في هذا الميدان، خاصة في مجال اللغة والنحو، حتى أن الشعراء كانت تأتيه وتقصده ليثقّف لها أشعارها، ويحكم لها أو عليها، أو ربما يوازن بينها ويختار منها، وذلك يدل على أنه كان ناقدا بصيراً بالشعر، يعرف حق المعرفة رديئه من جيده، وما من شك في أنه صدر في تأليف كتابه: (ما يجوز للشاعر في الضرورة) عن رغبة أكيدة في توسيع النحو واللغة للشعراء، ويواصل قليقلة كلامه قائلا: ويحدثنا ابن رشيق أن القزاز قدّمت له جميع القصائد التي كان يظهر أصحابها بالقيروان، فجعل يوازن بينها ويأخذ منها ويترك، إلا قصيدة واحدة اخْتِيرت بأجمعها [2] .

هذه القصيدة لصاحبها، هي قصيدة للحسن بن علي الكاتب[3] أحد أبرز شعراء القيروان في ذلك الوقت، والتي يقول في مطلعها [4]:

شفَى الغيْظ في طَيّ الضَّمير المُكَتّم دِمَـاءُ كِلاَب حُلّلت فِي المُحرّم

إنَّ هذه الرواية من ابن رشيق وهو يحدثنا عمّا كان عليه القزاز تذكّرنا بتلك الحالة التي كان عليها النابغة الذبياني في الجاهلية، حينما كانت تُضرب له قبَّة حمراء، وتأتيه الشعراء رغبة في التحاكم عنده لما كان لديه من قدرة على تمييز جيد الشعر من رديئه، وهو نفس الحكم الذي قد يكون عليه القزاز في اطمئنان الشعراء إلى أحكامه وذوقه الفني وبراعته النقدية .

3- مدى تأثير النقاد المغاربة فيمن جاء بعدهم من الأدباء والدارسين:

بعد هذه الحوصلة التي استطعنا جمعَها والوصول إليها من جُملة الآراء والكتابات التي صدرت في غالبيتها عن أُدباء ونُقاد لهم وزنُهم ومكانتهم في دنيا النقد والأدب، نأتي في هذه الجزئية من

---

(1) الحصري القيرواني، زهر الآداب ص: (37 ـ 38) .

(2) ينظر: قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي ص: 229 .

(3) هو أبو علي الحسن بن علي الكاتب المعروف بابن زنجي ، كان من بيت كتابة ورئاسة وعلم، شاعر بارع مُجيد، يتقن صنعته ألف قصيدة في وصف قتلى الرافضة ، قدّمها القزاز القيرواني الناقد المعروف على كل القصائد الأخرى، (توفي سنة 408هـ)، ينظر: ابن رشيق ، أنموذج الزمان، ص: (107 ـ 108) .

(4) ينظر: قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي ص: 229 .

البحث إلى استجلاء واستقراء مدى التأثير والبصمة التي تركها النقاد المغاربة القدامى فيمن جاء بعدهم من العلماء والدارسين.

إنَّه ونظرا للمكانة التي بلغها النقد بالمغرب العربي، وكذا السُّمعة الطيبة التي اكتسبها أدباء ونقاد المغرب في القرن الخامس الهجري، فقد تأثر بذلك وأعجِبَ غاية الإعجاب؛ جماعة لا يُحصَون عدداً من أدباء المشرق والأندلس فضلا عن أهل المغرب، وإنَّ من الشخصيات العلمية التي يمكن الاستشهاد بها والتمثيل لها في هذا المقام ما يلي:

الأديب **ابن السرَّاج الشنتمري** والذي عاش في القرن السادس الهجري، ويعتبر من أعمدة اللغة والنحو المبرّزين، تصدَّر لتدريس عُلوم النحو بجوامع مصر، كانت له عناية خاصة بكتاب العمدة لابن رشيق، وكان يفضِّله على كتب النقد الأخرى بما وجد فيه من استيعاب للمادة العلمية وتنظيم وحسن مناقشة، كما نجد **أبو عبد الله بن الآبار** من الذين اسْتهوتهُم كتابات ابن رشيق، فقد كان يترسَّم طريقته ومنهجيته التي سلكها في الأنموذج من حيث العناية بأشعار أهل عصره من أهل الأندلس، بدليل مقدمته التي استفتح بها كتابه الذي أرّخ فيه لشعراء بلده الأندلس حيث يقول:" وبعد فهذا اقتضابٌ من بارع الأشعار قصرته على أهل الأندلس بلدي، وحصرتُه إلى من سبق وفاته منهم مَولدي، ثم ألحقتُ بهم أفراداً لحقهم شيوخ ذلك الأوان لأُضاهي أنموذج أبي علي بن رشيق القيرواني"[1].

كما نجد من بين المتأثرين بالنقد المغربي من المشارقة **أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي المصري (ت613هـ)**، والذي كان من البارعين في العلوم اللغوية والتاريخ، حيث نجده يرجع في الكثير من آرائه وترجيحاته النقدية إلى كتابي ابن رشيق العمدة والأنموذج، ولعل كتابه (بدائع البدائة) حافلٌ بالنَّقل عن ابن رشيق .

ويظهر التأثر باديًّا بصفة جلية على **ابن خلدون** في نقله وإعجابه بما كتبه ابن رشيق، وهو الأمر الذي جعله يقول عنه بكل عدل وإنصاف واعتراف: " وبالجملة فهذه الصناعة وتعلُّمها مُستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق، وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجُهد، ومن أراد استفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البُغية من ذلك "[2].

---

(1) يـزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص: 419 .

(2) ابن خلدون، المقدمة، (م ، س)، ج/2، ص: 746 .

ومن النقاد الذين تأثروا بحركة النقد القيرواني نذكر الأديب الأريب **أبو القاسم الكُلاعي** صاحب كتاب (أحكام صنعة الكلام) وهو من أهل الأندلس، كانت له صُحبة مع ابن بسام، حيث أننا كثيرا ما نجده يستشهد بنماذج وأمثلة من آراء وأفكار الحصري، وابن رشيق القروانيين" [1].

كما نجد **أبا الطيب الرُّندي** من المتأثرين بحركة الشعر والنقد بالبلاد المغربية، حيث ذكر النقاد أن هنالك تشابهات كثيرة بين ما ذكره ابن رشيق، وما أتى به الرُّنـدي في كتابه (الوافي في نظم القوافي) ، وقد كان هذا الأخير من كبار شعراء الأندلس في القرن السابع الهجري، لكنه كان كثيرا ما يعالج مسائل النقد والشعر على طريقة ابن رشيق في عمدته، كما تجدر الإشارة إلى بيان مدى تأثر القاسم بن محمد السجلماسي بالنقاد المغاربة الذين ظهروا قبله، خاصة ابن رشيق، فقد نقل عنه كثيرا في كتابه (المنزع البديع) " [2].

ومن الشخصيات الأدبية التي تأثرت بالنقد القيرواني المغربي نجد **ابن البناء المراكشي** والذي نجده ينقل عن ابن رشيق متأثرا به في معالجة الكثير من القضايا النقدية التي تطرق لها، كما يظهر على **ابن الأثير** صاحب (المثل السائر)؛ كثيرا من التأثر بابن رشيق، ونجده ينقل عنه العديد من الآراء واللمحات النقدية من كتابيه العمدة، والأنموذج [3].

كما نجد كتاب الحصري زهر الآداب من المصادر القيروانية الأساسية عند الكثير من الدارسين الذين ظهروا بعد القرن الخامس الهجري، وهذا **ابن أبي الأصبع المصري** نرى له تأثّرا واضحا بما كتبه ابن رشيق، بدليل ما يذكره في مقدمة كتابه (تحرير التحبير) وهو يقول:" وقفت في أخذ هذا العلم على أربعين كتابا من بينها العمدة لابن رشيق"[4].

ومن المتأثرين بالحركة النقدية المغربية نذكر أيضا **ابن حجّة الحموي** صاحب كتاب (خزانة الأدب)، والذي يظهر منه أنه كثيرا ما يرجع إلى كتاب العمدة للاقتباس منه.

وكان للكتابات والمؤلفات القيرواني المغربية كبير الأثر فيما نقله **ابن بسام في ذخيرته**، ويظهر ذلك منه عندما نجده يشير في أحد أبواب كتابه إلى ابن رشيق قائلا: "وقد فرّق حُذَّاق النظر بين

---

(1) من أراد التوسع في دراسة واستقصاء مظاهر هذا التأثر ينظر: يـزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 412 .

(2) ساعي إدريس، علم البلاغة في الموروث النقدي والبلاغي (العمدة أنموذجا) ، (مر، س) ، ص: 214 وما بعدها .

(3) وهذا أحمد يزن يعرّفنا بالكثير من هذه المواضع التي يظهر فيها التأثر بابن رشيق، ينظر في ذلك كتابه: النقد الأدبي في القيروان في العهـد الصـنهاجي ص: (399 ــ 403) ، وينظـر: سـاعي إدريـس، ومقالـه العلمـي: علـم البلاغـة فـي المـوروث النقـدي والبلاغـي (العمـدة أنموذجا)، والذي أشار فيه إلى مجموعة من الشخصيات الأدبية الذين تأثروا بالنقاد المغاربة .

(4) يـزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص: 410 .

البديهة والارتجال، فجعلوا الارتجال ما كان على طريق الانهمار والتدفُّق، لا يتوقَّف فيه قائلـه، أما البديهة فهي الفكرة والتأييد"[1]، حيث يجزم أحمد يـزن" أن ابن بسام لا يعني بحُـذَّاق النظر إلاَّ ابن رشيق "[2].

4- المنجز النقدي التطبيقي للنقاد المغاربة القدامى في رُؤى النقاد المحدثين

إنَّ الممارسة النقدية والسّجالات التي كانت تجري على مستوى بلاطات الأمراء والحكام هي التي خرّجت لنا نُخبة من المثقفين، ترجموا ما اكتسبوه من معارف وخبرات كلامية ونقدية في مصنفات ومؤلفات علمية أصبحت توازي ما ظهر بالمشرق الإسلامي من كتابات نقدية، ولم يكتف المغاربة بالعمل التنظيري بل تجاوزوا ذلك إلى أن تركوا بصماتهم في الجانب النقدي التطبيقي، وبذلك شهدت الساحة النقدية المغربية وفرة في الكتابات بشقَّيها النظري والتطبيقي.

ومن أشهر ما وصل إلينا من كتب في هذا المجال،كتاب(الممتع في علم الشعر وعمله) لعبد الكريم النهشلي، (والضرائر الشعرية) للقزاز النحوي القيرواني، (وزهر الآداب وثمر الألباب) لأبي إسحاق الحصري، (ومسائل الانتقاد)لابن شرف، و(كتاب الرائق بأزهار الحدائق) لأبي الطاهر التجيبي، (والعمدة في علم الشعر وعمله ونقده) لابن رشيق المسيلي، إلى جانب (قراضة الذهب في نقد أشعار العرب)، وكذا (أنموذج الزمان في شعراء القيروان)، وغير ذلك ممَّا ضـاع ولم يصل إليـنا، وسأقدِّم في هذا المحور بعضاً من النماذج الشعرية التي تبرزُ مدى ما وصل إليه النقاد المغاربة في مجال المناقشة وإبداء الرأي، وعرضِ تطبيقاتهم الشعرية وتحليلـها وفقاً لرؤيتهم النقدية الخاصة .

4-1- الحسن ابن رشيق والنَّقـد التطبيـقي:

إنَّ من أبرز الصُّور والنماذج التي يمكن إرادُها في هذا المقام، والتي تُشكِّل إحدى أهم المنجزات النقدية التطبيقية لدى النقاد المغاربة، ما قدَّمه لنا الناقد الكبير الحسن ابن رشيق القيرواني مساهماً برأيه ومعبرا عن ثقافته المغربية، حين يعرّف الاتساع كمصطلح بلاغي فيقول:"هو أن يقول الشاعر بيتاً يتّسع فيه التأويل، فيأتي كل واحد بمعنى، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ واتّساع المعنى، فمن ذلك قول امرؤ القيس[3]:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعاً كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، (القسم/ 4، المجلد1)، ص: 23 .

(2) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 419 .

(3) امرؤ القيس، الديوان، ضبط وتصحيح، مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية لبنان، ط5، 2004، ص: 119 .

إذ نجده يقدّم رأيـه بأن امرؤ القيس" إنما أراد أنَّ فرسه إنما يصلحُ للكر والفر، ويحسن ذلك مقبلاً مدبراً، ثم قال ـ معا ـ أي جميع ذلك فيه، وشبَّهه في سرعته وشـدَّة جريه بجلمود صخرٍ حطَّه السيل من أعلى الجبل، فإذا انحط من عالٍ كان شديد السرعة، فكيف إذا أعانته قُـوَّة السيل من ورائـه؟! "[1].

ورغبة منه في بيان وضبط مفهوم الاتساع والتدليل على وجهة نظره وقوَّة ما ذهب إليه، نجده يُورد رأي أستاذه عبد الكريم النهشلي فقال:" إنَّ عبد الكريم إنما أراد من قوله: جلمود صخر حطَّه السَّيلُ من علٍ؛ إنما هو الصَّلابة؛ لأن الصّخر عندهم كُلَّما كان أظهر للشمس والريح كان أصلب"[2].

والذي يمكن استنتاجه من هذا الطّرح الذي قدمه ابن رشيق، هو مدى قـوّة الرّجل في التحليل والمناقشة وإجلاء وجهة النظر، وهو ما يُعطي الانطباع على متانة ثقافته، وتوسُّع مداركِهِ ومُطالعَاته الكثيرة، وهي الإشارات التي يمكن إدراجها في هذا الباب والتي ينقُلها محمد مرتاض معبراً عنها بقوله: "بالاجتهاد النَّقدي لابن رشيق يتبين لنا من خلاله حاسَّة هذا الناقد الألمعي وتذوّقه الأدبي، ويظهر ذلك أكثر عندما نقرأ له وهو يشرح ويعلّل بيتين لامرئ القيس عابَهُما أحد الدارسين، ذاكرا بأنهما خالفا الترتيب الجمالي والتناسُق الذي كان ينبغي أن يصوّرهما وِفقه، إلاَّ أن ابن رشيق يقف كالطّود الشامخ مُبينًا صحَّة التَّرتيب الذي أورده امرؤ القيس وبطلان ادِّعاء ذلك المدَّعِي"[3].

يقول امرؤ القيس[4]:

كَأَنِّيَ لَم أَركَب جَـواداً لِلَـذَّةٍ وَلَم أَتَبَطَّن كاعِباً ذاتَ خِلخالِ

وَلَم أَسبَإِ الزِقَّ الرَويَّ وَلَم أَقُل لِخَيلِـيَ كُرّي كَرَّةً بَعدَ إِجفـالِ

حيث يذكُر ابن رشيق أن رجلاً بغداديا يعرفُ بالمنتخب[5]، لم يرقه هذا الترتيب الجمالي مما جرّأه على إعادة ترتيبهما حسب ذوقه وحكمه فقال:

كأنّي لم أركَبْ جَوَداً ولم أقل لخيلي كـُري كرّة بعد إجفـال

---

(1) ابن رشيق، العمدة ،ج/ 1، ص: 93.

(2) المصدر نفسه، ص: 93.

(3) مرتاض محمد، االنقد الأدبي في المغرب العربي،(مر، س)، ص: 136.

(4) أبي زكريا الشيباني، شرح المعلقات العشر المذهبات، ضبط وشرح ، عمر فاروق الطباع، ص: 39 .

(5) يقول ابن رشيق عن هذا الرجل، إنه أديب من بغداد عاش في عصر سيف الدولة كان لا يسلم منه أحد من القدماء والمحدثين، حيث أنه كان لا يُـذكر أحدٌ بحضرته إلاَّ عابه ، ينظر، االعمدة، ج/1 ، ص: 225 .

ولم أسبأ الـزّق الروي للَـذَةٍ وَلم أتَبَطَّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخَالِ[1]

فهذا الحكم من البغدادي، وهذا التَّرتيب الذي استحدثه لبيتي امرئ القيس حزَّا في نفس ابن رشيق، فشنَّع برأيه وسخَّف حُكمه، لأنه لمس فيه تعديّاً على الفن، وتطفّلاً على الإدراك العميق لمعاني الخطاب الشعري "[2] مما جعله يقول:" فقول امرؤ القيس أصوبُ، ومعناه أعزُّ وأغربُ؛ لأن اللّذة التي ذكرها إنما هي الصَّيد، هكذا قال العلماء، ثم حكى عن شبابه وغِشيانه النساء، فجمع في البيت الواحد معنيين، ولو نظّمه على ما قال المعترض لنقَصَ فائدةً عظيمةً، وفضيلةً شريفةً تدل على الملك والسلطان، وكذلك البيت الثاني لو نظَّمه على ما قال لكان ذكرُ اللذة حشواً لا فائدة فيه، لأن الزّق لا يسبأُ إلاَّ للذَّة، فإنَّ جعل الفُتوَّة كما جعلناها فيما تقدم الصيد؛ قُلنا في ذكر الزّق الروي كفاية، ولكن امرؤ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وَصفها بالتملُّك والرفاهية"[3].

يقول محمد مرتاض مُعقِّباً على ذلك:" بـهذا الفهم وبهذا التخريج الثاقب استطاع ابن رشيق أن يُعطي لبيتي امرئ القيس الجمالَ والفنيّة، خلافاً للنظرة القاصرة التي رآها ذلك البغدادي، وهذا يُعطي الانطباع التام بأن ابن رشيق ناقد له مكانته وتفرّداته، حيث نجده يتفرَّد في الكثير من الأحيان برأيه، ويقدِّم حُكمه النقدي بناءً على ما يتطلّبه المفهوم العام للنصّ ومُقتضيات ومتطلبات قواعد الخطاب النقدي"[4]، وإن ذلك يحسبُ ضمن المنجزات النقدية التطبيقية لابن رشيق، ويقدِّم الدلائل على أن الرجل لم يكن مقلدًا جمّاعاً لأراء الآخرين كما يدَّعي بعضُ الدارسين .

ومن المنجزات النقدية التطبيقية والآراء الجريئة والملاحظات النقدية العميقة التي تحسب لابن رشيق ذلك التحليل والتفسير البعيد المعنى الذي قدمه الرجل لقول أبي نواس:

أَلا فَاسقِني خَمراً وَقُل لي هِيَ الخَمرُ وَلا تَسقِني سِرّاً إِذا أَمكَنَ الجَهرُ

فما العَيشُ إِلّا سَكرَةٌ بَعدَ سَــكرَةٍ فَإِن طالَ هَذا عِندَهُ قَصُرَ الدَهـرُ

حيث يذهب ابن رشيق في تفسير البيتين وتحليلهما فيقول: زعم من فسَّر هذا؛ أنَّه إنما قال: "وقل لي هي الخمر"، لِيلتذَّ السمع بذكرها كما التذّت العين برؤيتها، والأنف بشمها، واليدُ بلمسِها

---

(1) ابن رشيق، العمدة، 1/ 225 .

(2) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي (النشأة والتطور)، ص:137، وينظر: مخلوف عبد الرؤوف، من نوابغ الفكر العربي (ابن رشيق القيرواني)، ص: (73 ـ 74) .

(3) ابن رشيق، العمدة ج/ 1، ص: (258 ـ 259) .

(4) مرتاض محمد، النقد الأدبي في المغرب العربي نشأته وتطوره، ص: 177.

والفمُ بتذوّقها، ليقول ابن رشيق عندها مُفسِّرا ومُحلِّلا: إنّ أبا نواس ما أظنُّه ذهب هذا المذهب، ولا سلك هذهِ الشِّعب، ليؤكّد تفسيره الخاص به فيقول : ولا أراهُ أراد إلا الخلاعةَ والعبث الذي بنى عليه القصيدة ودليل ذلك أنه قال في تمام البيت: ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر، فذهب إلى المجاهرة وقلّة المبالاةِ بالناس، والمداراة لهم في شرب الخمر بعينيها، والتي لا اختلاف بين المسلمين في تحريمها[1].

إنَّ هذا الشرح وهذا التحليل منه، يؤكد مرة أخرى على مدى اعتماد ابن رشيق على فكره الخاص وما تمليه عليه ثقافته الشخصية، وما يستنبطه بذكائه الخارق، وهكذا تتراءى لنا شخصية ابن رشيق الأدبية وقوته النقدية، وشجاعته الأدبية عندما نجده يصرح برأيه ويبسطه بكل وضوح، ويخالف في ذلك غيره بناء على ما يظهر له من مقوّمات النقد وعقلانية التفسير ووجاهته.

ومن الآراء النقدية الجريئة التي يطالعنا بها ابن رشيق قوله عن بيت امرئ القيس[2]:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللّوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

حيث يرى ابن رشيق" أن هذا البيت من أحسن المطالع وأفضل الابتداءات التي أتى بها شاعر، لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مِصراع واحد" [3]، وليس من عجبٍ في ذلك وقد كان ابن رشيق من المتيَّمين بإبداعات امرئ القيس، وكان لا يستشهد له ببيت من الشعر إلا ويُسربلُه بلسانٍ الثناء وعبارات الإجلال .

ومن الاختيارات التي يأتي بها ابن رشيق ويحفل لها ويطرب بإنشادِها ويسجِّل فيها رأيه الخاص ويمتدح صاحبها ويرى فيه القوة والبراعة، بيت أبي تمام القائل[4] :

السَّيفُ أصْدق أنباءً من الكُتُبِ فِي حَدِّه الحدُّ بيْن الجَدِّ واللّعِبِ

حيث يُعجب ابن رشيق بهذا البيت، ويرى أنه من أحسن الابتداءات في الشعر العربي، بل ويشرح مضمُونه بما يتوافق مع ما ذهب إليه أبو تمام فيقول:" يجب الإيمان بتفوّق السَّيف على الكتب، ألم تقُل الكتب ويقُلْ معها المنجّمون أن المعتصم لا يفتحُ عمورية، في الوقت الذي اختاره لمهاجمتها، ولكنَّه لم يستمع لكلامهم وهاجمها، وانتهى هُجومه بفتحه العظيم"[5].

---

(1) ينظر: ابن رشيق ،العمدة ج/ 2، ص: (93 ـ 94) .

(2) أبي زكريا الشيباني، شرح المعلقات العشر المذهبات، (م، س)ص: 35 .

(3) ابن رشيق، العمدة ج/1، ص: 218 .

(4) أبي تمام، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج/1 ، ص: 32 .

(5) يـزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص: 181 .

2-4- الحُصري والنقد التطبيقي:

ينبّه الحصري إلى بعض الشواهد والنصوص التي يأخذها كعيّنات للفعل النقدي التطبيقي، عندما يُجهد رأيه ويذكى قريحته، ويرى فيها فعلاً نقدياً إجرائيا فيقول: إنَّ البُحتري أخذ بعض المعاني من أبي تمام ويستدل على ذلك بقول أبي تمام[1]:

وَإذَا أرَادَ اللهُ نشْرَ فَضِيـلَةٍ طُوِيتْ أتاَح لهَا لِسـَان حَسُـودِ

حيث يشير إلى أن البحتري أخذ معنى هذا البيت وتصرّف فيه بقولــه :

وَلنْ تَسْتبَينَ الدّهْر مَوضِع نِعمَة إذَا أتَت لمْ تُدلَّلْ عليْهاَ بِحَاسِدِ

وقد أشار الآمدي إلى ذلك أيضا في كتابه الموازنة[2]

ومن النُّصوص التطبيقية التي يسُوقها الحصري في تبيان مواضع السرقات قول القطامي[3]:

والناسُ مَنْ يلقَ خيراً قائلونَ لهُ مَا يشْتَهِي وَلأُمِّ المُخْطىء الهَبَلُ

فإنه إنما أخذه من قول المرقش:

وَمَنْ يلقَ خَيراً يحْمَد النَّاس أمْرُه وَمَن يَغْو لَا يَعدِم علَى الغَيّ لائِماَ

فمؤدى بيت المرقش" أن من يفعل الخير يمُدح، ومن يفعل الشر يُذم، في حين يرى القطامي أنَّ المحسن يتملّك رقاب الناس ويخضعون له، بينما يدْع الناس على المسيئ وعلى أمّه بالثكل والنّكــال"[4].

ومن النماذج النقدية التطبيقية التي ساقها الحصري وهو بصدد الحديث عن الطبع والصنعة حديثه عن بشار بن برد، والتمثيل لذلك بأبيات من شعره فيقول: "وإنما سُمِيَّ أبا المحدثين لأنه فَتقَ لهم أَكمَام المعاني، ونهج لهم سبيل البديع فاتبعوه"[5].

وإنَّ تقديم الحصري لبشار، إنما كان بسبب حُبِّـه للألوان البديعية والصياغة الجميلة، وهذا الذي جعله يتخيّر من شعره هذه الأبيات ويصفها بأجمل النعوت:

لقد عشقت أُذني كلاما سمعتُه رخيماً وقلبي للمليحة أعشقُ

---

(1) أبي تمام، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، ج/1، ص: 85 .

(2) ينظر: الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب ج/1 ، ص: 202.

(3) ينظر: سهالي عامر، قضايا النقد في كتاب زهر الآداب، (مر، س)، ص: 66 .

(4) الحصري، زهر الآداب، ج/2 ص: 592.

(5) المصدر نفسه، ج/2 ص: 592.

ولو عاينوها لم يلوموا عليَّ البُكا كريماً سقاه الخمر بدر مُحلَّق

وكيف أتناسى من كان حديثُــه بأذني وإن غُنّيت قُرط معلّـق

فبشار من خلال هذه الأبيات لم يجعل حديث الحب يسلك طريقه إلى القلب من خلال الأذن، وإنما أضاف شيئا جديدا حينما شبّه حديث المحبوب واستقراره في سمعه لرقّته وعذوبته بالقرط المعلّق في الأذن، وهذا ما جعل الحصري يقول:" وكان بشارُ أرقَّ المُحْدثين ديباجةَ كلام، ولشعره سيرُورة على الألسن " [1].

4-3- القزاز القيرواني والنقد التطبيقي:

يورد لنا القزاز بعض الأمثلة والنماذج التطبيقية يعمل من خلالها على إظهار مدى نجاعة وصحَّة الفكرة التي يدافع عنها في كتابه (الضرورة الشعرية)، فمن ذلك ما يُؤاخِذُ به النقاد الأعشى ميمون، وتفسيرهم للمعنى المراد من قوله[2]:

ويأمُرُ باليَحمُوم كُلَّ عَشيّة بِقتٍّ وتَعليفٍ فقد كَان يَسفق

فقالوا عنه، وما هذا مما يُمدح به الملوك، وهل أحد يُضيِّع فرسه حتى يكون هذا مدحاً له؟، إلا أن القزاز القيرواني يُعقّب على ذلك ويذكر رأيه، مبيّنا بأن المعنى صحيحا والمدح في محلّه عندما يقول: وهذا لعمري مدح، وذلك أن الملوك كانت تجعل بالقرب من مواضعها فرسا مُعدّا لما يتخوّفونه، فأخبر الأعشى بذلك وأنه يُقرَّب منه الفرس، فيأمر بعلفه وافتقاده، وذلك لحزمه وشجاعته [3].

وإنّ مما يَستشهدُ به القزاز أيضا في مجال النقد التطبيقي مبينا رأيه مشيرا إلى وجه الخطأ في فُهوم بعض الشراح في مجال المعنى والقوافي؛ مؤاخذتهم على امرئ القيس قوله [4]:

فمثلك حُبلى قد طرقت ومرضعًا فألهيتُـها عن ذي تمائم محْـول

حيث يذكر الكثير من الشّراح إلى أنه لا فائدة هاهنا في ذكر الحبلى والمرضع، إلا أن للقزاز تخريج جميل وفهم بعيدٌ حين يقول:" إن هذا ليس بعيب على اعتبار أن الحبلى من عادتها أن لا

(1) الحصري، زهر الآداب ، ج/1 ص: 470 .

(2) ا الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، شرح محمد حسي ، مكتبة الآداب مصر، (دط، دت)، ص: 219 .

(3) ينظر: خلدون بشير، الحركة النقدية، ص:103 .

(4) أبو زكريا الشيباني، شرح المعلقات العشر المذهبات، (م، س)، ص: 26 .

ترغب في الرجل، وكذلك المرضِع لانشغالها بولدها، وإذا كانتا هاتان ألهاهُما بطروقه، فهو لغيرهما من النساء أشدَّ إلهاءً "[1].

وإنَّ ممَّا راقنا في هذا المجال ورأينا تسجيله في باب المنجز النقدي التطبيقي لأُدباء ونُقاد المغرب العربي نظرة القزاز، هذا الناقد الفذِّ وهو يقدّم رأيه وتحليله الخاص بكل حرية وجرأة لمّا نجده يعترض على النقاد في مُؤاخذتهم على النابغة الذبياني عن المعنى المراد من قوله :

إذا ما أغزَوْا بالجيش حلّق فوقهم سحائب طيـر تهتدي بعصَائب

جوانـح قد أيقـنّ أن قبيلـَــهُ إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ

حيث اعترض المعترضون على النابغة بقولهم: كيف للطير أن تعلم الغالب من المغْلوب من الجيشين المتقابلين؟ وهم مازالوا بعدُ في مسيرهم، وأن الطير قد تَتبعُ الجيش والعساكر للقتلى، ولكنها لاتعلم الغالبَ من المغلوب؟ إلا أن القزاز يُبدِّد هذا الفهم، ويقدِّم تحليلا في غاية الفهم والذوق فيقول:" إنَّ ما ذهب إليه النابغة في شعره ليس بعيبٍ، إنما هو من قبيل الإفراط في المدح لقبيلته، وهو يصف كثرة ما تصحب الطير جُيوشهم، وأنَّها تعلم منهم الغلبة، فكأنها وثقت بنصرهم وأيقنت بذلك"[2] .

ويعجب أحمد يزن بهذا الفهم الثاقب والتحليل المنطقي من القزاز القيرواني فيقول في ذلك: "يبدوا أن دفاع القزاز عن الشاعر من خلال التفسير الذي طرحه ينمُّ عن حُسن فهم، حيث نراه ينبِّهُنا إلى ما في شعر النابغة من المبالغة التي جعلت من الطيور على معرفة ببطولة الغسانيين، وتعوُّدهم على النصر معها، مما جعلها تُصبح جزء من جُيوش الغساسنة، تُرافقها في تحرّكاتها وتسير على إثرها واثقة من أنها ستطعِمُها من لحوم وجثث القتلى الأعداء"[3].

ومن الشواهد التي يتمثّل بها القزاز القيرواني، إشارته إلى بيت أبي نواس الذي يُعاتبه فيه بعض الأدباء وهو قوله[4]:

نَبِّه نَديمَكَ قَد نَعس يَسقيكَ كَأساً في الغَلَس

---

(1) نقلا عن: يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي،(مر،س)، ص: 118 .

(2) القزاز القيرواني، مايجوز للشاعر في الضرورة، (م، س)، ص: 53 .

(3) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ، ص: 131 .

(4) ينظر: سعاد ترشاق، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية، (مر، س)، ص: 399 .

حيث قالوا فالوجه ـ **يسقِك** ـ لأنه جوابُ الأمر ، وهو جزم تسقط له الياء – من يَسقيك – كما تقول في المثال: ارم زيدا يرمِك ، فتحذف الياء للجزم، غير أنَّ لجوازه وجهاً في العربية كما يقول القزاز القيرواني، وهو أن الشاعر له أن يُجري المعتل مجرى السالم، ومِثلُه قول الشاعر[1]:

ثم نادي إذا دخلت دمشـقا يا يزيـد بن خـالد بن يزيـد

فقال نادي وهو أمر، فأثبت الياء على ما ذكرنا.

كما أنه نظر إلى بيت أبي الطيب فأعْـذره وخرَّجـه، والبيت هو:

وا حَرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ وَمَن بِجِسمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ

فقالوا الغَلطُ في البيت من وجهين[2]:

أحدهما: أنه وصل المندُوب المفجُوع فحرّك الهاء، وهي هاء إنما تدخل في الوقف وهي ساكنة أبدا، فإذا قلت وازيداه، وا عمراه، وإذا وصلت الهاء قلت: وا زيد بن عمر.

والثاني: أنه أسقط الياء من المضاف إليه، وهو موضع لا تسقط فيه الياء لأنه إذا قال: يا غلام تسقط الياء، فإذا قال يا غلام غلامي لم يجز إسقاطها ، فقوله : وا حرّ قلباه بمنزلة يا غلام غلاميّاه، فكما لا يجوز إسقاط الباء من الآخر، لا يجوز إسقاطها من القلب .

يقول القزاز: "فهذا أيضا يجوز في اتّساع كلام العرب، أما إثبات الهاء في الوقف ووصلها فقد جاء في شعر العرب كثيرا "[3]، والواضح أن القزاز مُتسامح كثيرا في مسألة الضرورات الشعرية، وأنه يُدافع عن الشعراء محاولا تَسويغ ما جاء منها في أشعارهم بما جاء منها في أشعار القدماء، أو تخريجها تخريجا علميًّا مُسلَّماً به .

ومن الجوازات الشعرية التي يستدل بها القزاز القيرواني ويجوّزها من جهة الصَّرف نذكر مايلي:

قوله بجواز جمع المذكر على ما يجمع عليه المؤنث، كما في قول الفرزدق:

وَإذَا الرِّجالُ رأَوْ يزيدًا رأيتـهُم خُضَّع الرِّقابِ نَواكِسَ الأبْصَار

حيث أن كلمة "نواكس جمعها **ناكسـة** ، ولكن يجوز استعمالها هكذا في المواضع الشعرية "[4] .

---

(1) قليقلة عبد العزيز، البلاط الأدبي، (مر، س)، ص: 224 .

(2) المرجع نفسه، ص: 225 .

(3) القزاز القيرواني، ما يجوز للشاعر في الضرورة ، (م، س)، ص: 25 .

(4) المصدر نفسه، ص: 154 .

ومن جوازات الصَّرف لديه، أن يُجري الشاعر المصدر على غير المصدر القياسي ومثّل لذلك بقول القطامي: **وخَيْرُ الأمُور مَا اسْتَقْبلْتَ مِنهُ وَليْسِ بأنْ تتبِّــعْه اتّبــاعًا**

فكلمة اتّباعا بدلاً من تتبُّعا التي هي الأصل والقياس(1).

هذه بعض الأمثلة والتطبيقات النقدية العملية التي أثبناها هاهنا من أمثلة كثيرة أتى بها القزاز في كتابه الضرورات الشعرية، وقد انتصر القزاز من خلالها للشعراء، وتلمَّس لهم الأعذار فيما جاءوا به على غير عادة العرب في كلامهم العادي، وإنما فعل القزاز ذلك من باب ما اختص به الشعراء دون غيرهم من الناس، ومع ذلك فإنَّنا نجده في الوقت نفسه لا يتسامح في رُكُوب الضرورة التي لا تملك سنداً في كلام العرب القديم، وشعرهم العتيق .

4-4- ابن شرف القيرواني والنقد التطبيقي:

من الملاحظات التي نبّه إليها الكثير من الأدباء والنقاد فيما يخص النقد التطبيقي لابن شرف وتتبعه لبعض أشعار الشعراء، أنه كان متأثرا كثيرا بالنزعة الدينية الأخلاقية، إذ أنه كثيرا ما يستعملُ المقياس الأخلاقي في الحكم على الشعراء كما هو الحال في نقده لبعض أشعار امرئ القيس، وكذا انتقاده لأبي نواس، وابن هانئ الأندلسي، وقد أُثر عنه أنه انتقد ابن هانئ الذي كان يُبالغ كثيرا في مدح أمراء بني عُبيد فقال عنه:" تبّا له من رجل يستعين على صلاح دنياه بفساد أخراه، لرداءة عقله، ورقّة دينه، وضعف يقينه، ولو عقل لم تضق أبواب الشعر حتى يستعين عليها بالكفر"(2).

وإنّ مما يُمكن تسجيله في هذه الصَّحائف من أمثلة وشواهد شعرية في مجال النقد التطبيقي، والدراسة العملية لشعر الشعراء ما يذهب إليه ابن شرف في تعديد بعض سقطات امرؤ القيس، هذا الشاعر الفحل الذي يتَّخذ منه الكثير من الأدباء والنقاد الأنموذج الأمثل في البراعة الشعرية، إلا أننا نجد ابن شرف يُلقي عليه باللائمة، ويسفّه الكثير من شعره فيقول:" اتَّسعت أقوال النقاد في بيان فضائل امرئ القيس، حتى ليُخيّل للعامة أن جواد شعره لا يكبُو، ولكن هيهات هيهات من البشر الاستــواء" (3).

---

(1) القزاز القيرواني، ما يجوز للشاعر في الضرورة ، ص: 170 .

(2) ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، (م، س)، ص 29 .

(3) المصدر نفسه، ص: (28 ـ 29) .

ولعل من أوضح الأمثلة التي يوردها ابن شرف عن سقطات امرئ القيس هي قوله [1]:

ويوم دخلتُ الخِدرَ خِدر عُنيزةٍ فقالت: لك الويلاتُ إنك مُرجلي

حيث ينتقده ابن شرف قائلا:" فما كان أغناه عن الإقرار بهذا، وما أشدّ غفلته عما أدركه من الوصمة به، وذلك أن فيه أعدادًا كثيرة من النقص، منها دُخوله متطفِّلا على من كَرِه الدخول عليه، ومنها قول عُنيزة له: لك الويلات، وهي قَوْلةٌ لا تقال إلا لخسيسٍ، ولا يقابل بها رئيس"[2].

ويسترسل ابن شرف في انتقاده لامرئ القيس جراءةً، دون أن يلقي بالاً لما يقوله عنه النقاد الآخرون، خاصة وأن هذا الشاعر هو المقدّم عندهم وصاحب الفضل والسَّبق، ومع ذلك يعطي تحليله الخاص، ويقدّم نظرته دون اكتراثٍ، فيقول عن أبياته[3]:

سموتُ إليـها بعدما نامَ أهلُها سُموَّ حَباب الماء حالاً على حالٍ
فقالت: لَحاكَ الله إنكَ فاضِحي ألسْتَ ترى السُّمارَ والناس أحْوالي
حَلفتُ لها بالله حِلفـةَ فاجــر لنــاموا فمَـا إنْ حديثٌ ولا صــال

يُعلّق ابن شرف على هذه الأبيات فيقول:" وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن امرؤ القيس كان هيّن القدر عند النساء، مَطرودٌ غير مرغوب في مواصلته، حيث قابلته الأولى بقولها: لك الويلات، والأخرى بقولها: لحاكَ الله، علاوةً على أنه خَبَّر عن نفسه الرضا بالفجور، وهذه أخلاقُ من لا خلاقَ له" [4].

ولم يكتف أديبنا وناقدنا المغربي بالشرح والبيان للمقطوعة الشعرية، وإنما نراه يقدم لنا تحليلا لنفسيَّة امرئ القيس، ويُعرّج على مُضمراتها فيقول في كامل الثقة والجراءة لما يراه:" وإنما سهَلَ عليه كل هذا حِرصُه على ما كان ممنوعاً منه، وذلك أنه كان مُبغَضاً من النساء جدا، مفروكا ممَّن ملك عِصمتهن لأسباب كثيرة ذُكرت، وكل من حرص على نيل شيء مُمَنَّعٍ منه فعلاً، ادّعاه قولاً "[5].

كانت هذه قراءة نقدية لبعض أشعار امرئ القيس، وإن ابن شرف إذ يُقدم نظراته الخاصة في مثل هذه الأبيات التي كان يُظهر من خلالها ذو القروح تغزّله بالنساء وتهافتهم عليه، وكثرة غشيانه

---

(1) أبي زكريا الشيباني، شرح المعلقات العشر المذهبات ص: 26 .
(2) ابن شرف، أعلام الكلام ، (م، س)، ص: 29 .
(3) ابن رشيق، العمدة ج/1 ، ص: 228 .
(4) ابن شرف، أعلام الكلام، (م، س)، ص: 30 .
(5) المصدر نفسه، ص: 30 .

لهن، فإن ناقدنا لم ترقـه مثل هذه الألفاظ والتراكيب، ورأى فيها مما لا يليق بشاعر مثله ملك زمام البيان وأجاد في مواضع كثيرة، فراح يشنع عليه، ويصفه بأقبح الصفات وينسب إليه سفاسِف الأفعال، وهي في الحقيقة أحكام في غاية القَسوة، نلمح في ثناياها المنزع الديني الأخلاقي، وكأنَّ به يتوجّه بأحكامه التي يطلقها إلى الشاعر لا إلى شعره، وهي نظرة تحكُمها القيَّم المجتمعية أكثر مما يحكمها التوجه النقدي الحيادي، وقد سيطر هذا المقياس الأخلاقي على كثيرٍ من نقاد المغرب الإسلامي في تلك الفترة.

ومع ذلك يجب أن ننوّه بهذا المجهود النقدي لابن شرف، ونحترم رُؤيته فيما ذهب إليه، اعتبارا من أنه كان حُـرَّ التفكير، جريئا في طرح رُؤاه، ولم يكن مجرّد مستهلِكٍ، مُردّداً لما كان يقرؤه ويجده بين ثنايا الكتب والأسفار، وإن ابن شرف وإن كان عنيفاً في نقده لشعر امرئ القيس، فإنه كان يريد للفن أن تكون له أغراض سامية، يرشدُ للخير ويصحِّحُ السلوك .

وإن مما يسجّل ويُؤاخذ على النقاد المغاربة في هذا الباب أنهم اتجهوا إلى تمثُّل الشعر المشرقي في تطبيقاتهم النقدية وأجْهدوا أنفسهم في تتبّـع سقطات الشعراء المشارقة، ولم يكلّفوا أنفسهم ولو بالتفاتةٍ بسيطة إلى شعراء بيئتهم المغربية، حتى يكون نقدهم أكثر تمثُّـلا للعصر الذي عايشوه، والبيئة التي درجوا عليها كما يقول محمد مرتاض،" وهو أمر يُؤسف له؛ فالمغاربة هم الذين همَّشوا تراثهم وأدبهم، ودفنوه قبل أن يدفنُوا هم، فكان هذا هو المصير الذي آل إليه النقد والأدب بصفة عامة بهذا الإقليم من إفريقيـا"[1].

وهي الحقيقة التي فطن لـها أيضا عبد الله كنون فراح يقول:" وقد كثر عَتبُ الأدباء في المغرب على إخوانهم في المشرق لتجاهلهم إيّاهم، وإنكار كثير منهم لمزاياهم، ولكن أعظم اللَّوم في هذا مردودٌ على أولئك الذين ضيّعوا أنفسهم وأهملوا ماضيهم وحاضرهم، حتى أوقعوا الغير في الجهل بهم والتّقوُّل عليهم"[2].

على أنَّني ومن باب الدراسة الموضوعية يجب أن أنبِّه في هذا الإطار إلى تلك الملحوظة التي نجدها عند كثير من الدارسين المحدثين، وهم يُلقون باللائمة على النقاد المغاربة القدامى بشكل جُزافي عدم تعرّضهم للإنتاج المغربي بالدرس والمناقشة والتحليل، وأن كتاباتهم خالية من المتابعة والتقصي لما

(1) مرتاض محمد، النقد المغربي القديم في المغرب العربي ـ نشأة وتطوره ـ ص: 65.

(2) كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب االعربي، (مر، س)، ج/1 ص: 31 .

كتبه شعراء المغرب العربي، والحق فإن ابن رشيق وإن لم يلتفت كثيرا إلى شعراء بلده المغرب، ولم يتمثَّل بأشعارهم إلا لماماً في كتابه (العمدة)، وذلك لأنه وقف على أكثر الإنتاج المغربي في كتابه الثاني (أنموذج الزمان)، وهو ما يعني مُتابعته لما كتب الشعراء المغاربة أيضا .

إنَّ هذه الرؤية مما نتقاطع فيها مع أحمد يزن، عندما نجدُه يكتب عن ابن رشيق قائلا: "حيث اتخذ من المادة الشعرية لشعراء القيروان موضوعه الخاص ليطبّق مذهبه في النقد، فكان أن وقف على أشعار عصره مواقف جادةٍ متميّزة، ولم يقدِّم من قدمه منهم لتقدّم سن أو غيره، وإنما استند إلى التَّجويد الفني؛ بوصفه مقياساً أوَّلياً في تقديم النص والحكم على صاحبه، وكانت عنايته مُنصبَّة بالدرجة الأولى على فنِّهم أكثر من حياتهم "[1].

5 ـ الأدباء والمفكرون المغاربة ومرحلة إثبات الذات :

حفل تاريخنا الأدبي والثقافي بمساجلات وملاسنات كثيرة حول التبادل المعرفي بين المفكرين والأدباء من أبناء الأمة في المشرق والمغرب على السواء، وابتدأت جُذور هذه المنافسة منذ زمن بعيد، والتاريخ يُحدثنا أنه عندما وصلت كتابات ومصنفات بعض الأعلام المغاربة كأبي على القالي، وابن عبد ربه وسواهما من صُناع فن الخبر والكتابة الأدبية، حتى قال رجالٌ من المشرق؛" هذه بضاعتنا ردت إلينا"[2].

وقد أحدثت هذه المقولة كثيراً من رجع الصّدى، وولَّدت نوعا من الحميّة والنرجسيَّة في نفوس كثيرٍ من رجالات العلم وأعمدة الثقافة والأدب خاصة في بلاد المغرب الإسلامي، حيث بدأت تظهرُ ملامح الشخصية العلمية المغربية مع ظهور طبقة من الأدباء والنقاد والمفكرين المغاربة، من الذين أبانوا عن اعتزازهم واعتدادهم بالشَّخصية العلمية المغربية وافتخارهم بكينونتهم المكانية، وأن للمغرب الإسلامي رجاله كما هو الشأن لبلاد المشرق، وانطلاقا من ذلك صار أمر الدفاع عن الوطن ثقافياً وعلمياً مُهمَّة رسمية تبناها ورفع لوائها طبقة المثقفين والمفكرين، وتجلّى أمر ذلك مع ظهور نقاد وأدباء

---

(1) يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي ص: 330 .

(2) تعزى هذه المقولة للصاحب بن عباد، حيث أنه وبعد أن قرأ كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وكان يتشوّف لأن يجد فيه شيئا من أخبار الغرب (شعرهم وأدبهم وما إلى ذلك)، لكنه لمـــا لم يجد من ذلك شيئا، وإنما وجد فيه ما كان يقرأه عن أعلام المشرق وأدبائه وشعرائه، اغتاظ من ذلك وقال قولته تلك، ينظر: مبارك محمد زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ،(مر، س)، ص: 10.

ومؤرِّخين ظهر لديهم هذا النزوع المكاني من أمثال ابن شهيد (ت425هـ)، وابن حزم (ت 456هـ)، ثم أوليس ابن حزم هو من يقول[1]:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب

وازداد الأمر اتِّساعا، وأخذت جَذوة الصراع تتوقَّد وتتقوَّى وتشتدُ أكثر مع ظهور شخصيات فكرية وتاريخية مغربية بالأخص، تركت بصمتها في ميدان التأليف والكتابة الأدبية والتاريخية، ونقصد بذلك كلاً من المقري صاحب (نفح الطيب)، وابن بسام صاحب (الذخيرة)، كما يضمُّ مؤرخوا الأدب ابن سعيد المغربي المتوفى (سنة 673 هـ)، والذي تُنسب له رسالة كتبها بخط يده يُعيدُ فيها الاعتبار لِلذَّات المغربية، وقد وَسم رسالتهُ تلك بعنوان ـ (الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة) ـ وذلك ردّا منه على ما بلغهُ من تحامُل بعض المشارقة ضد المغاربة والأندلسيين[2].

وعلى ذلك فإنه وابتداء من القرن الخامس الهجري" بدأت الشخصيَّةُ العلمية المغربية تتحيَّنُ الفرص للظُّهور والتقوّى، وأخذت تبحث عن استقلاليتها العلمية، ويشهد لذلك كثرة المؤلفات والتصانيف التي أخذت على عاتقها مُهمَّة الإشادة بالآثار العلمية والأدبية والنقدية لأهل المغرب والأندلس، والإعلاءِ من شأنها والتَّنـويه بها "[3].

وهذا يُعطي الانطباع بأن ثمّة بعض الحساسية التي بدأت تظهر بين أهل القطرين المشرقي والمغربي، خاصة مع وجود تلك النظرة الاستعلائية من بعض المثقفين المشارقة في الإحساس بالتفوّق على غيرهم، ونتلمَّس مثل هذه المواقف والسلوكيات في بعض التصريحات والكتابات من التي تظهر هنا وهناك .

وإذا رجعنا إلى الوراء نسبياً، وبالضبط مع نهاية القرن الخامس الهجري فإننا نجد هذه النزعة قد تبلورتْ أكثر ووجدت من يؤمن بها ويُغذّيها، فخرج أَمرُ الصراع بين المشارقة والمغاربة إلى العلن، بل وأحدث سجالاً فكرياً وأدبيا ترجم فيما بعد على أيدي مبدعين كبار، عبّروا عنه صراحة في كتاباتهم النقدية والتاريخية والأدبية، وفي ذلك يقول المستشرق المجري جـورج مارسيـه[4]؛" إن بلاد

---

(1)المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (م، س)، مج/ 2، ص: (77 ـ 78) .

(2) المصدر نفسه، مج/1، ص: 210 .

(3) عليان عبد الرحيم مصطفى، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط1، 1984م، ص: 86 وما بعدها .

(4) ينظر: ماسيه جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق في العصور الوسطى، (م، س)، ص: 336 .

المغرب العربي تحرَّرت وبشكل تام من التبعية للمشرق رُوحيا وثقافيا وإداريًّا، وظهر ذلك أكثر مع استيلاء أهل البربر على حُكم بلادهم المغربية"[1]، وأصبح أهلُ المغرب أكثر انجذاباً وانسجاما مع إخوانهم الأندلسيين.

هكذا جرت الأمور وأريد لها أن تكون، حيث أنه ما كاد ينتهي القرن الخامس الهجري، حتى ظهرت حركة تأليفيّة مغربية لم تكتف بطابع التقليد والنسخ لما أنتجه المشارقة فحسب، وإنما عملت على إظهار الشخصية العلمية المغربية من خلال التأريـخ والمتابعة للحركة الشعرية والنقدية ببلادهم، وظهر مُبدعون كباراً وجدوا في أنفسهم الكفاية والقدرة على التأليف والتحرير ومُحاورة الكتب التي وقعت بين أيديهم، ومُدارسةَ ما فيها من قضايا والتعقيب والتعليق عليها، وبذلك تحوَّل المغاربة من مُـجرد مُستقبلين إلى منتجين للمعرفة .

فهذا ابن رشيق وكتابُه (العمدة)، يحُظى باهتمام واعتماد علماء كبار، ولا يقلُّ عنه أهميةً كتابه الآخر(أنموذج الزمان) ـ الذي خصّصه لشعراء بلاده القيروان، حيث قام فيه بالتأريخ لجزء من حركة الشعر في القيروان وتنقل الشعراء منها وإليها، " وقد نـوّه كثير من النقاد والدارسين بمؤلفات وكتابات ابن رشيق القيرواني المغربي كابن الأثير في (المثل السائر)، وابن أبي الأصبــع المصري في (تحرير التحبير)، وابن حجة الحموي في (خزانة الأدب)، والأعلم الشنتمـري (ت549هـ) الذي اختصر العمدة ودرسه دراسةً وافيةً في كتابه المُعَنْونِ (بمختصر العمدة لابن رشيق والتنبيـه على أغلاطـه)"[2].

وإنَّ الحضور البارز والقوي لمدرسة القيروان، ما كان ليظهر في سماء المغرب العربي لو لم يزيّنها نجوم تلألؤوا في فضائها الفسيح من أمثال النهشلي، وابن رشيق، والحصري، وهذا لعمري ما جعل مؤرخاً وناقدا متمرّساً من مثل ابن بسام يُثنــي على أمثال هؤلاء ويطري بالتَّنويه عليهم في مُؤلّفه الشهيـر (الذخيرة)، كيف وهو يذكر أنه اطَّلع على عمدة ابن رشيق وقرأه بتمعّن، ومِنْ فَرط إعجابه به كتب يقول:" وابن رشيق إن نَظم طاف الأدب واستلم، أو نثر هلّل العلم وكبّر، أو نقد سعى الطّبع الصّقيل وحفد، أو كتب سجد القلم الضئيل واقترب"[3].

---

(1) حيث حكمت بلاد المغرب أسر وعائلات بربرية في الصميم، ابتدأها الزيريون، فالحماديون، فاالمرابطون ثم الموحدون، ويعلق كثير من المؤرخين بأن هذه العائلات الحاكمة كانت أصولها بربرية قحّة، للتوسع أكثر ينظر: مارسيه، المرجع السابق ص:336 .

(2) ترشاق سعاد، النقد المغربي القديم بين التنظير والتطبيق، (مر، س)، ص: 30 .

(3) ابن بسام ، الذخيرة ، (ق2 ، مج/4)، ص: 597 .

من كل ذلك نخلُصُ إلى أن الكتابة الأدبية والنقدية التي غمرت بلاد المغرب العربي وإن بدأت فتيَّة، إلا أنها تطوَّرت ونمت حتى صار لها من الحُظوة والحضور ما لنظيرتها المشرقية، بعد فترة من الدُّربة والخبرة، وبذلك صنع النقاد والدارسون المغاربة لأنفسهم مجدًا بعد أن أحسنوا الإقتداء والتعلُّم من إخوانهم المشارقة، وهو مجهود يذكرُ فيُشكرُ، "خاصة إذا ما علمنا أن البلاد المغاربية كانت خاليةً قبل الفتح الإسلامي من أيّ إرث يكون محلَّ اعتزاز أو انطلاقةٍ من الناحية الأدبية والعلمية ،كالذي وصلنا عن الثقافة الفارسية أو الهندية أو اليونانية "[1].

وبذلك فقد ظهر في فترة من فترات التاريخ الأدبي من يُنادي بالاستقلالية الفكرية والأدبية المغربية[2]، والحق أن هذه الدّعوات أملتها ظروفٌ ومتغيّراتٌ كثيرة، لعل من أبرزها ذلك التعالي الذي كان يَتظاهر به المشارقة أمام إخوانهم المغاربة، هذا فضلا عمّا أظهره المغاربة خصوصا بعد القرن الخامس الهجري من مقدرة وكفاية علمية ونبوغ وتفرّد فكري ومعرفي، جعلتهم يعتدُّون بأنفسهم ويضعون ذواتهم في الكفّة نفسها مع المشارقة، بل إن البعض منهم كان يرى في نفسه النُّضج والتفوّق على من عاصره من أهل المشرق، هذا التحسّس وهذه المنافسة التي أبْداها المغاربة للمشارقة، جعلتنا نعقد مثل هذا المحوَرِ لنناقش من خلاله مدى صحَّة وُجود مثل هذه السِّجالات، وُإن وجدت بالفعل، فمن هم أبرز الأدباء والمفكرين الذين أسَّسُوا لهذه الاستقلالية ونادوا بها وغذَّوها؟ وفيما تجلَّت معالمُ ومظاهر هذا الصّراع؟ وما هي خلفياتُه؟

إن البحث في هذا المضمار والوقُوف على كُنهِه تطلّب منَّا سبر أغوار الكثير من المراجع والمصادر الأدبية والوقوف على دلالاتها وما تناولته الشروح والحواشي، والتعليقات، والتحقيقات، واستئناسا منَّا بما تناقلتُه كُتب الأدب والنقد في هذا الميدان، ننقل كلاما لمحمد رضوان الداية وهو أحدُ الدارسين المتخصّصين في تاريخ الأدب والنقد بالمغرب الإسلامي حيث يقول:" نعم لقد استمر

---

(1) البيومي محمد رجب، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة، ط1، 2008م، ص: 16 .

(2) ظهرت هذه الحركة أدبيا ومعرفيا مع ابن حزم الظاهري، والذي نادى بضرورة الاجتهاد الفقهي، معرّضا بعدم الخضوع للفقه المشرقي في صورة المذاهب الفقهية الأربعة، وعلى أساس ذلك نشأ ما يسمى بالمذهب الظاهري، والذي تبناه ودافع عن أصوله بكل اقتدار وبراعة، وازداد هذا الاتجاه قوة مع النحوي ابن مضاء القرطبي ، والذي عمل بدوره على تقويض النحو المشرقي عن طريق دعوته لهدم نظرية العامل التي أسس لها النحاة المشارقة ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد الفكري المعرفي، وإنما ازداد قوة وتأييدا بالعامل السياسي في العصر الموحِّدي، والذين شنعوا على الناس ركونهم إلي فقهاء المذاهب الفقهية المعروفة وطالبوا بضرورة الرجوع إلى الأصول في التشريع ، وهي دعوة مبطّنة لتأييد المذهب الظاهري الذي انتشر في الغرب الإسلامي، ينظر: ترشاق سعاد، النقد المغربي بين التنظير والتطبيق، (م، س)، ص: 26 وما بعدها .

إعجاب أهل المغرب الإسلامي بالمشارقة وبكل ما هو مشرقي لفترة غير يَسيرةٍ من الزمن، إلى أنْ جاءت فترةٌ ظهر لديهم الإحساس بشخصيتهم وكيانهم، وترسَّخ لديهم الاعتقاد بأن بلادهم أنجبت من العلماء والأدباء مالاَ يتطاول، وذلك في كل فنٍّ وميدانٍ، وظهر لديهم هذا الشعور وبدا منهم ذلك الاعتزاز .

لقد فاخر ابن حزم وأثنى على عُلومه التي حصّلها، وأُعجِبَ غاية الإعجاب بمواطنه وابن بلدته ابن شهيد فراح يقول عنه: "ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وله من التصرّف في وجوه البلاغة وشُعَبِها مقدار ما ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهيل، وقصدُه من ذلك أن ابن شهيد ببلاغته يَفُضل ويفوق قامتين من قامات البلاغة المشرقية وهما: سهيل بن هارون الكاتب وعمرو بن بحر الجاحظ، على جلالة قدرهما ورفعتهما في مضمار البلاغة والبيان" [1].

ولم تقتصر الإشادة والتنويه بابن هانئ من طرف ابن حزم فقط، وإنما كان الإعجاب به وبشعره من عَدِيدِ النقاد والدارسين المغاربة كما أشار إلى ذلك أيضا كلا من عبد الكريم النهشلي، وابن رشيق في عمدته، وعلى عادة ابن حزم الذي نجده يُفاخر كثيرا بأهل المغرب نجد له مقولة أخرى في المفاخرة على المشارقة والاعتداد بأهل المغرب والأندلس حينما يمتدح أحمد بن دراج القسطلي ويفاخر به قائلا: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج، لما تأخر عن شَأوِ- مكانة- حبيب والمتنبي، فكيف ولنا معهُ غيره)"[2].

إن مثل هذه الأقوال والمفاخرات التي ننقلها عن ابن حزم ليست بالجديدة، ذلك لأن كثيرا من أهل الغرب الإسلامي يجعلون من ابن هانئ، وابن دراج القسطلي صِنوان للشاعرين المشرقيين الكبيرين أحمد بن أبي الطيب المتنبي، وأبي تمام ، بل ويصرُّ المغاربة كثيرا على أنهما نظيران لهما في ثرائهما وقوّتهما الشعرية، وعلى جهة الاستدلال يذكر الكثير من الدارسين بأن قوة المعارضة الشعرية التي أبداها الرجلان للمتنبي، وأبي تمام، والمعري إنما تُمثِّل أحدَ وُجوه ومجالات الجودة والبراعة،كما لا يخفى على أحد أنَّ ما في مثل هذه المعارضات، من دلالةٍ على التظاهر بالقدرة الفنيَّة والإجادة الشعرية .

وهذا الكلام ينقله غير واحدٍ من النقاد والدارسين كما يذهب إلى ذلك محمد بن شريفة في كتابه(أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة) فيقول:" لقد كان تأثير المتنبي واضحا على شعراء المغرب

---

(1) عليان عبد الرحيم مصطفى، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، (مر، س)، ص: 291 .

(2) المرجع نفسه، ص:271 .

والأندلس، وأضحى شعرهُ مُلهِمًا وحافزا للكثيرين منهم :كابن هانئ وأحمد بن دراج القسطلي، وابن زيدون، وابن عبدون، وإنما كان الشعراء من أهل المغرب والأندلس عُموما يضعون أنفسهم ويجعلون من شعرهم يُضاهي ما كتبه شعراء المشرق كالمتنبي، والمعري، وأبا تمام، لأن الأصداء كانت تصل آذانهم والأخبار تعلوا أسماعهم عن أقوال من مثل: من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي والمعري فليسكت لا يرضى بدون ذلك، كما ينقل ابن بسام في ذخيرته عن المظفر بن الأفطس "[1].

وإنما أراد شُعراءُ المغرب والأندلس اقتفاء أثر فحول الشعراء المشارقة ليُذكَروا، وليكون لهم الموقع الحسن في قلوب الناس، لذلك نجد كثيرًا من شعراء المغرب" مَنْ يعملُ جاهداً على مُحاكاة المتنبي وأبي تمام وغيرهم ممّن ركب شعرهم الآفاق واخترقَ الأجواء، ولقد كان هذا الدافع مَرام كثيرٍ من الشعراء ومقصدهم الأسمى "[2].

ولعل في القصّة التي ينقلها لنا ابن بسام في ذخيرته عن الشاعر المقتدر ابن شرف القيرواني، والذي أغرى نفسه بمحاكاة المتنبي، "وبلغ به الأمر إلى أن يُمنّي نفسه القُدرة على ذلك، عندما طلب من الأمير الأندلسي المأمون بن ذي النون[3]، أن يشير إلى أي قصيدة شاء من شعر أبي الطيب، حتى يُعارضها بقصيدة تنُسي اسمه وتُعفي رسمه، وبعد الإلحاح الشديد منه طلب إليه أن يُعارض قصيدته التي مطلعها [4]:

لِعينيك مَا يَلقَى الفُؤادُ ومَا لقَى وَلِلْحُبِّ مَا لم يَبْقَ مِنِّي ومَا بَقَى

ومَا كُنتُ مِمَّن يَدْخُلُ العِشْق قَلبُه وَلكِنْ مَنْ يَبصِر جُفـُونَك يَعشَـق

فخَلا ابن شرف أياما، فوجد مرَكبها وعراً ومريرتهَا شزرًا، لكنَّه أبلى عُذرا وأرهق نفسه من أمرها عُسرا كما يقول ابن بسام [5].

---

(1) سبقت الإشارة إلى حديث المظفر الأندلسي مع الشعراء ، وأنَّه لشاعريته وبيانه كان لا يقبل إلا الشعراء الفحول،المرجع نفسه،ص: 12.

(2) عليان عبد الرحيم مصطفى، تيارات النقد الأدبي في الأندلس، ص: 13 .

(3) المأمون بن ذي النون، هو يحي بن إسماعيل بن عبد الرحمان بن المطرف الملقب بذي النون من ملوك أمراء الطوائف ،كان أميرا على طليطلة حكم في الفترة من (467/435هـ) أمضاها كلها في حروب متواصلة مع بقية ملوك الطوائف، وكانت حروبا أهلية مدمّرة بين الأندلسيين، حيث حارب كلا من ابن عباد، وابن هود ، وتحالف مع الإسبان مما أدى في النهاية إلى سقوط طليطلة بعد استنزاف مواردها ومقّدراتها، ينظر: ميدان أيمن محمد ، الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب، (مر، س)، ص:(53 ـ 54).

(4) سبيتي مصطفى، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، (ط3 ،2007م) ،ج/2 ، ص:97 .

(5) ينظر: ابن بسام، الذخيرة م/2، ص: 398 .

وظل حماسُ شُعراء المغرب يقوى ويشتدَّ في مُطاولة ومُحاكاة كِبار شُعراء المشرق، بما كانوا يجدون في ذلك من لذَّة، وَلِمَا كان يترآى لهم من مُضاهاة لِقامات الشعر والأدب،" فهذا ابن عبد ربِّه يقف مُعارضا لأبي تمام عندما يَنسجُ قصيدةً في وصف القلم نحَا فيها مَنحى أبي تمام من حيث الغَوْص في المعاني، وقد وُفِّق أحيانا حين عمد إلى بعض المفارقاتِ لِقلم أبي تمام" [1].

يقول أبو تمام[2]:

فَصيحٌ إِذا اِستَنطَقتَهُ وَهوَ راكِبٌ وَأَعجَمُ إِن خاطَبتَهُ وَهوَ راجِلُ

أَطاعَتهُ أَطرافَ القَنا وَتَقَوَّضَت لِنَجواهُ تَقويضَ الخِيامِ الجَحافِلُ

انطلاقا من النّقول السابقة التي تقدّمنا بها كدلائل واضحة تشير إلى كَثيرٍ من جوانب الاعتداد بالنفس التي كان يستشعرُه أدباء وشعراء ونقاد المغرب الإسلامي فيما يُنتجونه من شعر وأدب، أمكنني القول بأنه ومنذ القرن الخامس الهجري كما يذكرُ المَعطياني في مؤلَّفه الذي استجلى فيه جُهود ابن شهيد في الأدب والنقد ، منذ ذلك الحين تبنى أهل المغرب والأندلس قضيَّة الهويّة، وراحوا يعملون بكل جدٍّ على إظهار شخصيتهم العلمية والأدبية، فشرعوا في تَسخير أقلامهم لتأكيد هذه الهوية والدِّفاع عنها، حتى أننا نجد ناقداً مثل ابن بسام يَنعِي ويُشنِّع على أُدباء عصره تلك المتابعة الزائدة للمشارقة والانبهار التام بهم[3].

وفي ذلك ينقل لنا أيضا حسان محمد حسّان كلاماً في غاية النفاسة والوجاهة وهو يقوم بتوصيف هذه الظاهرة من خلال ما كتبه عن ابن حزم الظاهري(فكرُه ومنهجُه وحياته) فيقول: "رغْم الإمكانيات التي زَخر بها المغرب الإسلامي والطاقات والكفاءات العلميَّة التي عرفتها بلاد المغرب والأندلس، إلا أنَّهما ظلَّا مرتبطين بالمشرق، يَسيران في فلكه، بل وصل الأمر إلى حدِّ التقليد والمتابعة حَذْو القذَّة بالقذَّة، وذلك ما جعل الناقد والمؤرخ الأندلسي ابن بسام يرفض هذا المسلك ويصرُخ مُعاتباً بني قومه على ذلك التَّقليد الأعمى"[4].

---

(1) عليان عبد الرحيم مصطفى، تيارات النقد الأدبي في الأندلس، ص: 16 .

(2)أبي تمام، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام،دار المعارف، القاهرة، (ط4 ،1987م)،ص: 123.

(3) يطالع: المعطياني عبد الله سالم، ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي، منشأة المعارف الإسكندرية، (دط،1977م)، ص: 08

(4) حسان محمد حسان، ابن حزم عصره ومنهجه وفكره التربوي، جامعة عين شمس، دار الفكر العربي، القاهرة ، دط، ص: 25 .

5- 1- الرفض المغربي للتقليد المشرقي:

لقد شكَّلت مُتابعة الأندلسيين والمغاربة وانتسابهم إلى المشرق، ظاهرة لفتت انتباه الكثير من الأدباء والنقاد، الأمر الذي أدّى إلى ظهور طائفة من العلماء شنّعت ذلك التّماهي والذَّوبان، وأعلنوا في مواقف صريحةٍ وصارمة؛ دفاعهم عن الهوية المغربية، وعملوا بكل قُوَّةٍ على إظهار وإبراز الشخصية العلمية لرجالات الإقليم المغربي للبلاد الإسلامية، وإن من ألمع الأسماء التي دافعت وبشراسة عن هذه الهوية ابن حزم، وابن بسّام، حيث نجد ابن بسام يمقتُ بكل شدّة ذلك الانتساب المزعوم فيقول:" إلاّ أن أهل هذا الأفق أبَوْا إلاَّ مُتابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رُجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غُراب أو طنَّ، بأقصى الشام والعراق ذُباب لجثوا على هذا صنما، وتلو ذلك كتابا مُحكماً"[1].

وهذا الأديب مخلوف عامر ينطلق في تحليله لهذه الظاهرة من العامل النفسي، وكيف كان له وقعُه وأثره السلبي على الأدب المغربي في الظهور والبروز فيقول: " ولكن تلك هي بعض الذِّهنيات التي عملت على أن تجعل من المشرق مركزا، في حين يندرج المغرب العربي في الأطراف التي ستظل قاصرةً على أن تبلغ مستوى المركزِ الأصل"[2].

ونرجع إلى ما يذكره محمد رجب البيومي في تحليله الخاص لهذه الظاهرة حين يقول:" ربَّما من الأسباب التي جعلت أهل المغرب والأندلس تابعين للمشارقة متأثّرين بهم، هو تلك المنافسة الدنيئة التي كانت بين أدباء وشعراء إقليم المغرب، وذلك الصراع الذي كثيرا ما ينحوا بهم إلى الجُحود والنُّكران فيما بينهم لجليل أعمالهم وبدائع صنائعهم، ولا أدل على ذلك من أن ابن حزم وهو من أهل المغرب الإسلامي وقد بلغ مبلغ العلماء المجتهدين، وكان في مقام الأئمة الأربعة الكبار- مالك والشافعي، وأحمد، وأبو حنيفة – بل إنه هو ذاته كان يرى في داخلة نفسه، أنه لا يقلُّ مكانةً عنهم ولكن قومه وأهل بلده ضيعوه، وهذا ما جعله يأسف لحاله ويبكي واقعه المرير، الذي ظلمه وظلم معه الإقليم الذي ينتمي إليه فأنشد يقول "[3]:

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب

ولو أنّني من جانب الشرق طالع لجدّ عليّ ما ضاع من ذكرى النّهب

---

(1) ابن بسام، الذخيرة ، (مج/1، ق/1)، ص: 12 .

(2) مخلوف عامر، دراسات في الأدب الجزائري،(مر، س)، ص: 05 .

(3) ينظر: البيومي محمد رجب، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، (مر، س)، ص: 39 .

وإذا كان ابن حزم قد بكى حالهُ ورثى بلده على هذا النكران والتَّجنِّي بحقِّ علمائه ومبدعيه، فإن ابن بسام قد أصابته غصَّةً ونالته حُرقةً، بعد أن رأى ذلك الشَّغف والإقبال من أهل المغرب على إنتاج أهل المشرق، في مقابل نسيان ما لديهم، فكتب يتأسّف على ما ضاع من أدب وعلم بينهم، ولسان حاله يقول:" ومازال في أفقنا هذا من الأندلس القصيّ..." [1].

إنه يتحسّر ويتعجّب على ذلك التقليد المبالغ فيه من أبناء بلده في الأندلس والمغرب لأهل المشرق، حتى ولو كان ذلك الإنتاج المشرقي صادرٌ من شخص ليس له باعٌ طويل في العلم والأدب، ولم يضرب فيه بسهم وافر كما يقول الطاهر بن محمد توات[2]، وإنّ ما ننقله عن ابن بسام في هذا المقام؛ يُعطينا فكرةً واضحةً وانطباعاً ظاهراً، من أن ابن بسام إنما كان يجنحُ ويرغب في الاستقلال عن أسْرِ المشرق، ويعملُ في مقابل ذلك على إظهار الشخصية العلمية المغربية، والشّعور بالذات الثقافية والأدبية المحلِّية بدلاً من الذَّوبان في الشّخصية العلمية المشرقية،" نعم كان لظهور تلك المؤلفات وذلك النوع من التصانيف الدَّور البارز في إظهار الاعتزاز بالهويّة والافتخار بالوطن، ودعوةٌ إلى الانتسابِ للأرض التي عليها درجوا، وبآفاقها ساروا وتعلَّموا، وتزامن كل ذلك مع ظُهور قصائد تتغنّى بالوطن، وتُصوِّر الرابطة القوية التي صار المغاربة يحسّون بها اتجاه بلادهم"[3].

وهذا ابن خفاجة يقول مّفاخرا ببلده الأندلس[4]:

إنَّ للجَنـّة التي بالأندلـــس مُجتلـــى حُسنٍ وريّا نفسٍ
فسَنا صَبحتـها من شنب ودُجَى ظُلمتـــها من لعَـسٍ
فإذا ما هبّـت الريـح صبا صُحت وَا شَوقي إلى الأندلس

وقال آخر مُتغزّلا مفضلا قرطبة على غيرها من حواضر المشرق[5] :

دَعْ عنكَ حَضْرة بغدادَ وبهجتَها ولاَ تُعظِّم بلادَ الفُرس والصِّـــين
فمَا على الأرضِ قطٌّ مثلُ قُرطبةٍ ومَا مشَى عَليهَا مِثل ابن حَمدِيسِ

(1) سبقت الإشارة إلى كلام ابن بسام هذا، وللتوسع أكثر، ينظر:محمد رجب البيومي، المرجع نفسه، ص: 39 .
(2) ينظر: توات محمد بن الطاهر، أدب الرسائل في المغرب العربي، (مر، س)، ص: 38 .
(3) ترشاق سعاد، النقد المغربي القديم بين التنظير والتطبيق ،(مر، س)، ص: 25 .
(4) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج /1، ص: 169 .
(5) المصدر نفسه، مج /1، ص: 459.

فالشاعر في إشادته وتنويهه ببلاده قرطبة لم يكتف بالفخر بالأرض والوطن، وإنما شملت مدحته أيضا الشاعر ابن حمديس الصّقلي بعد أن ملك عليه لبّـه وأخذ عليه فكره بما كان يجود به من إبداع شعري غاية في الجوْدة والرِّقــة والعُذوبَة، وقل مِثلُ ذلك عمّا كان يفخر به الشعراء المغاربة بحواضرهم ومُدُنهم الكبرى كبجاية، والقيروان، والتي كان يظهر من خلالها الاعتزاز بالوطن والحنين إليه، والتشبّث بالمَنْبَت والأرضِ.

وما يلاحظ على جُملة النصوص التي عثرنا عليها، وما احتوته من أقوالٍ وإشادةٍ وتنويه بكل ما هو مغربي، هو أن القرن الخامس الهجري إنما يُمثّلُ قرن التميُّز للأدب والنقد ببلاد المغرب الإسلامي، "حيث أنه في هذا القرن بالذات ظهرت الخُصومة بين المشرق والمغرب بشكل لافِتٍ، وصارت مسألة الدفاع عن الوطن ثقافيا وعلمياً مُهمَّة الطبقة المثقفة المبدعة، حمل لواءها نقاد وشعراء، وأدباء ذاع صيتهم وظهرت عبقريتهم، وتجلى دورُهم العلمي والرّيادي بامتياز، نذكر من بينهم: ابن شهيد الأندلسي، وابن حزم، وابن بسام ، وظهرت بذلك للعلن توجُّهاتٌ وميولاتٌ تدعُو إلى خلق مدرسةٍ أدبيةٍ أندلسية ذات سماتٍ محدّدة،كمحاولة للوقوف أمام الاتجاهات الأدبية البغدادية المشرقية"[1].

هذا ما كان وذك ما حصل، ثم إنه أليس من حقِّ المغاربة أن يقولوا إن لنا لحَظًّا لا يقل عن المشارقة؟ كيف وقد ظهرت مثلُ هذه النزعة في كثير من المؤلفات القديمة من مثل، (المغرب في حلي المغرب) ، لابن سعيد المغربي،كما ظهرت مع لسان الدين بن الخطيب في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة)، وكذا ما كتبه أبي حيَّان الأندلسي في(المقتبس).

إنَّ المغرب الإسلامي وصل إلى حالة من النّضج والتَّطور الفكري والعلمي والأدبي في القرن الخامس الهجري وما بعده، كيف لا وعموم بلاد المغرب كانت عامرةً طافحةً بالأدباء، واللغويين والشعراء من الذين فرضوا أنفسهم وأبانوا عن إبداعاتهم بما جادت به قرائحهم، ومن هؤلاء ابن زيدون الأندلسي (ت465هـ)، وابن خفاجة (ت530هـ)[2] ، حتى لقد أطلق كثير من النقاد على ابن زيدون بُحتري الأندلس والمغرب، لما كانوا يجدونه من تشابه في القوّة الشعرية بينهما، دون أن ننسى ابن هانئ

---

(1) عليان عبد الرحيم مصطفى، تيارات النقد الأدبي في الأندلس، ص: 86 .

(2) ابن خفاجة، هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي شاعر غزل ومن الكتاب البلغاء عاش مابين (450/ 533هـ)، يعتبر من أعلام الشعراء الأندلسيين في القرنين 5/6 الهجريين، ركّز ابن خفاجة في شعره كثيرا على وصف الطبيعة و التفنن في وصف جمالها ومن جميل شعره قوله: يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ لِلهِ دركُم مَاءُ وَظِلّ وأنهـار وأشْجَـار
مَاجَنّةُ إلَّا فِي دِيـَارِكُم وَلَو تَخيّرتُ مَا كُنْتُ أَخْتَارُ
ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/1، ص: (56 ـ 57) .

الذي أطلقوا عليه متنبي المغرب، لما كان يسُوقه ويأتي به في شعره، من ألفاظ قويَّـةٍ وعبارات فخمةٍ وأسلوبٍ رائقٍ ماتـعٍ.

إنَّ الدّخول في غمار هذه المنافسة، وعرض بعض تجليّات ظاهرة التنافس والصراع الفكري والثقافي والأدبي بين علماء ونقاد المشرق وإخوانهم المغاربة، يجرُّنا إلى أن نسوق بعضاً من النّماذج والأمثلة الشِّعرية التي كان يُبديها النقاد والدارسون المغاربة، في اعتزازهم وافتخارهم بمن ظهر في أفقهم وبين ظهرانيهم من الشعراء المجوّدين المبرزين، وذلك من أجل إثبات المماثلة والمجاورة للمشارقة، بل وتحقيق التفوّق والرِّيادة، مستشهدين في ذلك ببعض الأسماء التي تركت بصمتها في دُنيا العلم والأدب، فنَجدهم يُفاخرون بابن شهيد، في تفوّقه على المشارقة من خلال رسالة (التوابع والزوابع)، ومقتضى هذه الرسالة التي كتبها أبو عامر محمد ابن شهيد الأندلسي والتي يظهر منها أنَّا تُحاكي وتُماثل رسـالة الغُفران للمعري.

وفعلا فإن هنالك تشابها كبيراً بين الرسالتين، إذ أن الموضوع واحدٌ، والذي هو عرض المشاكل الأدبية والعقلية بطريقة قَصصيةٍ طريفة، ووجه الاختلاف بينهما يَكمُن فقط في أن أبا العلاء كان مهوُوسا بعرض المسائل الفلسفية والدينية، فيما كان ابن شهيد يتصدَّى لعرض المشكلات الأدبية والبيانية، على أنَّهما يتفقان في التعريض بمعاصريهم [1].

ومن الذين كانوا يُفاخرون كثيرا بأهل العلم، ومن عُرفوا بالتبريز والنُّبوغ الثقافي والأدبي بالبلاد المغربية، نجد ابن حزم الأندلسي عندها يقول:" ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين ظهروا بين القرنين الرابع والخامس الهجري ابن الإفليلي[2] شارح ديوان المتنبي، والذي قال عنه ابن بسام: وكان أبو القاسم قد برَّ أهل زمانه بقُرطبة في علم اللِّسان العربي، والضَّبط لغَريبِ اللغة في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية " [3]

---

(1) ينظر: محمد زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ج/2، ص: (258 ـ 260)، ويذهب زكي مبارك إلى القول، بأن رسالة ابن شهيد هي التي ألفت قبل رسالة المعري بنحو عشرين عاما، وبالتالي فإن المعري هو الذي حاكى ابن شهيد وليس العكس، ينظر كتابه السابق، ج/1، ص: 08 .

(2) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الإفليلي، يرجع نسبه إلى سعد بن أبي وقاص الصحابي المشهور، وقد عاش مابين سنتي (352/441 هـ)، عالم ونحوي ولغوي أندلسي، شرح لنا شعر المتنبي شرحا كاملا ، ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/3، ص: 108 .

(3) الداية محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ص: 98 .

وإذا ما جارينا ابن بسام فيما ذهب إليه وقرأنا له في الذخيرة؛ فإننا نجد له إعجاباً كبيراً وفخراً لا يُضاهى بأهل بلاده الأندلس، حتى إنَّ كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجريرة) إنَّما ألَّفه لهذا الغرض، وضمَّنه محاسن بلدتِهِ مُعارضا ومُشاكساً به (يتيمة الدهر) للثعالبي، بل نجده يُزري بالثعالبي ورجاله في يتيمته، كما نجد ابن سعيد المغربي في كتابه: (المغرب في حلي المغرب)، يذهب هذا المنحى أيضا في معارضته للمشارقة، فلا يترك طُرفة مليحة ولا تُحفة نفيسةً من تُحف الموشحات والأزجال والأشعار لأدباء وشعراء بلاده إلاَّ جاء بها، مُتحدِّيا بذلك أهل المشرق، بل ومُتجاوزاً في ذلك حدَّ الحميّة إلى العصبيَّة [1].

وإنَّ ما يُمكن أن نُدخله ضمن هذا الإطار، وضمن مجال المفاخرات التي كان يزدهي ويتغنى بها أهل المغرب والأندلس على المشارقة انتشاؤهم بإنتاج وتراث أبي علي القالي، هذا الأخير كان مشرقي المولد، إلا أن حياته وعلمه وإنتاجه الأدبي إنما كان بالمغرب والأندلس، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ رجلاً عالماً مثل ابن حزم الأندلسي، كان يُفاخر المشارقة بأبي علي القالي حينما يقارن بينه وبين المبرَّد قائلاً: ولئن كان كتاب أبي العباس المبرَّد أكثر نحواً وخبراً، فإنَّ كتاب أبي علي لأكْثرَ لُغةً وشعرًا[2]

وإنما ذكر ابن حزم الرجلين وكتابيهما جريا على عادة العلماء في ذلك العصر، أنهم كانوا يحفلون بأربعة دواوين ويعتبرونها المرجع الأساس في اللغة والنوادر والأدب، كما ينقل ذلك عن ابن خلدون قوله:" وسمعنا من شُيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبـعٌ لها وفروع عنها"[3].

والحق أن ابن بسَّام كان لا يُفوِّت أيَّة فُرصةً في الإشادة بالأدب المغربي، وإعلاءِ صورة كل من يَظهر نبوغُه من أهل المغرب، من ذلك امتداحه للحصري في ذخيرته وترصيعه لكتاب(زهر الآداب وثمر الألباب) بآيات التَّبجيل ومعاني التكريم، بعد أن ذكر أن أسلوب الحصري أشدُّ شبهاً بأسلوب الجاحظ وما أدراك ما الجاحظ المشرقي، وجعل من طريقته في تأليف كتابه، مثل طريقة الجاحظ في

(1) الداية محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ص: 46 .

(2) المرجع نفسه، ص: 46 .

(3) ابن خلدون، المقدمة، ج/2، ص:721.

البيان والتبيين وحكم عليه أخيرا بقوله: "أنه بلغ المراد وحصّل الهدف ولا يُنكر عليه ذلك إلاَّ من ضاق عليه الأمد، وأعمى بصيرته الحسد"[1].

إنَّ هذه النُّقول التي قدمناها والاستشهادات التي أتينا بها، فإنَّها إن دلَّت على شيء إنما تدل على أن المغرب الإسلامي بدأ يستقِلُّ بعلمائِه وأدبائِه وشعرائه الذين أبانوا عن تفتُّح كبير ونبوغ متفرِّد.

6- مدى الاستقلالية والخصوصية في تفكير وإبداع النقاد المغاربة القدامى:

هذا المبحث يُلخِّصُ لنا الحالة الفكرية والثقافية والأدبية التي عرفها إقليم المغرب الإسلامي، لأننا سنبرزُ من خلاله أهم الأفكار والتجلِّيات العلمية والمعرفية ذات الشأن بالمغرب بشكل عام مُقارنة بالمشرق، اعتبارا من أن المشارقة إنما كانوا يُظهرون ذلك التعالي والترفّـع عن كل ما هو آتٍ من المغرب؛ سواء في ذلك المغرب العربي أو الأندلس، لأن بلاد الأندلس إنما هي امتداد لبلاد المغرب، وأهلها في الغالب إنما هم المغاربة الفاتحون، وأكثر الطاقات والكفاءات العلمية والفكرية التي ظهرت بالأندلس إنما انطلقت من أرض المغرب؛ خاصة بعد التوهُّج المعرفي والازدهار الثقافي الذي عرفته الأندلس.

انطلاقا من ذلك لنا أن نتساءل ونقول: هل كُتب على أهل المغرب الإسلامي أن يستمروا في اجترار الثقافة والأدب المشرقي؟ أم كانت لهم رُؤيتهم الخاصة وإنتاجهم المميَّز؟ وهل فِعلا أن المبدعين المغاربة ما كان لهم أن يَنفكُّوا عن أسر التقاليد الثقافية والعلمية المشرقية ؟ أم ظهر فيهم من كان نشازاً، وشقّ طريقه بعزيمة أكبر وهمَّةٍ عاليةٍ متجاوزاً الإطار المعرفي الذي اصطنعه المشارقة؟ وماذا عن نفسيات المغاربة؟ هل ظلت راضية بهذا التقليد؟ أم ظهر بين ظهرانَيْهم من رفض التقليد والإتباع، وكَسرَ الحاجز النفسي المصطنع، ودعا إلى الاستقلالية والخصوصية المغربية بعيد عن الإرث المشرقي وتبعاته؟ وهل يُمكن التدليل لذلك ببعض الأسماء العلمية التي شكَّلت الاستثناء المغربي، وأعلنت في صراحةٍ ووضوح عن التميُّز والاستقلالية؟ ذاك ما سَنُحاول تِبيانهُ والكشف عنه في هذه السطور، خاصة وأنه يشكّل جُزءًا مُهمّا من الإشكالية المطروحة في هذا العمل البحثي.

6-1- افتـراء مشرقي:

هُناك مقُولة متواترة تُروى على لسان الأدباء وأهل الفكر على مر العصور مُؤدّاها، أن أهل المشرق أهل إبداع، فيما أهل المغرب فهم أهل فقهٍ وشروحٍ وحواشي، وإنَّ ذلك ما قد يُعطي الانطباع

---

(1) ابن بسام ،الذخيرة ، (مج/2، ق/4) ،(م، س)، ص: 584 .

بأن الإبداع الحق إنَّما مصدره المشرق، في حين ينحصرُ دور المغاربة في الشرح والتعليق ووضع الهوامش، وأن أكثر ما ظهر من المبدعين المغاربة إنما كان من الفقهاء والمتصوِّفة [1]؟ فهل أن هذه الإشكالية التي يطرحها الباحث مصطفى الغَرافي في مقالة له بعنوان: الأدب المغربي وعقدة المشرق؟ هي فعلاً مقولةٌ صحيحة بالنظر إلى الواقع؟ وهل النِّتاج المغرب مُجرّد تابع للإبداع المشرقي؟ وما مدى تحرّي القولُ المفيدُ ضمن هذا الطرح المسبق؟

بالرجوع إلى أصل المسألة ومُبتداها، لنا أن نتذكّر تلك الكلمة التي قالها الصاحب بن عباد يوما وهو يقرأ (العقد الفريد) لابن عبد ربه فقال:" هذه بضاعتنا ردت إلينا"، فما هي خلفياتُ وملابساتُ هذا الانطباع؟ وهل هي مجردُ كلمة صدرت عفواً ودون تفكير؟ أم أنَّه إنما قال ذلك لأنه كان يتوقَّعُ أن يجد فيه تعريفاً بأدب المغاربة وإشهارا لهم؛ فإذا به يجدُه ممتلئاً بأدب المشارقة؟ وهل ذلك يعني أن المغاربة القدامى كانوا مَفتونين إلى حدٍّ كبير بالمشرق مأخوذين بإنتاجات أعلامه؟ أم ماذا كان القصد من ذلك؟ [2]

ربما كان من مُضمرات المغاربة في نفوسهم وهم يَكتبون في الأدب والنقد العربي ويُوَشِّحون مؤلفاتهم بنقولات كثيرة عن أهل المشرق،كان لسان حالهم يقول:" إنَّ لدينا هاهنا أيضا معرفةً بالجذور القديمة وإن شط المزار، وليس حظّنا من معرفتكم بأقل من حظكم بمعرفتكم بأنفسكم، وبالتالي فحظُّنا من المعرفة بالتراث والأدب المشرقي لا يقل حظا عمَّا كان يعرفه ويلمّ به المشارقة"[3].

6-2- المغاربة وردُّ الفعل:

ممَّا زاد في نفُور المغاربة من أهل المشرق شُعورهم المتتالي من ذلك التَّعالي الذي كان يظهر بين الفينة والأخرى في تعليقات وتصريحات بعض الأدباء ورجال الفكر من أهل المشرق، فمن ذلك ما قاله المعرّي وهو من هو؛ أدباً وشعرًا وفطنة وذكاءً، حتى لقد وسَمَهُ ابن رشيق بقوله:" إنه شاعر العصر

---

(1) ينظر:الغرافي مصطفى، الأدب المغربي وعقدة المشرق، مقالة على الأنترنت، مجلة الزمان الإلكترونية، موقع: ديوان العرب، منبر حر للثقافة والفكر والأدب، الرباط المغرب، جانفي 2014م .

(2) يقول عليان عبد الرحيم مصطفى: إن العبارة التي أطلقها الصاحب ابن عباد عن كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه إنما تمثل الموقف الأدبي للمشارقة اتجاه جهود اخوانهم المغاربة ، وهي تعطي الانطباع بأن أهل المشرق إنما كانوا يؤمّلون من أهل المغرب العناية والاهتمام بأدب بلادهم أكثر، بعد أن ظهر العقد الفريد مبدّدا لهذه الرغبة، ينظر كتابه : تيارات النقد الأدبي ص: (82،83) .

(3) قرقزان محمد، قراءة نقدية جديدة لكتاب العمدة لابن رشيق، مجلة التراث المغربي والأندلسي ص: 163 وما بعدها .

بلا مدافعـة"[1]، ومع كل هذه الهالة التي أحيط بها المعري واشتهرت عنه إلا أنه نظر بشيء من الاستصغار للشاعر الأندلسي محمد بن هاني (ت362هـ)، خاصة بعد أن أطلقوا عليه متنبي المغرب فقال عن شعره "أسمعُ جعجعة ولا أرى طحيناً "[2]، والمراد؛ أن الألفاظ فخمةً ولا أرى فيها كبير معاني كما كان يشدُو المتنبي، أي أنه رأي في المعاني التي كان يسوقها ابن هانئ أنها باهتةً، وإن كانت الألفاظ فخمةً قويةً .

وكذلك زاد في حُنق المغاربة اتجاه إخوانهم المشارقة،" ما يسمعونه من عباراتِ وإن كانت في ظاهرها تحمل التّبجيل، إلا أنَّها تتضمَّن في دَواخلها التَّحقير والتّهوين كقولهم مثلا:كمْ في الزوايا من المزايا ؟! تعبيرًا منهم عن النُّتوءات التي كانت تظهر بين الحين والأخر في زوايا المغرب الإسلامي، وهي تحمل من النّبوغ والتفرّد الشيء الكثير، والعبارةُ كما يتبدَّى ويظهرُ تحمل المدح والإطراء، إلا أنها تُبطن التقليل والتَّحقير، وكأَّن بلاد المغرب الإسلامي على شساعتها وكثرة أهلها ورجالها، هيَّ مجرّد زاوية في الامتداد العربي لا تعني الشَّيء الكثير "[3].

إن مثل هذه العبارات والانطباعات لا نسوقها من فراغ، إنما هُنالك من يشاطرنا الرأي، وينبّه إلى مثل هذه الحقائق، من ذلك ما كتبه أحد الباحثين وهو يرصد هذه الظاهرة، "وفي المقابل نجد الطرف الآخر وأعني إخواننا المشارقة وقد اختلفت رُؤاهم ونظراتهم للأدب المغربي، حيث نراهم ينظرون إليه نظرة فوقية استعلائية فيها من الاحتقار والاستصغار والتهميش ما فيها، بل ويتَعمَّدُ بعضهم تجاهلَ ونُكران الأدب المغربي، ودليل ذلك عدم تعرُّضهم له في كُتبهم ومُؤلّفاتهم ـ في الغالب الأعم ـ"[4] .

لقد أسّست مثل هذه العبارات والتعليقات لِنُفور مغربي، حتى لا نقول قطيعة مغربية من الامتداد للمشرق، وأعلنت عن ميلاد رجال وشخصيات كان لهم الاعتداد القوي، والاعتزاز الشامخ بالشخصية المغربية، حيث بدأ أهل المغرب الإسلامي في الشعور بالذّات والإعلان عن كينُونَتهم وشخصيتهم الثقافية والأدبية تدريجيًّا، بدلاً من الذّوبان في شخصية المشرق كما يقول الطاهر أحمد مكي:" ذلك لأن الشُّعور بهذه الذاتية كان ينمو مع الأيام والسنوات والأعوام، وتجلى ذلك من خلال

(1) ابن رشيق، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، ص:116 .

(2) ضيف شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص: 422 .

(3) النيفر محمد توفيق، الحياة الأدبية بافريقية في العهد الفاطمي، (مر، س)، ص: 117 .

(4) ساعي إدريس، علم البلاغة في الموروث النقـدي المغربـي (العمدة أنموذجا)، (مر، س)، ص: 208 .

استغنائهم عن الرحلة إلى المشرق طلبا للتحصيل العلمي، كما استغنوا عن الأستاذ الوافدِ، حتى أنَّ من المغاربة من حدّثته نفسُه بالذّهاب للأزهر وتدريس كتاب سيبويه للمشارقة، ليثبتوا لهم أنَّهم تمكَّنوا من العلم، واستوعبوا تفاصيله"[1].

وهكذا لعبت حاسةُ إثبات الذات، وفرض الشخصية المحليَّة نفسها لدى الأدباء والشعراء المغاربة، حيث أننا نراهم بعد أن تمكَّنوا من الأداةِ الشعرية، راحوا يُنافسون المشارقة في المجال الذي برعوا فيه منذ زمن سحيقٍ، يظهر ذلك في نفسيَّة كثيرٍ من الشعراء المغاربة الذين رأوا في دوَاخِل نفوسهم، أنه بإمكانهم نظم القوافي على طريقة كبار شعراء المشرق، كما هو الحال مع ابن خفاجه، الذي ظل يُعلِّلُ نفسه أنه بإمكانه القول على طريقة امرئ القيس، حتى قال عنه أحدهم مع صاحبه ابن زيدون ـ الذي سيأتي الكلام عنه ـ "كثيراً ما نجد هذين الشاعرين يُنَّظمان أشعارهما، ويُظهران من الاقتدار والمشاكشة، ما يدلّ على أنهما كانا يريدان إظهار مقدرتهما على منافسة الشعراء المشارقة وبـزِّهم في ميدانهم "[2].

فيما كان ابن هاني يستشعِر من نفسه أنَّه على طريقة المتنبي أقدر وأجدر، لذلك فلا غرابة أن نجده يُلقّب بالمتنبي الصغير[3]، وهذا ابن درّاج القسطلي يفخر به الثعالبي في يتيمته فيقول عنه: "وكان بِصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحد الشعراء الفحول، وكان يُجيد ما ينظم"[4].

وضمن تلك الحركيَّة الأدبية والشعرية، وفي إطار الإحساس بالتفوق المغربي، يأتي ابن حزم ليؤكَّد أصالةَ ثقافة أهل المغرب والأندلس وجدارتها، وأحقِيَّتها بالمنافسة لكل ما يفخر به الإخوان المشارقة[5]، هذه المنافسة وهذه النِّدِّيةُ التي بدأ يتطلع إليها المغاربة أكّدها الكثير من الدارسين والناظرين في التراث المغربي أدبا وشعرا، فقها وفكرا ،كما يقول محمد رجب البيومي:" لقد انتقل الأدب بالمغرب الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري من التّلمذة إلى المنافسة الحقيقية لأستاذه المشرقي، ويظهر تجسيد ذلك من خلال الألقاب المشرقية التي أضحت تُطلق على كثير من المبدعين والشعراء من أهل المغرب والأندلس من الذين ظهرت موهبتهم الشعرية، فهذا ابن هانئ رفقة ابن دراج

---

(1) مكي أحمد الطاهر، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الناشر: مكتبة وهبة بيروت لبنان ، (ط2 ،1977م)، ص: 55 .

(2) سليم ريدان، المغرب في ضمير أدبائه، (مر، س)، 13 .

(3) المرجع نفسه ، ص: 47 .

(4) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج/1 ، ص: 438 .

(5)ينظر: النيفر محمد توفيق، المغرب في ضمير أدبائه، ص: 50 .

القسطلي؛ كلاهما وُصِف بأنه متنبي المغرب، وكان يلقَّب ابن زيدون ببحتريّ المغرب، وقيل لابن عبد البر حافظ الغرب تشبيها له – بالحافظ البغدادي – حافظ الشرق"[1]، هذا الأخير أورده محمد رضوان الدَّاية في مؤلفه وقال، إن هناك من نقل عن المتنبي، إعجابه بشعر ابن عبد ربّه المغربي الأندلسي (ت328هـ) حتى قال عنه: " قد تأتيــك العــراق حبــواً "[2] .

انطلاقا من الاستدلالات السابقة؛ يظهر لنا كيف أن الأدباء والشعراء والنقاد المغاربة والأندلسيين وصلوا إلى درجة مُضاهاة إخوانهم المشارقة بما أتيح لهم من معرفة واطلاع، إلى درجة أن الكثيرين منهم تولَّدت لديهم ملكةً موسوعية، وحازوا درجة عالية في التحصيل اللغوي والمعرفي، وهذا في حدِّ ذاته يُحيل إلى فكرة أخرى، وهي أن الأدباء والنقاد في الضفة المغربيَّة لم يبقوا مجرد مستهلكين لما ينتجه إخوانهم المشارقة، إنما عملوا واجتهدوا في ترك بصمتهم وإظهار شخصيتهم العلمية في كل ما عرفه الناس من العلوم والفنون.

فهذا ابن رشيق واحدٌ من نقاد المغرب العربي الذين تميّزوا بشخصيتهم القوية والمتانة العلمية، يقدّم رأيه الخاص واجتهاده النقدي، مُخالفا ما جرى عليه العُرف بالمشرق في تحديد وتعريف مفهوم الشعر حينما خالف قدامة ابن جعفر في بيان ماهيتهِ ومدلُوله، حيث أنَّهُما وإن اتفقا واتحدا في ضبط أركانه ومكوِّناته من لفظ ومعنى ووزن وقافية، إلا أن ابن رشيق لا يكتفي بالإتباع والتقليد لقدامة المشرقي، إنما يُضيف شرطاً آخر مُتجاوزاً بذلك نظرة قدامة بن جعفر السابق عليه عندما يشترط ـ النية ـ التي يُهملها قدامه تماماً، حينما نجده يعرِّف الشعر بقوله: "والشعر يقوم بعد النية على أربعة أشياء، وهي اللفظ، والوزن، والمعنى والقافيـة "[3].

وهذا بلا شك من الاستفرادات الاجتهادية التي تحسب لابن رشيق، ومن دلائل الاستقلالية والخصوصية المغربية، وهو يُعطي انطباعا حسناً وواضحاً بأن النقاد المغاربة لم يكونوا مجرّد متّبعين لما أنتجته القريحة المشرقية، إنما كانت لهم اجتهاداتُهم وإبداعاتهم التي أضافوها للنقد والأدب العربي بجُملتهِ .

وإذا كان من الحق أن بلاد المغرب قد عرفت نقصاً واختلالاً في العلوم الفلسفية والعلوم العقلية، فإنَّا لا تعدِم تميُّزها بكثرة الفقهاء والمحدثين، والشعراء والمتصوفة، ولم تُحرَم من عباقرة رفعوا

---

(1) البيومي محمد رجب، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، ص: (28 ـ 29) .

(2) الداية محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، (مر، س)، ص: 45 .

(3) ابن رشيق، العمدة ،ج/1 ، ص: 119 .

شأنها إلى القمة في ميادين المعرفة بشتى أنواعها، حيث توَشَّحت بكثرة العلماء في هذه الميادين العلمية المختلفة، نكتفي بالإشارة إلى البعض منهم[1]، فهذا ابن خلدون (ت808هـ)، وإن ظهر متأخّراً زمنيا، إلا أنه رجلُ علم بامتيازٍ، لم ينسُج على منواله أحد من بعده بين العرب، وذاك ابن منظور القفصي التونسي (ت711هـ) صاحب معجم لسان العرب الذي يعتبر أكبر موسوعة معجمية في المادة اللغوية العربية، هو من أهل المغرب أيضا، ولا ننسى ابن رشيق القيرواني (ت456هـ) صاحب العمدة، والذي يُعتبر بحق أوَّل محاولة نقدية وَضَعت أُسس النقد الأدبي الصحيح، وظلت بمثابة المعتمد في المجال النقدي على امتداد عُهود مديـدة وسنين عديدة، وهذا ابن طفيل(ت 592هـ) صاحب قصة حي بن يقضان، والتي تعتبر أوّل قصة فلسفية كتبت بالعربية.

ومن الأدباء السّاطعين فوق التّربة المغربية، نذكر الحصري صاحب زهر الآداب والذي أرخ فيه للأدب العربي حتى عُدّ كتابُه أضخم مصادر تاريخ الأدب، وذاك ابن ظُفر(ت567هـ) من أدباء المغرب ـ عاش في صقليَّة التابعة إداريا لبلاد المغرب في ذلك الوقت ـ، والذي يُعتبر بدوره أوَّل من كتب في أدب الأطفال، ولا ننسى ابن الجزار المتوفى (سنة 369هـ) الذي تجاوزت شُهرته في الطب حدود العالم الإسلامي إلى بلاد الإفرنج وقتها، وكذا على ابن أبي الرجال الذي برع في علم الفلك، دون أن ننسى العلماء المغاربة الذين برزوا في الفقه والحديث، والذين على كثرتهم لا نستطيع إحصائهم عدًا، لكن نقتصر منهم على ذكر عالمين اثنين كانا لهما الفضل في تثبيت أركان المذهب المالكي بإقليم المغرب العربي؛ إنهما الإمام سحنون التنُّوخي صاحب المدونة، والفقيه المجتهد عبد الله ابن أبي زيد القيروان، صاحب الرسالة المسماة باسمه، ولكثرة عِلمه لُقّب بمالك الصغير، لتمكُّنه في الفقه المالكي .

إنَّ امتلاك بلاد المغرب لأمثال هؤلاء الأعلام، هو ما جعل أحد الأدباء والدارسين المغاربة ينتشي مفتخرا ببلاده المغرب حين نجده يقول بشيء من الفخر والزَّهو:" ولكن حين ذكرتم مسقط رأسي ومحلَّ أُنسي –ويقصد بذلك بلاد المغرب– فلا بد من المرافعة ولو أدَّت إلى المدافعة، وأنْ احتجّ لِبلدي منقولاً ومعقولاً، والفحلُ يحمي شَوْلهُ معقولا، ويدور جدل ينتصر فيه الفتى الذي بهرهم ببيانه وقهرهم ببرهانه فاضطربوا ومادوا، أو سلَّموا أو كادوا"[2]، وهي كما نرى في ظاهرها مقامةٌ مَدحيّةٌ، إلا

(1) ينظر: المنصور عبد المالك، مقالة على الانترنت بعنوان: القيـروان ، مؤسَّسة المنصور الثقافية ، وينظر: أبو القــاسم كرو، وعبد الله شريط، عصر القيروان ص: (32 ـ 33) .

(2) النقير محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، (مر، س)، ص: 118 .

أنَّ غرضها الأول ودافعُها الأساسي، هو الإبانة عن مدى الإجَادةِ والإفَادةِ لدى المبدع المغربي زمـاناً ومكاناً "[1].

لقد استطاع المغاربة قديما أن يقدِّموا إنجازاتٍ مهمّة شكلت إضافة نوعية للساحة النقدية والفكرية العربية، كما يشهد على ذلك بعضُ النقاد المشارقة أنفسهم من القدامى والمحدثين، وهم يتحدثون عن طفرة النقد المغربي، وبروز بعض الأعلام في هذا الحقل خاصة بعد القرن الخامس الهجري حيث شكَّلت الملاحظات النقدية التي قدمها كل من ابن رشيق، ومن بعده حازم القرطاجني، ثم الأعلم الشنتمري، والقاضي عياض، إلى غاية بروز ابن خلدون، هؤلاء كلهم شكّلوا الاستثناء العربي وليس المغربي فحسب .

وإذا انتقلنا إلى الميادين الفكرية والفلسفية فالأمر أوسع من أن يُحاط به، ولعلّ المطَّلع على كتاب (نحن والتراث) للمفكر والفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري[2]، سيقف حتماً على تلك الحقائق والتجلّيات التي حاول الجابري إظهارها، والمتمثلة في وُجود مدرسة فكرية عقلانية مغربية أسّس لها بعض أقطاب الفكر والفلسفة ممن ولدوا وترعرعوا فوق التّربة المغربية من أمثال، ابن رشد، وابن باجة[3]، وابن طفيل[4]، وابن حزم[5]، إذ استطاع هؤلاء الأعلام إبرازَ الشخصية العلمية والفكرية بعيداً عن التأثيرات المشرقية، والأعجب من ذلك أن أكبر الأولياء الصالحين والمتصوفة الذين عرفهم

---

(1) النقير محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، ص: 118، وقال المؤلف :كتب هذه المقامة الأديب التونسي حمودة بن عبد العزيز المتوفى سنة 1787م.

(2) محمد عابد الجابري مفكر وفيلسوف مغربي، من مواليد 1935م بالمغرب، تناول الكثير من قضايا الفكر العربي بالدراسة والمناقشة، من أبرز كتبه: نقد العقل العربي، تكوين العقل العربي، نحن والتراث وكتب أخرى كثيرة ، حصل على العديد من الجوائز التكريمية جراء إسهاماته العلمية والفكرية المتواصلة ، توفي سنة 2010م .

(3) أبو بكر محمد بن يحي بن الصائغ بن باجه التجيبي من أبرز الفلاسفة الإسلاميين ، اهتم بالطب والرياضيات ، وعلم الفلك والأدب والموسيقى، عاش في كنف الدولة المرابطية ، أثر كثيرا في تفكير ابن رشد وميولاته الفلسفية ، ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/3، ص:112 ،كما ينظر: وفيات الأعيان، ج/4، ص: 429 .

(4) هو الفيلسوف والعالم والطبيب أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي ، عاش في القرن السادس الهجري من أشهر المفكرين العرب الذين خلفوا الآثار الخالدة في عدة ميادين كالطب والفلسفة والأدب والفلك، توفي سنة 581هـ بمراكش المغربية، ينظر: جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/3، ص: 113 .

(5) ابن حزم، هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الأندلسي من مواليد سنة 384هـ، إمام وفقيه ظاهري ، أديب وشاعر ونسّابة وناقد، وصفه البعض بالفيلسوف، قيل عنه أنه بلغ مرتبة المجتهد المطلق ،كان من أشد الرافضين للتقليد، قال عنه ابن العماد الحنبلي:(بلغ المنتهى في الذكاء وسعة العلم وحدّة الذهن)، اعترف بفضله وعلمه أكابر العلماء والدارسون من القدماء والمحدثين، توفي سنة 456هـ، جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج/3، ص: 104، وينظر، وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج/4، ص: (325 - 328) .

المشرق؛ إنما هم من أبناء المغرب العربي، كابن عربي[1]، وأبو الحسن الشاذلي[2] وغيرهم كثير، إلا أن التساؤل الذي سيظل مطروحا، ومازالت معالم الإجابة عنه لم تتَّضح بعد، هو لماذا هذا الإهمال والتهميش للتراث الفكري والأدبي والنقدي المغربي؟ وما السَّبب الذي جعل النصوص المغربية المقدّمة في شتى الحقول المعرفية لم تنل بعدُ حقَّها من العناية والاهتمام ؟

مما لاشك فيه أن القارئ للتراث النقدي والفكري والأدبي المغربي القديم" سيجد ثمَّة إبداعاً وعُمقاً معرفياً مغربيا اتّخذ أشكالاً إبداعية لم يسبق إليها المشارقة، كالألفيات، والأراجيز، والمولّديات والحجازيات، والقصائد الدينية، والمعارضات، والأدب الرّحلي، والرّسالي، والشعر الملحون، والموشحات[3]، والزَّجل، كما سيجدُ أعلاماً أسّسوا للمعرفة والإبداع بالمغرب الإسلامي سيقرأُ حتماً للمقري، وابن بسام، وابن حزم، والقاضي عياض، وابن معطي[4]، والزَّمُوري وغيرهم كثير، ثم أوليس من حقِّ هذه الأنماط والأشكال الأدبية أن تظهر ويُماط عنها اللثـام؟ ولـمَ لـمْ يهتم الدارسون المغاربة بقضايا النقد المغربي وظواهره قدر عنايتهم بالقضايا التي أثارها المشارقة؟ ولماذا لم يُعرِّفـوا بأمثال هذه

---

(1) محي الدين بن عربي هو محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، ولد سنة 558هـ، واحد من أكبر المتصوفة والفلاسفة الإسلاميين على مر العصور، ترك الكثير من الدواوين والكتب منها: الفتوحات المكية ، فصوص الحكم ، توفي ببلاد الشام ودفن بدمشق سنة 638هـ، ولا توجد أية علاقة بينه وبين ابن العربي الفقيه المالكي المشهور بالقاضي أبو بكر علامة الأندلس وعالمها والذي عاش في الفترة مابين 468/ 543هـ، وهو دفين مدينة فاس المغربية ، ينظر: وفيات الأعيان ، لابن خلكان، ج/4، ص: 296 .

(2) هو أبو الحسن علي الشاذلي الحسني، من أهل المغرب ولد ببلدة شاذلة التونسية فسمي بالشاذلي، حجة الأولياء والصالحين، مؤسس الطريقة الشاذلية، من مواليد سنة 591هـ، عرف بتواضعه وكثرة عبادته، خضع لدعوته أهل المشرق والمغرب قاطبة، انتقل إلى مصر وهناك ارتفع جاهه وكثُر محبّوه، وأنشأ طريقته وظل يعمل للإسلام إلى أن توفاه الأجل سنة 656هـ .

(3) أما عن هذه الأنماط الأدبية ، فإنها أنساق شعرية عرفت رواجا وظهورا واهتماما واسعا بها من طرف أهل الغرب، حيث أن المولديات عبارة عن أشعار تنشد في أيام الاحتفال بالمولد الشريف ، وكان أول ما ظهر هذا النسق الشعري ببلاد المغرب، كظاهرة اجتماعية ودينية حفلت بها الكثير من الزوايا والطرق الصوفية ، أما الحجازيات فهي مادة شعرية يتناشدها أهل المغرب في مواسم الحج خاصة، وذلك في البيئة الحجازية ـ مكة والمدينة ، تعبيرا عن الشوق لتلك الربوع الطاهرة، أما الموشحات فهي فن شعري نشأ على أيدي الأندلسيين أواخر القرن الثالث الهجري، وهو فن مستحدث يختلف عن الشعر الغنائي العربي لالتزامه بقواعد معينة ،كاستعمال اللغة الدارجة /و الأعجمية في خرجته ، واتصاله القوي بالغناء، ينظر: محمد زلاقي، بناء القصيدة المولَّدية في المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، طبع وزرارة الثقافة الجزائر، (دط، 2013م)، ص: (22 ـ30) .

(4) ابن معطي الزواوي، نحوي ولغوي مغربي، تعلّم النحو ومختلف العلوم العربية ببلاده المغرب ثم ارتحل إلى المشرق ، فزار مصر والشام ولقي المشايخ والعلماء هناك، من أهم ما خلفه لنا ابن معطي ألفيته في النحو، والتي سماها (الدّرة الألفية في علم العربية)، حيث أبدع في نظمها ، والتي كانت فيما بعد مصدر إلهام ابن مالك في نظم خلاصته المعروفة (بألفية ابن مالك) توفي سنة 628 هـ ودفن بمصر، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/2، ص: 235 .

الشخصيات الفكرية والأدبية المغربية؟ ويدرسوا إبداعهم ويستخرجوا مَكامن القـوَّة والتفرُّد فيه؟ أم أنَّ مُغنيَّة الحي لا تطربُ على حد قول العرب قديما [1]؟

لقد كان ابن بسام مُحقّاً عندما رأى ذلك التهافت على الأدب المشرقي، والإكبار لكل ما يظهر بمشرق الأمة، مع تناسي مغربها حتى من قبل أبناء المغرب أنفسهم، لذلك أصابته حرقة، وشكّل ذلك غُصّةً لديه عبّر عنها متأسفا عندما قال:" إلا أن أهل هذا الأفق أبوْا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إليهم في أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفـاق غرابٌ أو طـنّ بأقصى الشام والعـراق ذُبابٌ، لجثّوا على هذا صنماً، وتلو ذلك كتـابا مُحكمًا"[2].

ومازال التساؤل مطروحا وإلى اليوم: لماذا لا تظهر خصوصيات المبدع المغربي في أي فنّ كـان؟ إلاّ عندما يحتضنه المشرق ويتبنّاه؟

ولنرجع قليلا إلى الوراء لننظر ونبحث في جذور الصراع بين المشرق والمغرب، وكيف أحسّ المغاربة بذلك التّعالي المشرقي، الأمر الذي ولّد في نفوس الكثيرين منهم جَذْوة التفوّق والمنافسة وأشعل فتيل حرب فكرية كلامية لعبت فيها النرجسية وحب الذات دورها، ومع ذلك كان لذلك التنافس دوره الكبير في الرّقي الفكري والحضاري والأدبي، يقول الباحث المغربي محمد بن تاويت:" لقد كان حُبّ التفوق على المشارقة هاجس المغاربة الأول، والذين عملوا بقوَّة على تحقيقه؛ خاصة في مجال اللغة والنحو، رغم أن سيطرة المشارقة على العلوم العربية دام لعدة قرون، فقد سُبقوا إليها اعتبارا من أن العربية لُغتهم والقرآن نزل بين ظهرانَيهم"[3].

وإنما عمل المغاربة على إثبات وُجودهم، وإبراز جهودهم في هذا المجال، لأنهم كانوا يحسُّون بنوع من التخلُّف عن المشارقة، فحاولوا أن يُعوّضوا ذلك بتأكيد تفوُّقهم رغم بُعدهم الزماني، وغربتهم المكانية، ومن هنا نراهم يتعصبون للّغة حين يُفتنون بعلم النحو ويقتلونه درساً وتأليفاً [4].

---

(1) هو مثل عربي، ومعناه أن الشخص مهما بلغ فإنه لا يلقى الاحترام والتقدير في بيئته وبين قومه على حد قولهم: لا نبي في قومـه وفي المعنى نفسه، يقول أبو الفرج ابن الجوزي: يَرْوْنَ العَجِيبَ كَلاَم الغَرِيب وَقوْلُ القَرِيبِ فَلاَ يُعْجِبُ
وَعُذْرهُمْ عِند تَوْبِيـخِهِم مُغَنيّـةُ الحَـيِّ مَـا تُطْـرِبُ

(2) ابن بسام، الذخيرة، مج/1 ص: 12 .

(3) نقلا عن: يحياوي حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، مخطوط دكتوراه، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر2011م ص :77 .

(4) المرجع نفسه، ص: 77 .

وبذلك فقد ظهرت ومنذ من عصر ابن حزم –القرن الخامس الهجري وما بعده– نزعة إقليمية تجسّدُ فعليًّا فكرة الخصوصية والاستقلالية المغربية، تمثلت هذه النزعة في شكل ثورة كاملةٍ على الشرق كما يقول طه حسين:" وهي محاولة لإثبات الشخصية المغربية في مقاومة الشخصية المشرقية في السياسة والعلم والفلسفة "[1].

وفعلا فإنه ومن خلال ما تم ذكره وإثباته، فقد عرفت الأندلس وبلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري اتجاها تجديديا، وهو اتجاه كشف عن مشروع فكري وثقافي جديد .

ففي المجال العلمي وبغرض إظهار الشخصية المغربية وتأكيد استقلاليتها، فقد شكّل كلاً من ابن مضاء القرطبي النحوي[2]، وابن حزم الفقيه الظاهري، ظاهرة علمية فريدة المغرب الإسلامي، هذان العالمان هما من أبناء المغرب مولدا ونشأة، وثقافةً وتكوينًا وحياةً ومماتاً، قد أحدثا ثورة علميـة حقيقية، حتى ليظهر الأمر وكأنَّهما قد توافقا على إحداث تلك الثورة وذلك الانقلاب على ما كان سائداً ومعتاداً في بلاد المشرق .

إن نفسية ابن حزم كانت تحدّثه لفعل ذلك، وكان يقاوم في دَاخلةِ نفسه ذلك الاستلاب والاحتكار المشرقي، والذي كان يرى فيه ظلما وهدراً للطاقات المغربية، حتى أنه بكى حاله وتأسف لواقعه المرّ الذي ظلمه وظلم معه الإقليم الذي ينتسب إليه، فقال في ذلك شعرا سبق وأن مثلنا لذلك بأبيات منه في الصفحات السابقة .

ومن دون شك" فإن مَنْ يقرأ كتاب ابن مضاء (الردّ على النحاة) يتلمَّسُ تلك الملاحظة البارزة والتي تُعطي الانطباع بأن صاحبه ثائر على المشرق، كما فعل ابن حزم قبله في ثورته على الفقه المشرقي، وبذلك يتبدَّى بأن الحياة العلمية والفكرية في المغرب والأندلس، وكأنَّا كانت ثائرةً على نظيرتها في المشرق، حيث تم ردُّ فقه المشرق على المشارقة مع ما ظهر من تنظيرات ابن حزم وتخـريجاته

---

(1) يحياوي حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي، ص: 77 .

(2) هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بن محمد بن مضاء القرطبي، عاش في الفترة من(513/ 592م)، من علماء النحو وله فيه آراء حيث أحدث فيه ثورة وخالف جميع النحويين قبله من خلال كتابه الذي ألفه في هذا الباب: (الردُّ على النحاة)، والذي هاجم فيه النحو والنحاة المشارقة محاولا إلغاء نظرية العامل النحوية ، والتي رأى أنها غير مفيدة ، فدعا إلى العمل بظاهر النصوص متأثرا في ذلك بالمذهب الفقهي الظاهري ، وقد جاء بكتابه المذكور ثائرا على كل مهو مشرقي ، وكان يجاري في ذلك تفكير أهل عصره الذين ثاروا ضد كل ما هو مشرقي ، ولعبت السياسة في ذلك الوقت دورها، فتم رد الفقه المشرقي على المشرق، وكذلك كان الحال مع النحو المشرقي، ينظر في ذلك: التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، مطبعة رزيـقي، الأغواط الجزائر، 2006م ، دط ، ص:231 .

الفقهية، فيما دعا ابن مضاء إلى ردّ نحو المشرق على المشرق أيضا، حين أعاب على أهل المشرق تلك التّعليلات الكثيرة والتأويلات والتفريعاتِ التي رأى أنه لا مُسوِّغ لها "[1].

وإذا كان ابن حزم الظاهري قاد ثورته على المذاهب الفقهية التي بحسبه أوغلت في التفريعات والتأويلات داعيا إلى ترك الناس يهتمون أكثر بدراسة الأصول والاقتباس منهما –أي الكتاب والسنة– بدلاً من إغراق الناس في علم الفروع، ولذلك سُمي الاجتهاد الجديد الذي دعا إليه في الفقه بالمذهب الظاهري[2].

أما ابن مضاء القرطبي، فقد قاد ثورته على النحو المشرقي عن طريق دعوته إلى هدم مذهب سيبويه في النحو، والإتيان بمذهب جديدٍ يحمل نحواً جديداً مبنيا على هَدمِ نظريَّة العامل[3]، إلاّ أن محاولته تلك لم يُكتب لها النّجاح[4].

وينقل لنا الطرابيشي الوقائع التالية: إنَّ العصر الذي أُلِّف فيه كتاب الرّد على النحاة كان عصر ثورة على المشرق وأوضاعه في الفقه وفُروعه، وقد كانت دولةُ الموحدين[5] منذ أوَّل الأمر تدعو إلى هذا، حتى إذا كان عصرُ الخليفة يعقوب الموحّدي[6]، رأيناه يأمرُ بإحراق كتب المذاهب الأربعة،

---

(1) يحياوي حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي ص: 94 .

(2) المذهب الظاهري، هو مذهب فقهي نشأ ببغداد أواخر القرن الثالث الهجري بزعامة داود بن علي الظاهري ، ثم آلت الزعامة فيه إلى ابن حزم الظاهري، ويقوم هذا المذهب على أن المصدر الفقهي للمسائل والنوازل إنما هو ظواهر النصوص من الكتاب والسنة ، فلا رأي ولا قياس، ولا يجوز إعمال العقل في المسائل والأحكام الشرعية، فأهل الظاهر بهذا المفهوم يدعون إلى بالتمسك بما ورد في الكتاب والسنة لا غير، وطرح كل ما عداه، ينظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج/4، ص: (325 ـ 328) .

(3) نظرية العامل، توقف النحاة طويلا عند هذه النظرية ، وعدّوها أساس النحو ومنطلقا له فقالوا : النحو أثر يجلبُه العامل، ودار حول ذلك جدل ومناقشات كثيرة، ويلخّص النحويون هذه الفكرة بقولهم: إن أية ظاهرة من ظواهر الإعراب في الكلمة ـ رفعا أو نصبا، أو جرا ـ لابدّ لها من وجود مؤثر يعمل فيها ، فالفعل مثلا يعمل الرفع في الفاعل، والنصب في المفعول به، وكان وأخواتها تعمل الرفع في أسمائها، والنصب في أخبارها، وعلى العكس منها إن وأخواتها، وبهذا الاعتبار استقر في رأي النحاة أن الحركات الإعرابية وما يتصل بها، إنما هي أثر لمؤثر أوجدها من لا يتصور وجودها بغيره ، أما ابن مضاء فله رأي آخر يخالف به النحاة جميعا ، ويقول بأن العامل في الحركات الإعرابية هو المتكلم نفسه، ينظر: التواتي بن التواتي، محاضرات في أصول النحو، ص 230 .

(4) أمين أحمد، ظهر الإسلام ج/3 ،ص: 96 .

(5) الدولة الموحدية هي إمبراطورية إسلامية أسسها الموحدون ، واستطاعت في ظرف وجيز أن تبسط سيطرتها على كامل بلاد المغرب العربي، بعد قضائها على الدولة المرابطية سنة 555هـ، وقد اتخذت من مراكش عاصمة لها، أمَّا مؤسسها فهو محمد بن تومرت ، وقد اهتمت هذه الدولة بالحياة الثقافية والعلمية في المغرب وبلاد الأندلس، وأسسوا الكثير من المدارس، وبرز من العلماء في عهدهم ابن طفيل، وابن رشد، ينظر في ذلك: سعدي عثمان ، الجزائر في التاريخ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع2013 م ، ص: 302 وما بعدها.

(6) هو الخليفة أبو يوسف يعقوب الموحدي الملقب بالمنصور، والذي كانت خلافته في الفترة مابين 580هـ إلى غاية وفاته سنة 595هـ ، عمل هذا الرجل على النهوض بالدولة الموحدية علميا وثقافيا، وكان قائدا ماهرا وسياسيا محنكاً، وكان مما ينسب إليه أنه أمر بإحراق كتب المذاهب الأربعة رغبة منه في ردّ فقه المشرق على المشرق، ويعتبر العصر الموحدي بحقٍّ عصر ثورة على المشرق، حيث تذكر لنا كتب

يُريد بذلك أن يردَّ فقه المشرق إلى المشرق، وقد تبعه ابن مضاء القرطبي قاضي القُضاة في دولته فألّف كتابه (الرد على النحاة)، يريد من ورائه أن يَردَّ نحو المشرق إلى المشرق[1].

7- ثورة ابن مضاء اللغوية والنحوية:

يحضُر ابن مضاء القرطبي حُضوراً لافتاً في كتابات محمد عابد الجابري خاصة كتابه(نحن والتراث)، بل ويجعل منه رائدًا من رواد الثورة الثقافية كما يُسميها ناقد العقل العربي بتعبير جورج طرابيشي وهو يقول:" نجدُ الجابري يجعلُ من اجتهادات ابن مضاء النّحوية، وابن حزم الفقهية، وابن رشد الفلسفية، بمثابة ثورة على المشرق فقهاً وفلسفةً ولغةً ونحوًا، ثورة إيديولوجية وابستمولوجية معاً، تحركت في اتجاهٍ واحدٍ، وهو اتّجاه ردّ بضاعةِ المشرقِ إلى المشرق، في الفقه مع ابن حزم، وفي النحو مع ابن مضاء، وفي الفلسفة مع ابن رشـد القرطبي "[2].

وعن ذلك يقول الجابري:" إنَّ مدرسة قرطبة إذا كانت تَتَميّزُ عن غيرها من المدارس داخل الأندلس، فإنها تُميّز الأندلس ككل ومعها المغرب عن بقية العالم العربي الإسلامي بالمشروع الثقافي، من إمارة إلى خلافة ثالثة منافسة للخلافة العباسية والخلافة الفاطمية، مشروع ثقافي جديد حقا، ومتميز فعلاً عبّر عن نفسه بعنف المخاض وصيحة الميلاد مع ابن حزم، وبلغ تمام نُضجه ورشده مع ابن رشد، وتردَّدت له أسماعٌ قويةٌ في علوم اللغة والدّين لدى شخصيات علمية بارزة، مثل ابن مضاء القرطبي في النحو، وأبو إسحاق الشاطبي في أصول الفقه "[3].

8- هل ثمّـة فعلاً خُصوصية مغربية؟

هل حقاً توجد خصوصية مغربية في الأدب والنقد والفكر بشكل عام؟ وما هي تمظهراتِ وتجليات هذه الخصوصية؟ وهل يمكن لأدبٍ يرتوي من نفس المعين أن يكون منفصلاً عن صِنوه الآخر؟ وحتى لو سلمنا بوجود استقلالية في الطَّرح والتفكير، فهل يؤدي بنا ذلك إلى الاعتقاد بوجود قطيعة وشنآن بين الأدبين في المشرق والمغرب؟

التاريخ قصة يعقوب الموحدي، وكيف أمر بإحراق كتب المذاهب، فهذا عبد الواحد المراكشي يقول: (شاهدت وأنا يومئذ بمدينة فاس عملية حرق هذه الكتب ...)، ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمـــان ، لابن خلكان،ج/7، ص: (03 ـ 15) وينظر أيضا : سعدي عثمان، الجزائر في التاريخ، ص: (311 ـ 312) .

(1) ينظر: الطرابيشي جورج، نقد نقد العقل العربي، وحدة العقل العربي الإسلامي، دار الساقي بيروت، لبنان، (ط1، 2002م)، ص: 296 .

(2) المرجع نفسه، ص: 297 .

(3) الجابري محمد عابد، نحن والتراث، ص: (181 ـ 182) .

إنَّ الخلاصة التي يمكن الخروج بها تبعاً لهذا الكم الهائل من الأسئلة، وكل ما يمكن أن يُطرح من تساؤلات في هذا الاتجاه، هو أنه حتى وإن كانت ثمة خصوصيات تميَّزَ بها الأدب والفكر العربي في المغرب الإسلامي بصفة عامة "فإن ذلك لا يُسوِّغ بتاتاً القول بوجود قطيعة علمية أو ابستمولوجية بين المشرق والمغرب، وإنَّ التَّميّز الذي قد يظهر هنا أو هناك،كان ينتقِلُ بعد ذلك إلى باقي البلاد ويشمل كل الأقاليم لا فرق بين شرقيِّها وغربيِّها، على أن هذه الخصوصية وهذا التميُّز إنما يمكن أن يشكل البُعد المحلي في الإبداع الأدبي أو النقدي، والذي يُنشد في المواقف التي تهتم بالدراسات التجزيئيّة التي تفصل الأقاليم الجغرافية عن بعضها"[1].

ذلك أقصى ما يمكن الإقرار به وملاحظته من خلال الكتابات التي ظهرت في الضفتين المشرقية والمغربية، وإن لُغة القطيعة التي يتكلم بها بعض القراء والدارسين، خاصة في المغرب الإسلامي لا تعدو أن تكون مجرد ردّ فعل عن ذلك التعالي المشرقي الذي قد يظهر عند بعض المشارقة، والذي يندرج في الأنا المنتفخ، والأنا المتضخم، الذي يحاول بعض المبدعين في المشرق الظهور به.

ومع ذلك من حق القارئ أن يتساءل ويقول: هل وُجدت ثمة قطيعة ثقافية وأدبية بين المشرق والمغرب بالمفهوم الحتمي لمعنى القطيعة؟ أم ظل التواصل قائما بين القطرين، مستمرا رغم تباين ظروف السياسة، واختلاف طابع البيئتين المشرقية والمغربية؟

يرى كثير من الدارسين ومنهم عبد المالك الشامي " أن حركة الدِّراسات التي اهتمت بالمغرب الإسلامي انقسمت في إجابتها على هذا السؤال وتصوّرها لهذا الأمر إلى رأيين" [2]:

ـ **الأول** ذُو بعد قومي يرى أن الأدب في الأندلس والمغرب وكل نشاط ثقافي أو علمي على وجه الخصوص، لم يكن في واقعه إلا استمرار للحركات الأدبية والعلمية في الشرق أو صدى من أصدائها بحكم عوامل التأثير القوية التي مارسها الشرق على المناطق القريبة منه والبعيدة، وفي مقدّمة هذه العوامل العامل الديني المتمثل في الإسلام والقرآن والحديث، والعامل اللغوي المتمثل في اللغة العربية لغة الدين وما يتبعُه من مأثور التراث العلمي والأدبي والفني، حيث شكّلت هذه العوامل جسور حقيقية جعلت امتداد اللغة والأدب العربيين على المساحة الجغرافية للعالم الإسلامي، أمرًا

(1) الشامي عبد المالك، النقد الأدبي في الأندلس بين النظرية والتطبيق، (مر، س) ص: 87 .

(2) المرجع نفسه ، ص: 87.

واقعاً لا مجال للشك فيـه، وكانت بذلك التيارات الأدبية التي ظهرت هنا وهناك بالمشرق والمغرب، تشكِّل امتداد طبيعيا لاتجاهات الأدب في المشرق، أو رافدًا من روافد الثقافة المشرقية [1].

ـ **أما الثاني** " فهو ذُو بُعدٍ تجزيئي يفصل المشرق عن المغرب، ويرى أن الأدب الأندلسي والمغربي قد ملك نوعا من الاستقلال الفني والعلمي النَّوعي الذي انطلق من حيثيات البُعد الجغرافي وطابعه الإقليمي المميَّز، وما كان لذلك ولغيره من تأثير على مسار الأدب وتلوُّنه باللون المحلِّي الذي هَيمن عليه، ومن تأثيره أيضا على مجالات الحياة المختلفة الأخرى "[2].

قد تكون هذه النظرة وهذا التحليل واقعيا بالنظر إلى بعض المعطيات، حيث أن فئة العروبيين والقوميين يرفضون أي مساس بالوحدة العربية سياسيا أو ثقافيا، وتراهم يؤكدون على أن جسور التواصل والتلاقي مازالت مستمرة، ومنطلقهم في ذلك أن أمَّة تشترك في مقومات اللسان والدين، لا يمكن أن يفرِّقها التباعد الجغرافي حتى ولو أراد له أهل السياسة ذلك، فيما ذهب بعض من يُسمَّون بالوطنيين الإقليميين إلى القول بإمكانية الانفصال الثقافي والقطيعة المعرفية حتى مع وجود وحدة اللغة والدين انطلاقا من قاعدة أن الإنسان ابن بيئته، وهو يتحزّب وينتصر دوما لفئته وموضع إقامته، وليس هنالك من عَتبٍ في أن ينتصر المشرقي لوطنه الأم، ويلُوذ المغربي بإقليمه الذي عمَّر أوديته وربُـوعَه.

والحق أنه كان للبعد السِّياسي دوره وأثرهُ في إقامة مثل هذا الشَّرخ بين المشرق العباسي، والمغرب الفاطمي، أو السُّني الأموي، ومع امتداد كل تلك الجسور اللغوية والثقافية بين القطرين المشرقي والمغربي إلا أنَّ ذلك لم يمنع أهل المغرب والأندلس من الشعور والإحساس بشيء من الفخر والاعتزاز، ومن ثمة بالخصوصية والاستقلالية كما تظهر تلوّناتها في الافتخار برجالاتِهم وأهل العلم فيـهم[3].

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما كتبه ابن حزم في فضل الأندلس، وما نجده لدى ابن بسام في مقدمة ذخيرته، وما كتبه ابن سعيد المغربي، وكذا ما حملته رسالة(التوابع والزوابع) لابن شهيد من إشادةً لا حدّ لها بالعبقرية الأندلسية في مواجهة عباقِرة الشَّرق من الكُتَّاب والشعراء.

---

(1) الشامي عبد المالك، النقد الأدبي في الأندلس بين النظرية والتطبيق، ص: 88 .

(2) المرجع نفسه ، ص: 88 .

(3) نفسه ، ص: 89 .

وعن هذه الحركية التي شهدها المغرب الإسلامي في انتقادهم لمنهج المشارقة، وخروجهم عن النَّسق الذي رسمُوه لأنفسهم ودرجوا عليه، وفي ذلك كلِّه يقول طه حسين أحد مفكري ونقاد العصر الحديث:" إنَّ الأندلس تقع في الغرب، وإنَّـه لَوْ أُتيـحَ لهذا الغرب أن يستمر في نقده للمناهج المشرقية، لأدَّى ذلك إلى تغيير جوهري في نمط الحياة عند العرب"[1] .

* * *

(1) ينظر: يحياوي حفيظة ، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي، (مر، س)،ص: 172 .

الخاتمة

لقد قادتني هذه الرِّحلة البحثية الطويلة مع تراث المغرب العربي، أدبه ونقده، رجالُه وأعلامُه تاريخه وجغرافيّته على امتداد قرنين من الزمان، إلى رصد جُملة من الملاحظات والاستنتاجات رأيت من الضروري تسجيلها في خاتمـة هذا البحث، لعل من أبــرز ذلك ما يلي:

1: تتميّـزُ الفترة الزمنية محور الدراسة – القرنين الرابع والخامس الهجريين – بالتطوُّر والازدهار الثقافي والعلمي والأدبي، ويرجع سبب ذلك إلى ما عرفه إقليم المغرب العربي من نشاط فكري وأدبي، وحركة تأليفية واسعة أسّــس لها وعمل على إبرازها ثلّـة من الأعلام والأدباء الذين ازدهى بهم المغرب العربي في ذلك العهد .

2: إن الإقليم الذي نكُتبُ عنه، لم تتمَكَّن فيه العربيةُ إلاَّ بعد قرون، فالعربية فيه طارئة وليست أصيلة وبالتالي فإن الكتابة والإبداع إنما يتطلب وقتاً أطول .

3: لقد أسهمت الحواضِرُ المغربيَّـةُ في الارتقاء الفكري والحضاري بالمغرب العربي، وكان للأمراء والولاَّة الذين حكموا هذا الإقليم دَورٌ رياديٌّ في تشجيع حركة التعليم، من خلال بناء المنشآت التعليمية، وتشجيع العلماء على خوض غِمار البحث العلمي على اختلاف تخصُّصاتهم المعرفيـة والعلمية .

4: ظهرت القيروان على مسرح التاريخ كحاضرةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ، بما تميّزت به من حركة علمية وأدبية ونقدية متميزة، وتجلَّى ذلك من خلال عديد المصنَّفات والتآليف التي ظهرت خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين في شتى المجالات العلمية والأدبية.

5: تبيَّنَ لي من خلال القراءة المتأنّيـة للعهد الصّنهاجي، كيف أنَّ المغرب العربي شهد تلك الحركية الفكرية والثقافية الواسعة في شتى مجالات المعرفة، وقد ساعد على رواج ذلك وازدهاره اهتمام الأمراء الزيريـــن بالعلم والأدب وأخذهم بأيدي العلمـاء وتشجيعهم المتواصل لهـم، خاصة المعزّ بن باديس الذي كانت له بصمته الظاهرة في ذلك، بشهادة أكثر من درس وأرّخ لتلك المرحلـة .

6: ظهرت معالمُ ذلك الازدهار الأدبي والنقدي خاصة مع ظهور ثُلَّةٍ من الشخصيات الأدبية والنقدية من أمثال: عبد الكريم النهشلي، والحسن بن رشيق، ومحمد بن شرف، وأبي إسحاق الحصري، والقزاز القيرواني، حيث توسَّع مجال الاهتمام بالشعر، وخاض هؤلاء النقادُ في المسائل

النقدية التي تطرق لها النقاد العرب بالمشرق، وقد كان لهؤلاء الأدباء والنقاد المغاربة بصْمَتهم النقدية وحضورهم العلمي المميِّز .

7: أثار النقاد المغاربة مسألة العوامل النفسية ودورها في العملية الإبداعية، ويظهر ذلك من خلال التعريف الذي قدَّمه النهشلي للشعر على أنه الفطنة، والتي تعني قُـوَّة الاستعداد لإدراك الأشياء والشعور بها، فيما رأى تلميذُه ابنُ رشيق في تعريفه؛ بأن الشاعر إنَّما سُميَّ شاعرًا لأنه يشعُر بما لا يشعر به غيره، ولذلك فإن للجانب النفسي والوجداني دور في الممارسة الشعرية .

8: تميَّز النّقاد المغاربة في معالجتهم لأكثر المسائل والقضايا النقدية بالموضوعية والتروِّي والابتعاد عن التعصُّب، لذلك نجد لديهم ميلاً إلى النظرة التوفيقية في معظم ما عالجوه من قضايا، مما يدّل على انفتاحهم على مختلف الرُّؤى والأفكار النقدية .

9: استطاع النقاد المغاربة أن يُسهموا بقسطٍ وافرٍ في بلورة تصوُّرٍ نقدي مغربي محلِّي، كان له أثره الواضح في صياغة نظرية نقدية مغربية، جعلت العديد من الأدباء والدارسين؛ يتوقّف مع آراء وطُروحات مدرسة القيروان النقدية في القرن الخامس الهجري .

10: يظهر من خلال تتبُّعنا لحركة النقد ببلاد المغرب، أنَّ أكثر النقاد المغاربة قد استعرضوا في كتبهم وبإسهابٍ دور الشعر ومكانة الشعراء عند العرب وتأثيره في نفوس الناس، ولذلك نجدهم يُشِيدون بأهميتِه ويبرزون قيمته، فدافعوا عنه في تصانيفهم؛ فهذا النهشلي في كتابه الممتع ينْبري للدِّفاع عن الشعراء مُبرزا مكانتهم في القديم والحديث، وذاك القزاز يؤلِّف ما يجوز للشاعر في الضرورة دفاعا عن الشعراء ضدّ تعصُّبِ اللُّغويـــن.

11: لقد غلَب على النقاد المغاربة التوجّه الأخلاقي في الممارسة النقدية ، وكانوا في أكثريتهم إذا ما استثنينا ابن رشيق من الطّبقة التي يغلب عليها الطابع الديني الأخلاقي، حيث رفضوا الشعر الماجن وشعر الهجاء، وآمنوا بضرورة الالتزام بضوابط الإسلام في العملية الإبداعية شعرية كانت أم نثريـــة.

12: عالج النقاد المغاربة موضوع السرقات الأدبية بكل موضوعية وحيادية، واعتبروها ظاهرةً إنسانيةً تُعبِّـر بواقعية عن حاجة اللاحق للاستفادة من السابق، وبالتالي فإن الأفكار في تلاقُحٍ وتناغُمٍ، ولا مانع في أن يتغذَّى المتأخر بما خلفه المتقدِّم، بشرط أن يظهر هناك نوعٌ من الإبداع والاختراع في المعاني، وأن لا تكون ثمَّـة سطوةٌ ظاهرةٌ، أو استيلاء بيِّنٌ على أفكار الآخرين ومجهـوداتِهـــم .

13: لاحظنا كيف استطاع ابن رشيق القيرواني الناقد المغربي المتميز، أن يُضيف لمستَه الفنيَّة والنقدية إلى المكتبة العربية، وتجلَّى ذلك من خلال جملة الكُتب التي ألَّفها في هذا المجال: كالعمدة، والقراضة، وأنموذج الزمان.

14: مثَّل ابن رشيق شخصيةً محوريةً في النقد الأدبي المغربي القديم، حيث استطاع وبشهادة أكثر الدارسين أن يُضيف للمكتبة العربية جهودا مُعتبرة في مجال النقد والدراسة الأدبية، ويظهر ذلك من خلال ما تميَّزت به شخصيته، من جُرأة في تناول ومناقشة الآراء المختلفة، كما أن أحكامه الانتقادية كثيرًا ما تميّزت بالدِّقة والوضوح والأمانة العلمية .

15: وكان من جملة ما خلصتُ إليه في هذا الإطار، أنَّه إذا كان لذلك التّباهي المشرقي مسوّغاته ومبرّراته في القرون الهجرية الأولى، فإنه لم يَعد مقبولاً ولا معقولًا مع تقدُّم الزمن، والذي كشف لنا بجلاءٍ بروز طائفة صالحة من العلماء الأندلسيين والمغاربة، ممن ظهرت عبقريتهم في كثيرٍ من المعارف والفنون .

16: مما لا شك فيه أن التراث النقدي والأدبي لبلاد المغرب العربي، عانى ولا يزال يُعاني التهميش والإهمال بالمقارنة مع التراث المشرقي الذي حظيّ بالدراسة لدرجة التشبّع، وإنه إذا ما استثنينا بعض الدراسات القليلة لهذا التراث، فإن عملية البحث والدراسة لم تُعط لها الأولوية والاهتمام اللازميـن، خُصوصا من لدُن أهل هذا الإقليم من الباحثين والأساتذة المقْتدِريـن.

17: ومما نسجله في هذا المقام أن ما كُتِبَ إلى اليوم من أبحاث ودراسات عن الأدب والنقد في المغرب العربي، لا يعكس حقيقة تطلُّعات الدارسين، ولا يُلبي رغبة الباحثين، كما أن الموجود منه لا يعكس أبدا قيمة الموروث الفكري والحضاري لإقليمنا المغربي، والساحة الأدبية والنقدية لازالت بحاجة ماسةٍ إلى مزيد من الدراسات والأبحاث في هذا الحقل.

وإيمـانا مني بأهمية البحث في هذا الحقل ـ الأدب والنقد المغربي ـ، يطيب لي أن أتقدم بالمقترحات والتَّوصياتِ التالية :

أ : توجِيهُ الطلبة الباحثين وتبصيرهم بأهمية الاشتغال والبحث في هذا الميدان المعرفي، والتفتيش عن المعالم الأولية التي رفَدت الأدب والنقد بالبلاد المغربية .

ب : فتح عُـروض التكوين في المستوى العالي ـ على مستوى المركز الجامعي تيسمسيلت ـ، يهتَمُّ بدراسة الأدب والنقد المغربي القديم .

ج : التوجُّـته إلى عقد مزيدٍ من الملتقيات العلمية الوطنية والدولية، تُخصَّصُ لدراسة الإنتاج والإبداع المغربي في القديم والحديث .

د : تخصيصُ مجلاّت علمية محكَّمة تهتم بالأدب والتراث المغربي القديم، في ضوء النظريات والمناهج النقدية الحديثة .

هـ : إعداد كُتب ومطبوعات علمية مشتركة، تجلِّـي الحالة العامة للثقافة والأدب بمغـربنا العربي الكبير .

* * *

مَكْتَبَةُ الْبَحْثِ

مكتبة البحث

-القرآن الكريم برواية ورش

المصادر والمراجـع العربيـة :

المراجـــع المترجمـــة :

الدواويـن الشعريـة :

المعاجـم والقواميـس :

الرسائل المخطوطـة :

الدوريات والمجلات :

المواقـع الإلكترونيـة :

المصادر والمراجـع العربيـة :

أولا: المصادر :

1. **ابن الأبَّـار**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي، الحلّة السّيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة ، (ط2، 1985م) .
2. **ابن الأثيـر**، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيـق: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت دط .
3. **ابن الأحمر**، إسماعيل بن يوسف الخزرجي الغرناطي، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق وتعليق: هاني سلامـة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، بورسعيد، مصر، (ط1 ، 2001م) .
4. **الإدريسـي**، أبو عبد الله الشريف، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق: محمد حاج صـادق، المكتبـة الجامعيـة الجزائـر، (دط ، دت) .
5. **ابن بسَّـام**، أبو الحسن علي الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقق: إحسان عباس، الناشر: الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة 1، 1981م .
6. **التِّرمـذي** محمد بن عيسى، سنن الترمـذي، تحقيـق وتعليـق: إبراهيم عطية عوض، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابـي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ – 1975 م .

7. **التوحيـدي** ـ أبو حيان علي بن محمد بن العباس، الإمتاع والمؤانسة، تصحيح وشرح وضبط، أحمد أمين، وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط ، د.ت) .

8. **الثعالبـي** ـ أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة القاهرة (ط2، 1956م) .

9. **الحصري** ـ أبو إسحاق إبراهيـم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: زكي مبارك، دار الجيل، بيروت لبنان. (ط1، د ت) .

10. **ابن حماد الصنهاجي، أخبار ملـوك بني عبيد وسيرتـهم تحقيـق: جلول أحمد البدوي، الجزائر، 1984م .**

– الجـاحظ ـ أبو عثـمان عمـرو بن بحـر :

11. البيـان و التبيين، تحقيـق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1998م.

12. الحيـوان، تحقيـق: عبد السلام هـارون، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط3 ، 1969م .

13. **الجرجـاني** ـ القاضي عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ومحمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية مصر ط2، 1951م

– ابن خلـدون ـ عبد الرحمـان بن محمـد :

14. تاريخ ابن خلدون، والمسمَّى: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط ومراجعة : خليل شحادة، وسهيل زكار، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (دط، 2001م) .

15. المقدِّمـة، تاريخ العلامة ابن خلدون ، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دط، 1984م) .

16. **ابن خلكان** ـ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت لبنان، دط، 1970م .

17. **الدّبـاغ** ـ عبد الرحمان بن محمد بت عبد الله ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، (دط، دت).

– ابن رشيـق ـ أبو علي الحسن الأزدي القيـرواني :

18. أنمـوذج الزمان في شعراء القيروان، جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر والتوزيع، والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986م .

19. العمـدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق وتعليق: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع سوريا، ط5، 1981م .

20. قراضــة الـذهب في نقـد أشـعار العـرب، تحقيـق : الشـاذلي البـويحي، دار المعـارف القـاهرة ، مكتبـة الدراسات الأدبية ، (ط11. دت) .

21. **الزبيـدي**، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، مصر، (ط2، دت) .

22. **المالكـي** ، أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط2، 1994م) .

23. **المراكشـي**، عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح وتعليق: صلاح الدين الهـواري، المكتبة العصرية بيروت، (ط1، 2006م) .

24. **المرزبانـي**، أبو عبد الله محمد بن عمران ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيـق: محمد علي البجاوي، دار النهضة، (دط، 1965 م) .

25. **المقـري**، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، (دط ، 1968م).

26. **النهشلـي** ـ أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم ، الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف الإسكندرية، (دط، دت) .

27. **العبـدري**، مجمد بن محمد بن علي، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد جدو، كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث الجزائر، دط .

28. **العسكري** ـ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا، (ط1، 2006م) .

29. **ابن عـذارى المراكشي**، أبو عبد الله محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيـق: ومراجعـة: جورج كـولان، وليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت، دت .

30. **الغبريـني** ـ أبو العباس أحمد بن عبد الـه، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق محمد بن أبي شنب، دار البصائر للتوزيع والنشر الجزائر، (ط1 ،2007م) .

31. **ابن قتيبـة** ـ أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة، ط2 ، 1966 م .

32. **قدامـة بن جعفر**، نقد الشعر، مكتبة المصطفـى، (دط، دت) .

33. **القرطاجنّي**، أبو الحسن حـازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي تونس، 1982م

34. **القـزاز القيرواني** ـ أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي، ما يجوز للشاعر في الضرورة، تحقيق رمضان عبد التواب، وصلاح الدين الهادي، دط مطبعة المدني القاهرة ، 1982م .

35. **القاضي النعمان**، ابن حيّون، المجالس والمسايرات، تحقيق محمد اليعلاوي، والحبيب الفقي، المطبعة الرسمية تونس، 1978م .

36. **القفْطـي**، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنبـاه الرواة على أنباه النحـاة، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، (دط، 1374هـ/1955م) .

37. **ابن سلام** ـ محمد الجُمّحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق : محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، (ط2 ،1974م).

38. **ابن شرف القيرواني** ـ أبي عبد الله محمد بن شرف، أعلام الكلام، تصحيح وضبط: عبد العزيز أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، مصر، (ط1، 1344هـ، 1926م).

39. **ابـن شهيـــد الأندلسي**، رسالة التوابـع والزوابـع، تحقيـــق وشرح: بطرس البستاني، دار صادر بيروت لبنان، سنة 1967م .

40. **يحي بن خلدون**، أبي زكريا، بغية الراد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق وتعليق: محمد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع الجزائـر. (دط، دت) .

– ياقـوت الحمـوي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومـي :

41. معجم الأدبـاء، تحقيق: فريد الجندي، دار صادر للطباعة والنشر،بيروت، (دط، 1955م) .

42. معجم البلـــدان، دار صـــادر للطبـاعة والنشر بيـــروت، (دط، 1977م) .

ثانيا: المراجـــع :

– أحمـد أميـــن:

43. فجـر الإسلام، مكتبـة النهضـــة المصريـة ، مصر، (دط ، 1984م).

44. ضُحى الإسلام،مكتبة النهضة المصرية، القاهـرة. (ط7، دت).

45. ظهـر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليـم والثقافـة، القاهرة مصر، (دط، 2012 م) .

46. **البسَّـــام**، لطيفة بنت محمد، الحياة العلمية في إفريقية في عهد بني زيري، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض العربية السعودية، 2001م .

47. بورويبة رشيد، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبـوعات الجامعية، الجزائر 1977..

48. بوعزيـز يحي، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع الجزائر، ط2، سنة 2003م .

49. بونار رابح، المغرب العربي تاريخـه وثقافته، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر (دط، 1986م) .

50. بَنْ شْرِيفَـة محمد، أبو تمـام وأبو الطيِّـب في أدب المغـاربة، دار الغرب الإسلامـي بيروت، (ط1، 1986م) .

51. بَنْ قيـنة عمر، أدب المغرب العربي قديما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1994م .

52. البيُـومي، محمد رجب، الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، مكتبة الرسالة العربية للكتاب القاهرة، (ط1، 2008م).

53. تــوات محمد بن الطاهر، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993م.

54. التليـسي بشير رمضان، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري، دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، (ط1 ،2003م) .

55. التـواتي بن التواتـي، محاضرات في أصول النحو، مطبعة زريقي، الأغـواط الجزائر،(ط1،2006م

56. الجــابري محمد عابد ، نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، (ط7، 1973م) .

57. الجـداونة حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، دار المكتبـة الوطنيـة عمـان الأردن، ط1، 2012م .

58. الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام ،دار الثقافة بيروت، (ط6 ، 1978م)

59. جـورجي زيدان، تاريـخ آداب اللغة العربيـة، مؤسسة دار الهلال، القـاهرة مصر، (دط، دت) .

60. حسـان محمد حسان، ابن حـزم عصره ومنهجه وفكـره التربـوي، جامعة عين شمس، دار الفكـر العربـي ، القاهـرة .

- **الحاجري محمّد طه :**

61. دراسات وصُور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، (ط1، 1983م) .
62. مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، (ط1، 1983).

- **حسني عبد الوهاب حسن:**

63. بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة تونس، 2009م .
64. المنتخب المدرسي في الأدب التونسي، المطبعة الأميرية، القاهرة، (ط2، 1944م) .
65. مُجمل تاريخ الأدب التونسي، مكتبة المنار ، تونس، 1968م .
66. ورقات عن الحضارة الإسلامية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، 1964.
67. **حوالة** يوسف أحمد، الحياة العلمية في إفريقية منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، (ط1، 2000م) .
68. **خلدون** بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، المطبعة الوطنية للجيش الجزائر، (دط، 2007م) .

- **خفاجي عبد المنعم :**

69. قدامة بن جعفر ونقد الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط، دت)
70. قصّة الأدب في الأندلس، مكتبة المعارف بيروت، (دط، 1962م) .
71. **دحو العربي**، الأدب العربي في المغرب العربي ـ من النشأة إلى قيام الدولة الفاطمية ـ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر (ط1، 2007م) .
72. **دبّوز** محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر،(ط1، 2013م) .
73. **الدّاية محمد** رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ،لبنان، (ط2 ، 1993م) .
74. **رشدي** عبد السلام محمد، لغة النقد العربي القديم بين المعيارية والوصفية حتى نهاية القرن السابع الهجري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة، (ط1 ، دت) .

75. **ريـدان** سليم، المغرب في ضمير أدبائه، دار سحر للنشر والتوزيع، كلية الآداب والفنون منوبة ، تونس، 2005م .

76. **زروقي** عبد القادر، أدبية النص عند ابن رشيق في ضوء النقد الأدبي الحديث، دار كوكب العلوم الجزائر، (ط1، 2014م) .

77. **زلاقـي** محمد، بناء القصيدة المولد ية في المغرب الإسلامي، دار بهـاء الديـن للنشر والتوزيع، طبـع وزارة الثقافـة الجزائر، (دط، 2013م)

78. **زغلول سلام محمد**، تاريخ النقد والبلاغة من القرن الخامس حتى القرن العاشر الهجري، منشأة المعارف الإسكندرية، (ط1، 2000م) .

– أبو زيــد سامـي يوسـف :

79. النقد العربي القديم، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان الأردن، (ط1، 2013م) .

80. الأدب الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان الأردن، (ط1، 2016م) .

– الطمـار محمّـد :

81. المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (ط1، 2010م) .

82. تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،كلية الآداب الجزائرية، الجزائر، 1981م

83. **الطرابيشـي** جورج، نقد نقد العقل العربي ـ وحدة العقل العربي الإسلامي ـ، دار الساقي بيروت، لبنان، (ط1، 2002م) .

84. **كنُّـون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، الرباط المغرب، (ط2، 1960م) .**

85. **كرو أبو القاسم محمد**، عصر القيـروان، دار طـلاس للدراسـات والترجمـة والنشر دمشق، (ط2، 1989م)

86. **الكواز** محمد كريم، البلاغة والنقد ـ المصطلح والنشأة والتجديد ـ مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، (ط1، 2006م) .

87. **لقبـال موسى**، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (ط1، 1981م) .

88. **مبارك محمد** زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (ط4، 1934م) .

– مخلوف عبد الرؤوف :

89. ابن رشيق ونقد الشعر، (دراسة تحليلية نقدية تاريخية مقارنة)، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973م .

90. سلسلة نوابـغ الفكر العربـي، (ابن رشيق القيرواني)، دار المعارف مصر العربية، 1964م .

91. **محمد عبد الواحد عمر**، دراسات في النقد الأدبي عند العرب في المغرب والأندلس، دار الأندلس للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، (ط1، 1998م) .

92. **مخلوف عامر**، مراجـعات في الأدب الجزائري، دار الأديب للنشر والتـوزيع، منشورات مديـرية الثقافـة لولاية معسكر، الجزائر .

93. **مرتاض عبد الملك**، الأدب الجزائري القديم ـ دراسة في الجذور، دار هومـة للطباعـة والنشر، الجزائر، 2009م .

– مُـرتـاض محمَّـد :

94. النقد الأدبـي في المغرب العربي، نشأته وتطوره، (دراسة وتطبيق)، منشورات اتحاد الكتاب العرب سوريا، سنة 2000م.

95. **النقـد الأدبي في المغرب العربي بين القديـم والحديث، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيـع، الجزائر، 2014م .**

96. **مكـي أحمد الطاهر**، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الناشر: مكتبة وهبـة، بيروت لبنان، (ط2 ، 1977م) .

97. **منـدُور محمد**، النقـد المنهجـي عند العرب ، دار نهضـة مصر ، القاهـرة، (دط، 1996م) .

98. **المعطياني** عبد الله سالم، ابن شهيد الاندلسي وجهوده في النقد الأدبي، منشأة المعارف الإسكندرية 1977م.

99. **مُؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد للطباعة والنشر، القاهرة، (ط11، 2010م**

100. **ميـدان أيمـن محمد**، الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب، المتنبي والمعري نموذجين، دار الوفاء للطباعة والنشر الإسكندرية، 2003م .

101. **الميلي** مبارك بن محمد ، تاريـخ الجزائر في العالم القديـم والحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيـع، الجزائر، (دط، 2010م).

102. **الميمني عبد العزيـز، شرح العمدة لابن رشيق، المطبعة السلفية القاهرة مصر، 1343هـ**

103. **نبـوي عبد العزيز، محاضرات في الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م**

104. **النَّقيـر محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، المطبعة التونسية تونس (دط ،1351هـ) .**

105. **النيفـر محمد توفيق، الحياة الأدبية بافريقية في العهد الفاطمي، سلسلة أطروحات، مركز النشر الجامعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، سنة 2004م .**

106. **صدقة إبراهيـم ، النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي ، دار عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، (ط1،2011م) .**

– ضيـف شوقـي :

107. **تاريـخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، (الجزائر، المغرب الأقصى، موريطانيا، السودان) دار المعارف القاهرة. (دط، دت).**

108. **الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف القاهرة ، مكتبة الدراسات الأدبية، (ط11. دت)**

109. **عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن، (ط2، 2006م) .**

110. **عتيـق عبد العزيز ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت (ط4، 1986م) .**

111. **الكعـاك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تحقيـق ومراجعـة، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت، (ط1، 2003م) .**

112. **عليان عبد الرحيم مصطفى، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط1، 1984م،**

113. **العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية بيروت لبنان (ط1، دت) .**

114. **عويـس عبد الحليم، دولة بني حمـاد، صفحة رائعـة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، (ط1، 1980م) .**

115. **غـلاب عبد الكريم ، قراءة جديـدة في تاريخ المغرب العربي، دار الغرب الإسلامـي بيروت، (ط1، 2005م) .**

116. **فــرّوخ** عمر،تاريخ الأدب العربي، (الأدب بالمغرب والأندلس)، دار العلـم للملايين، بيروت لبنان، 1982م .

117. **فيــلالي** عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، (دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية)، المؤسسة الوطنية للفنـون المطبعيـة الجزائر، 2002م

118. **– قليـقلة** عبده عبد العزيـز :

119. البلاط الأدبي للمعز بن باديس ـ (دراسة تاريخية أدبية ونقدية، دار الفكر العربي القاهرة، سنة ، (ط2، 1992م) .

120. النقـد الأدبـي في المغرب العربـي، مكتبـة الأنجلـو المصرية القـاهـرة، (دط، 1973م) .

121. **سعد زغلول** عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف الإسكندرية، (دط،1973م) .

122. **سعدي**، عثمان الجزائر في التاريـخ، دار الأمـة للطباعة والنشر والتوزيـع، الجزائر، (ط1، 2013م.

123. **السيد سالم** عبد العزيز ، تاريخ المغرب الكبير ـ العصر الاسلامي ـ دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت. (ط1، 1981م).

124. **السمرائي** خليل إبراهيم، تاريخ المغرب العربي، دار المدار الإسلامي،ط، 2004م.

125. **الشاوش** محمد بن رمضان، باقة السّوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر سنة 1995م.

126. **الشامي** عبد المالك ، النقد الأدبي في الأندلس بين النظرية والمصطلح، المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربيـة والشرق أوسطية، فاس المغرب، 2017م.

127. **شادي** محمد إبراهيم، ثنائيات النقد العربي، دار اليقين للنشر والتوزيع، المنصورة مصر، ط1، 2016م .

شريط عبد الله ، وأبو القاسم محمد كرو :

128. تـاريخ الثقـافة والأدب بالمشرق والمغرب، المؤسسة الوطنيـة للكتاب الجزائر، (ط3، 1983م) ..

129. **شقور** عبد السلام، القاضي عياض الأديب، دار الفكر المغربي، المغرب،ط1، 1983م

130. **الشـايب** أحمد، أصـول النقد الأدبـي، مكتبة النهضـة المصـرية ، القاهرة، (ط10، 1994م).

131. **يــزن** أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، (دط، 1986م.) .

132. **ياغــي عبد الرحمان، حيـاة القيروان وموقف ابن رشيق منها، دار الثقافة بيروت،(ط1، 1961م)** .

المراجـــع المترجمــة :

133. **بروكلمـان،** كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف القاهرة، (ط5، 1961م) .

134. **البـويحـي** الشاذلي، الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زير، ترجمة: محمد العربي عبد الرزاق، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ، بيت الحكمة، تونس .

135. **مارسيـه** جورج، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق في العصور الوسطى، ترجمة ومراجعة ،محمود عبد الصمد هيكل، ومصطفى أبو الضيف أحمد، منشأة المعارف بالاسكندرية ، مصر، 1991م .

الدواويــن الشعريـــة:

136. **الأعشـى،** ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، شرح محمد حسين ، مكتبة الآداب مصر، (دط، دت) .

137. **البحتـري ـ أبو عبادة الطائي، الديوان، شرح حنا الفاخوري، دار الجيل بيروت ، (ط1، 1995م)** .

138. **أبو تمـام ـ** حبيب بن أوس، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1987م

139. **ابن حـزم الأندلسي،** الديوان، جمع وتحقيق، د.صبحى رشاد عبد الكريم، الناشر: دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، د.ت.

140. **الحطيئـة، ديوان الحطيئة، شرح حمدو طماس، دار المعرفة لبنان، (ط2 ،2005م)** .

141. **جـريـــر،** شرح ديوان جرير، إيليا الحاوي ، دار بيروت للطباعة والنشر لبنان، دط 1986م.

142. **ابن خفاجة،** الديوان، تحقيق: السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف الإسكندرية، دط، 1960م

143. **ابن رشـيق، الديوان، شرح وتعليق: صلاح الدين الهواري، وهدى عوده، دار الجيل بيروت، (ط1، 1996م)** .

144. **كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية لبنان، (دط، 1997م) .**

145. **النابغـة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم، عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية لبنان، (ط3، 1996م) .**

146. **أبو نواس ـ الحسن بن هانئ ، الديوان. تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان ، (دط، دت) .**

147. **الفـرزدق، ديوان الفرزدق شرح وتعليق علي فاعور، دار العلم للملايين لبنان (ط1، 1987م) .**

148. **امرؤ القيس،الديوان، ضبط وتصحيح: مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية لبنان، (ط5، 2000م) .**

149. **سبيتـي مصطفى، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي،دار الكتب العلمية بيروت لبنـان، (ط3، 2000م) .**

150. **ابن شـرف القيرواني، الديوان، تحقيق حسن ذكرى حسن، دار مكتبة الكليات الازهرية القاهرة، (دط. دت) .**

151. **الشيبـاني، أبو زكريا، شرح المعلقات العشر المذهبات، ضبط وشرح ، عمر فاروق الطباع، دار الأرقـم بن أبي الأرقـم للطباعـة والنشر والتوزيـع، بيروت لبنان ، دت .**

152. **ابن هانئ ـ أبو القاسم الأندلسي، الديوان ، تحقيق: محمد اليعـلاوي، دار الغرب الإسلامي بيروت، (ط1، 1994م) .**

الرسائل المخطـوطـة :

153. **إبـراهيم عبـد النـور، اتجاهـات النقـد فـي المغـرب العربـي بـين القـرن الرابـع والثـامن الهجريين، مخطوط دكتوراه جامعة وهران 2009م .**

– بـوقربـة الشيـخ

154. **منهج النقـد الأدبـي عنـد ابـن رشـيق القيروانـي، مخطـوط ماجسـتير، جامعـة دمشـق، كليـة الآداب 1987م .**

155. مفهوم الشعر في التراث النقدي المغاربي، من القرن الخامس إلى القرن الثامن للهجرة، مخطوط دكتوراه، جامعـة وهـران، 2000م .

156. ترشــاق سُعاد، النقد المغربي القديم بين التنظير والتطبيق ـ (دراسة في تطور النقد المغربي القديم من القرن الخامس حتى السابع الهجري)، مخطوط دكتوراه ،جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 2015/2014م .

157. كـلاَّع رشيـدة، النقد المغربي القديم في ضوء نظرية النص من خلال كتابي العمدة ومنهج البلغاء، مخطوط دكتوراه، جامعة أحمد منتوري ، قسنطينة ، 2014/2013م .

158. لوناسـة لبنى، النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنين السابع والثامن الهجريين، مخطوط ماجستير،جامعة الحاج لخضر باتنة، موسم 2014/2013م .

159. مغشيـش عبد المالك ، النثر المغربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، (دراسة تأصيلية فنية) مخطوط دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2015/2014م .

160. الصيـقل محمد بن سليمان، البحث البلاغي والنقدي في كتاب العمدة لابن رشيق، مخطوط ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، الرياض، السعودية، 1405هـ .

161. سهـالي عامر، قضايا النقد الأدبي في كتاب زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري، مخطوط ماجستير جامعة وهران، 2009م .

162. شريـط عبد القادر، فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم حتى نهاية القرن الخامس الهجري، مخطوط ماجستير، جامعة الحاج لخضر باتنـة، الجزائر،2006/2005م .

163. يحيـاوي حفيظة، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي، مخطوط دكتوراه، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر في القرنين الرابع والخامس الهجريين، 2011م

المعاجم والقواميـس :

164. الزبيـدي ـ محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، وزارة الإرشاد والأنباء الكويت، مطبعة حكومية، 1965م .

165. ابن منظور ـ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي بيروت. (دت، دط) .

166. الفيروز أبادي ـ مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (دط، دت) .

الدَّوريــات والمجلات :

167. **تلمسـان** الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، عدد خاص، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، بعنوان: تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، أعمال ملتقى دولي بتلمسان، أكتوبر2011م.

168. **حاجيات** عبد الحميد، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مقال علمي،الأصالة، مجلة ثقافية شهرية تصدرها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، عدد خاص، بمناسبة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، سنة 2011م

169. **حرشــاوي جمال**، تأثُّر النقد اللغوي بالثقافة المشرقية ، /قال علمي، مجلة اللغة والاتصال ، مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، العدد10/9 نوفمبر 2011م .

170. **كسَّـاس** صفية، نظام التدريس والمراكز العلمية بالمغرب العربي ، مقال علمي بعنوان: مجلة اللغة والاتصال. مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، (العدد: 10/9)، نوفمبر 2011م.

171. **فلكـاوي** رشيد ، مساهمة علماء دولة بني حماد في نشر اللغة العربية، مقال علمي، مجلة اللغة والاتصال، مختبر اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران، العدد10/9 نوفمبر 2011م.

172. **فيـلالي** عبد العزيز، التبادل العلمي بين المشرق والمغرب،مقال علمي، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، ج/2، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011م .

173. **قرقـزان** محمد، قراءة نقدية جديدة لكتاب العمدة لابن رشيق، مقال علمي، مجلة التراث المغربي والأندلسي - (التوثيق والقراءة) ، جامعة عبد الملك السعدي، تيـطوان، المغرب ، آفريل 1991م.

174. **ساعـي** إدريس، علم البلاغة في الموروث النقـدي المغربـي (العمدة أنموذجا)، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة الجزائر، العدد: 09 ، ديسمبر 2015م .

175. **شريـط** عبد القادر، الاتجاهات الفنية في الأدب المغربي القديم، مقال علمي، مجلة العلوم الإنسانية (عدد33) ، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، جانفي 2011م .

176. **شريـط رابح**، مقاربة التَّنـاص في النقد العربي القديم، مقال علمي بمجلة المعيار في الآداب والعلوم الإنسانية والأجتماعية والثقافية ، دوريَّـة محكمة ، يصدرها المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت، العدد:13، جوان 2016م

177. **شويـّط** عبد العزيز، ابن رشيق المسيلي شاعرا وناقدا ، مداخلة علمية مفدّمة في الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري ،أيام : (21 ـ 22، ماي، 2006م)، جامعة المسيلة، الجزائر.

المواقـع الإلكترونيـة :

178. المنصـور عبـد المالـك ، مقالـة علـى الانترنـت بعنـوان: القيــروان ، مؤسسـة المنصـور الثقافيـة .

179. الغـرافـي مصطفى، الأدب المغربي وعقدة المشرق، مقالة على الأنترنت، موقع: ديوان العرب، منبر حر للثقافة والفكر والأدب، 19/01/ 2014م .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمــة .... أ

مدخل تمهيدي

الحركة الفكرية والثقافية وتجلّياتها بالحواضر المغربية القديمة

توطئــة 01
1 - المغرب العربي القديم ماهيته وامتداداته 04
2 - حاضرة القيروان العاصمة الأولى للفتح الإسلامي ببلاد المغرب 08
2-1- . الحياة العلمية والأدبية بالقيروان 10
3- مدينة تونس بلاد المرابطة والجهاد وجامع الزيتونة 13
4- حاضرة تيـهرت عاصمة الرستميين مسيرة وتاريخ 15
4-1- الإسهامات العلمية والأدبية للحاضرة الرستمية 16
5- حاضرة فاس مدينة العلم والتراث .... 18.
6- حاضرة طرابلس ومساهمتها العلمية والأدبية بالإقليم المغربي 20
7- مدينة المهدية عاصمة الدّولة العبيدية 21
8- حاضرة بجاية الحمادية والتأسيس لتفرّد البربر بحكم بلاد المغرب 22
9- حاضرة تلمسـان وإسهـاماتـها العلميـة والأدبيـة 25
10- إسهامات الحواضر العلمية المغربية الكبرى في الازدهار العلمي والأدبي 26
10-1-العوامل التي رفدت العلم وأسهمت في الازدهار الأدبي والرقي الفكري 29

الفصل الأول

التأصيل لجذور الأدب والنقد بالمغرب العربي القديم

1- النقــد الأدبي المفهـــوم والمصـــطلح .... 32،
1-1- النقد الأدبي بين الموهبة والاكتساب 36
2- عوامل انتشار الثقـافة العربيـة، وتعـرّب أهـل المغرب 39
2-1- عوامل وأسباب انتشار اللغة العربية بالمغرب العربي 43

2-2- دور الخلفاء والقادة في خدمة العربية بالبلاد المغاربية.....43
2-3- جهود الدويلات الإقليمية المنتشرة في بلاد المغرب في بعث العربية وانتشارها.....44
2-4- شخصيات ثقافية وعلمية وأدبية مغربية أبدعت باللغة العربية.....47
3 - منطلقات الأدب وبدايات تشكُّل المعرفة بالمغرب العربي..... 53
4 - الحركة العلمية والأدبية وتمظهراتها بالمغرب العربي حتى القرن الخامس الهجري.....57
5- عوامل وأسباب تأخّر الحركة الأدبية والنقديّة بالمغرب العربي..... 61
6- دور الأمراء والخلفاء والقادة في تشجيع الحركة الأدبية والشعرية ببلاد المغرب العربي..... 64
6-1- الأمراء العبيديون وتشجيعهم لحركة الشعر والأدب..... 65
6-2- تطور الأدب في العصر الزيري الصنهاجي.....67
6-3- رعاية الحماديين لحركة الأدب والشعر.....72
7 ـ النقد المغربي القديم توجّهاته وروافده 73

الفصل الثاني

تطور البحث النقدي وازدهاره بالمغرب العربي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين

1 ـ *جذور الأصالة وباكورة الكتابة في النقد المغربي القديم*.....*81*
2- ـ *التيارات الأدبية المشرقية وتأثيراتها* في الأدب والنقد المغربي..... 88
2-1- مدى تأثّر الأدباء والشعراء المغاربة بالتراث الأدبي المشرقي.....89
2-2- نماذج وأمثلة تطبيقيّة تجسّد مدى عمق التأثير المشرقي في المخيال المغربي.....91
3- مظاهر التفاعل الثقافي والأدبي بين المشرق والمغرب..... 95
3-1- بدايات تشكّل الشخصية العلمية المغربية.....99
4- الكتابات الأدبية والنقدية بالمغرب العربي في القرنين الرابع والخامس الهجريين..... 100
5- أهم وأشهر الكتابات النقدية المغربية القديمة..... 102
5-1- كتاب الممتع في صناعة الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي.....103
5-2- كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة لأبي عبد الله القزاز القيرواني.....104
5-3- كتاب زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري.....108
5-4- كتاب مسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني.....111
5-5- كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق..... 113
5-6- كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق.....118

5-7- كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيرواني للحسن ابن رشيق.....120
6-قراءة في الموروث النقدي والإنتاج الأدبي لنقاد المغرب العربي.....123

7-المنهج النقدي لدى النقاد المغاربة القدامى..... 128
7-1- الحصري ومنهجه النقدي.....129
7-2- ابن رشيق ومنهجه النقدي.....131
7-3- لقزاز القيرواني ومنهجه النقدي.....132
7-4- المنهج النقدي لابن شرف القيرواني..... .133

الفصل الثالث

القضايا النقدية في ميزان النقد المغربي القديم

تمهيد.....137
1- نظرية الشعر وبنيته في تفكير النقاد المغاربة القدامى.....138
1-1- الشعر وبنيته عند الحسن ابن رشيق.....139
1-2- الحصري ومفهوم الشعر.....141
1-3- النهشلي في تعريفه للشعر.....142
1-4- محمد بن شرف ومفهوم الشعر.....144
1-5- الشعر ومفهومه عند القزاز القيرواني..... 145
2- عوامل وبواعث الإبداع الفني والشعري عند الأدباء والنقاد القدامى.....146
2-1- فكرة الإلهام وشيطان الشعر عند القدماء.....147
2-2- النقاد العرب وتطور فكرة الإلهام والإبداع الشعري.....149
2-3- النقاد المغاربة وبواعث النظم الشعري.....154
3- أهم القضايا النقدية التي ناقشها وتعرض لها النقاد المغاربة القدامى.....156
3-1- اللفظ والمعنى في التفكير النقدي القديم.....157
3-2- اللفظ والمعنى عند النقاد المغاربة.....159
3- 3 ـ قضيّة الطبع والصنعة 161
3-4- الطبع والصنعة لدى النقاد المغاربة.....164

3-5- القِدمُ والحداثة أو القديم والجديد.....169
3-6- السرقات الشعرية والأخذ الأدبي.....176
3-7- نقاد المغرب العربي والسرقات الأدبية.....180

الفصل الرابع

المنجز النقدي المغربي القديم في رؤى النقاد المحدثين

1- التراث النقدي المغربي بعيون النقاد القدامى في المشرق والمغرب.....193
2- النقاد المغاربة القدامى في ميزان النقد الحديث..... 196
2-1- النقاد المحدثون وابن رشيق القيرواني.....196
2-2- النقاد المحدثون وعبد الكريم النهشلي.....207
2-3- النقاد المحدثون وابن شرف القيرواني.....208
2-4- الحُصري القيرواني والنقاد المحدثون.....210
2-5- القزاز القيرواني والنقاد المحدثون.....212
3 ـ مدى تأثير النقاد المغاربة فيمن جاء بعدهم من الأدباء والدارسين.....213
4- المنجز النقدي التطبيقي للنقاد المغاربة القدامى في رؤى النقاد المحدثين..... 215
4-1- الحسن ابن رشيق والنقد التطبيقي..... 216
4-2- الحصري والنقد التطبيقي..... 219
4-3- القزاز القيرواني والنقد التطبيقي.....220
4-4-ابن شرف القيرواني والنقد التطبيقي..... 223.
5 - الأدباء والمفكرون المغاربة ومرحلة إثبات الذات.....226
5-1- الرفض المغربي للتقليد المشرقي...../.....233
6- مدى الاستقلالية والخصوصية في تفكير وإبداع النقاد المغاربة القدامى.....238
6-1- افتراء مشرقي.....239
6-2- المغاربة وردّ الفعل.....240
7- ثورة ابن مضاء اللغوية والنحوية..... 249
8- هل ثمّة فعلا خصوصية مغربية؟.....250
خاتمــة..... 254
مكتبة البحث.....261
فهرس الموضوعات..... 276

الملخـــص

يتناول هذا العمل البحثي بالدراسة والتحليل والمتابعة والتمثيل، النقد الأدبي المغربي القديم في القرنين الرابع والخامس الهجريين ـ دراسة في رؤى النقاد المحدثين ـ وكانت الفكرة الأساسية التي حركت الفاعلية وبثَّت الحيوية في هذا البحث هي الوقوف على مدى الأصالة في الفعل النقدي لدى الأدباء والنقاد المغاربة القدامى، من خلال التطرق لأهم الشخصيات النقدية التي كان لها حُضورها المميَّز في المشهدين الأدبي والنقدي بالمغرب العربي .

كما عقدت مقارنة نقدية للنظر بمدى تأثّر الثقافة والأدب بالأفق المغربي بنظيره ببلاد المشرق، مع تبيان مدى الاستقلالية والخصوصية المغربية في التناول والطرح والمناقشة لأهم المسائل والقضايا التي طرحها النقد العربي عبر مسيرته الطويلة .

الكلمات المفتاحية : النقد الأدبي ـ المغرب العربي ـ الرُّؤى النقدية ـ النقاد المحدثون ـ النقد المغربي القديم .

Summary

This research has been conducted throuhg analysis and illustration, it tackles the ancient literary maghrebian critique by the fourth and the fifth hijrie centuries (with consideration to contemporary critics views), close attention was paid to what extent originality is involved in the critical works of the maghrebian critics and authors, the latter has been dealt with through highlighting the cardinal figures who were strongly present in both literary and critical scenes that took place in the ancient Maghreb .

Moreover, I made a critical comparisson between the maghrebian and the oriental cultur and literature to investigate their impact on one another, also to illuminate the Maghrebian independence and privacy in treating, introducing and cogitating the most significant matters and situations declared by the Arabic critique along its long journey.

Key words : the literary critique – the Arab Maghreb – the critical visions – modern critics – the ancient maghrebian critique .

Resume

Ce travail de recherche basé sur l'étude ,l'analyse ,le suivi et la représentation porte sur l'ancienne critique littéraire maghrébine durant les quatriéme et cinquieme siécle de l'hégire aux yeux des critique modernes. l'idée principale qui a remué la vivacité et procuré un certain dynamisme dans cette recherche , fut le fait de fixer le degré d'authenticité dans le travail de critique chez les anciens littéraires et critiques maghrébins .

Il conviendrait donc de se pencher sur les personnalités de critique dont la présence au niveau des deux tableaux culturel et littéraire au niveau du maghreb arabe est remarquable aussi ai–je décidé de faire une comparaison de critique en vue de déterminer l'ampleur de l'influence culturelle et littéraire des pays du machrek ,orient arabe, exercée sur l'horizon du maghreb , avec l'affichage de l'intensité de l'indépendance et de la spécificité maghrébine dans l'abordage , l'exposition et le débat des questionset des affaires que la critique littéraire à montrée à travers son parcours .

Mots clés : la critique littéraire – le maghreb arabe– les idées critiques – les critiques modern
es – la critique maghrébine ancienne .